



تاريخ أوروبا وحضارتها في العصور الوسطى



السنة الثانية

منشورات جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ أوروبا وحضارتها في العصور الوسطى

تأليف

الدكتور

وضاح حسين نوفل

مدرس في قسم التاريخ

الدكتور

غطاس سليمان نعمة

أستاذ مساعد في قسم التاريخ

1437-1438 هـ

2016-2017 م

جامعة دمشق



المحتويات

5	المحتويات
23	مقدمة:
27	تمهيد
27	الإمبراطورية الرومانية: (أوج القوة وأسباب الانهيار)
30	أسباب أزمة القرن الثالث
30	1 - الاضطرابات العسكرية والفوضى السياسية:
31	2 - الأخطار والتهديدات الخارجية:
31	3 - المشاكل الاقتصادية:
33	الفصل الأول
33	مدخل إلى العصور الوسطى في أوروبا
33	العصور الوسطى: البداية و النهاية
35	المتغيرات في القرنين الرابع و الخامس
35	1 - تطور الفكر و العقيدة:
36	2 - المتغيرات السياسية:
37	3 - المتغيرات الاقتصادية و الاجتماعية:

38	المتغيرات في القرنين الخامس عشر و السادس عشر
38	1 - التطور الفكري:
40	2 - المتغيرات السياسية والكشوفات الجغرافية:
41	3 - المتغيرات الاجتماعية و الاقتصادية:
42	العصور الوسطى: المصطلح و المراحل:
45	الفصل الثاني
45	من هم البرابرة؟ هجراتهم و تشكل ممالكهم على أراضي الإمبراطورية الرومانية
45	البرابرة :
45	الجرمان:
51	الكلت:
52	الهون:
54	السلاف:
55	هجرات البرابرة و تشكل ممالكهم:
55	مملكة القوط الغربيين:
56	كارثة أدرنة 378م و احتلال روما 410م من قبل القوط الغربيين:
62	مملكة الفاندال و الألان:
65	مملكة البرجنديين:
67	نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية على أيدي البرابرة:

69	مملكة القوط الشرقيين:
73	مملكة اللومبارديين:
77	ممالك الأنغلو ساكسون:
79	مملكة الفرنجة:
81	الفصل الثالث
81	مملكة الفرنجة في غاليا
81	مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الميروفنجية:
81	نشوء مملكة الفرنجة:
82	الملك المؤسس كلوفس الأول:
84	مملكة الفرنجة بعد كلوفس:
84	أولاً: مملكة الفرنجة في فترة القوة والتوسع:
87	ثانياً: فترة الانحطاط وحكم الملوك الكسالي:
89	انتقال الملك من الأسرة الميروفنجية إلى الأسرة الكارولنجية:
91	مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الكارولنجية:
93	مملكة الفرنجة في عهد شارلمان (شارل الكبير) 768 - 814م
93	1 - شارلمان ملكاً وحيداً على الفرنجة:
96	2 - حروب شارلمان مع الساكسون:
98	خضوع بافاريا لسلطة شارلمان:

100	شارلمان و الأفار:.....
101	شارلمان و شعب الغريز:.....
102	شارلمان و المسلمون في أسبانيا:.....
106	شارلمان و البابا ليو الثالث (795-816)م:.....
108	تتويج شارلمان إمبراطوراً:.....
111	نتائج تتويج شارلمان إمبراطوراً:.....
112	موقف بيزنطة من تتويج شارلمان:.....
117	علاقة شارلمان مع هارون الرشيد:.....
118	شارلمان بعد التتويج و حتى نهاية حكمه:.....
121	إنجازات شارلمان وإصلاحاته:.....
124	خلفاء شارلمان و تفكك الإمبراطورية الفرنجية:.....
128	معاهدة فردان 843م:.....
130	النظام الإداري والسياسي في عهد الأسرة الكارولنجية:.....
133	الفصل الرابع.....
	الممالك الفرنجية الثلاث من معاهدة فردان 843 و حتى نهاية الأسرة
133	الكارولنجية.....
133	تقسيم مملكة لوثر الأول (المملكة الوسطى):.....
134	مملكة شارل الأصلع (المملكة الغربية).....

136	 مملكة لويس الألماني (المملكة الشرقية)
138	 زوال العصر الكارولنجي في المملكة الشرقية (ألمانيا)
138	 ألمانيا في عهد شارل السمين و أرنولف
140	 ألمانيا في عهد لويس الطفل (899-911)
141	 الملك كونراد الأول (911-918)
142	 زوال العصر الكارولنجي من المملكة الغربية (فرنسا)
142	1 - الصراع على السلطة بين أودو (كونت باريس) و شارل البسيط: ...
145	2 - نشوء دوقية نورمانديا في غرب فرنسا:
146	3 - تجديد النزاع على العرش الفرنسي بين الأسرة الكارولنجية و الأسرة الكابية
147	 987 - 929
147	أ - لويس الرابع (لويس ما وراء البحر) 936 - 954
148	ب - الملك لوثر و ابنه لويس الخامس 954 - 987
150	 المملكة الوسطى (إيطاليا) من نهاية العصر الكارولنجي و حتى نشوء الإمبراطورية الرومانية المقدسة
150	 نشوء مملكة إيطاليا بموجب معاهدة فردان 843
151	 النزاع الداخلي على الحكم والتدخل الألماني في إيطاليا
154	 القواعد البيزنطية على الأراضي الإيطالية:
155	 غارات الشعوب المجاورة على إيطاليا

155	1 - غارات الهنغار على إيطاليا
156	ب - غارات العرب المسلمين على إيطاليا:
159	نشوء مملكة نورمانديا في جنوب إيطاليا في القرن الحادي عشر
165	الفصل الخامس
165	الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية الألمانية)
165	1 - إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد الأسرة الساكسونية 919 -
165	1024
165	أ - هنري الأول (الصياد) 919 - 936
168	سياسة هنري الغربية
169	سياسة هنري الشرقية و حروبه مع الهنغار
171	أوتو الأول (الكبير) 936 - 973
174	أوتو: بداية حكمه و مرحلة التجربة
178	التدخل الأول لأوتو في إيطاليا:
180	معركة ليشفيلد و انتصار أوتو الأول على الهنغار 955:
181	تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد أوتو الأول
186	سياسة أوتو الكبير مع الكنيسة و رجال الدين
187	أوتو الثاني (973-983)
187	1 - استلامه السلطة:

188	سياسة أوتو الثاني الداخلية و الخارجية:
192	أوتو الثالث (983 – 1002)
194	هنري الثاني (1002-1024):
196	سياسة هنري الثاني في إيطاليا
	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الأسرة السالية أو الفرانكونية (1024-
198	1056)
198	كونراد الثاني (1024-1039)
203	الإمبراطور هنري الثالث 1039 – 1056:
206	هنري الثالث و البابوية:
208	الإمبراطور هنري الرابع 1056 – 1106
213	الإمبراطور هنري الخامس 1106 – 1125
215	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد أسرة الهوهنشتاوفن
215	لوثر الثالث 1125 – 1137
217	الإمبراطور كونراد الثالث 1138 – 1152
218	الإمبراطور فريدريك بربروسا 1152 – 1190
219	تتويج فريدريك بربروسا إمبراطوراً في عام 1155
	أهم الأحداث في الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد تتويج فريدريك بربروسا
221	إمبراطوراً:

224	الإمبراطور هنري السادس 1190-1197
226	فريدريك الثاني (1197-1250)
226	انتخاب ملكين لألمانيا في عام 1198
228	فترة حكم الإمبراطور فريدريك الثاني 1212-1250
231	انتهاء فترة حكم أسرة الهوهنشتاوفن للإمبراطورية الرومانية المقدسة
232	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد أودولف 1292 - 1298
1308_1298	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد ألبرت الأول هابسبورغ
233	
	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الإمبراطور هنري السابع لكسمبورغ
235	1308-1313
236	تتويج هنري السابع إمبراطوراً
	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد لويس الرابع 1314-1347 و فريدريك
237	الجميل 1314 - 1330
237	انتخاب ملكين في وقت واحد
238	تتويج لويس إمبراطوراً
	الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الإمبراطور شارل الرابع لكسمبورغ
240	1346-1378

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد فريدرىك الثالث هابسبورغ 1439 -

1493	244
نشأة سويسرا:	246
نشأة الأراضي المنخفضة:	247
الفصل السادس	249
فرنسا في عهد الأسرة الكايبية	249
1 - انتقال الحكم من الأسرة الكارولنجية إلى الأسرة الكايبية:	249
2 - فرنسا في عهد الملوك الأربعة الأوائل من الأسرة الكايبية (هوغ كايبية، روبرت الثاني، هنري الأول، فيليب الأول) 987 - 1108:	251
3 - فرنسا في عهد الملك لويس السادس (1108 - 1137)	253
فرنسا في عهد الملك لويس السابع (1137-1180)	256
5 - فرنسا في عهد الملك فيليب أوغسطس 1180 - 1223	258
7 - فرنسا في عهد الملك لويس التاسع 1226 - 1270	266
8 - فرنسا في عهد الملك فيليب الثالث 1270 - 1285	270
9 - فرنسا في عهد الملك فيليب الرابع 1285 - 1314	271
نخاية الأسرة الكايبية عام 1328	274
الفصل السابع	277
إنكلترا (بريطانيا) من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر	277

1 - استيطان الأنغلوساكسون في إنكلترا و تأسيس الممالك الأنغلوساكسونية:	277
2 - النورمانديون أو الفيكينغ:	279
3 - غارات النورمانيين الدانيماركيين على إنكلترا في القرنين التاسع و العاشر	283
4 - احتلال الدنماركيين إنكلترا في النصف الأول من القرن الحادي عشر و تشكل الإمبراطورية الدانيماركية.....	286
احتلال إنكلترا من قبل غليوم الفاتح و تشكل المملكة الأنغلية-النورماندية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر.....	291
العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و النظم الإدارية في إنكلترا في عهد غليوم الفاتح	294
إنكلترا في القرن الثاني عشر	299
إنكلترا في عهد الملك هنري الأول 1100-1135.....	300
إنكلترا في عهد الملك هنري الثاني 1153-1189.....	302
إنكلترا في عهد الملك ريتشارد قلب الأسد 1189-1199.....	304
إنكلترا في القرن الثالث عشر	305
إنكلترا في عهد الملك يوحنا 1199-1216.....	305
إنكلترا في عهد الملك هنري الثالث 1216 - 1272.....	307
إنكلترا في عهد الملك إدوارد الأول 1272 - 1307.....	308
إنكلترا في القرن الرابع عشر:	310

312	إنكلترا في القرن الخامس عشر:
316	حرب المئة عام بين إنكلترا و فرنسا:
316	أسباب الحرب
318	مراحل الحرب:
319	جان دارك:
319	نتائج الحرب:
323	الفصل الثامن
323	الحروب الصليبية
324	أسباب الحروب الصليبية:
329	رحلات الحج الأوروبية إلى القدس قبل الحملات الصليبية
331	الأوضاع العامة في المشرق الإسلامي عشية الحروب الصليبية
334	أوضاع الإمبراطورية البيزنطية عشية الحروب الصليبية:
336	الحملة الصليبية الأولى:
338	1 - الحملة الشعبية أو حملات العامة
341	الحملة النظامية (حملة الأمراء):
347	أوضاع الإمارات الصليبية في المشرق و مملكة بيت المقدس
352	الحملة الصليبية الثانية:
357	اتحاد سورية و مصر و العراق في عهد صلاح الدين الأيوبي

359	الحملة الصليبية الثالثة.....
362	الحملة الصليبية الرابعة:
367	الإمبراطورية اللاتينية في بيزنطة 1204 – 1261
370	الحملة الصليبية الخامسة 1217 – 1221
372	الحملة الصليبية السادسة 1228 – 1229
375	الحملة الصليبية السابعة.....
378	الحملة الصليبية الثامنة:
379	عوامل انحسار الحركة الصليبية:.....
381	نتائج الحروب الصليبية:.....
381	من الناحية الاقتصادية:
382	من الناحية الاجتماعية و الحضارية:
384	من الناحية السياسية:.....
387	الفصل التاسع.....
387	الحياة الدينية في أوروبا العصور الوسطى.....
387	نشأة الديانة المسيحية، وانتشارها
387	-مجيء السيد المسيح:
388	تعاليم السيد المسيح
389	ما العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية، وانتصارها؟

391	قصة اضطهاد المسيحيين
394	الكنيسة، ومبادئها الأساسية
396	أسرار الكنيسة المسيحية:
397	الأخلاق المسيحية
398	الرهبانية والديرية
398	لماذا ظهرت الرهبنة في المسيحية؟
400	التنسك أساس الرهبنة:
402	أول ظهور للرهبانية والديرية المسيحية في مصر:
403	انتقال الرهبانية والديرية إلى سورية وآسيا الصغرى
406	الديرية والرهبانية في غاليا
407	الديرية والرهبانية في إيطاليا
409	البابا غريغوري الأول، ودور الأساس في تطوّر الأديرة- العصور الوسطى
410	حركة الإصلاح الكلوونية
413	نظام السترشيان الديرية
415	الديرية والرهبانية في أوروبا أواخر العصور الوسطى:
416	المذاهب الهرطقية
417	منظمة الفرنسيسكان والدومينيكان:
419	سليبات ومساوي الديرية، والرهبانية
420	إجبايات الديرية والرهبانية:

422	البابوية والكنيسة الأوروبية الغربية.
422	نشأة البابوية:
	- ما هي العوامل التي ساعدت على بروز زعامة البابوية على بقية بطريركيات
423	العالم المسيحي؟
424	موظفوا البابوية، وإداراتها:
425	- ما هي مصادر وإيرادات خزينة البابوية؟
427	- وضع البابوية أواخر العصور الوسطى:
	ما هي أسباب أزمات البابوية في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر؟
427	
428	- كيف بدأت أزمات البابوية؟
429	- نقل البابوية من روما إلى أفينون (1305-1377م).
429	- ما هي نتائج نقل البابوية من روما إلى أفينون؟
430	- الانشقاق البابوي الكبير (1378-1418م):
430	- ما هي سبلبات الانشقاق البابوي الكبير؟
431	- ما هي الجهود التي بذلت لعلاج الانشقاق البابوي الكبير؟
433	الفصل العاشر
433	الحياة الاقتصادية في أوروبا- العصور الوسطى
433	- تمهيد: الطبقات الأساسية للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى:
434	العلاقات الاقتصادية- الاجتماعية في الأرياف

- 434 (النظام الإقطاعي)
- 434 - تعريف النظام الإقطاعي:
- 435 - من أين أتت فكرة النظام الإقطاعي؟
- 436 - تطوّر مبدأ التبعية بعد شارلمان، ونحوّله إلى النظام الإقطاعي:
- 437 - النظام الإقطاعي من القرن العاشر إلى الثالث عشر:
- 438 - النظام الإقطاعي في إنكلترا:
- 440 - تسليم الإقطاع، وإغائه، وتوريثه:
- 441 - مسألة تعدّد السادة للتابع الواحد، وإشكالياتها:
- 442 - الحقوق والواجبات في النظام الإقطاعي:
- 445 طبقة الفرسان ونظام الفروسية:
- 446 - الجذور التاريخية لنظام الفروسية:
- 447 - واجبات الفارس الأخلاقية:
- 448 - عيوب الفروسية والفرسان:
- 448 - لباس الفرسان:
- 449 - سلاح الفرسان:
- 449 - المبارزة (duel):
- 452 - دور الكنيسة في حياة الفرسان وحروبهم، من خلال سلام الله، وهدنة الله:
- 452 1. سلام الله:

454	طبقة الفلاحين.....
459	العلاقات الاقتصادية- الاجتماعية في المدن.....
459	المدن- الصناعة - التجارة.....
460	- المدن الرومانية القديمة:.....
	- الدور السلبى لهجمات البرابرة الجرمانيين والفتوحات الإسلامية على اقتصاد
461	المدن الأوروبية(الرومانية) في ضوء نظرية المؤرخ البلجيكي "هنري بيرين": ..
464	التقويمونات.....
466	النقابات.....
468	طرق النقل التجارية المستخدمة في أوروبا العصور الوسطى.....
471	الأسواق.....
472	المصارف.....
474	العصبة الهانزية.....
	التطور الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا(في الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى)
476	
476	- تطور الزراعة:.....
476	- نشوء الصناعة وانفصالها عن الزراعة:.....
477	- نشوء المدن الصناعية والتجارية:
478	- المحلات الصناعية:.....
479	- النقابات الصناعية والتجارية:.....

479	- صراع المدن مع الإقطاعيين:
480	- صراع النقابات مع السلطات الجديدة الحاكمة في المدينة:
481	الاستكشافات الجغرافية في أواخر العصور الوسطى
481	- انعدام التقدم العلمي في العصور الوسطى:
481	- نمو المعلومات الجغرافية في أواخر العصور الوسطى:
482	- العلاقات القديمة بين أوروبا والشرق الأقصى:
482	- الطواف حول إفريقيا، ووصول الأوروبيين إلى الهند والصين:
485	المصادر والمراجع العربية
491	المصادر والمراجع الأجنبية
499	خرائط وصور
500	غزو الإمبراطورية الرومانية من قبل البرابرة
501	شارلمان الكبير
502	مسير شارلمان للتويج في عام 800
503	تتويج شارلمان إمبراطورا في روما من قبل البابا
504	إمبراطورية شارلمان
505	تقسيم الامبراطورية الكارولنجية بموجب معاهدة فردان 843م
506	العصبة الحانزية
507	وثيقة (كتيب) المرسوم الذهبي

- 508 سير الحملات الصليبية الأربعة الأولى بالتفصيل
- 509 الإمارات الصليبية في المشرق



مقدمة:

تعد دراسة تاريخ أوروبا وحضارتها في العصور الوسطى اللبنة الأساسية، والحلقة الأهم في سلسلة دراسة تاريخ أوروبا بشكل عام. فمن دون دراسة هذه الفترة من تاريخ أوروبا وفهمها بشكل جيد يصعب على الباحث فهم الحقبة التالية من تاريخ أوروبا وهي حقبة التاريخ الحديث وبعده المعاصر.

تتالت أحداث مهمة في القرنين الرابع والخامس الميلاديين وشكلت مفصلاً مهماً في تاريخ أوروبا، فمنذ اعتراف قسطنطين الكبير بالديانة المسيحية في عام 313م وبعدها بنائه للقسطنطينية في عام 330م بدأت ملامح التغيير تقض مضجع الإمبراطورية الرومانية، ليظهر ذلك جلياً في تقسيم الإمبراطورية في عام 395م إلى قسمين أو إمبراطوريتين: قسم شرقي عاصمته القسطنطينية وقسم غربي عاصمته روما، ليأتي بعد ذلك البرابرة ليطلقوا رصاصه الرحمة على الإمبراطورية الغربية في عام 476م ويزيحوها آخر إمبراطور روماني عن عرشه في روما.

أدت هذه الأحداث إلى تغيير وجه أوروبا فتلاشت الإمبراطورية الرومانية وحلت على أجزاء كبيرة من أراضيها ممالك بربرية وجرمانية متعددة مثل القوط الشرقيين والقوط الغربيين ومملكة البرجنديين ومملكة الألان والوندال في إفريقيا ومملكة اللومبارديين، وأهم الممالك التي تشكلت على أراضي الإمبراطورية كانت مملكة الفرنجة في غاليا (فرنسا) لتصل هذه المملكة إلى أوج قوتها في عهد الإمبراطور شارلمان الكبير الذي توج إمبراطوراً في عام 800م وبنى مملكة قوية

ونسج علاقة مهمة مع البابوية ليكسب الشرعية وتواصل مع الخليفة العباسي هارون الرشيد وتبادل الوفود والهدايا معه.

تفتت إمبراطورية شارلمان بعد أن قسمها هو بين أولاده، وبعد أن قام ولده لويس الثاني من بعده بتقسيمها بين أولاده، وشكلت معاهدة فردان في عام 843م بين أولاد لويس الثاني نهاية رسمية للإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية لينزغ بعدها ثلاث دول في المستقبل القريب وهي: فرنسا، ألمانيا، إيطاليا.

لم تبق أوروبا الغربية طويلاً بدون إمبراطور؛ ففي عام 962م نشأت إمبراطورية جديدة أطلق عليها المؤرخون اسم "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" وأضيفت إلى اسمها لاحقة "للأمة الألمانية" في بداية العصور الحديثة، واستمرت هذه الإمبراطورية على قيد الحياة حتى قضى عليها نابليون بونابرت في عام 1806م. وكانت أهم بلدان هذه الإمبراطورية ألمانيا وإيطاليا والعديد من الإمارات والمقاطعات الخاضعة لها.

أما إنكلترة فقد احتلها غليوم، وهو حاكم دوقية نورمانديا في فرنسا، في عام 1066م ونصب نفسه ملكاً عليها، ومع الوقت تسبب امتلاك ملوك إنكلترة لدوقية نورمانديا في فرنسا باندلاع ماعرف بحرب المائة عام بين إنكلترة وفرنسا في عام 1337م ولم تنته هذه الحرب حتى عام 1453م بخسارة إنكلترة لممتلكاتها في فرنسا. وفي نفس هذا العام بالضبط سقطت القسطنطينية بيد السلطان العثماني محمد الفاتح. وبعد حوالي أربعين عاماً تم اكتشاف أمريكا على يد كريستوف كولومبوس. هذه الأحداث ستفرض نفسها على التاريخ لتعلن ولادة عصر جديد في أوروبا وهو عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي ليكون فاتحة للعصور الحديثة.

ما ننتظره من هذا العمل أن يمثل عرضاً لأهم الأحداث السياسية والتطورات الحضارية (اقتصادية، اجتماعية، دينية) التي عاشتها أوروبا في العصور الوسطى.

لابد من الإشارة إلى أننا اعتمدنا في هذا الكتاب على مصادر ومراجع عديدة وبلغات متنوعة (الألمانية، الإنكليزية، الروسية، العربية والمعرية) ولاسيما باللغة الألمانية ليكون بذلك أول كتاب عن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى صادر باللغة العربية يعتمد على هذا الكم الكبير والنوعي من المصادر والمراجع الألمانية.

بقي أن ننوه أن هذا الكتاب يتألف من تمهيد وعشرة فصول، قام الدكتور وضاح نوفل بكتابة التمهيد والثمانية الفصول الأولى، و قام الدكتور غطاس نعمة بكتابة الفصلين التاسع والعاشر. ونأمل من هذا الكتاب الجامعي أن يحقق الأهداف المرجوة منه، ويحقق الفائدة للطلاب وللباحثين المهتمين بالتاريخ.



الإمبراطورية الرومانية: (أوج القوة وأسباب الانهيار)

قبل البداية في الحديث عن أوروبا في العصور الوسطى لابد من إيجاز أوضاع الإمبراطورية الرومانية في أوج عظمتها و ذكر أسباب تفتتها، لأن الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ليست إلا مزيجاً من الحضارة الرومانية من جهة و حضارة الشعوب البربرية التي عبرت حدود الإمبراطورية الرومانية و استوطنت على أراضيها و تعايشت مع أهلها من جهة أخرى¹.

اتسعت حدود الإمبراطورية الرومانية شيئاً فشيئاً و لتصل إلى أقصى اتساع لها في القرن الثاني الميلادي حيث شملت مناطق واسعة جداً ممتدة من نهر الفرات شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً و من المناطق الصحراوية بشمال إفريقيا جنوباً حتى نهر الدانوب و اسكتلندا شمالاً فشكلت الإمبراطورية الرومانية أعظم وحدة حضارية عرفها التاريخ². حيث لم تبلغ أي إمبراطورية أخرى ما بلغته الإمبراطورية الرومانية من قوة و انتشار بالإضافة إلى ذلك فإنها ضمت داخل حدودها كل مراكز الحضارات القديمة ما عدا فارس و الهند³.

أعظم مرحلة مرت بها الإمبراطورية الرومانية هي ما عرف بمرحلة (السلام الروماني) بين عامي 14-192 ميلادية و التي أرسى أسسها الإمبراطور

1 - عاشور، سعيد عبد الفتاح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 7.

2 - هيلستر، س. ورن: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الانغلو المصرية، بور سعيد 1988، ص 13.

3 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 7.

أوغسطس أوكتافيوس (27ق.م - 14م) بإعلانه مبادئ السلام الروماني التي أتاحت للمواطنين في الإمبراطورية و لمدة قرنين الأول و الثاني حياة آمنة ضامنة لهم الحرية و العدالة فاقتنع المواطنون بأن الإمبراطورية هي موطنهم و أنها نظام طبيعي لا يفتنى¹.

شكل البحر المتوسط، أو (بحرنا) كما أطلق عليه الرومان بفخر و اعتزاز، شريان المواصلات الرئيسي بين أقاليم الإمبراطورية الرومانية التي أحاطت به من كل الجهات. أما المناطق البعيدة عن مركز الإمبراطورية فخضعت للإدارة المركزية الحكومية بشكل منضبط بفضل شبكات الطرق البرية و الممرات المائية التي حظيت باعتراف الحكومة².

في الحقيقة لم يكن الرومان على مستوى غير مسبوق من الإبداع، لكنهم تفوقوا عندما تبنا أفضل الأفكار و النظم الحضارية التي انتشرت في عالم البحر المتوسط ثم صاغوها في حضارة عالمية رائعة تلائم واقعهم.

على الرغم من اتساع الإمبراطورية الرومانية الكبير في القرنين الأول و الثاني و احتوائها على مجموعات جنسية و لغوية و حضارية متباينة فيما بينها، إلا أنه سادت في الإمبراطورية الرومانية لغتان أساسيتان و هما اللغة اللاتينية في القسم الغربي و اليونانية في القسم الشرقي و هذا ما ضمن للإمبراطورية الوحدة

1 - فرح، نعيم: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط7، جامعة دمشق، 2007، ص 3.

2 - هليستر: أوروبا في العصور الوسطى، ص 13-14.

الثقافية حيث كان بإمكان أي فرد الانتقال إلى أي مكان على امتداد الإمبراطورية متحدتاً بهاتين اللغتين أو إحداهما¹.

كما تحققت للإمبراطورية الرومانية في مرحلة السلام الروماني الوحدة السياسية في ظل سلطة مركزية قوية تحكم سيطرتها على كافة أنحاء الإمبراطورية معتمدةً لأجل ذلك على جهاز إداري منظم و جيش قوي و مدرب. تربع على عرش الإمبراطورية إمبراطور مؤله ويحمل كل الصفات المقدسة و له الحكم المطلق جامعاً بيده كل السلطات (دينية، سياسية، عسكرية...) و يبقى على عرشه طوال حياته. أما من الناحية الاقتصادية فإن استخدام عملة واحدة (وهي الدينار الذهبي) و نظام موحد للأوزان و المقاييس في كافة أرجاء الإمبراطورية ضمن الوحدة الاقتصادية للإمبراطورية، عزز ذلك أيضاً دفع الضرائب إلى خزانة مركزية واحدة فقط، كما سهلت شبكة الطرق البرية و الممرات البحرية و المائية انسياب البضائع و التجار و ازدياد التكامل و التجانس في الإمبراطورية في فترة السلام الروماني².

شهدت فترة السلام الروماني ازدهاراً اقتصادياً و استقراراً سياسياً و تميزاً حضارياً و ثقافياً إلا أن هذا السلام لم يكتب له الاستمرار في القرن الثالث بل أملت بالإمبراطورية مخاطر كثيرة و تعرضت لانتكاسات كثيرة و على كافة الصعد و لذلك أطلق على الأحداث في القرن الثالث (أزمة القرن الثالث) و كان لهذه الأزمة أسباب و عوامل عديدة.

1 - كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية و النهاية، ج1، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط5، عين، النهرم 1997، ص 37.

2 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 4.

أسباب أزمة القرن الثالث

1 - الاضطرابات العسكرية والفوضى السياسية:

من أهم المشاكل التي كانت كامنة في النظام السياسي للإمبراطورية الرومانية أنه لم يكن هناك مبدأ محدد لطريقة ولاية العرش الإمبراطوري، حيث كان يتم تعيين الإمبراطور الجديد من قبل الإمبراطور السابق¹، و المشكلة الحقيقية كانت في انهيار هذا النظام في القرن الثالث و هذا ما تسبب بحدوث اضطرابات و نزاعات مسلحة لعب الجيش دوراً محورياً فيها، حيث أخذت كل فرقة في الجيش تحاول إيصال قائدها إلى العرش الإمبراطوري، فتحول الجيش من خادم للإمبراطورية إلى سيد عليها. هذا ويظهر جلياً ازدياد نفوذ العسكر في الإمبراطورية من خلال النصيحة التي قدمها الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (193-211) إلى أبنائه و هو على فراش الموت قائلاً (أجزلوا العطاء للجند، و لا تهتموا بالآخرين)².

استمر الجيش بالتدخل بشكل متزايد في شؤون الإمبراطورية داخلياً و في تعيين الأباطرة مما أدى إلى تفاقم الأزمة و عدم الاستقرار؛ فمن أصل 29 قيصرًا تولوا العرش الإمبراطوري بين عامي 235م - 284م مات قيصر واحد فقط ميتة طبيعية، كما حدث كثيراً أن حكم العديد من القياصرة في نفس الوقت³. ترتب على الاضطرابات العسكرية و تدخل الجيش في السياسة قيام حركات انفصالية قام بها

1 - كانتور: التاريخ الوسيط، ج1، ص40.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 13.

3 - Elze, Reinhard/ Repgen, Konrad: Ein europäische Weltgeschichte, Bd. 1, 3. Aufl, Stuttgart 1994, S. 284.

بعض حكام الأقاليم، هددت هذه الحركات وحدة الإمبراطورية مما دفع بعض الأباطرة إلى الفصل بين السلطة العسكرية و السلطة المدنية لدى حكام الأقاليم و تصغير حجم الوحدات الإدارية تفادياً لهذه الحركات.¹

2 - الأخطار والتهديدات الخارجية:

إلى جانب الاضطرابات الداخلية التي فتكت بالإمبراطورية الرومانية واجهت الإمبراطورية تهديدات خارجية عاصفة، أشرس أعداء الإمبراطورية كانوا الفرس و البرابرة. ففي عام 260م جرت معركة حاسمة قرب الرها بين الملك الفارسي شابور الأول و الإمبراطور الروماني فاليريانوس و انتهت بنصر واضح للملك الفارسي و أسر الملك الروماني. تابع الملك الفارسي شابور زحفه غرباً و احتل أنطاكية و طوروس و قيصرية. استمرت الحروب بين الفرس و الرومان حتى بداية القرن الرابع². التهديد الخارجي الأخطر للإمبراطورية جاء من الجبهة الغربية حيث شن البرابرة و الجرمانيون غارات قوية ضد الإمبراطورية التي عجزت عن الدفاع عن نفسها و وقف اندفاعهم في أراضيها.

3 - المشاكل الاقتصادية:

أدت الفوضى السياسية والاضطرابات العسكرية و التهديدات الخارجية إلى تسارع التدهور الاقتصادي في الإمبراطورية. فقد هجر الفلاحون أراضيهم إلى المدن نتيجة الضرائب الباهظة التي فرضت عليهم. أدت هذه الهجرة إلى قلة الإنتاج و ارتفاع النفقات. كما التهمت الحروب و المطالب الحكومية أموال الأغنياء. زاد الأمور سوءاً أن المعادن الثمينة أخذت بالنضوب تدريجياً بسبب

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 32.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 6.

تتناقص إنتاج المناجم من الذهب و الفضة و ضياع هذه المعادن في شراء الأشياء الكمالية و الفآخرة، فاضطرت الحكومة الإمبراطورية مراراً إلى خلط الذهب بالفضة و الفضة بالنحاس و النحاس بالرصاص لكي تستطيع دفع نفقات الدولة و توفير إعطيات الجند و مستلزمات الحروب التي لم تخدم نازها. هذا كله أدى إلى انخفاض قيمة العملة و انعدام الاستقرار الاقتصادي و تدهور التجارة و الصناعة في الإمبراطورية الرومانية¹.

1 - ديورانت، ول وإيريل: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج1، م3، دار الجيل، بيروت، ص 341 - 345.

الفصل الأول

مدخل إلى العصور الوسطى في أوروبا

العصور الوسطى: البداية و النهاية

جزت العادة أن يتم تحديد الإطارين الزمني و المكاني لأي موضوع يراد البحث عنه، و البحث الذي نحن بصدد طرحه و معالجته من المواضيع المعقدة بعض الشيء، فإذا كان بالإمكان تحديد الإطار الجغرافي له بما يعرف الآن بالقارة الأوروبية أو بعض الدول الأوروبية (فرنسا - إيطاليا - ألمانيا - إنكلترا -)، فإنه من الصعوبة بمكان أن نحدد الإطار الزمني بدقة . فهناك من الباحثين من يحدد سنة ما أو يقرن بداية العصور الوسطى بمعركة أو يجعل من تنصيب ملك ما أو الإطاحة به بداية لهذه العصور . و هناك من يرى من المؤرخين أن عملية الانتقال من عصر تاريخي لآخر تشبه مراحل نمو الإنسان و انتقاله من مرحلة إلى أخرى، فمن الصعب جداً تحديد ساعة أو يوم لانتقال الإنسان مثلاً من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشباب فمرحلة الرجولة و الشيخوخة. البعض الآخر من المؤرخين عدّ التاريخ وحدة متكاملة و التطور التاريخي يتميز بالاستمرارية و هو كسلسلة متصلة الحلقات تتداخل أحداثها في بعضها، و ما تقسيم العصور التاريخية إلا كوضع رأسيات على الطريق الطويلة لتحديد المسافات.

بناء على ذلك فهناك اختلاف بين المؤرخين على تحديد بداية العصور الوسطى، فمنهم من عدّ اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية من خلال إعلانه مرسوم ميلان في عام 313م، أو في نقله عاصمة الإمبراطورية من روما إلى

القسطنطينية، في عام 330م نقطة البداية للعصور الوسطى. البعض الآخر اختار عام 395م بداية للعصور الوسطى لأنه في هذا العام قسم الإمبراطور تيودوسيوس الأول الحكم بين ولديه (أركاديوس حكم القسم الشرقي و اتخذ القسطنطينية عاصمة له، أونوريوس حكم القسم الغربي متخذاً روما عاصمة له)، و البعض الآخر عدّ سقوط روما بيد البرابرة الجرمانيين في عام 476م و خلع آخر إمبراطور في روما هو النهاية الحتمية للعصور القديمة و بداية العصور الوسطى¹.

و قد اختلفت آراء الباحثين أيضاً في تحديد نهاية للعصور الوسطى، فبعضهم عدّ أن اختراع الطباعة على يد المؤرخ الألماني غوتينبيرغ Johannes Gutenberg - في منتصف القرن الخامس عشر نهاية للعصور الوسطى و بداية العصور الحديثة لما شكله اختراع الطباعة من ثورة في نقل المعرفة و نشر الكتب.

و البعض الآخر يعد عام 1453 هو نهاية العصور الوسطى، فقسم من المؤرخين يعد هذا العام نهاية للعصور الوسطى بسبب سقوط القسطنطينية واحتلالها من قبل السلطان العثماني محمد الفاتح و اندثار الإمبراطورية البيزنطية، و قسم آخر يعده نهاية للعصور الوسطى بسبب انتهاء حرب المائة عام بين إنكلترا و فرنسا. و هناك عدد آخر من المؤرخين يعد عام 1492م نهاية للعصور الوسطى، و ذلك لسببين: 1 - أنه في هذا العام تم اكتشاف أمريكا 2 - سقطت غرناطة، آخر معقل للمسلمين في الأندلس، بيد الأسبان.

1 - Andrä, Jakob Carl: Grundriß der Weltgeschichte für höhere Lehranstalten, Voigtländer, Kresznach, 1885, S. 121.

بالإضافة إلى هذه الأعوام لا يمكن للباحث في تاريخ أوروبا أن يتجاهل العام 1517م الذي نشر فيه القس و البروفيسور مارتن لوثر، نظرياته الخمسة و التسعين، ناقداً صكوك الغفران و أخطاء البابوية، حيث شكل هذا العام منعطفاً مهماً في حياة الكنيسة اللاتينية.

انطلاقاً من أن التاريخ وحدة متكاملة و ما تقسيمه بسنوات محددة إلا لتسهيل دراسته و اعتماداً على ماسبق ذكره من أعوام و أحداث مهمة فإنه من الممكن اعتبار القرنين الرابع والخامس الميلاديين بداية للعصور الوسطى و القرنين الخامس عشر والسادس عشر نهاية لهذه العصور و بداية للعصور الحديثة، و بالإضافة إلى ذلك حدثت في هذه القرون تطورات فكرية و تغيرات سياسية و اقتصادية و اجتماعية تبرر اختيار هذه القرون كبداية و نهاية للعصور الوسطى.

المتغيرات في القرنين الرابع و الخامس

1 - تطور الفكر و العقيدة:

تجذرت الوثنية و عبادة الآلهة المتعددة في العصور القديمة و أثرت في مختلف مظاهر الحياة و طبعتها بطابعها الخاص. أما في القرنين الرابع و الخامس الميلاديين فقد انتشر في أوروبا و بشكل متزايد ديانة سماوية عالمية تؤمن بعبادة إله واحد و هي الديانة المسيحية. عبر انتشار المسيحية في أوروبا عن مستوى جديد من التطور الفكري و العقيدي و شكل منعطفاً هاماً في التاريخ الأوروبي. جاء اعتراف قسطنطين بالمسيحية كدين و سمح لاتباعه بحرية ممارسة طقوسهم الدينية من خلال إصداره مرسوم ميلان 313 عاملاً مساعداً و مكماً في انتشار الدين المسيحي في أوروبا لما أبداه هذا المرسوم من تسامح ديني اتجاه أتباع الدين الجديد و نقل الديانة المسيحية من حركة سرية إلى ديانة معلنة.

أثر انتشار الديانة المسيحية في أوروبا بشكل كبير في مختلف نواحي الحياة: سياسياً، تشريعياً، اجتماعياً، قضائياً و علمياً، فتخلصت أوروبا كلها شيئاً فشيئاً من الطابع الوثني الذي سيطر عليها في العصور القديمة و ارتدت الطابع المسيحي في العصور الوسطى.

2 - المتغيرات السياسية:

تشكلت في العصور القديمة إمبراطوريات كبرى كالإمبراطورية المصرية و الآشورية و الفارسية و المكدونية و الرومانية تنالت في السيطرة العالمية. لكن من المعروف أن الإمبراطورية الرومانية كانت الأكثر ديمومة و الأكبر اتساعاً كما قُدِّست هذه الإمبراطورية و إله إمبراطورها. أما في القرن الرابع و الخامس فاجتاحت الغارات البربرية الإمبراطورية الرومانية الغربية و أسقطوا عاصمتها روما في عام 476 و أطاحوا بآخر إمبراطور روماني فيها و هو رومولس أوغوستولس (Romulus Augustulus 475- 476). سرعان ما شكلت هذه الشعوب البربرية على أراضي الإمبراطورية الرومانية ممالك بربرية جديدة كمملكة الفرنجة في فرنسا و مملكة القوط الشرقيون في إيطاليا و القوط الغربيون في أسبانيا و مملكة الفاندال في شمال إفريقيا، فاندثرت بذلك الإمبراطورية الرومانية الغربية بمفهومها الكلاسيكي إلى غير رجعة. فلم تقم بعد ذلك في أوروبا في العصور الوسطى إمبراطوريات عظمى لها صفة عالمية، صحيح أن شارلمان استطاع إحياء مفهوم الإمبراطورية بتأسيسه للإمبراطورية الكارولنجية، إلا أن إمبراطوريته لم تكن بعظمة ومكانة الإمبراطورية الرومانية جغرافياً و اقتصادياً، كما أنها سرعان ما ذابت و وتشظت إلى ممالك على يد شارلمان نفسه الذي قسم الحكم فيها بين أولاده فأصبحت هذه الممالك تتنازع و تتصارع مع بعضها.

إذا أصبحت أوروبا في العصور الوسطى مجزأة إلى ممالك و دويلات لكل منها سياستها و مصالحها الخاصة.

3 - المتغيرات الاقتصادية و الاجتماعية:

وصفت الإمبراطورية الرومانية بأنها (دولة العبودية) حيث شكل العبيد فيها الطبقة المنتجة الرئيسية في المجتمع. لكن في القرنين الرابع و الخامس لم يعد العبيد، كما كان حالهم في القرنين الأول و الثاني الميلاديين، يشكلون الطبقة الأساسية التي تعمل في الزراعة و الصناعة، حيث تناقص عدد العبيد بسبب توقف الحروب التوسعية للإمبراطورية الرومانية.

عدا عن ذلك دفع تدني مزدود عمل العبيد بكمال مالكي الأراضي إلى تقسيم الأراضي الواسعة على عبيدهم ليشغلوا بها بصفة كولون (فلاح مرتبط بالأرض) مقابل الحصول على حصة من إنتاج الأرض. و مع الوقت نشأ النظام الكولوني في العلاقات الزراعية و حل محل النظام العبودي الذي كان سائداً في أوروبا في العصور القديمة، و هذا ما أدى إلى ترسخ أسس النظام الإقطاعي في المجتمع الأوروبي و أصبحت طبقة أفنان الأرض التي تعمل في أراضي الإقطاعيين هي الطبقة المنتجة الأساسية في أوروبا العصور الوسطى¹.

فإذا ما تمت المقارنة بين مظاهر الحياة البشرية قبل القرنين الرابع و الخامس مع مظاهر الحياة بعد هذين القرنين فإن نتيجة المقارنة تبرر الحديث عن ولادة عصر جديد و هو العصر الوسيط. كذلك الامر فقد شهد القرنين الخامس

1 - فرح، نعيم: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 11.

عشر و السادس عشر تغيرات و تطورات أرست معالم حضارة جديدة في المجتمع الأوروبي و رسمت نهاية للعصور الوسطى و بداية للعصور الحديثة.

المتغيرات في القرنين الخامس عشر و السادس عشر

1 - التطور الفكري:

شكلت الحركة الإنسانية و حركة الإصلاح الديني و حركة النهضة الأوروبية التي نشأت في القرنين الخامس عشر و السادس عشر، أهم ملامح التطور الفكري النوعي في أوروبا. فإذا كان انتشار الدين المسيحي في أوروبا هو أهم معلم لبداية العصور الوسطى فإن تحرر العقلية الأوروبية من سيطرة الدين و الانتفاض على تعاليم الكنيسة و تقاليدها و أعمال دور العقل، تعد من أهم معالم و دلالات نهاية العصور الوسطى و بداية العصور الحديثة.

تراجع فكر رجال الدين أمام الفكر العلماني ففي العصور الوسطى استغل الإقطاعيون الديانة المسيحية و تعاليم الكنيسة لتحقيق مكاسب شخصية و قد نشروا مفاهيم فكرية ثلاث طموحاتهم و مصالحهم. بالإضافة إلى ذلك احتكرت الكنيسة الأمور الثقافية، فاستخدمت اللغة اللاتينية في إحياء الطقوس الدينية و الأمور العلمية، حيث إن معظم السكان في أوروبا لم يكونوا يتقنون اللغة اللاتينية لأنها كانت حكراً على رجال الدين. فجاء عصر النهضة الأوروبية و سبقه إلى ذلك الحركة الإنسانية ليكسران كل القيود التي وضعتها الكنيسة على الفكر و العقل و تم نقد مجمل المفاهيم التي حجبت الحقيقة عن عقول الأوروبيين. كما ظهرت أصوات تنادي بإصلاح الكنيسة و إلغاء بعض الممارسات و التقاليد الدينية التي لم تكن موجودة في فجر المسيحية، فنشر مارتين لوتر نظرياته الخمسة و التسعين

و وضع رأيه في الأخطاء التي يرتكبها رجال الدين و البابوية. كما أن ترجمته الإنجيل إلى اللغة الألمانية لأول مرة في التاريخ فتحت الباب أمام كل الألمان و بعد ذلك أمام كل الأوروبيين لقراءة الإنجيل و كسر احتكار قراءته لمن ينقن اللاتينية فقط.

صحيح أن القس و البروفيسور في جامعة فيتنبيرغ (Wittenberg) مارتن لوثر لم يفكر في إنشاء مذهب مسيحي جديد و شق العالم المسيحي في أوروبا، بل أراد فقط إصلاح الكنيسة و مناقشة أخطائها بشكل أكاديمي و تأمل أن باستطاعته دفع البابوية للتراجع عن أخطائها (أي أنه احتج على هذه الممارسات الخاطئة كما يراها، هذا و سمي أتباعه المحتجين)، لكن مع الوقت و مع ازدياد أتباعه استغل بعض الأمراء أفكاره و استفادوا منها و وظفوها لخدمة مصالحهم و للضغط على القيصر و ابتزازه للحصول منه على تنازلات، حتى إن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية كان مضطراً دائماً للرضوخ لمطالب البروتستانت (المحتجين) مقابل الحصول على الدعم لصد الأخطار الخارجية و خاصة الخطر العثماني الذي أربع أوروبا في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566) ¹.

و بكلمة أخرى فإن تاريخ الكنيسة المسيحية و المجتمع في أوروبا قبل القس و البروفيسور مارتن لوثر ليست كما بعدها و ما قبل الحركة الإنسانية و النهضة الأوروبية ليست كما بعدها.

1 – Noufal, Wadah: Kriege, Gesandtschaften, Machtpolitik, Die Beziehungen Zwischen dem Heiligen Römischen Reich Deutscher Nation und dem Osmanischen Reich 1520– 1541, Tübingen, 2013, S. 255ff.

2 - المتغيرات السياسية والكشوفات الجغرافية:

من أهم المتغيرات التي حدثت في أوروبا في القرنين الخامس عشر و السادس عشر هي المتغيرات السياسية ففي عام 1453 سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية بيد العثمانيين الأتراك و جعلها السلطان محمد الفاتح عاصمة لإمبراطوريته العثمانية معلناً بذلك نهاية الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الدين وأرثوذكسية المذهب و أوروبية الطابع لتحل مكانها إمبراطورية آسيوية إسلامية، هذه الإمبراطورية الجديدة ستزحف غرباً و تحتل أماكن كثيرة في أوروبا و تنتشر الرعب فيها و تصل لأوج اتساعها في عهد سليمان القانوني الذي احتل بلغراد 1521 و رودوس 1522 و بودابست 1526 و حاصر فينا ذاتها في عام 1529.

أحدثت الكشوف الجغرافية في القرنين الخامس عشر و السادس عشر منعطفاً مهماً في التاريخ البشري و كان أهم هذه الاكتشافات هو اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام 1487م، و وكانت أول رحلة بحرية قام بها فاسكو دي جاما إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام 1497م 1498م، كما قام الملاح ألبرتغالي فرديناند ماجلان 1519 - 1521 برحلة حول العالم مثبتاً كروية الأرض. الأهم من ذلك كان اكتشاف أمريكا 1492 و ما تلاه من اكتشافات في الأمريكيتين (الحديث هنا عن اكتشاف قارتين) هذه الاكتشافات قلبت مفاهيم العالم الجغرافية و السياسية، حيث إنه مجرد الحديث أن هناك جغرافية جديدة يوجد هناك متلازمة إجبارية و هي سياسات جديدة و نظم سياسية و دولية جديدة.

من الملفت للنظر أنه بعد اكتشاف العالم الجديد خبت فكرة الحروب الصليبية في أوروبا ولم تستخدم هذه الفكرة إلا كدعاية سياسية وحماسية لكسب تأييد العالم المسيحي عند الحاجة، مثلما حصل عندما تنافس كل من شارل ملك

أسبانيا، و فرانس الأول ملك فرنسا في عام 1519 على اللقب الإمبراطوري، فادعى كل مرشح بأنه الأقدر على القيام بحروب صليبية ضد الشرق لذلك فهو أحق بالحصول على اللقب الإمبراطوري. لكن في الحقيقة اتجه كل المغامرين و الحالمين في أوروبا بعد اكتشاف أمريكا إلى هذا العالم الجديد ليحصلوا على الذهب و الأراضي الجديدة.

تميز القرنان الخامس عشر و السادس عشر بظهور مبدأ توازن القوى في النظام السياسي الأوروبي، و كان ذلك بعد زحف الملك الفرنسي شارل الثامن، لاحتلال إيطاليا في عام 1494م و تحالف القوى الأوروبية الأخرى لكبح التفوق الفرنسي و الحفاظ على توازن القوى بين الدول و الممالك الأوروبية المسيحية¹. في هذين القرنين بدأت تظهر و تتبلور فكرة الدول الأوروبية الحديثة و لغاتها الحديثة بعدما يؤس العالم الأوروبي من البحث عن إحياء الإمبراطوريات القديمة.

3 - المتغيرات الاجتماعية و الاقتصادية:

تحول النظام الاقتصادي الزراعي المغلق الذي نشأ في العصور الوسطى إلى اقتصاد صناعي تجاري في القرنين الخامس عشر و السادس عشر قبل أن يتطور إلى الرأسمالية، و قامت ثورات برجوازية في أوروبا ألغت العلاقات الإقطاعية في مجتمع العصور الوسطى. صحيح أن البرجوازية قضت على النظام الإقطاعي إلا أنها لم تكن سوى قوى مستغلة جديدة لكن بشكل آخر. استغل البرجوازيون انتفاضة أفنان الأرض و عمال المدن ضد الإقطاعيين لصالحهم و

1 - Wiesflecker, Hermann: Kaiser Maximilian I., Das Reich, Österreich und Europa an der Wende zur Neuzeit, Bd. 2, München 1975, S. 44.

وصلوا للحكم و استغلوا السياسة لخدمة أهدافهم و نشأت في أوروبا شيئاً فشيئاً مدن جديدة ذات طابع صناعي و تجاري.

إن تغير أنماط الحياة في أوروبا في القرنين الخامس عشر و السادس عشر أدى إلى تغير الكثير من المظاهر الحضارية و هذا يدفع للقول بولادة العصور الحديثة و نهاية العصور الوسطى.

العصور الوسطى: المصطلح و المراحل:

استخدم مصطلح العصر الوسيط لأول مرة من قبل رواد الحركة الإنسانية بين الإيطاليين في البداية في القرنين الخامس عشر و السادس عشر و بعد ذلك بدأ المؤرخون استعمال هذا المصطلح في القرن السابع عشر و استمر هذا الاستخدام حتى يومنا هذا¹.

امتدت العصور الوسطى لأكثر من ألف و مائة عام لذلك من المجحف القول إن هذه الفترة الطويلة تميزت بمظاهر حضارية موحدة و بنظام واحد فقط بل تخللها فترات تغيير سريع في بعض الأحيان و بطيء أحياناً أخرى و مرت بأكثر من مرحلة لذلك يتحدث أغلب المؤرخين عن العصور الوسطى و ليس عن العصر الوسيط. و قسموا هذه العصور إلى ثلاث مراحل²:

المرحلة الأولى: استمرت هذه المرحلة فترة طويلة من حوالي 300م حتى منتصف القرن الحادي عشر، ظهرت في هذه الفترة و بشكل تدريجي ملامح

1 - حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، دار الفكر، دمشق، 1982،

ص 11.

2 - كانتور: التاريخ الوسيط، ج1، ص 30.

حضارية غربية مختلفة عما سبق من خلال انتشار الأفكار و النظم الجديدة المنبثقة من تصادم و تفاعل الأفكار و النظم المسيحية و اليونانية-الرومانية و الجرمانية مع بعضها. هذا العصر مثل مرحلة النشأة أو الطفولة بالنسبة للحضارة الغربية¹. لذلك يطلق المؤرخون الأوروبيون (الألمان مثلاً) على هذا العصر (العصر الوسيط الباكر Frühmittelalter) و العديد من المؤرخين أطلق على الخمسة قرون الأولى من العصور الوسطى اسم (العصور المظلمة) بسبب خمود شعلة الحضارة الرومانية القديمة و التردّي الحاصل في كافة المجالات المعرفية و العلمية حيث لف ظلام التخلف الحياة الفكرية في أوروبا².

على الرغم من ذلك فقد انتهت المرحلة الأولى من العصور الوسطى (العصر الوسيط الباكر) بدمج الحضارة الرومانية القديمة مع حضارات الشعوب الجرمانية التي تغلغت تدريجياً في أوروبا و استوطنت على أرضها إلى جانب السكان الأصليين من الشعوب القديمة.

المرحلة الثانية: أو العصر الوسيط العالي كما سماه المؤرخون الألمان (Hochmittelalter) تبدأ هذه المرحلة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر و تمتد حتى نهاية القرن الثالث عشر. تمتع الغرب الأوروبي في هذه المرحلة بقدر من الأمن و الاستقرار النسبي و تميزت هذه المرحلة بتطور النظام الإقطاعي و ما رافقه من بروز نظام الفروسية و ما احتواه من مثل عليا. كما بدأت في هذه المرحلة ظهور بعض الجامعات و اهتمام النخبة في المجتمع الأوروبي بالمعرفة و خصوصاً دراسة الفلسفة اليونانية و القوانين الرومانية. برزت في أوروبا أيضاً المدن و ترسخت فكرة وجود زعامتين هما الزعامة الدينية بقيادة بابا الفاتيكان و

1 - كانتور: التاريخ الوسيط، ج1، ص 31.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 12.

الزعامة الزمنية متمثلة بالإمبراطور. تبين هذه المرحلة أن أوروبا دخلت مرحلة أخرى من التكوين آخذة شكلاً مختلفاً عن المرحلة السابقة¹.

المرحلة الثالثة: أو التاريخ الوسيط المتأخر (Spätmittelalter)

تشمل هذه المرحلة القرن الرابع عشر و معظم القرن الخامس عشر حيث تغيرت الأفكار في أوروبا بفعل ولادة أفكار جديدة استطاعت أن تلغي الأفكار السابقة و تضيء شعلة جديدة في تاريخ الحضارة الأوروبية. في هذه المرحلة تطلعت شعوب أوروبا إلى الملك على أنه يمثل رأس الدولة بعد أن كان رأس الإقطاع و طالبته بتحديد سلطاته، و هذا أدى إلى ظهور البرلمانات و بدأت الشعوب تهتم بأمور دولها فقط، فنشأت فكرة الدولة الأوروبية الحديثة "القومية"؛ تلاشت مع الوقت النظرة إلى أوروبا كدولة واحدة على رأسها الإمبراطور و بابا الفاتيكان. في هذه المرحلة تجرأ رجال الفكر على نقد الكنيسة و البابوية التي غرقت في المفساد مما أدى إلى زعزعة هيمنة البابوية في أوروبا. في هذه المرحلة أيضاً بدأ النظام الإقطاعي بالتلاشي لتغرس البرجوازية جذورها في المجتمع الأوروبي بدلاً منه².

1 - عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1986، ص 24-25.

2 - فرح، نعيم: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، جامعة دمشق 2010، ص 13-14.

الفصل الثاني

من هم البرابرة؟ هجراتهم و تشكل ممالكهم على أراضي الإمبراطورية الرومانية

البرابرة :

إن كلمة (بربري) كلمة موعلة في القدم، فقد وردت في الألياذة اليونانية وكان معناها يدل على الاحتقار والازدراء. ثم عدل معنى هذا اللفظ عند المفكرين اليونانيين القدامى مثل أفلاطون و أرسطو، وأصبح يعني الشعوب التي لا تتكلم اللغة اليونانية وبناءً على ذلك أصبح لفظ بربري عند اليونان يعني غير مثقف أو فظ. أخذ الرومان بعد ذلك هذا اللفظ و أضافوه إلى لغتهم و استخدموه للدلالة على هذه المعاني، و أصبح لفظ (بربري) عندهم يطلق على الشعوب التي لا تتكلم اليونانية أو اللاتينية، ومع الوقت أصبح يستخدم أيضاً للإشارة إلى القوى الأجنبية المعادية التي كانت تشكل خطراً على الحضارتين اليونانية و الرومانية¹.

أحاطت بالإمبراطورية الرومانية شعوب بربرية عديدة أهمها: الجرمان، الكلت و السلاف.

الجرمان :

تألف الجرمان من مجموعتين كبيرتين من الشعوب: الجرمان الشرقيين والجرمان الغربيين وغيرهم، ومن الجرمان الشرقيين القوط والفاندال و الجبيدي و

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 63، 64.

البرجنديون و اللومبارديون، وينتمي للجرمان الغربيين كل من الفرنجة و الألمان و الإنكليز و السكسون¹.

بدأ الجرمان حوالي 1000 قبل الميلاد يتحركون من مواطنهم الأصلية في الدنمارك و جنوب النرويج و السويد الحالية باتجاه الجنوب، وفي حوالي 100 قبل الميلاد وصلوا في تمدهم صوب جنوب الراين و وصلوا بعد ذلك إلى حدود الإمبراطورية الرومانية².

يمكن التعرف على أحوال الجرمان الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية في القرن الأول قبل الميلاد من كتابات الحاكم الروماني يوليوس قيصر (الذي عاش في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد) الذي يدين له المؤرخون بالفضل لأنه أول من قدم معلومات موثقة عن الجرمانيين حيث يصفهم من جهة بأنهم كسالى و غير منضبطين و غير متحضرين، و من جهة أخرى بأنهم شجعان و يتمتعون بصحة جسدية و روحية جيدة و تواقون لخوض الحروب والمعارك و يتحملون الصعاب³.

يقول يوليوس قيصر في كتاباته: إن الجرمان في عهده كانوا يهتمون بتربية الحيوانات و الصيد أكثر من اهتمامهم بالزراعة، و سادت بينهم العلاقات البدائية القبلية فهم لا يعرفون الملكية الفردية بل تعد أراض كل قبيلة ملكاً عاماً لجميع

1 - العربي، السيد الباز: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1968، ص 82 - 83.

2 - كانتور: التاريخ الوسيط، ج1، ص 146.

3 - Prinz, Friedrech: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, München 1993, S. 20.

أبنائها، حيث يوزع زعيم القبيلة هذه الأراضي على عشائر قبيلته في كل عام على التوالي فتحصل كل عشيرة في كل عام على أراضي جديدة غير تلك التي حصلت عليها في العام الماضي لتستثمرها. كما يعمل أبناء العشيرة الواحدة في الأرض المخصصة لهم سويةً و يتقاسمون إنتاجها بالتساوي.

يوضح يوليوس قيصر هذا النظام قائلاً: "لا يترك هذا النظام المجال للجرمان أن يفضلوا العمل الزراعي و الاستقرار على الحياة الحربية، كما لا يسمح لأحد منهم بتوسيع أملاكه على حساب الآخرين، و لا يطرد الأقوياء الضعفاء أو أن يهتم أحد ببناء المنازل الفخمة والقصور، وبهذا يزول الطمع الذي غالباً ما يؤدي للخصام والنزاع، و أما الشعور بالمساواة بين الأقوياء و الضعفاء فيؤدي إلى الاستقرار و الاطمئنان".¹

عاش الجرمان في البداية على شكل قبائل مبعثرة، و في بعض الأحيان توحدت بعض القبائل تحت قيادة زعيم واحد لتنفيذ عمل حربي محدد. أما في أوقات السلم فلم يكن لدى الجرمان سلطات دائمة، بل أخذ رؤساء القبائل و زعماء العشائر على عاتقهم حل المشاكل الناشبة بين الأفراد في مختلف القضايا. كما شكلت كل قبيلة مجلس يُعدّ هو السلطة العليا عند الجرمان ويحق لجميع أفراد القبيلة حضور جلسات هذا المجلس. يلفت يوليوس قيصر الانتباه إلى وجود الأمراء و الرؤساء لدى الجرمان في القرن الأول قبل الميلاد إلا أنه يؤكد على تساوي عليه القوم مع عامته في الملكية.²

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 18.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 19.

أما المصدر المهم للتعرف إلى أحوال الجرمان في القرن الأول الميلادي فهو كتاب المؤرخ الروماني تاسيتوس Tacitus بعنوان جرمانيا (Germania) الذي كتبه في عام 98 ميلادية حيث يتحدث المؤلف عن حياة الجرمان بالتفصيل.

ظهر دور الأمراء المؤثر أكثر في القرن الأول الميلادي حيث كان يجتمع الأمراء بشكل منتظم للتشاور في كل الأمور إذا لم يكن هناك حدث إستثنائي يستدعي الاجتماع، ويذكر تاسيتوس أن الأمراء أيام اجتماعاتهم المنتظمة هي عندما يكون القمر في أول ظهوره و عندما يكون بدرًا لأنهم يعتقدون أن هذه الأيام هي الأفضل، كما أنهم لا يحسبون عدد الأيام كما هو الحال عند الرومان بل يحسبون عدد الليالي. يوضح تاسيتوس أن الرجال الجرمان ميالون للحروب أكثر من ميلهم للزراعة و في حال عدم خوض الحروب فهم يفضلون أن يمضوا أوقاتهم بالصيد أو النوم و يتركون الأعمال الزراعية للنساء. يتابع تاسيتوس في كتابه وصفه لحياة الجرمان قائلاً إن الجرمان لا يسكنون في المدن أو بيوت قريبة من بعضها بل يفضلون السكن في بيوت متناثرة و متباعدة على عكس الرومان، كما أنه على الفرد أن يصادق أصدقاء والده و يراعي رابطة الدم و يعادي من يعاديه.

يتحدث تاسيتوس بالتفصيل الدقيق عن مشرب و مأكّل و ملابس الجرمان ليأتي بعد ذلك على شرح الفرق بين العبودية لدى الجرمان و العبودية في الإمبراطورية الرومانية حيث وزع السادة الجرمان أراضيهم على العبيد ليستثمروها مقابل حصة من الحبوب أو الحيوانات أو الملابس، أما أعمال السخرة المنزلية فلا يقوم العبيد بإنجازها بل نساء و أطفال السادة، بينما كان العبد يعمل مقابل قوت

يومه عند الرومان، كما أن الجرمان لم يعرفوا الضرائب أو الفوائد في القرن الأول الميلادي¹.

مع الوقت بدأت طبقات المجتمع الجرمانى القبلي بالتشكل و ضمت ثلاث طبقات: الطبقة الأولى وهي طبقة النبلاء التي تملك الضياع و الأراضي الواسعة ومن هذه الطبقة أتى الملوك و الحكام و القادة و رؤساء الوحدات، الطبقة الثانية وهي طبقة الأحرار التي تمتلك بعض الأراضي وإليها انتمى غالبية السكان ومن بين هذه الطبقة يختار المحاربون، أما الطبقة الثالثة فهي الطبقة الدنيا أما أعضاؤها فهم بعض السكان الفقراء و المغلوبين على أمرهم الذين يتولون الأعمال الزراعية، ومن الأرقاء المرتبطين بالأرض².

كانت ديانة الجرمان خليطاً من الأساطير و عبادة القوى الطبيعية مثل الشمس و القمر و الرعد، إلا أنهم لم يقيموا معابد و تماثيل لآلهتهم، كما أن الكهنة لم يشكلوا طبقة خاصة مميزة في مجتمعهم. أما الثروة عند الجرمان فقد قدرت بالخيول و المواشي و الحيوانات الأليفة و المفيدة. صحيح أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية و الأواني الذهبية و الفضية، لكن الحيوانات السابقة حلت عندهم مكان النقود في التبادلات و المعاملات.

ترأس كل شعب من الشعوب الجرمانية رئيس أو قائد، وهذا القائد لم يكن ملكاً أو نبياً بل كان زعيماً منتخباً اختاره الشعب لما تحلى به من صفات و

1 - Holzmann, Adolf : Germanische Alterthümer mit Text, Übersetzung und Erklärung von Tacitus Germania, Leibzig 1873, S. 39, 43 - 53

2 - طرخان، إبراهيم على: دراسات في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958، ص 12 - 13.

مميزات تؤهله للزعامة و أهمها الشجاعة و الإقدام. ففي وقت الحرب كان يتولى قيادة القبيلة أو الشعب قائد معروف بشجاعته وبسالته، فيتمتع بسلطات غير محدودة تنتهي بانتهاء الحرب، لكن لأن الحروب كانت طويلة جداً و مستمرة، فإن هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه وقتاً بعد آخر. شيئاً فشيئاً تغير هذا التقليد فأصبح القائد يختار ولده ليحل مكانه بعد وفاته، و هذا أدى تدريجياً إلى قيام نظام ملكي وراثي في الدول والشعوب الجرمانية. لم يكن الملوك الجرمان في المرحلة الأولى أكثر من قادة حربيين، حيث إنهم لم يتمتعوا بسلطة مطلقة في التشريع و فرض العقوبات، فهذه الأمور حددتها التقاليد و الأعراف السائدة لدى الجرمان دون إن يمتلك فرد أو زعيم شرعية تغيير الأوضاع السائدة¹.

أما في العلاقة بين الإمبراطورية الرومانية والجرمان الذين استوطنوا على حدود الإمبراطورية في الشمال و الغرب، فقد بدأت الاصطدامات في القرن الأول قبل الميلاد حيث عبر الرومان نهر الدانوب و اجتاحوا الأراضي الجرمانية و أخضعوا قسماً لسيطرتهم، لكن في بداية القرن الأول الميلادي طرد الجرمان القوات الرومانية إلى ضفاف نهر الراين، بعد ذلك اتخذ الرومان سياسة دفاعية ضد الجرمان، فشيّدوا سلسلة من التحصينات العسكرية على الحدود الشمالية على طول نهر الدانوب. لم تتوقف المناوشات الحربية بين الرومان و الجرمان، حيث اخترق الجرمان حدود الإمبراطورية بين عامي 165م - 180م و عبروا نهر الدانوب، فاضطر الرومان إلى حشد كل قواتهم لصد الهجوم الجرمانى. اشتدت خطورة الهجمات الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي، لأن الإمبراطورية الرومانية كانت تترزخ تحت أزمة داخلية صعبة و تعاني من اضطرابات العسكر و التمردات. بالمحصلة فقد حصل تبادل حضاري بين الرومان

1 عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 59 - 62.

و الجرمان نتيجة الحروب من جهة، و العلاقات التجارية من جهة أخرى. فقد زار بعض الجرمان روما ليتعلموا الثقافة اللاتينية، و في بعض الأحيان أرسل الجرمان أولادهم إلى روما ليتربوا ويتعرعروا فيها و أحياناً بصفة رهائن لدى السلطات الرومانية، عدا عن ذلك شكل الجنود المرتزقة الجرمان الموجودون في الجيش لدى السلطات الرومانية نسبة مهمة ولا يستهان بها من عدد الجيش الروماني، كما وجد في الإمبراطورية الرومانية أعداد كبيرة من العبيد و الكولون من البرابرة الجرمان¹.

الكلت :

أطلق الرومان اسم الغال على الشعوب الكلتية كما أطلقوا اسم غاليا أو بلاد الغال على المناطق التي استقروا بها. على الرغم من قلة المعلومات عن الكلت في بداياتهم فإنه من الممكن القول إن حالهم حال الشعوب الأوروبية القديمة، هاجروا من آسيا إلى الغرب منذ قديم الزمان، شبه بعض المؤرخين هذا الانتقال و التطور التاريخي أنه كالشمس فقد أشرق من الشرق و انتقل إلى الغرب². نتيجة موجة الهجرات الجديدة انتقلوا إلى منتصف و غرب أوروبا حيث استوطنوا في أجزاء من النمسا وفي جنوب ألمانيا و سويسرا و أجزاء من فرنسا و أسبانيا و انتشروا بعد ذلك في انكترا و اسكوتلندا و إيرلندا. اضطرت الشعوب الكلتية بين عامي 500 - 275 ق.م إلى الهجرة مجدداً و إحدى هذه الموجات من الهجرة وصلت في عام 390 ق.م إلى مشارف روما و منذ ذلك الوقت بدأ احتكاك الكلت بالرومان و التأثير بحضارتهم.

1 فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 20 - 21.

2 - Contzen, Leopold: Die Wanderungen der Kelten, Leipzig, 1861, S.

1, 5.

تشكل الكلت من عدة شعوب و مجموعات و كان لهم لغات مختلفة عن بعضها حيث يوجد أربع لغات رئيسة غير متشابهة و كل مجموعة أو شعب تتكلم لغة من هذه اللغات، مثلهم مثل غيرهم من الشعوب المهاجرة. عاش الكلت في مجموعات قبلية صغيرة و منفصلة عن بعضها يرأس كل مجموعة أمير أو زعيم.

انقسم المجتمع الكلتي إلى أربع طبقات: 1- طبقة الأمراء و أتباعهم من المحاربين، 2 - طبقة رجال الدين، 3 - طبقة الحرفيين و التجار و المزارعين، 4- طبقة العبيد: وهي طبقة محرومة من الحقوق تعمل بالسخرة، كما أن أولاد العبيد يصبحون عبيداً عند سيد أهلهم بشكل تلقائي، و أما منازلهم فقد بنى الكلت منازلهم من الأخشاب و الأغصان وليست من الحجارة كما كان عند الرومان، ومن اللافت عند الكلت أنهم أتقنوا مهنة الحدادة و مارسوا تجارة الملح.

الهون:

كما هو الحال في أصل الشعوب البربرية فإنه لا توجد معلومات مؤكدة و دقيقة عن أصل الهون¹. و لكن من المتعارف عليه أنهم أترك مغوليون، وصلوا في القرن الرابع ميلادي إلى بحر الخزر و زاحموا الألمان و القوط كما وصلوا إلى نهر الدانوب. كان الهون فرساناً لا يهابون الموت و المغامرات لكن كانت تنقصهم الوحدة و الانسجام، حتى جاء أحد زعامتهم و يدعى روجيلا واستطاع توحيدهم تحت حكمه، شن الهون بقيادة روجيلا حملات عسكرية كثيرة وناجحة تارة ضد الإمبراطورية الشرقية و تارة ضد الشعوب الجرمانية².

1 - Contzen : Die Wanderungen der kelten, S. 5ff.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 23.

توفي روجيلا في عام 433 ولم يكن لديه ولد يرثه، فخلفه على العرش ولدا أخيه موندزوك وهما بليدا، Bleda و أتिला Attila، لكن أتिला رغب في حكم الهون لوحده فأمر بإرسال شقيقه إلى دار الآخرة و حكم الهون بمفرده حتى موته في عام 453م. أتिला ذلك الرجل الأسمر الداكن صاحب الرأس المفلطح و العينين الصغيرتين الغائرتين في وجهه و ذو الأكتاف العريضة و صاحب البنية والأعصاب القوية استطاع أن يدخل الرعب إلى قلوب جميع أعدائه. فهاجم فارس و هاجم الإمبراطورية الرومانية الشرقية و بعد ذلك هاجم غاليا في عام 450م¹. وعبر نهر الراين وسلبت جيوشه كل ما استطاعت سلبه و نهبه وعبر نهر السين ووصل إلى مدينة أورليانز Orleans وفر الناس من أمامه في خوف و دعر شديدين لأن أتिला كان مشهوراً بوحشيته و فظاظته جنوده فهو يدمر كل شيء على أرض الأعداء معتمداً بذلك على سياسة الأرض المحروقة. وعندما كان أتिला لا يزال موجوداً في أورليانز أتت القوات المدافعة بقيادة القائد الروماني اثيبوس الجرمانى الأصل و معه القوات الرومانية و حلفاؤه من القوط الغربيين و السكسون و البرجنديون و الفرنجة. انسحب أتिला في البداية لمكان اعتقد أنه مناسب أكثر لخوض المعركة مع الجيوش المعادية له، حيث دارت المعركة قرب شالون Chalons في عام 451 و خسر أتिला المعركة و هذا ما أنقذ الغرب من سيطرة قبائل الهون. انسحب أتिला بعد ذلك إلى ألمانيا حالياً في نفس العام، وفي عام 452 م غزا إيطاليا العليا منزلاً الخراب والدمار في كل المدن التي مر بها و اضطر البابا ليو الأول للذهاب إلى معسكر أتिला مع مندوبيين من الإمبراطور وسلم إليه هدايا فأخرة ووعد بدفع الجزية. ما إن سمع أتिला باقتراب جيوش اثيبوس حتى تراجع إلى بلاده، دفعه إلى ذلك أيضاً انتشار مرض الطاعون بين جنوده أثناء

1 – Gibbon, Edward: Das Leben des Attila Königes der Hunnen, Lüneburg, 1787, S. 8, 9f. 17, 63.

تواجههم في إيطاليا و ما سببه هذا الوباء من خسائر بين جنوده، بعد عدة أشهر مات أتيليا في عام 453. العظمة التي أسسها أتيليا انتهت بموته حيث إنتشرت النزاعات الدموية بين زعماء الهون من أجل الحصول على التاج مما بعثر قواهم و دمر مجدهم¹.

السلاف:

ظهر اسم السلاف لأول مرة في التاريخ بشكل مكتوب في نهاية العصر القديم المتأخر و بداية العصر الوسيط الباكر، حيث لم يكن اسم السلاف معروفاً عند اليونان و الرومان في قرون ما قبل الميلاد و لا في القرون الأولى للميلاد. و كان أول ظهور أو استخدام لاسم السلاف في العصر البيزنطي المبكر أي في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، و تتحدث المصادر عن وجود الشعب السلافي في هذه الفترة في منطقة الدانوب الأدنى و في البلقان و في محيط البحر الأسود². تميز الشعب السلافي بالشجاعة وحبه للعمل، فعمل غالبية بالزراعة و قسم آخر بالأعمال الحرفية و التجارية. الطيبة والاجتهاد صبغت طبيعتهم حتى إن ديانتهم تميزت بالاعتدال، فقد آمنوا بالإله الأعلى و هو الذي سموه بالرب الأبيض صاحب الضوء المقدس، أما آلهة الشر عندهم فسموها الآلهة السوداء أو الرب الأسود. كان لديهم مثلهم مثل الشعوب الوثنية الأخرى آلهة متعددة ، آلهة للحرب

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 82 - 83.

2- Kunstmann, Heinrich: die Slaven, ihr Name, ihr Wanderung und die Anfänge der russischen Geschichte in historischonaomastlicher Ssicht, Stuttgart 1996, S. 19f.

و آلهة للسلم والخ¹، و تقاسم السلاف الأحزان و الأفراح فيما بينهم، ومع الوقت نشأ بينهم طبقة أرستقراطية تضم الأمراء و الزعماء، وترأس الزعماء قبيلة واحدة أو عدة قبائل في أوقات الحرب، لكن استطاعت المجالس القبلية المكونة من أمراء العشائر و البطون أن تقيد سلطة رؤساء القبائل. ومن اللافت لدى الشعب السلافي طريقة تعامله مع العبيد حيث إن أسراهم لا يبقون في عبودية مستمرة بل يبالغون حريتهم بعد استعبادهم فترة زمنية محددة. كانت أسلحة السلاف في البداية بدائية و بسيطة (السيف و الترس و القوس)، ثم طوروا أسلحتهم بعد الاستفادة من الخبرات البيزنطية في هذا المجال².

هجرات البرابرة و تشكل ممالكهم:

مملكة القوط الغربيين:

اتخذت الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي من نهري الدانوب و الراين حدوداً طبيعية لها. في الشمال و الغرب استوطنت الشعوب الجرمانية البربرية على الطرف المقابل لهذه الحدود و انتشروا من بحر الشمال و حتى البحر الأسود على النحو التالي: الفرنجة die Franken في الراين الأدنى، و البرجنديون die Burgunder في الراين الأوسط، و الألمان die Almannen في الراين الأعلى، و استقر على طول الدانوب كل من الماركومان Markomannen و الكودين Quaden ، و القوط الغربيين Westgoten.

1 - Haas, Nnikolaus: Geschichte des Slaven- lands an der Aisch und den Ebrach- flüßchen, Bd. 1, Bamberg, 1819, S. 16f.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 21.

لكن هذه القبائل لم يكتب لها البقاء في أمكنتها نتيجة غزوات قبائل الهون، هذه الشعوب الآسيوية التي امتهنت ركوب الخيل و الحروب اندفعوا في عام 350م باتجاه مملكة الألان المستوطنة عند بحر قزوين، وفي عام 375م باتجاه مملكة القوط الشرقيين القاطنين على نهر الدانوب، مما اضطر القبائل الجرمانية القاطنة في منطقة من نهر الدانوب للهجرة و الهروب من بطش شعوب الهون.

فقد اتجه القوط الغربيون (الساكنون عند الدانوب الأدنى) باتجاه أراضي الإمبراطورية الرومانية، حيث سمح لهم القيصر فالنس (364 - 378م) في عام 376 بعبور نهر الدانوب و الإستيطان على أطراف الإمبراطورية الرومانية بصفتهم حلفاء¹.

كارثة أدرنة 378م و احتلال روما 410م من قبل القوط الغربيين:

أراد القيصر فالنس من استيطان القوط الغربيين في مواشيا و تراقيا أن يجعل منهم سداً منيعاً يحمي الإمبراطورية من الهجمات و الأخطار الخارجية و أعطاهم بعض الامتيازات و أعفاهم من بعض الضرائب ليشجعهم على ذلك. لكن رغم توصيات القيصر بحسن معاملة القوط و عدم ابتزازهم فإن تصرفات الحكام و الموظفين الرومان و سوء معاملتهم للقوط كانت السبب المباشر لإثارة القوط و دفعهم للخروج عن شروط التفاهم مع القيصر و الثورة ضد الإمبراطورية². انضم إلى ثورة القوط الغربيين الكثير من العبيد و الكولون المضطهدين و بعض أفراد الجيش البيزنطي الذين هم من أصل بربري³.

1 - Elze : ein europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 313.

2 - طرخان: دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 53.

33 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 27.

هذه الثورة دفعت القيصر لقيادة جيشه و التوجه لمعاقبة القوط الغربيين و وقعت المعركة الفاصلة بين القيصر فالنس و القوط الغربيين في أدرنة في 378/8/9م و كانت نتيجتها هزيمة منكرة للقوات الإمبراطورية سقط خلالها القيصر فالنس قتيلاً وأُبيد أكثر من ثلثي الجيش الروماني، و كانت آثار هذه الهزيمة كارثية على الإمبراطورية حيث بقيت أقاليم الإمبراطورية جنوب نهر الدانوب مفتوحة أمام الأخطار الخارجية، أما الجبهة الشرقية فلم تعد تملك الإمبراطورية جيشاً قوياً لحمايتها¹.

بعد وفاة فالنس اعتلى عرش القسطنطينية الإمبراطور تيودوسيوس في 379/1/19م، نتيجة تصاعد خطر القوط الغربيين و ازدياد شراسة غزوات الهون اضطر الإمبراطور الجديد إلى مهادنة القوط و سمح لهم بالإستيطان في تراقيا (في شمال شرق البلقان) مقابل ذلك يتعهد القوط الغربيين بحماية حدود الإمبراطورية على نهر الدانوب و ترتب على القوط تقديم الجنود للخدمة في الجيش الروماني النظامي و إمدادهم بالأسلحة عند الضرورة. إن إدخال عناصر بربرية إلى الجيش أو بربرة الجيش الروماني كما يقول أحد المؤرخين: " die Barbarisierung des roemischen Heeres"² سيكون له آثار كارثية على الإمبراطورية الرومانية. كان السبب الرئيس لإدخال العناصر البربرية في الجيش الروماني هو أن الإقطاعيين لم يكن لديهم الاستعداد لتقديم مزارعيهم و عمالهم للخدمة في الجيش حتى إن القسم الكبير من الشعب الروماني لم يعد متحمساً للانضمام لصفوف الجيش الروماني على العكس من الجرمانيين الذين شغفوا الأعمال العسكرية و

1 - Martin, Jochen: Spätantike und Völkerwanderung, 4. Aufl, Oldenbourg, München 2001, S. 35.

2 - Jochen : Spätantik und Völkerwanderung, S. 36.

الحروب. وصل البرابرة و الجرمان في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي إلى مراتب عالية ومناصب مهمة في الجيش الروماني و خاصة في القسم الغربي من الإمبراطورية، حيث أصبح للضباط و قواد الجيش الفرنجة و الفندال التأثير الأقوى في الإمبراطورية. هذا وقد عين الإمبراطور تيودوسيوس الضابط الفاندالي ستيليكو في عام 391م قائداً للجيش في القسم الشرقي من الإمبراطورية وقائداً أعلى في القسم الغربي.

توفي الإمبراطور تيودوسيوس في الشهر الأول من عام 395م و قسّم حكم الإمبراطورية بين ولديه أنوريوس Honorius في القسم الغربي و أركاديوس Arcadius في القسم الشرقي. في حين استمر ستيليكو في منصبه القوي في القسم الغربي كقائداً أعلى للجيش. لكن في المقابل لم يحتفظ البرابرة بنفوذهم القوي في القسم الشرقي من الإمبراطورية و خاصة بعد المذبحة و حمام الدم الذي تعرض له الجنود القوط في القسطنطينية في تموز 400 م، و كان السبب الرئيس لهذه الحادثة رغبة الزعماء و القادة المدنيين في القسطنطينية في جعل كلمتهم هي العليا ويدهم هي الطولى و ليس كلمة العسكر وأياديهم، و بعد ذلك استبعد الضباط الجرمان عن استلام مناصب عسكرية عليا في القسم الشرقي و هنا يظهر فارق مهم بين القسم الشرقي و القسم الغربي للإمبراطورية الرومانية¹.

انتخب القوط الغربيون ملكاً شاباً يدعى ألاك، تميز الملك الجديد بالشجاعة و النشاط. لم يقتنع ألاك بوصف قومه معاهدين في الدولة الرومانية حتى لو كان وصفه هو ملكاً و رأى أن شعبه أدى خدمات عظيمة للإمبراطورية و في الجهة المقابلة ظهر شعور معاد للقوط في القسطنطينية حيث اقترح بعض مستشاري

1- Jochen: Spätantike und Völkerwanderung, S. 36f.

القيصر أركاديوس طرد القوط الغربيين إلى ما وراء الدانوب، لكن الذي منع هذا المقترح من التنفيذ كان عدم امتلاك القسطنطينية قدرة عسكرية على تنفيذه فاستعاض أركاديوس عن هذا المشروع بأن أنقص رواتب القوط و ألغى الامتيازات التي أعطيت لهم.

هذه الأسباب مجتمعة دفعت الملك القوطي إلى التمرد و إعلان الحرب ضد الإمبراطور أركاديوس فاجتاح ألكم مقدونيا و تراقيا و اقترب من القسطنطينية التي اشترت تراجعها عن مهاجمتها بالمال و كان ذلك في آذار من عام 395م أي بعد شهرين من وفاة الإمبراطور تيودوسيوس و استلام ابنه أركاديوس حكم القسم الشرقي من الإمبراطورية¹.

لم تقف مطامع ألكم عند هذا الحد بل كانت أهدافه أبعد من ذلك بكثير فتابع غزواته و استولى على تساليا و اقتحم أثينا. و عندما كانت الإمبراطورية الشرقية عاجزة عن إيقاف الاجتياح القوطي طلب أركاديوس المساعدة من أخيه أنوريوس الذي أرسل قائده العسكري المشهور ستيليكو الذي عبر البحر الادرياتيكي و استطاع وقف الغزو القوطي و حصر القوات القوطية في القسم الشمالي الغربي من شبه جزيرة المورة لكن ألكم استطاع الفرار في عام 396م².

أدرك أركاديوس أنه ليس بمقدوره مجابهة القوط الغربيين دون الاستعانة بقوة أخرى و لكي يتخلص من هذا الخطر استعمل السياسة و المفاوضات ليأمن جانب القوط و عدم تكرار ما حدث، فصالح زعيم القوط ألكم و أعطاه لقب قائد في الجيش الروماني، كما أعطاهم القسم الشمالي من ايليريا (أي القسم الغربي من

1 - طرخان: دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 65 - 66.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 69.

البلقان و تقع إلى الشرق من البحر الادرياتيكي) و شجعهم أن يتجهوا نحو إيطاليا.

هكذا يكون أركاديوس و القسم الشرقي من الإمبراطورية قد تخلصوا من خطر القوط الغربيين، لكن هذا حصل على حساب القسم الغربي الذي سيعاني الأمرين من خطر القوط الغربيين القادم¹.

لم تدم إقامة القوط الغربيين في ايليريا طويلاً، ففي عام 401م بدؤوا بالإغارة على إيطاليا و في بداية عام 402م وصل القوط بقيادة ألاك إلى مقر حكم القيصر في ميلانو، لكن استطاع القائد العسكري ستيليكو إنقاذ المدينة و رد القوط الغربيين على أعقابهم. كانت تصرفات ستيليكو، هذا القائد الروماني من أصل بربري، مثيرة للشك بسبب تواصله مع ألاك فدبر الرومان اغتياله في آب 408م². بعد هذا الاغتيال انضم بعض جنود ستيليكو من البرابرة للقوط الغربيين و زحفوا تحت قيادة ألاك باتجاه روما و حاصروها، و اضطر الرومان لدفع المال ل فك الحصار عن روما، لكن بقي ألاك في إيطاليا و بدأ مفاوضات مع الإمبراطور أنوريوس و لكن عندما رفض الإمبراطور مطالب ألاك (في نيله منصباً مهماً في الجيش الروماني و إقطاعه أراضي و أقاليم).

حاصر ألاك روما في عام 409 للمرة الثانية دون نتيجة، جدد الحصار في عام 410 للمرة الثالثة و استطاع اقتحام روما و احتلالها في 24/8/410م، و نهب القوط الغربيون روما لمدة ثلاثة أيام و أسروا أخت الإمبراطور أنوريوس. كان

1 - فرح ، نعيم: تاريخ بيزنطة السياسي، ط 3، جامعة دمشق 1998 - 1999، ص 76.
2 - Krause, Johann Christoph: Geschichte der wichtigsten Begebenheiten des heutigen Europa, Bd. 2, Halle, 1790, S. 133f.

لحادث سقوط روما بيد البرابرة في هذا العام نتائج مهمة ، وشكل سابقة خطيرة في تاريخ الإمبراطورية، حيث إن روما لم تسقط في أيدي أعدائها منذ عام 387 ق.م .¹

بعد اجتياح روما و نهبها تابع القوط الغربيون غزواتهم إلى جنوب إيطاليا و أرادوا احتلال صقلية و شمال إفريقيا، لكنهم تعرضوا لنكسة كبيرة حيث تعرضت سفنهم لعواصف مدمرة فاضطروا إلى الانسحاب، و الحدث الأبرز في هذه الحملة الفاشلة كان موت زعيم القوط الغربيين ألالرك².

انتخب القوط الغربيون بعد موت ألالرك شقيقه أوتولف قائداً لهم، فاوض زعيم القوط الجديد الإمبراطور أنوريوس حول السماح لشعبه بالإستييطان في جنوب غرب غاليا، وافق الإمبراطور على مطالب أوتولف و زوجه أخته التي حُطفت سابقاً من قبل القوط. النتيجة الأهم لهذا الاتفاق أن القوط الغربيين أسسوا لهم مملكة في القسم الجنوبي الغربي من غاليا و شمال أسبانيا في عام 419، و أصبحت مدينة تولوز عاصمة لهذه المملكة.

أصبح القوط الغربيون حلفاء وثيقين للرومان و يخضعون شكلياً لسلطة الإمبراطور الروماني، لكن مملكتهم حصلت على الاستقلال وأصبح لها ملكها الخاص على الرغم من أنه بقي يحمل لقب قائد روماني³.

اتجه القوط الغربيون إلى أسبانيا عام 507 و نقلوا مملكتهم إلى هناك بعد أن هزموا على يد الفرنجة⁴. حاول الإمبراطور البيزنطي جستينانوس الكبير احتلال

1 - Jochen : Spätantike und Völkerwaderung, S. 38f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 72.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 29.

مملكة القوط الغربيين في أسبانيا، لكن محاولته باءت بالفشل و بقي القوط الغربيون يحكمون أسبانيا حتى احتلها العرب المسلمون في بداية القرن الثامن الميلادي (711م) فتويت بذلك صفحة مملكة القوط الغربيين في التاريخ².

مملكة الفاندال و الألان:

الفاندال من الشعوب الجرمانية الشرقية، هاجروا من ساحل بحر البلطيق في وقت سابق لهجرة القوط. و مع بداية القرن الأول الميلادي تحركوا إلى سيليزيا و بوهيميا، تعرضت قبائلهم للتفرق و التبعثر. ونتيجة لضغط قبائل الهون اضطرت قبائل الفاندال و الألان و السوفي في نهاية عام 406 و بداية عام 407م للهجرة و عبور نهر الراين و الدخول إلى غاليا³.

ساعد هذه القبائل على الاستقرار في غاليا أن الإمبراطور أنوريوس اضطر إلى سحب قواته من غاليا قبل ذلك إلى إيطاليا للدفاع عن الإمبراطورية و حماية إيطاليا من الخطر القوطي لذلك لم تستطع الإمبراطورية الرومانية منع الفاندال و الألان من دخول غاليا أو مقاومتهم هناك على الأقل⁴.

عبر الفاندال و الألان في عام 410 إلى أسبانيا و ألبرتغال و طلبت روما من القوط الغربيين في عام 416 مهاجمة الفاندال و الألان و قصدت

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 74.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 29.

3 - Mannert, Konrad: Geschichte der Vandalen, Leipzig, 1785, S. 27f.

4- Jochen : Spätantike und Völkerwanderung, S. 39.

الإمبراطورية بذلك إضعاف الطرفين، و بعد ذلك طلبت من قبائل السوفي أداء نفس المهمة، فاضطر الفاندال و الألان إلى اللجوء إلى جنوب أسبانيا¹.

الحدث الأهم في عشرينيات القرن الخامس أن الفاندال استطاعوا بقيادة ملكهم الجديد جيسريك، الذي اعتلى العرش الملكي للفاندال في عام 428، أن يغادروا من أسبانيا و ينتقلوا إلى إفريقيا².

قبل قدوم الفاندال و معهم الألان إلى إفريقيا كانت قد نشبت هناك ثورة دعت لتطبيق مبادئ الدين المسيحي بين جميع المسيحيين و تحقيق العدالة الاجتماعية، لكن قوات الإمبراطورية الرومانية و بالاشتراك مع رجال الدين و الكنيسة و الأرستقراطيين أخمدت هذه الثورة بقوة السلاح، لذلك رحب الفقراء و المتمردون في شمال إفريقيا بالفاندال و الألان و استقبلوهم استقبال الفاتحين والمخلصين لهم من ظلم الرومان و استغلال الأغنياء، فسقطت قرطاجة بيد الفاندال و الألان في عام 439 و استمروا باحتلال المدن على الساحل الإفريقي و لم يأت عام 455م إلا و كان الفاندال و الألان قد احتلوا شمال إفريقيا كلها و اقتلعوا الوجود الروماني بشكل نهائي هناك³.

وصلت مملكة الفاندال و الألان في شمال إفريقيا إلى أوج قوتها على يد ملكها جيسريك الذي لم يكتف بالتوغل في شمال إفريقيا بل بنى أسطولاً قوياً في

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 77-78.

2 - Jochen: Spätantike und Völkerwanderung, S. 42.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 30.

البحر المتوسط، استطاع بفضل احتلال جزر البليار و سردينيا و كورسيكا و صقلية¹.

لم يتوقف طموح جيسريك هنا لكنه انتظر فرصة سانحة لمتابعة أعماله العسكرية، و جاءت الفرصة التي لا تعوز لاجتياح روما هذه المرة في عام 455. حيث ترجع الأحداث إلى مقتل الإمبراطور فالنتينوس الثالث في 455/3/16 على يد أحد أعضاء مجلس الشيوخ و هو بترونيوس. أجبر بترونيوس أرملة الإمبراطور (يودوكسيا) على الزواج منه ، فسارعت يودوكسيا إلى طلب المساعدة من الفاندال².

هذا ماكان ينتظره جيسريك، لذلك فهو لم يتوان عن تلبية طلب يودوكسيا واستغل الحدث لتحقيق مصالحه، فقاد أسطولاً و اتجه إلى روما التي دخلها في 455/6/2 و قابل البابا ليو الأول (440 - 461 م) الملك جيسريك على أبواب مدينة روما و أخذ منه تعهداً بالحفاظ على الكنائس وعدم حرق المنشآت و قتل الأبرياء، إلا أنه لم يستطع أخذ ضمان من الملك جيسريك بعدم نهب المدينة، حيث قام الجيش الفاندالي بنهب روما لمدة أربعة عشر يوماً، و عاد بعدها جيسريك إلى شمال إفريقيا مصطحباً معه أرملة الإمبراطور فالنتينوس الثالث (يودوكسيا) و ابنتيها و الغنائم الثمينة و أعداداً كبيرة من العبيد³.

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 73.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 79.

3 - Jochen: Spätantike und Völkerwanderung, S. 45.

نتيجة لفظاعة الأعمال التي ارتكبتها الجيش الفاندالي في روما و في أماكن أخرى أصبحت كلمة فانداليزم Vandalism (الفندالية) تستخدم في اللغات الأوروبية لتدل على معنى الهمجية و تدمير مظاهر الحضارة.

تؤشر استباحة الفاندال و الألان لمدينة روما (رمز قوة وعزة الإمبراطورية الرومانية) على أن مجد الإمبراطورية و تفوقها السياسي و الحربي قد ولى. هذا و قد استمرت مملكة الفاندال و الألان في شمال إفريقيا حوالي قرن من الزمن، بعد ذلك احتلها البيزنطيون في عام 534م في عهد الإمبراطور جستنيانوس الكبير فأصبحت بذلك شمال إفريقيا ولاية بيزنطية، و استمرت كذلك حتى احتلها العرب المسلمون في النصف الثاني من القرن السابع¹.

مملكة البرجنديين:

البرجنديون هم كما الفاندال و الألان قبائل جرمانية شرقية سكنوا في البداية بالقرب من بحر البلطيق في شمال شرق ألمانيا². اضطر البرجنديون للهجرة غرباً بسبب ضغط قبائل الهون عليهم، و وصلوا إلى حدود الإمبراطورية الرومانية التي حاولت منعهم من الإستيطان على حدودها و داخل أراضيها، لكن محاولتهم باءت بالفشل، و ذكر اسم البرجنديون في أحد الوثائق الرومانية في عام 280م حيث لقبهم الرومان بالأعداء الجدد للإمبراطورية³.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 31.

2 - Derichsweiler, Hermann: Geschichte der Burgunden bis zu ihrer Einverleibung ins Fränkische Reich, Münster, 1863, S. 5.

3 - Derichsweiler: Geschichte der Burgunden, S. 9.

قام البرجنديون و الألمان في عام 290م بغزوات جديدة ضد الإمبراطورية و عبروا الراين و وصلوا حتى غاليا.

لم تتسم العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية و البرجنديين بالعدائية دائماً ففي عام 370م تحالف الإمبراطور الروماني فالنتيانوس مع البرجنديين ضد الألمان و حاربهم على ضفاف الراين و أثبت البرجنديون مقدرة عسكرية مميزة فاجأت الإمبراطور نفسه¹.

بدأت في عامي 406 - 407م موجة هجرات جديدة نتيجة لضغط قبائل الهون مجدداً، و كانت لهذه الهجرات نتائج مهمة أكثر من سابقتها حيث استطاع البرجنديون احتلال مدينة فورمز Worms الألمانية واتخاذها عاصمة لمملكتهم و بدؤوا بالتوسع في جنوب شرق غاليا. و نتيجة لخطر الألمان كان الإمبراطور الروماني مضطراً لعقد صلح مع البرجنديين سمح لهم من خلاله بالإستيطان في الاماكن التي استولوا عليها، بالمقابل يلتزم البرجنديون بصد الهجمات المتوقعة من قبل الشعوب الجرمانية الأخرى ضد حدود الإمبراطورية الرومانية على طول نهر الراين².

وبعد أن استقر البرجنديون في جنوب شرق غاليا توسعوا في شمال أسبانيا و ضموها إلى مملكتهم³. نسج البرجنديون علاقات طيبة مع الإمبراطورية الشرقية و تميزت بولاء الملوك البرجنديين للأباطرة الشرقيين، بالمقابل أعطوهم ألقاب التشريف. أما علاقة البرجنديين بالفرنجة فانتسمت بالعدائية بين الطرفين و خاصة

1- Derichsweiler: Geschichte der Burgunden, S. 13f.

2 - Derichsweiler: Geschichte der Burgunden, S. 23.

3 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 30.

في عهد كلوفس الذي خاض حروباً طويلة ضدهم استمرت أكثر من عشر سنوات. هذا و لم تستمر مملكة البرجنديون طويلاً فقد تلاشت في الربع الأول من القرن السادس الميلادي لأنها لم تمتلك مقومات القوة و الصمود في زمن الأخطار و الحروب¹.

نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية على أيدي البرابرة:

لم يكد يأتي النصف الثاني للقرن الخامس الميلادي حتى كانت الإمبراطورية الرومانية قد تمزقت وضاع أجزاء كبيرة منها نتيجة لهجمات البرابرة و المشاكل الداخلية. فقد اضطرت الإمبراطورية الرومانية إلى سحب جيوشها من بريطانيا في عام 442م، في حين استولى الفاندال على ولاية إفريقية، و احتل القوط الغربيون و البرجنديون أسبانيا بالإضافة إلى المناطق الجنوبية الشرقية من غاليا، كما أن الألمان عبروا نهر الراين الأعلى و استقروا في الالزاس هذا و قد اجتاز الفرنجة الراين الأدنى و هكذا خسرت الإمبراطورية الغربية معظم أراضيها و هذا ما جعل الإمبراطورية في حال من الموت السريري و بانتظار رصاصة الرحمة². فبعد وفاة الإمبراطور بترونيوس عام 455م اعتلى عرش الإمبراطورية أفيتوس (455 - 456م) بتدخل من القوط الغربيين ثم أقحمت عناصر السوفي في نفسها في تعيين ماجوريان خلفاً له (457 - 461م) و أخذ البرابرة يتحكمون في مفاصل الإمبراطورية لكن لم يتجرأ أحد منهم على اعتلاء عرش الإمبراطورية.

تولى عرش الإمبراطورية بعد ماجوريان ثلاثة أباطرة هم سفريوس (461 - 465م) و أنثيموس (467 - 472م) و أولييريوس 472م كانوا جميعهم

1 - عمران: معالم أوروبا في العصور الوسطى، ص 76.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 76.

ضعفاء، كما حكم جليسيرئوس لمدة عام 473م و جولئوس نبوس عام 474م و بعده حكم الإمبراطور أورستس البانوني الذي أوصى بالعرش لولده رومولس أوجستولوس و هو طفل في السادسة من عمره¹.

في كل هذه الفترة كانت القوة الفعلية في إيطاليا بأيدي قلة قليلة من قادة الفرق الجرمانية المأجورة، و استطاع أحد قادة هذه الفرق الجرمانية و يدعى سكيري أودواكر Skire Odoaker أن يضع ختمه على نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية ويطلق رصاصه الرحمة عليها في عام 476 حيث أزاح آخر إمبراطور روماني غربي (رومولوس أغستولوس) عن عرشه².

انتخب الجرmaniون بعد ذلك القائد أودواكر ملكاً عليهم و طالبوه بالسماح لهم بالإستيطان على ثلث الأراضي الإيطالية. أودواكر بدوره أرسل الإشارة القيصرية إلى القيصر زينون (474 - 491م) قيصر الإمبراطورية الرومانية الشرقية الذي قبل ولاء أودواكر و عينه حاكماً تحت سلطته³. و هكذا يكون قد أسدل الستار على آخر صفحة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية الغربية.

هذا و قد اعتاد بعض المؤرخون إعطاء الأحداث التي جرت في سنة 476 أهمية أكثر مما تستحق، و اتخذوا من هذه السنة التي سقطت فيها الإمبراطورية الرومانية الغربية حداً فاصلاً بين عصرين، لكن يجب عدم المبالغة في هذه الأحداث لأن الإمبراطور الغربي كان في حقيقة الأمر لا يملك شيئاً من مظاهر القوة و السيطرة كما أن روما كانت قد اجتاحت و نُهبَت في عام 455م من قبل

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 83 - 84.

2 - jochen : Spätantike und Völkerwanderung, S. 8f.

3 - Elze: Eine europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 316.

الجرمانيين و كانت إيطاليا لفترة ليست بقصيرة مسرحاً لعبث كثير من القبائل الجرمانية التي جاءت إليها، بالإضافة إلى ذلك فإن عزل الإمبراطور الطفل رومولس أوغوستولوس على يد أوداكر عام 476م لم يحدث أي تغيير كبير في الواقع القائم فعلاً¹.

مملكة القوط الشرقيين:

لم تستمر سلطة أوداكر في إيطاليا لمدة طويلة، بل انتهى حكمه و حكم الجرمان العسكريين على أيدي القوط الشرقيين في سنة 493م². و القوط الشرقيون هم في الأصل قبائل بربرية جرمانية سكنوا في البداية شمال البحر الأسود. هذا و قد تعرض الشعب القوطي بشكل عام لخطر الهون، فاستطاع القوط الغربيون الهرب من الهون و استقروا في أراضي الإمبراطورية الرومانية، لكن القوط الشرقيون بقوا في أراضيهم في شمال البحر الاسود و صحيح أنهم احتفظوا بلقب مملكة إلا أنهم لم يتمتعوا بعد ذلك بالاستقلال بل ظلوا تابعين لسلطة الهون³.

بقي القوط الشرقيون قرابة سبع و سبعين عاماً تحت سيطرة الهون أي حتى عام 452م أي حتى توفي أتيلا و تفككت إمبراطوريته و أخذت الشعوب الخاضعة للهون تتحرر من سلطتهم. لقد وجد القوط الشرقيون أنفسهم بعد التحرر من سيطرة الهون في حال سيئة لما لحق بأقاليم الدانوب في ذلك الوقت من خراب و دمار

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 77.

2 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 32.

3 - Dahn, Felix: die Könige der Germanen; das Wesen des ältesten Königthums der germanischen Stämme und seine Geschichte bis zur auflösung des Karolingischen Rieches, München 1861, S. 56.

حتى أصبح العيش فيها أمراً صعباً، فاضطروا للاتجاه جنوباً داخل حدود الإمبراطورية مسببين مشاكل كثيرة للإمبراطورية الشرقية¹.

هذا و لم تقف الإمبراطورية الشرقية مكتوفة الأيدي أمام تحرك القوط الشرقيين و هزمت قواتهم و أجبرت أشهر أمراء القوط الشرقيين على تسليم ابنه تيودريك ذي السنوات الثماني كرهينة لدى الإمبراطور في القسطنطينية، بقي ملك القوط الشرقيين المستقبلي رهينة في القسطنطينية مدة عشر سنوات تربي خلالها على طريقة البلاط البيزنطي و تعلم فنون الإدارة و هذا ما سيكون له أثر كبير في طبيعة تيودريك حين سيصبح ملكاً على القوط الشرقيين².

بعدما عاد تيودريك من الأسر فوضه الإمبراطور زينون بالانقضاء على إيطاليا و محاربة أودواكر و كان سبب هذا التفويض أن الإمبراطور وجد أن أفضل وسيلة للتخلص من خطر القوط الشرقيين هو إبعادهم و إشغالهم بالحروب في إيطاليا.

توجه تيودريك إلى إيطاليا مع جيشه و شعبه في خريف 488 م، و في العام التالي استطاع تيودريك إحراز عدة انتصارات على أودواكر الذي اضطر للجوء إلى رافنا فحاصرها تيودريك لمدة عامين، تمكن القوط الشرقيون خلالها من إخضاع كل إيطاليا و استولوا على صقلية أيضاً.

انتهت المعارك باستسلام أودواكر بشرط تقسيم المملكة، لكن تيودريك دبر أمر اغتياله و انفرد تيودريك بحكم إيطاليا عام 493م، كما اعترف الإمبراطور البيزنطي بأناستاس ملكاً على إيطاليا. هذا و استخدم تيودريك سياسة الزواج

1- عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 85 - 86.

2 - Dahn: die Könige der Germanen, S. 63f.

السياسي ليعقد تحالفات مع معظم الملوك البرابرة، فقد تزوج شقيقة كلوفلس ملك الفرنجة، و زوج أخته لملك الفاندال و ابنة أخيه لملك الثورنجيين، و زوج إحدى بناته لملك القوط الغربيين و الأخرى لملك البرجنديين، و ظهر تيودريك و كأنه زعيم جميع البرابرة الذين استقروا في الإمبراطورية الغربية¹.

خشي الإمبراطور البيزنطي جستينانوس الأول من ازدياد نفوذ الملك القوطي تيودريك و أن يدفعه ذلك إلى تشكيل إمبراطورية من الممالك البربرية في غرب أوروبا، فأخذ يتحين الفرصة لضرب القوط الشرقيين و إضعافهم، و جاءت الفرصة بعد موت تيودريك في عام 526م، فقد خلفته ابنته الأرملة أمالاسونت وصية على ابنها أثالاريك حفيد الملك الراحل، و في عام 534م توفي وريث العرش القوطي أثالاريك فتزوجت أمه مرة ثانية من ابن عمها تيودات و هو آخر ذكر من أسرة تيودريك يحق له وراثة العرش الملكي.

لكن تيودات تخلص من زوجته و دبر موتها في عام 535م، فانفرد تيودات بعرش القوط الشرقيين. هنا استغل الإمبراطور البيزنطي جستينانوس الأول الأحداث لمصلحته و طالب بالتأثر لمقتل ابنة تيودريك و طلب من الجاني أن يتخلى له عن عرش إيطاليا، و مما لاشك فيه أن الإمبراطور كان يعلم أن هذا الطلب مرفوض سلفاً من تيودات².

أرسل الإمبراطور البيزنطي قواته على عجل لغزو إيطاليا. هذا و استمر القتال بين القوط الشرقيين و القوات الإمبراطورية مدة ثمانية و عشرين عاماً ، تتأوب الفريقان خلالها النصر و الهزائم.

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 99 - 100.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 32 - 33.

انتهى الأمر برجحان كفة قوات الإمبراطورية الشرقية، فاستطاع قائد قوات الإمبراطورية بليزاريوس احتلال صقلية و نابولي و روما، وأعاد جنوب إيطاليا و أقاليمها الوسطى إلى التبعية للإمبراطورية الشرقية و عاد بعد ذلك القائد بليزاريوس إلى القسطنطينية منتصراً.

لكن الذي حصل أن القوط الشرقيين استطاعوا تجميع قواتهم و انتخبوا زعيماً جديداً اسمه توتيل، الذي اتصف بالحنكة و الجسارة، اعتلى توتيل العرش الملكي للقوط الشرقيين في عام 541م. و قد استطاع القوط الشرقيون بفضل قيادة توتيل استعادة جميع الأراضي الإيطالية ما عدا رافنا.

لجأ توتيل إلى السياسة و طلب الصلح مع الإمبراطور أكثر من مرة، على أن يحكم إيطاليا مع الاعتراف بالتبعية للإمبراطورية الشرقية و عرض دفع الجزية أيضاً. لكن جستينانوس رفض هذا العرض و أرسل جيشه بقيادة نارسيس لإعادة احتلال إيطاليا، و نجح نارسيس بالمهمة الموكلة إليه و هزم القوط الشرقيين و سقط توتيل قتيلاً أثناء محاولته الفرار عام 552م¹.

و هكذا قضت جيوش الإمبراطور جستينانوس على مملكة القوط الشرقيين بعد أن استمرت أكثر من نصف قرن، و عادت إيطاليا إلى سيطرة الإمبراطورية الشرقية التي تعد نفسها الوريثة الشرعية الوحيدة للإمبراطورية الرومانية القديمة و استمرراً لها.

كل هذا الجهد المضني الذي بذلته الإمبراطورية البيزنطية لاستعادة إيطاليا إلا أنها لم تستطع الحفاظ على هذا الإنجاز المهم، فبعد موت الإمبراطور

1 - العريني: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص 133 - 135.

جستينانوس الأول في عام 565م و بثلاث سنوات فقط سنسقط إيطاليا بأيدي قوة بربرية أخرى و هي اللومبارديين¹.

مملكة اللومبارديين:

اللومبارديون هم قبائل جرمانية استوطنوا في القرن الأول الميلادي بالقرب من مصب نهر الألب. هذا و تميز اللومبارديون في الفترة الباكرا من تاريخهم بالقسوة و الوحشية و الميل لخوض الحروب، إلا أن أعدادهم كانت أقل من نظائرهم من الشعوب الجرمانية الأخرى، لكن هذا لم يقلل من أهميتهم.

لقد تحرك اللومبارديون إلى منطقة الدانوب الأوسط ضمن موجة هجرات القبائل الجرمانية التي أثارتها حرب الماركوماني (167 - 174م) في زمن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161 - 180م)².

أثبت اللومبارديون مقدرتهم العسكرية في حروبهم التي خاضوها، حيث وجد الإمبراطور البيزنطي جستينانوس الأول نفسه مضطراً لخطب ود اللومبارديين و تقربهم منه و ذلك للاستفادة من قدراتهم العسكرية في دفع خطر قبائل الجبيد المتزايد على الإمبراطورية، فعقد معهم معاهدة مفادها أن يسمح الإمبراطور للومبارديين بالاستيطان في إقليم بانونيا (يوغسلافيا حالياً) أي جوار الجبيد مقابل حماية الإمبراطورية البيزنطية من خطر قبائل الجبيدي.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 33.

2 - الحويري، محمود محمد: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة 568 - 774 م، ط1، دار المعارف، القاهرة 1986، ص 10 - 14.

قبل اللومبارديون دعوة الإمبراطور هذه و غادروا سهول هنغاريا إلى بانونيا و أقاموا في البلاد المعروفة حالياً باسم ستيريا و سالزبورغ و كارينثيا، حيث أصبح بإمكان المحاربين و المغامرين من اللومبارديين أن يتسلقوا جبال الألب المطلّة على إيطاليا، و هذا ما لم يقدر الإمبراطور خطورته المستقبلية¹.

تعرضت الإمبراطورية البيزنطية بعد موت الإمبراطور جستينانوس الأول إلى غارات جديدة، حيث أغار الأفار، و هم قبائل منغولية على الإمبراطورية و لم يستطع اللومبارديون مواجهتهم فاضطروا للهجرة، فكان المكان الطبيعي الذي سيتوجهون إليه هو إيطاليا، حيث قاد ملك اللومبارديين البوئين شعبه إلى إيطاليا في عام 568م و حاصروا مدينة بافيا لمدة ثلاث سنوات ثم تمكنوا من احتلالها و اتخاذها عاصمة لمملكتهم لما لها من أهمية استراتيجية².

و خلال حصار بافيا استطاع البوئين احتلال شمال إيطاليا و وسطها بعد أن خاض عدة معارك مع الحاميات البيزنطية (استخدم فيما بعد اسم لومبارديا للدلالة على شمال إيطاليا نسبةً إلى اللومبارديين). و أما مدينة روما و جوارها فبقيت خاضعة لسلطة بابا الفاتيكان، كما بقيت مدينة رافنا الإيطالية خاضعة للسلطات البيزنطية³.

على عكس القوط الشرقيين الذين دخلوا إيطاليا بزعامة تيودريك بوصفهم أصدقاء فإن اللومبارديين دخلوها بوصفهم أعداء علنيين للإمبراطورية البيزنطية، و لذلك لم يرغب عن بال الإمبراطورية البيزنطية يوماً أن اللومبارديين قد اغتصبوا

1 - الحويري: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة، ص 31.

2 - Elze: Eine europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 330f.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 34.

إيطاليا و ظل أباطرتها على مدى قرنين من الزمن يسعون بشتى الوسائل والسبل للقضاء على اللومبارديين و طردهم من إيطاليا¹. لكن هذا الأمر سوف لن يتحقق على أيدي البيزنطيين بل على أيدي الفرنجة.

لم يتمتع البوئين بنصره طويلاً حتى إنه لم ينل شرف الموت في معركة، بل مات مقتولاً نتيجةً لمكيدة دبرتها زوجته روزاموند في عام 572 م. هذا و لم يستطع اللومبارديون بسبب خلافاتهم الداخلية الاتفاق على اسم زعيم جديد يتولى المنصب الملكي فبقيت المملكة اللومبارية بين عامي 574 و 584م بدون ملك يحكمها و سميت هذه الفترة (بفترة الشغور). و أخيراً انتخب اللومبارديون ملكاً جديداً عليهم في ربيع 584م و يدعى أوثارى (584 - 590م) و قد استطاع أوثارى إخماد الفتن الداخلية و القضاء على الاضطرابات و أخضع كل الدوقيات اللومباردية لسلطته ، كما أوقف الحملات العسكرية العبثية و الفاشلة ضد جارته مملكة الفرنجة².

و لكن البيزنطيين الذين دأبوا على مناكفة اللومبارديين تواصلوا مع الفرنجة و وجدوا في مملكة الفرنجة حليفاً قوياً يساعدهم على تطويق اللومبارديين و محاربتهم فعدّوا تحالفاً معهم في عهد الإمبراطور موريس (582 - 602م)، ونتيجة لذلك شن الفرنجة هجوماً ناجحاً ضد اللومبارديين في عام 584، و تبعثها عدة حملات أخرى لكن لم تنكّل بالنجاح.

هذا و اعتلى أجيلولف (590 - 616م) العرش اللومباردي بعد موت أوثارى، و أول عمل قام به أجيلولف بعد وصوله للحكم هو عقد هدنة مع الفرنجة

1 - الحويري: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة، ص 53.

2 الحويري: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة، ص 53، 58، 64، 66.

ومن ثم رتب الوضع الداخلي في مملكته و ذلك بقضائه على بعض التمردات التي قامت ضده، و بعد ذلك لم يبق أمامه إلا حسم الموقف مع الإمبراطورية البيزنطية، لكن وصول البابا غريغوري الأول (590 - 604 م) إلى الكرسي البابوي غير حسابات أجيلولف، فقد اتخذ البابا الجديد خطوات جريئة ضد اللومبارديين و أخذ على عاتقه مسؤولية الدفاع عن روما.

إن ظهور البابوية القوي على الساحة الإيطالية سيلعب دوراً مهماً في الأحداث الإيطالية بعد ذلك، حيث إنه لم تستطع أي قوة من القوى المسيطرة على إيطاليا (اللومبارديون، البيزنطيون، البابوية) حسم النزاع لصالحها، و نتيجةً لذلك سوف تضطر هذه القوى و بمبادرة من البابا غريغوري الأول و بعد مفاوضات طويلة الى عقد اتفاقية سلام في عام 598م¹.

تعاقب العديد من الملوك على العرش اللومباردي بعد موت أجيلولف و لم تتغير كثيراً خارطة التقسيمات في إيطاليا بين القوى المسيطرة عليها، حتى اعتلى الملك أستولف (749 - 756 م) العرش اللومباردي، و وصلت المملكة اللومباردية في عهده إلى أقصى اتساعها بعد أن نجح في الاستيلاء على رافنا في عام 751م دون أي مقاومة من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (741 - 775 م) و بعد ذلك أراد أستولف إخضاع الممتلكات البابوية ذاتها لسلطته، حيث طلب من البابا ستيفان الثاني (752 - 757 م) أن تعترف روما بالتبعية له و دفع جزية سنوية أيضاً. و رداً على ذلك أصدر البابا ستيفان الثاني مرسوماً بالحرمان ضد الملك أستولف، لكن ذلك لم يجد نفعاً في إيقاف أستولف عن حده، فاضطر البابا إلى الفرار إلى غاليا في تشرين الأول 753م و طلب المساعدة من

1 - الحويري: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة، ص 71، 77، 78، 92، 97.

ملك الفرنجة بيبان القصير (751 - 768م) الذي استقبله بحفاوة و وعده بالمساعدة¹، و بالفعل عقد بيبان القصير تحالفاً مع البابا ضد اللومبارديين، و النتيجة كانت أن شن بيبان القصير حرباً على اللومبارديين و دخلت قواته شمال إيطاليا في عام 754م و حاصرت قواته الملك اللومباردي أستولف في معقله في بافيا، هذا و اضطر أستولف للاستسلام و توقيع اتفاقية رضوخ و تبعية مع الملك الفرنجي، و عاد البابا ستيفان الثاني إلى روما، لكن ما إن عاد بيبان القصير إلى غاليا حتى نقض أستولف الاتفاق مع الملك الفرنجي و حاصر روما في شتاء 755 - 756م.

و هذا ما تطلب عودة ملك الفرنجة بيبان القصير ثانية إلى إيطاليا و أنزل هزيمة منكرة باللومبارديين، لكن هذه المرة كانت شروط الملك الفرنجي أشد قسوة على أستولف، حيث أجبره على تقديم ثلث دخل ممتلكاته كجزية سنوية للفرنجة و إعطاء مدينة رافنا و عدداً آخر من المدن الإيطالية للفرنجة. هذه كانت بمثابة الضربة القاضية التي تلقاها اللومبارديون، فبعد موت أستولف 756م أخذت مملكة اللومبارديون تتلاشى شيئاً فشيئاً و لم تعد تشكل خطراً على أحد².

ممالك الأنغلو ساكسون :

خضعت بريطانيا للجيش الروماني في القرن الأول الميلادي، فأصبح سكانها منذ ذلك الوقت تابعين للسلطات الرومانية و تأثروا بحضارة الإمبراطورية

1 - Schneider, Peter: Byzanz 565- 1453, 3. Aufl, Oldenbourg.

München 2008, S. 20.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 125 - 126.

الرومانية¹. و قد استمرت السيطرة الرومانية على بريطانيا حتى بداية القرن الخامس الميلادي عندما تعرضت الإمبراطورية الرومانية لضغط الهجمات الجرمانية في غاليا، و اضطر القائد الروماني ستيليكو في عهد الإمبراطور أونوريوس إلى سحب القوات الرومانية الموجودة في بريطانيا للدفاع عن إيطاليا ضد القوط الغربيين². تلاحقت الأحداث بعد انسحاب القوات الرومانية من بريطانيا، حيث قامت عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال و في شبه جزيرة جيتلاند و هم (الإنجلز و الساكسون و الجوت) بمواصلة إغاراتهم على بريطانيا بعد انسحاب القوات الرومانية و استمرت هذه الهجمات طيلة مئة و خمسين عاماً. و لكن الذي ميز هذه الغارات أن الغزاة اصطحبوا معهم نساءهم و أولادهم بقصد الإستيطان و الاستقرار في بريطانيا.

هذا و تحقق للقبائل الأنغلوساكسونية مبتغاهم في القرن السادس الميلادي حيث اجتاحتها معظم بريطانيا التي أصبحت تعرف منذ القرن السادس بإنكلترا بدلاً من بريطانيا. و إذا ما تمت المقارنة بين الجرمان الذين استوطنوا فوق أراضي الإمبراطورية الرومانية بعد اجتياحها و بين الأنغلوساكسون الذين استوطنوا في بريطانيا يتضح أن القبائل الجرمانية استقرت جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين للإمبراطورية الرومانية بينما قام الأنغلوساكسون بطرد السكان الأصليين لبريطانيا و هم من الكلت و استوطنوا مكانهم³. هذا و لم يستطع الأنغلوساكسون من تأسيس وحدة سياسية في إنكلترا بل أسسوا سبع ممالك و سميت إنكلترا بالممالك السبع، و قد كان ثلاث ممالك منها إنكليزية و أربع ممالك ساكسونية، و كانت جميع هذه

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 34.

2 - طرخان: دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 149.

3 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 90.

الممالك مستقلة عن بعضها بعضاً و غالباً متناحرة ومتقاتلة فيما بينها¹، و قد استمرت الحروب و المنازعات بين هذه الممالك السبع حتى وصول اثلبرت إلى عرش مملكة كنت (560 - 616م) حيث استطاع فرض سيادته على الممالك الست الباقية. و قد كان لاعتناق اثلبرت المسيحية و وصول أوغسطين مبعوث البابا عن الكنيسة في 597م إلى إنكلترا دورٌ بارزٌ في انتشار المسيحية في إنكلترا و دخول إنكلترا في دائرة الكنيسة الغربية و ارتباطها مجدداً بمؤثرات الحضارة الغربية².

مملكة الفرنجة:

على الرغم من كثرة الأبحاث عن الفرنجة إلا أنه يبقى هناك بعض الغموض الذي يلف تاريخهم الباكر، و ظهر اسم الفرنجة لأول مرة في الكتابات الرومانية في منتصف القرن الثالث الميلادي و اتصف الفرنجة بالشجاعة و الحنكة و كانت تعني كلمة فرنجة الأحرار³. و قد أطلقها الرومان على الشعوب و القبائل التي كانت تستقل عن روما، و بعد ذلك اشتق اسم فرنسا من كلمة فرنجة، و قد سميت فرنسا سابقاً غاليا (أي بلاد الغال) نسبةً إلى سكانها الكلت الذين أطلق عليهم الرومان اسم الغال. هذا و قد بدأ الفرنجة يغيرون من وراء نهر الراين على غاليا منذ القرن الثالث الميلادي فوصلوا إلى ماينز في عام 240م و توغلوا مع الألمان باتجاه غاليا في عام 264م حيث دمروا و نهبوا مناطق كثيرة في غاليا و أسبانيا و استمرت هجمات الفرنجة على أقاليم الراين الرومانية طويلاً و في عام 355م

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 106.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 90 - 91.

3 - Schneider, Reinhard: das Frankenreich, 4.Aufl., Oldenbourg, München 2001, S. 8.

تعرض عدد كبير من أقاليم و مدن الراين للتدمير الكامل من قبل الفرنجة و الألمان و الساكسن¹. وبعد أن عجز الرومان عن صد الفرنجة، اضطروا إلى أن يسمحوا لهم بالاستقرار في القسم الشرقي من غاليا، شرط أن يكونوا حلفاء للإمبراطورية الرومانية و يدافعوا عن حدودها ضد هجمات الأعداء. كما أرسل الفرنجة عدداً من فرقهم العسكرية لموازنة الجيوش الرومانية في حروبها مع القبائل الجرمانية الأخرى. تطورت الأحداث بعد سقوط روما بيد البرابرة في 476م و سيطر الفرنجة على غاليا بأكملها و أسسوا فيها مملكتهم، مملكة الفرنجة²، و هذه المملكة سوف تكون موضوع الفصل التالي.

1 - Richter, Gustav: Annalen der Deutschen Geschichte im Mittelalter, Halle, 1873, S. 7, 11.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 35.

الفصل الثالث

مملكة الفرنجة في غاليا

مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الميروفينجية:

نشوء مملكة الفرنجة:

احتل الفرنجة منذ أواخر القرن الثالث جميع الأراضي الواقعة بين نهر الراين الأدنى ونهر الماين، واشهر قبائلهم هي: الشاماف، الشات، البروكتير، والريبوير والساليون. وعلى الرغم من نقص الوثائق التي تتحدث عن الفرنجة في بداياتهم، إلا إنه من المثبت أن قبائلهم شكلت اتحاداً قوياً ضد مصالح الإمبراطورية الرومانية، فهم كانوا تارة يدافعون عن أراضي الإمبراطورية ضد الأعداء المشتركين، وتارة يحاولون التوسع في أراضي الإمبراطورية الرومانية¹. وبعد كلوديو أول الملوك الفرنجة المعروفين تاريخاً، هذا الملك قاد شعبه و عبر به نهر الراين إلى غاليا واحتل تورنغن Thuringn في البداية وبعد ذلك احتل مدينة كامبريةCambray . لكن توفي كلوديو في عام 447 م واختلف الفرنجة في اختيار أحد ولديه ملكاً عليهم، حيث اختار قسم من الفرنجة الابن الأكبر لكلوديو ملكاً عليهم بينما اختار القسم الآخر الابن الثاني ملكاً. وقد أدى هذا الانقسام إلى نشوب حرب بين الإخوة واستعان أحدهما بالإمبراطورية الرومانية والآخر بقبائل الهون بقيادة أتिला، وكانت نتيجة الصراع فوز الأخ الأصغر الذي استعان بالرومان

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 76.

واسمه ميروفيه.¹ وعلى الرغم من تشكيك بعض المؤرخين بنسب ميروفيه وبأنه ليس ابن الملك كلوديو، لكن من المؤكد أن الأسرة الميروفينجية تنسب لهذا الملك. بعد موت ميروفيه خلفه على عرش الفرنجة الملك شليدريك الأول (460-482م) وهو في الغالب أحد أبناء ميروفيه. ويعد شليدريك أول ملك ميروفينجي بشكل موثق، حيث اكتشف قبره في عام 1653م. وفيه وجدت الشارات الملكية والختم.²

الملك المؤسس كلوفس الأول:

بعد موت الملك شليدريك الأول خلفه ابنه كلوفس الأول (482-511م) على العرش الفرنجي ويعتبر كلوفس المؤسس الحقيقي لمملكة الفرنجة.³ كان عمر كلوفس عندما اعتلى العرش خمسة عشر عاماً، ولم تكن مملكة الفرنجة تشغل إلا جزءاً صغيراً من غالية، حيث كان هناك قبائل جرمانية أخرى تسيطر على أراضي الراين، فكانت مملكتا القوط الغربيين والبرجنديين القائمتين في جنوب غالية قد استقلتا بشكل كامل بعد سقوط روما في عام 476 م. أما الطرف الشمالي من غالية فكان تابعاً للإمبراطورية الرومانية وكان يشكو من الضعف والإنهاك. وكان أهم عمل قام به كلوفس بعد اعتلائه العرش، هو شن حرب كبيرة على هذه الممالك والقضاء عليها وضم أقاليمها وأراضيها إلى مملكته.⁴ هذا ولم يكن كلوفس

1 - Mannert, Konrad: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 1, Cotta, Stuttgart und Tübingen 1829, S. 97-100.

2 - Schneider, Reinhard: Das Frakreich, 4. Aufl, Oldenbourg, München 2001, S. 11.

3 - Priz, Friedrich: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056, 2. Aufl., München 1993, S. 60.

4 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 89.

قائدا عسكريا ناجحا فحسب، بل كان سياسياً محنكاً ويعرف كيف يستفيد من أي فرصة، فقد أعلن في أحد معاركه مع الألمان 497\496م أنه سوف يتخلى عن وثنيته ويعتق الدين المسيحي إذا أهداه الرب المسيحي النصر في هذه المعركة. وبالفعل فقد كان النصر حليف كلوفس في المعركة وأعلن كلوفس اعتناقه الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي. ولم يكن اعتناق كلوفس المذهب الكاثوليكي اعتبارياً بل كان مخططاً له بدقة فائقة ورافقته بروباغندا دعائية، فقد اختار يوم تعميده في عيد ميلاد السيد المسيح من عام 498م كما تم تعميد 3000 جندي مرافق له في نفس اليوم. إن اختيار كلوفس للمذهب الكاثوليكي له ولشعبه، على عكس كل الممالك الجرمانية الأخرى التي اعتنقت الديانة المسيحية على المذهب الأريوسي (نسبة إلى أريوس مؤسس المذهب الأريوسي في الإسكندرية) ضمن له مساعدة رجال الدين الرومان ووقوفهم إلى جانبه وضمن أيضاً دعم وعطف كل أتباع المذهب الكاثوليكي¹. وهكذا فقد أيد رجال الدين الكاثوليك كلوفس في مشاريعه التوسعية²، وبالمقابل كان لرجال الدين مصلحتهم في هذا التأييد، حيث أصبح الملك كلوفس الحامي الأول لأملاك وثروات الكنيسة الكاثوليكية، فمنع البرابرة الأريوسيين من اغتصابها. وهكذا كان للسياسة في اعتناق كلوفس للكاثوليكية نصيب أكبر من الاعتبارات الدينية، وسوف تثمر هذه الخطوة له ولمملكته نتائج إيجابية كثيرة³.

1 - Schneider: Das Frankreich. S. 13.

2 - محمود، منى حسن أحمد: قاعدة نربونة ودورها في الجهاد ضد الفرنجة والتوسع في أوربا 720-766م، ط1، عين، النهر 1999، ص.12.

3 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 41-42.

بعد النجاح الكبير الذي حققه كلوفس في أوربة الغربية لم يبق أمام الإمبراطور البيزنطي أناستاس الأول (491-518م) إلا الاعتراف بكلوفس وتعيينه نائباً له في الحكم ومنحه لقب قنصل. وبعد نيل كلوفس هذا المنصب الجديد نقل مركز حكمه من مدينة تور إلى مدينة باريس في عام 508م¹.

مملكة الفرنجة بعد كلوفس:

توفي كلوفس في عام 511م عن عمر يناهز 45 عاماً². هذا وقد استمرت الأسرة الميروفينجية في حكم الفرنجة حتى عام 752م. وجرت العادة عند المؤرخين على تقسيم فترة حكم خلفاء كلوفس إلى دورين أو فترتين:

- 1- فترة القوة والتوسع ويمتد هذا الدور بين عامي 511-639م.
- 2- فترة الانحطاط وحكم الملوك الكسالي ويمتد بين عامي 639-752م³.

أولاً: مملكة الفرنجة في فترة القوة والتوسع:

كان كلوفس قد قسم مملكته بين أولاده الأربعة (تيودريك، شلودومر، شيلدبرت، وكلوتر) قبل وفاته. حيث حكم الابن الأكبر تيودريك (511-533م) مايعرف اليوم بأقاليم تريير (Trier) و ماينز (Mainz) و كولن (Köln) و الأراضي المحيطة ب باسل (Basel) ورايمز (Reims) التي

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 97.

2 - Schneider: Das Frankreich, S. 13.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 81-82.

جعل منها مركزا لحكومته¹. أما شلودومر (511-524م) فقد أخذ قسماً من منطقة أورليان في وسط فرنسا حالياً، وأعطيت المنطقة المحيطة لباريس للابن الثالث شيلدبرت (511-558م)، أما الابن الأصغر كلوتر (511-561م) فقد أخذ ماتبقى من غالية وعاصمته مدينة سوسون (Soissons)². سار أبناء كلوفس على نهج والدهم التوسعي، فقاموا بغزو أسبانيا وإيطاليا وألمانيا وضموا أراضي جديدة لمملكة الفرنجة. وفي عام 558م أصبح كلوتر ملكاً وحيداً على مملكة الفرنجة بعد أن مات كل أخوته وأولادهم³. هذا وقد بقيت مملكة الفرنجة موحدة حتى وفاة كلوتر في عام 560/561م لأن كلوتر سار على نهج والده وقسم المملكة بين أولاده: شاريبرت، وغونترام، و شيلبيرش، والولد الأخير زيغيبرت⁴. توفي غونترام بعد ثلاث سنوات فقط من استلامه الحكم، لتتشب بعد ذلك نزاعات بين الورثة وقد زادت دموية هذه النزاعات بعد موت إخوة غونترام على التوالي⁵.

لقد تشكلت المملكة الفرنجية من ثلاث مقاطعات أساسية تتميز كل منها عن الأخرى بصفات بشرية و إجتماعية خاصة وهذه المقاطعات هي:

1 - Prinz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056. S. 66.

2 - Schneider: Das Frankreich. S. 14.

3 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص42.

4 - Prinz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056. S. 70.

5 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, S. 236ff.

أ- مقاطعة أوسترازا: وتشكل هذه المقاطعة القسم الشمالي الشرقي من المملكة الفرنجية (غاليا)، حيث يقطن فيها الفرنجة إلى جانب القبائل الجرمانية الأخرى، وأغلب سكانها فلاحون أحرار يعملون بالزراعة.

ب- مقاطعة نيستريا: وتقع في الشمال الغربي من غاليا وسكانها هم رومان وغالييون، وقد انتشرت في هذه المنطقة الملكيات الواسعة للإقطاعيين وبالتالي فقد كان عدد العبيد كبيراً في هذه المقاطعة، وعدد الفلاحين الأحرار قليلاً.

ت- مقاطعة برجنديا: كانت في القسم الجنوبي الشرقي من غاليا، وسكانها هم البرجنديون وكان معظمهم من الفلاحين الأحرار¹.

ونشبت بين هذه المقاطعات (أوسترازا، نيستريا، برجنديا) نزاعات كثيرة بين بعضها بعضاً من جانب وبين الملوك فيها وكبار الإقطاعيين الذين قوي ساعدهم وتمردوا على السلطة الملكية من جهة أخرى. استمرت القلاقل والمشاكل في هذه المقاطعات حتى استطاع ملك مقاطعة نيستريا (كلوتر الثاني) إخضاع مقاطعتي أوسترازا و برجنديا لسلطته في عام 613م ليصبح بذلك الملك الوحيد على مملكة الفرنجة واستمر كذلك حتى موته في عام 629م². وقد اعتلى عرش المملكة الفرنجية بعد موت كلوتر ابنه داغوبيرت الأول (629-639م) وسار على خطى والده السياسية، ومن أهم أعماله أنه نقل مركز حكمه من مدينة ميتس (Metz) إلى باريس وأخضع نيستريا وبورغند بعد شنه حملة عسكرية خاطفة عليها كما قام

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص43.

2 - Schneider: Das Frankreich. S. 16f.

بإصلاحات إدارية هامة. هذا ويعد داغوبيرت بحق آخر الملوك الميروفنجيين الأقوياء¹.

ثانياً: فترة الانحطاط وحكم الملوك الكسالي:

امتدت هذه الفترة بين عامي 639-752م. حيث بدأت هذه الفترة بموت داغوبيرت الأول عام 639م، فبعد هذا التاريخ أصبحت الأسرة الميروفنجية منهكة وغير قادرة على التجديد والاستمرار وأدى ذلك إلى انحطاط مملكة الفرنجة وخرابها، وأخذت الممالك الجرمانية بالانفصال عنها. حتى إن الوفضى سادت في غالبا في داخل الممالك الصغيرة، وأخذت ممالك أوسترازيا ونوستريا وبرجنديا تتآكل بعضها بعضاً. وفي هذه الفترة وصل إلى العرش الملكي ملوك غير مؤهلين وصلوا إلى الملك أما بسبب وفاة آبائهم بسن مبكر أو يكونون صغار السن، مما فسح المجال لحجاب القصر الملكي لتأدية الدور الأكثر فعالية في المملكة والإمساك بزمام الأمور فيها². وقد كانت وظيفة حاحب في البداية متواضعة ويقوم صاحبها بالإشراف على خدم القصر وموظفيه، لكنها أخذت تتطور تدريجياً حتى أصبح شاعها بمثابة الوزير الأول والمستشار في الدولة، الذي يشرف على كل الإيرادات الملكية ويوزع المناصب والوظائف كما يريد. وتعاقب على هذا المنصب منذ عام 614 سلسلة من النبلاء عن طريق الوراثة³. هذا ولم يبق للملك إلا اللقب واستقبال السفراء وتوقيع ما يطلب منه توقيعاً من مراسيم وقرارات. ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل نشب الصراع بين حجاب القصور أنفسهم على المصالح والنفوذ. فقد نشبت الحرب بين مملكتي، نستريا و أستراليا، حيث إنتصر في البداية حاحب

1 - Prinz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056. S. 71f.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 84-86.

3 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 148.

قصر نيستريا، وبعد فترة استطاع حاجب قصر أوسترازا (بيبيان الثاني) أن يحسم الصراع لصالحه، فأصبح الحاكم الفعلي في الممالك الثلاث أوسترازا، نيستريا، برجنديا، وقد بقي في منصب الحاجب حتى عام 713م¹.

بعد موت حاجب القصر في أوسترازا بيبان الثاني في 16 كانون الأول 714م خلفه في هذا المنصب ابنه غير الشرعي شارل². هذا الابن الغير شرعي اثبت شجاعة منقطعة النظير في كل أعماله فلقب نظراً لشجاعته ب (مارتل) أو ب (همر) أي المطرقة. كانت مملكة الفرنجة في بداية عهد شارل مارتل تعاني من الاضطرابات والمشاكل الداخلية و مهددة بالأخطار من كافة الجهات، ففي الشمال بدأ الساكسون والبافار والألمان يهددون غاليا ويغيرون عليها، أما جنوباً فقد كان العرب المسلمون قد احتلوا أسبانيا وبدؤوا يتوغلون في غاليا. وأول عمل قام به شارل هو القضاء على التمردات الداخلية واستغرق ذلك قرابة عشر سنوات حتى استتبت الامور الداخلية لمصلحته، وبعدها استطاع التفرغ لمقارعة الأعداء الخارجيين³. فقام بخمس حملات ضد الساكسون بين عامي 718-738م و بحملتين ضد الفريزيين في عامي 719 و 738م وحملة ضد الألمان في عام 730م وشن أيضاً حملتين على البافاريين في عامي 725 و 728م⁴.

وكان الخطر الأكبر الذي هدد مملكة الفرنجة هو خطر العرب المسلمين من الجنوب الذين كانوا قد احتلوا الأندلس في عام 711م ووصلوا إلى ناربون في عام

1 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص44.

2 - Prinz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056. S. 82.

3 - Pfister, Johann Christian von: Geschichte der Deutschen nach den Quellen. Bd. 1, Hamburg, 1829, S. 385f.

4 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 148.

720م وبعد ذلك وصلوا إلى برجنديا مشكلين بذلك خطراً مباشراً على مملكة الفرنجة¹. حشد شارل مارتل قواته لوقف زحف القوات الإسلامية بقيادة عبد الرحمن الغافقي، و التقى الجيشان في تشرين الأول من عام 732م قرب مدينة بواتيه، حيث وقعت معارك ضارية بين الجيشين استمرت سبعة أيام كانت نتيجتها النهائية انتصار شارل مارتل ومقتل قائد الجيش العربي عبد الرحمن الغافقي². وأصبح شارل مارتل بعد انتصاره على العرب المسلمين بطل المسيحية الأوربية الأول الذي حمى العالم الغربي من الاجتياح الإسلامي، واستثمر كارل هذا الانتصار لتقوية نفوذه. هذا وقد مات الملك الفرنجي تييري الرابع في عام 737م، فترك شارل مارتل العرش الفرنجي فارغاً كما لم ينصب نفسه ملكاً، بل بقي يحكم المملكة الفرنجية بصفة حاجب وليس بصفة ملوك حتى مماته في عام 741³.

انتقال الملك من الأسرة الميروفينجية إلى الأسرة الكارولنجية:

مات شارل مارتل في 22 تشرين الأول من عام 741م وكان قد قسم منصب حاجب القصر بين ولديه كارلومان و بيبيان الملقب بالقصير⁴. وبقي العرش الملكي فارغاً حتى بداية عام 743م حيث أعطي اللقب الملكي ل شليدريك الثالث وهو من الأسر الميروفينجية⁵. لم يكن هذا المنصب إلا شكلياً حيث لم يكن

1 - Schneider: Das Frankreich. S. 21.

2 - Breysig, Theodor: Jahrbücher des fränkischen Reiches 714-741 die Zeit Karl Martells, Leipzig, 1869, S. 67f.

3 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 45.

4 - Schneider: Das Frankreich. S. 21.

5 - Kaiser, Reinhold: Das Römische Erbe und das Merowingerreich, 3. Aufl., München 2004, S. 40f.

بيد الملك الجديد أي سلطة فعلية. وبعد فترة قصيرة تنازل كارلومان لأخيه بيبيان القصير عن الحكم ليصبح بيبيان في منصب حاجب القصر لوحده¹.

عمل بيبيان إلى توطيد علاقته مع الكنيسة والفاتيكان بعد أن كان قد أصابها التوتر في عهد والده. وأخذ يحضر الأجواء للإطاحة بالملك شليدريك الثالث، حيث عقد المجلس العام للشعب الفرنجي اجتماعاً في عام 751م وتقرر في هذا المجلس عزل شليدريك آخر ملوك الأسرة الميروفنجية وإحلال بيبيان القصير مكانه على العرش الملكي. ولكي يصبغ بيبيان اعتلائه العرش الملكي بالشرعية، قام بمراسلة البابا زكريا في روما لاستشارته والاستئناس برأيه، ولأن البابوية وجدت في بيبيان الرجل الوحيد القوي الذي باستطاعته أن يساعد البابوية ضد اللومبارديين، فقد رحبت بهذه الخطوة وكان رد البابا زكريا: أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية في مملكة الفرنجة². وهكذا تشجع بيبيان القصير وأعلن نفسه ملكاً على الفرنجة في عام 752م بعد أن عزل شليدريك ونفاه إلى أحد الأديرة. وبذلك يكون قد انتهى حكم الأسرة الميروفنجية وبدأ عهد الأسرة الكارولنجية على العرش الملكي الفرنجي³.

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 92.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 151.

3 - Ebeling, August Wilhelm: Übersicht der Deutschen

Verfassungsgeschichte. Bd1. Meriwinger u. Karolinger. Schwerin, 1857,

S. 12.

مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الكارولنجية:

بدأ حكم الأسرة الكارولنجية بتتويج بيبين القصير (رئيس بلاط أوسترازيا) ملكاً على الفرنجة في عام 752م، وأصبحت مملكة الفرنجة في عهد بيبين أعظم قوة سياسية في أوروبا الغربية. وكان من أسباب ازدياد قوتها تحالفها مع الفاتيكان. ففي عام 751م كانت إيطاليا مهددة من قبل اللومبارديين الذين احتلوا المدينة القيصرية رافنا في هذا العام وعندما زاد ضغط اللومبارديين في العام التالي أي 752م طلب البابا الجديد ستيفان الثاني المساعدة من الإمبراطورية البيزنطية أولاً، لكن طلب النجدة هذا لم يلق اذانا صاغية في بيزنطة، ولم يبق أمام البابا إلا طلب النجدة من الملك الكارولنجي بيبين القصير، فذهب البابا ستيفان الثاني بنفسه إلى الملك بيبين وعقد معه تحالفاً في 7 كانون الثاني 754م. تعهد بموجبه بيبين القصير بمساعدة البابا في استرجاع الأراضي التي احتلها اللومبارديين¹. ومقابل ذلك توج البابا ستيفان بيده الملك بيبين القصير كما توج زوجته وولديه شارلمان و كارلمان، كما هدد البابا أي شخص يحاول انتزاع الملك من أسرة بيبين بالحرمان من الكنيسة. وقد عزز هذا التتويج روابط التحالف بين البابوية وملك الفرنجة. هذا وقد نفذ بيبين وعده للبابا وعبر جبال الألب بقواته وحاصر زعيم اللومبارديين أستولوف في مدينة بافيا في عام 754م، مما أجبر أستولوف إلى أن يعيد للبابا رافنا وكل الأراضي التي كان قد احتلها، بالإضافة إلى اعترافه بالتبعية للفرنجة. لكن وبعد ثلاثة أعوام قام الزعيم اللومباردي بإعادة احتلال ماكان قد احتله سابقاً في إيطاليا، فعاد بيبين القصير مجدداً إلى إيطاليا وحاصر اللومبارديين في بافيا، واضطر أستولوف مجدداً إلى إعادة الأقاليم التي احتلها للبابوية مع دفع غرامه

1 - Schneider: Das Frankreich. S. 24.

مالية للفرنجة وتجديد خضوعه لهم. وهكذا استطاع البابا أن يصبح سيداً على دوقية روما وإقليم رافنا، وأصبح للبابوية دولة في وسط إيطاليا¹.

كانت الركيزة الأساسية لسياسة بيبين القصير الخارجية هي التحالف مع البابوية و دعمها و هذا ما وسع نفوذ بيبين ليشمل إيطاليا، بالإضافة إلى ذلك قام بيبين بحملات عسكرية لدعم سياسته الخارجية فانترع سبتمانيا (Septimaniens) من العرب المسلمين و احتل أكيثانيا بعد حروب طويلة و ضمها لمملكته. كما أخضع البافار و الساكسون لسلطته و أجبرهم على دفع جزية سنوية له. و بالإضافة إلى السياسة الخارجية الناجحة لبيبين فقد تميزت سياسته الداخلية بالتنظيم و التخطيط الناجح حيث عمل على دعم الكنيسة و حسن وضعها الاقتصادي و قدم المنح لها، و ساعد في بناء كنائس جديدة، كما نظم الإقطاع و ضمن لمملكته استقراراً اجتماعياً بشكل نسبي². و رغم الجهود الكبيرة التي قام بها بيبين لتوحيد مملكته و تنظيمها، إلا أن مملكته وقعت في الخطر عندما قسمها بين ولديه شارلمان (شارل العظيم) و كارلومان قبيل وفاته في 24 أيلول 768م³.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 51-52.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 98 - 100.

3 - Schneider: das franreich, S. 25f.

مملكة الفرنجة في عهد شارلمان (شارل الكبير) 768 - 814م

1 - شارلمان ملكاً وحيداً على الفرنجة:

سار بيبيان القصير على نهج الملوك الميروفنجيين في تقسيم مملكة الفرنجة بين الأبناء¹. حيث قسم مملكته بعد أن أصابه المرض بين ولديه: الابن الأكبر شارلمان (شارل) و لقب ب(شارل الكبير) المولود في عام 747م، أخذ القسم الشمالي من مقاطعة أوسترازايا و من مقاطعة نيستريا و استلم عرش مملكته في 9 تشرين الأول 768م في مدينة نويون (Noyon)، أما الولد الثاني كارلومان المولود في عام 751م فقد ضمت مملكته بورغندا و البروفنس و ألمانيا و اللزاس و سبتمانيا و جزءاً من أكيثانيا، هذا و اعتلى كارلومان عرش مملكته في سواسون (Soissons) في نفس اليوم الذي اعتلى فيه أخوه شارلمان عرش مملكته². و ما أن اعتلى شارلمان و كارلومان عرشيهما حتى بدأت الخلافات بين الإخوة و تطورت هذه الخلافات و ظهرت بشكل علني عندما قامت ثورة في أكيثانيا في عام 769م ضد شارلمان الذي طلب مساعدة أخيه كارلومان للقضاء على هذه الثورة، إلا أن كارلومان لم يقدم أي مساعدة لأخيه، و لكن استطاع شارلمان أخيراً أن يقضي على الثورة في أكيثانيا. زادت الخلافات بين الإخوة و تدخلت أمهما (بيرتراد) لمنع وقوع الحرب بين الملكين و نجحت في المصالحة بين ولديها. كما أدت الأم (بيرتراد) دوراً مهماً في عقد تحالف بين ابنها شارلمان و الملك اللومباردي و توج هذا التحالف بزواج شارلمان من ابنة الملك اللومباردي في عام

1 - Seidel. Grünther Carl Friedrich: die Franken und Karl der Große
Berlin 1793, S. 40f.

2 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056. S. 92.

770م¹. لكن هذا التحالف الذي أقلق البابوية لم يستمر طويلاً حيث سرعان ما انفصل شارلمان عن زوجته اللومباردية في عام 771م و هو ما ارتاحت له البابوية التي عدت أن التحالف الفرنجي اللومباردي كان موجهاً ضدها².

جاء موت كارلومان في عام 771م ليجعل شارلمان ملكاً وحيداً على مملكة الفرنجة بقسميها³، لكن جيربيرجا أرملة أخيه كارلومان لجأت مع ولديها إلى الملك اللومباردي ديسيريوس في إيطاليا الذي تعهد بحمايتها هي و أطفالها⁴.

على الرغم من أن الملك اللومباردي ديسيريوس لم يكن لديه علاقة طيبة مع كارلومان أثناء فترة حكمه، (حتى إن كارلومان مارس في فترة حكمه القصيرة سياسة معادية للملك اللومباردي)، لكن الملك اللومباردي ديسيريوس أراد استغلال فرصة لجوء أرملة كارلومان إليه كورقة ضغط ضد شارلمان. هذا و قد طلب الملك اللومباردي من البابا هادريان الأول (772 - 795م) تنويع ولدي كارلومان كملكين وريثين لوالدهما. شارلمان و الذي كان في هذه الأثناء قد انفصل عن زوجته ابنة الملك اللومباردي كان قد تلقى أيضاً طلباً من البابا هادريان الأول في بداية عام 773م لمساعدته عسكرياً ضد الملك اللومباردي. لكن شارلمان تمهل في البداية في تقديم مساعدة عسكرية للبابا و غالباً كان ذلك بسبب خطر الساكسن على مملكته حيث كان في حالة حرب معهم و هو لا يريد القتال على جبهتين في

1 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken.
Bd. 1, S. 336 - 338.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 169.

3 - Hilgers: Karls der Große und die natürlichen Grenzen Frankreichs,
Fr. Stein. Saarlouis, 1866, S. 26.

4 - Bredow. Gabriel: Carl der Große. Altona, 1814, S. 39.

الوقت نفسه، أو لا يملك القوة العسكرية الكافية لشن حربين معاً. لكن حسابات شارلمان تغيرت عندما قام ديسيريوس بشن حملة عسكرية على روما، حيث قرر شارلمان التدخل فوراً لوقف القوات اللومباردية خوفاً من سيطرة ديسيريوس على إيطاليا.

غادر شارلمان مع قواته من كينف (Genf) باتجاه إيطاليا و حاصر عاصمة اللومبارديين بافيا، التي استسلمت في حزيران 774م¹. أعلن شارلمان نفسه ملكاً على اللومبارديين و أضاف لقب ملك اللومبارديين إلى ألقابه. و اصطحب شارلمان الملك المهزوم ديسيريوس إلى فرنسا حيث عاش بقية حياته منفياً في دير كوربي (Corbie) في فرنسا. هذا و تمكن ابن الملك ديسيريوس و يدعى أدليش (Adelchis) من الهرب إلى القسطنطينية². هذا و دفع البابا هادريان الأول ثمناً غالياً لشارلمان مقابل تخليصه من الخطر اللومباردي، حيث أعاد شارلمان تقسيم الأقالم الإيطالية، و احتفظ بالقسم الكبير من هذه الأقاليم لنفسه³.

و فيما بعد ثار اللومبارديون على سلطة شارلمان و أعدوا خطة لاستدعاء ابن ديسيريوس الهارب إلى القسطنطينية و تنصيبه ملكاً عليهم. و قد أيدت الإمبراطورية البيزنطية اللومبارديين في تمردهم هذا، لأن بيزنطة لم تكن مرتاحة

1- Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056. S. 93f.

2 - Schneider: das Frankreich, S. 27.

3 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056. S. 94.

لسيطرة شارلمان على إيطاليا. هذا و قد عاد شارلمان بقواته إلى إيطاليا في عام 780م و أخمد التمرد و فرض على اللومبارديين القوانين الفرنجية¹.

2 - حروب شارلمان مع الساكسون:

تعد الحروب التي خاضها شارلمان مع الساكسون من أطول الحروب التي خاضها الفرنجة فقد استمرت هذه الحروب لأكثر من ثلاثة و ثلاثين عاماً (772-804م). وكانت هذه الحروب استثنائية في قساوتها و ضراوتها فقد كان الساكسون مشهورين بقساوتهم و عنفهم بالإضافة إلى وثيتهم، ومن ناحية أخرى لم تكن هذه الحروب حرباً بين قوتين عسكريتين فقط بل كانت حرباً بين ديانتين (المسيحية و الوثنية)².

و تقع ساكسونيا شمال غاليا و تمتد على السهول بين البلاد المنخفضة و نهر الألب و بحر الشمال و تصل بحر البلطيق على مشارف البلاد الدانيماركية³. و قد ورث شارلمان الحروب مع الساكسون عن جده شارل مارتل و أبيه بيبين القصير⁴. بدأ شارلمان حروبه ضد الساكسون في عام 772م لكن هذه الحرب لم تكمل بالنتائج المرجوة و ربما كان سبب ذلك استهانة شارلمان في البداية بقوة الساكسون. هذا و استغل الساكسون وجود شارلمان في إيطاليا عام 774م و شنوا هجوماً معاكساً على الفرنجة واحتلوا هسن (Hessen)، لكن شارلمان شن هجوماً

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 53.

2 - اينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، ط1، دار حسان، دمشق 1989، ص 65 - 66.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 160.

4 - صبره، عفاف سيد: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، بيروت 1982، ص 54.

كبيراً على الساكسون في عام 775م بعد عودته من إيطاليا و استطاع احتلال إقليم الساكسون كله وأجبر قادة الساكسون بالاعتراف بسيادته عليهم و التبعية له لكن الساكسون انقلبوا على شارلمان و استغلوا انشغاله بحملاته على أسبانيا في عام 778م و قاموا بإعلان الحرب عليه. استمرت الحرب بين شارلمان و الساكسون و استطاع في عام 782م أن يبيد الثورة الساكسونية التي أعلنت الحرب عليه و أمر بإعدام 4500 شخص من الثوار الساكسون في يوم واحد. هذا و اندلعت حرب الساكسون مجدداً في عامي 783-784م بقيادة أحد الثوار الذين استطاعوا الهرب من الأسر الفرنسي، لكن و مرة جديدة لم يكتب لهذه الثورة النجاح، حيث زحف شارلمان على رأس جيوشه و أمضى فصل الشتاء في إقليم الساكسون و قام بتدمير و إبادة الإقليم بدون شفقة¹. و رغم ذلك لم تنته الحروب حيث كانت العناصر الساكسونية تعلن الثورة كلما سنحت لها الفرصة و كان شارلمان مضطراً لشن حملات عسكرية على الساكسون بصورة تكاد لا تنقطع، و اضطر شارلمان في عام 794م إلى تهجير سبعة آلاف من العناصر الساكسونية لبعثرتهم و تفريقهم و بالتالي تخفيف ضغط هجماتهم وشراستها على مملكته. و فقط في عام 804م كانت الحرب الأخيرة التي شنها شارلمان ضد الساكسون و استطاع خلالها إخضاع العناصر الساكسونية بشكل كامل له².

استخدم شارلمان في حروبه ضد الساكسون كل الوسائل المتاحة له لإخضاعهم و من هذه الوسائل كان نشر الديانة المسيحية بين سكان الساكسون

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056. 1056. S.

95f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 171.

حيث أرسل بعثات تبشيرية كثيرة لنشر الدين المسيحي و التشجيع على اعتناق المسيحية، و أدت هذه الوسيلة دوراً هاماً في تخفيف حدة الساكسون و استمالتهم¹.

و بالإضافة إلى نشر المسيحية و نقل بعض القبائل الساكسونية المتمردة إلى غاليا استخدم شارلمان سياسة شراء الأمراء الساكسون بالمال لمساعدته في إخضاع هذه الشعوب فبدأ الأمراء الساكسون يساعدون الفرنجة المحتلين و يتعاونون معهم على إخضاع القبائل الساكسونية، حيث تقاسم أمراء الفرنجة مع أمراء الساكسون و كبار رجال الدين أراضي الفلاحين في إقليم الساكسون و استغلوها لصالحهم.

كان لإخضاع ساكسونيا لمملكة الفرنجة نتائج مهمة فقد انضم الساكسون إلى الشعوب الجرمانية المجاورة من فرنجة و ثورنجيين و ألما و بافار و هذا ما ساهم في تشكيل مزيج بشري لما عُرف بمملكة ألمانيا فيما بعد، و بالإضافة إلى ذلك فقد اختلطت شعوب أوروبا الغربية بشعوب أوروبا الوسطى و تفاعلت العناصر اللاتينية و الجرمانية و المسيحية و الوثنية مع بعضها بعضاً مشكلةً مزيجاً حضارياً جديداً لأوروبا في العصور الوسطى².

خضوع بافاريا لسلطة شارلمان:

تقع بافاريا شرق مملكة الفرنجة و كان يقطنها الشعب البافاري، الذي هو جزء من الشعوب الجرمانية. و كانت دوقية بافاريا أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة في وادي الدانوب بين نهر إن (Inn) و ليخ (Lech) و تمتعت بقوانينها الخاصة و تنظيمها الكنسي المستقل. و أصبحت بافاريا تابعة لحكم

1 - Priz: Grundlängen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 96.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 55.

الفرنجة منذ عهد بيبيان القصير، حيث اعترف دوقها تاسيلو (748-788م) بالتبعية لبيبيان القصير و قدم فروض الطاعة له. صحيح أن تاسيلو قدم كل ما ترتب عليه من واجبات عسكرية لبيبيان القصير أثناء حروبه ضد أكيثانيا عام 756م، إلا أن سلطة ملك الفرنجة على بافاريا بقيت اسمية¹.

تغيرت الأوضاع في بافاريا بعد سقوط لومباردية بيد شارلمان حيث أعلن تاسيلو تمرداً على شارلمان بتحريض من زوجته الأميرة اللومباردية (ابنة دسديريوس) بعدما انقرض حكم أبيها و هرب أخوها، فلم يعد تاسيلو يعترف بالولاء لمملكة الفرنجة، فأصدر قوانين جديدة و ألغى اسم شارلمان من الشعارات و فصل رجال الدين في بافاريا عن كنيسة مملكة الفرنجة و ألحقهم بالفاتيكان. و لأن شارلمان كان مشغولاً بالحرب الساكسونية فقد طلب من البابا أن يستخدم نفوذه على تاسيلو و يقنعه بالعدول عن تصرفاته، و هذا ما نجح البابا في القيام به بوساطة رجال الدين البافاريين، حيث جدد تاسيلو ولاءه لشارلمان و قدم الرهائن لشارلمان ليثبت ولاءه له².

و علم شارلمان في عام 787م أن تاسيلو يتآمر عليه و يخطط للقيام بالثورة ضده، فبادر بالزحف نحو بافاريا، و لم يستطع تاسيلو مواجهة شارلمان عسكرياً فاضطر أن يرخص لشارلمان و يلتقيه في سهل ليخ و أن يسلمه دوقية بافاريا على أن يعطيه إياها شارلمان إقطاعاً فيصبح بذلك وفق التقاليد الإقطاعية (رجل الملك) و قدم تاسيلو ابنه رهينة لشارلمان ضماناً لتنفيذ الاتفاق. على الرغم من ذلك تدهورت العلاقات بين شارلمان و تاسيلو بسرعة، فقد اتهم شارلمان تاسيلو بأنه قد حرض الأفار ضده. وفي صيف عام 788م استدعى شارلمان حاكم بافاريا تاسيلو

1 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 83.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 173.

إلى المجلس العام بحضوره، وعندما وصل تاسيلو إلى المجلس اعتقل على الفور و أصدر المجلس قراراً بإعدام تاسيلو، إلا أن شارلمان تراجع عن قرار الإعدام و اكتفى بنفي تاسيلو و أسرته إلى أحد الأديرة حيث أمضى هناك بقية حياته¹.

شارلمان و الأفار:

اتصف شعب الأفار الآسيوي الأصل بالشجاعة و الجرأة². وعاشوا حياة بدوية بدون دولة تجمعهم في البداية فقد كانوا قبائل متعددة لكل منها زعيمها. وهذه القبائل مجتمعة تنبغ لخاقان له السيادة على كل هذه القبائل. وظهرت شعوب الأفار لأول مرة في أوروبا في النصف الثاني من القرن السادس، حيث أغاروا على بانونيا وهددوا القسطنطينية أيضاً في عام 626م في زمن الإمبراطور هرقل وأجبروا الإمبراطورية البيزنطية على دفع الجزية لهم. استقر الأفار في النهاية قرب نهر ثيسس (Theiss) شمالي مدينة بلغراد الحالية واعتمدوا على الغارات والنهب سبيلاً لحياتهم، وعندما ظهرت دولة بافاريا حالت بينهم وبين الأقاليم الإيطالية. ظهرت أخطار الأفار مجدداً عندما طلب منهم دوق بافاريا تاسيلو المساعدة ضد شارلمان في 788م لكن الأفار انتظروا نتيجة الأحداث بين الطرفين وتحركوا في نفس العام باتجاه بافاريا المهزومة وباتجاه الحدود الفرنجية³. سبب الأفار أضراراً كبيرة للمملكة الفرنجية فقرر شارلمان شن حرب كبيرة ضد الأفار، وبعد أن قام بكل الاستعدادات لذلك أعلن الحرب على الأفار في عام 791م حيث قسم شارلمان جيشه الكبير إلى عدة أقسام قاد هو أحدها بنفسه وهاجموا الأفار من جهة الجنوب

1 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 84-85.

22 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 1, S. 440f.

3 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 172.

والشمال، وعندما رأى الأفار ضخامة جيش شارلمان تراجعوا وهربوا من القتال ووقع الكثير من الأفار بالأسر وتابع شارلمان مسيره محتلاً مدناً كثيرة للأفار حتى وصل إلى مصب نهر الراب (Raab) في الدانوب، وبسبب قدوم فصل الشتاء قرر شارلمان العودة إلى مملكته بعد أن شنت الأفار وقضى على خطرهم¹.

هذا ولم تتوقف حروب شارلمان مع الأفار في ذلك العام، بل اضطر إلى شن عدة حملات ضدهم في عامي 795 و796م واضطر الأفار أخيراً إلى الاستسلام والخضوع لشارلمان كما اعتنق العديد منهم الديانة المسيحية وتلاشت أمة الأفار من الوجود تدريجياً لأن من تبقى منها اندمج في الشعوب التي جابت تلك المنطقة².

شارلمان و شعب الفريز:

سكن شعب الفريز في إقليم فريزيا الذي يقع شمال غرب غاليا (جنوب بحر الشمال) وهذه القبائل قريبة في عاداتها وتقاليدها وأصلها من قبائل الساكسون. وعرف عنهم تمسكهم الشديد بديانتهم الوثنية وحفاظهم على استقلالهم. وحاولت بعض البعثات التبشيرية القادمة من إنكلترا وغاليا نشر الديانة المسيحية في هذه المنطقة لكن ذلك لم يلق قبولاً لدى شعب الفريز وبقوا متمسكين بوثنتيتهم وفي القرن الثامن خضعت فريزيا شكلياً لمملكة الفرنجة³. سادت في أقاليم الفريز حالة من القلق في السنوات الأولى لحكم شارلمان حيث كان هناك محاولات عدة للتخلص

1 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken.
Bd. 1, S. 441f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 173.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 55.

من حكم الفرنجة والتبعية لهم، لكن هذه الحالة لم تستمر طويلاً فعندما سحق شارلمان قبائل الساكسون في عام 785م اضطر الفريز إلى الاستسلام لشارلمان وتقديم فروض الطاعة له لعدم قدرتهم على مواجهته عسكرياً. وأمر شارلمان بنشر الديانة المسيحية بين الفريز لكن ذلك تطلب وقتاً طويلاً حيث تم نشر المسيحية والقضاء على الوثنية بشكل تدريجي. هذا وقد جعل شارلمان إقليم الفريز تابعاً له وقسمه إلى كونتيات وفرض على سكانها تقديم الجنود للدخول في جيشه¹.

شارلمان و المسلمون في أسبانيا:

دخل العرب المسلمون أسبانيا (الأندلس) في بداية القرن الثامن الميلادي وقضوا على مملكة القوط الغربيين التي كانت قائمة فيها. وكانت الأندلس تابعة للخلافة الأموية في المشرق العربي، لكن وصول العباسيين إلى الحكم في البلاد الإسلامية وفتحهم بمن تبقى من الأسرة الأموية أدى إلى تغيرات في الأندلس أيضاً. فقد استطاع أحد الأمراء الأمويين وهو عبد الرحمن الداخل الهروب من مقصلة الحكم الجديد في البلاد الإسلامية. و وصل إلى المغرب العربي وبعدها إلى أسبانيا وأسس هناك مملكة زاهرة في قرطبة في عام 756م². لكن قسماً من المسلمين المتواجدين في أسبانيا رفضوا التبعية لعبد الرحمن الداخل وكانوا ميالين في ولائهم للخلافة العباسية وأعلنوا الحرب عليه لكن عبد الرحمن استطاع هزيمتهم، وقام قسم ممن تبقى من أعداء عبد الرحمن الداخل من الوصول إلى مدينة بادربورن (مدينة شمال ألمانيا في ولاية شمال الراين - فيستفاليا) في عام 777م حيث كان يتواجد شارلمان في ذلك الوقت لطلب المساعدة منه ضد عبد

1 - حاطوم: تاريخ العصر النوبي في أوروبا، ج1، ص 159.

2 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 1, S. 421.

الرحمن الداخل وكان على رأس هذا الوفد حاكم سرقسطة (وهو سليمان بن يقطان الكلبي العربي)، ومقابل قدوم شارلمان بجيشه إلى أسبانيا وعده ابن العربي بالتبعية له¹.

لم يكن لدى شارلمان سبباً ليرفض هذه الدعوة أو بالأحرى هذه الفرصة خصوصاً وأن المسلمين باتوا يشكلون خطراً على حدود مملكته وقريبين جداً من هذه الحدود، وهذا ما دفع شارلمان لتجهيز جيشه وغادر بادربورن في عام 778م باتجاه آخن وبعد ذلك عبر مع قواته جبال البيرنيه باتجاه أسبانيا، وكما هي عادته قسم شارلمان جيشه إلى قسمين كبيرين قاد هو أحدهما². احتل شارلمان بجيشه بامبلونا (Pampelona) ووصل بجيشه إلى قرب سرقسطة ووصل أيضاً القسم الآخر من جيشه إلى نفس المكان، لكن عندما وصل شارلمان إلى أبواب سرقسطة وجد أن حسين بن يحيى عين نفسه والياً عليها أثناء غياب سليمان بن عربي وكان الوالي الجديد قد حصن المدينة قبل وصول شارلمان ورفض فتح أبواب المدينة لشارلمان. وقاومت سرقسطة الحصار الشديد الذي فرضه شارلمان لعدة أشهر، لكن وصول أخبار ثورة الساكسونيين لمسامع شارلمان، دفعته لفك الحصار عن سرقسطة واقتل عائداً إلى مملكته. هذا وكان شارلمان قد امتنع من سليمان بن عربي واتهمه بالتغريب به فكان مصير سليمان بن العربي أن أخذ أسيراً من قبل شارلمان وعاد به إلى مملكة الفرنجة. مر شارلمان في طريق عودته بمدينة بامبلونا عاصمة النصارى مرة ثانية ودمر ما بقي من حصونها. وعندما علم ولدا العربي

1 - Sporschil, Johann: Karl der Große, sein Reich und sein Haus, Braunschweig 1846, S. 195f.

2 - Gagny, ... von: Karl der Große Bruchstück aus der Nationalgeschichte, Darmstadt 1845, S. 20.

عيشون و مطروح بحال والدهما لحقا بجيش شارلمان ساعيين لإنقاذه، فعندما عبر شارلمان بجيشه ممرات الشيزري باتجاه غاليا أغارت على مؤخرة جيشه مجموعات من القبائل البشكنس المحلية التي كانت تريد الثأر من شارلمان مع قوات عيشون و مطروح وبالتسيق معهما، واستطاع أولاد العربي إنقاذه وألحقت القوات المهاجمة خسائر فادحة بمؤخرة جيش شارلمان وكان من بين قتلى الفرنجة رولاند (دوق مقاطعة أكيثانيا الذي خلدت الأنشودة المعروفة بأنشودة رولان Chanson de Roland بطولاته و أعماله).¹

و بالمحصلة فقد فشلت حملة شارلمان هذه وانتهت بنكسة، وانتقل الأمير عبد الرحمن الداخل من دور الدفاع إلى دور الهجوم واستطاع فرض سيطرته على بعض المناطق التي كانت تابعة اسمياً لمملكة الفرنجة. وبعد أن عاد شارلمان من حملته في أسبانيا توقف في إقليم أكيثانيا وبدأ في إعادة تنظيمها خشية من أن تسبب أخبار حملته الفاشلة ثورات وحركات عصيان، لذلك فقد عين شارلمان أمراء فرنجيين حكاماً هناك ووضع على الأسقفيات شخصيات أمينة وموثوقة. هذا وقد أسس شارلمان في أكيثانيا مملكة في عام 781م و عين ابنه لويس ملكاً عليها²، وضمت هذه المملكة المحدثّة أكيثانيا، ماعدا تور و سبتيمايا و غاسكونيا. هذا وفرض شارلمان تشريعاته و قوانين الفرنجة على مملكة أكيثانيا و كانت مهمة ابنه لويس (الملك) تنفيذ قرارات والده³.

1 - الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (711-1492)، ط2، دار القلم، دمشق 1981، ص224-225.

2 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 98.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 166.

لم ينته الصراع عند هذه النتيجة، فقد أرسل شارلمان حملةً عسكريةً في عام 795م إلى أسبانيا و استطاع جيشه أن يستولي على شريط ضيق في شمالي أسبانيا من الجانب الشرقي، كما عمل على تحصين هذه الشواطئ لصد هجمات المسلمين¹. و توالى الحملات العسكرية الفرنجية ضد المسلمين في أسبانيا في أعوام 796 و 797 و 800م دون الحصول على نصر حاسم. وقد توفي هشام بن عبد الرحمن الداخل و خلفه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر، و لكن عميه سليمان و عبد الله ثارا عليه. ومن جديد تكررت أسطوانة الاستعانة بقوة خارجية فقد ذهب عبد الله عم هشام إلى شارلمان في مدينة اكس لاشابل (مدينة أخت عاصمة مملكة الفرنجة) يتوسل المساعدة العسكرية، فأرسل شارلمان جيشاً مع عبدالله و استولى على طليطلة بينما استولى سليمان على بلنسة و زحف شارل و لويس ولدا شارلمان على المناطق الواقعة شمال البيرينيه، هذا و قد أظهر الحكم شجاعةً و مقدرةً فائقةً و استطاع أن يجلي القوات الفرنجية الغازية إلى ما وراء البيرينيه، وعاد إلى طليطلة بعد أن حسم المعركة مع عمه سليمان و قتلته، كما سلم عمه الآخر عبدالله نفسه فعفى عنه الحكم².

وقد استطاع الفرنجة احتلال مدينة برشلونة من المسلمين في عام 803م كما احتلوا مدينة طركونة (جنوب غرب برشلونة) في عام 808م. هذا و أسس الفرنجة في المدن و المناطق التي احتلوها من المسلمين في شمال شرق أسبانيا ثغراً سُمي (الثغر الاسباني)، و الهدف من بناء هذا الثغر هو مراقبة تحركات المسلمين و حماية حدود مملكة الفرنجة من هجماتهم. وقد احتل الفرنجة في عهد شارلمان كل من كورسيكة و سردينية و جزر البليار (منورقة و ميورقة) الواقعة في

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 176.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج.1، ص 167.

البحر المتوسط و ذلك خوفاً من أن يحتلها المسلمون في أسبانيا و يجعلوا منها قاعدةً لشن غاراتهم على شواطئ إيطاليا و غاليا الجنوبية¹.

شارلمان و البابا ليو الثالث (795-816م)

توفي في عام 795م البابا هادريان الأول حليف شارلمان الأول و صديقه، هذه الصداقة كانت قد عززتها مصلحة الطرفين فقد ضمن هادريان لشارلمان دعم الكنيسة له و لأسرته كما قدم شارلمان خدمات جليلة للكنيسة حيث قام بنشر المسيحية في كل الأماكن التي احتلها و ضمها لمملكته². و أثبت أنه حامي الكنيسة و البابوية فقد خلص شارلمان البابوية من خطر اللومبارديين العسكري بالقضاء على مملكتهم كما و قضى على خطرهم من الناحية الدينية فقد كان اللومبارديون يتبعون الدين المسيحي على المذهب الأريوسي وهذا ما شكل منافسة دينية للبابوية وعندما أتى شارلمان أجبر جميع عناصر مملكته على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي. كما استطاع شارلمان خلال حروبه ضد الساكسون والأفار القضاء على الوثنية و بقاياها لدى الشعوب الجرمانية، بالإضافة إلى ذلك فقد أظهرته حروبه ضد المسلمين في أسبانيا بمظهر الحامي الأول للكنيسة في العالم³.

بعد وفاة البابا هادريان الأول انتخب البابا ليو الثالث خلفاً له على الكرسي الرسولي، وفي البداية أربك هذا الانتخاب شارلمان لعدم معرفته بالسياسة التي سيتبعها البابا الجديد مع مملكة الفرنجة، لذلك أرسل شارلمان رسالة للبابا الجديد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 58.

2 - Sporschil: Karl der Große. S. 230.

3 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 176.

في عام 796م يقول له "أيها الأب، إنك أنت السيد و الأب الملك و القسيس و المرشد للعالم المسيحي كله"¹ وبدأ شارلمان يوضح للبابا المسار الأساسي للسياسة التي يجب على البابا أن يتبعها، كما عدد سلطاته الزمنية إلى جانب سلطات بابا الفاتيكان الروحية. وكان رد البابا على رسالة شارلمان أكثر من إيجابي، حيث أرسل البابا علم مدينة روما وبدأ تأريخ كل المراسيم البابوية بسنوات حكم شارلمان. ويبدو أن البابا كان يعمل لإعادة مجد الإمبراطورية إلى الجزء الغربي، وإلى إيجاد خليفة لآخر إمبراطور غربي (رومولوس) ولإنجاح ذلك وجب على البابا إعادة الإمبراطور إلى روما، عندها تعود البابوية إلى قوتها و هيبتها².

لكن البابا ليو الثالث لم يستطع ترسيخ نفوذه في الفاتيكان وتعرض لمؤامرة في 25 نيسان من عام 799م، و في أثناء اتجاه موكبه لإقامة قداس ديني في كنيسة القديس لورنس استطاع بعض المتآمرين من أقرباء البابا السابق هادريان الأول من اختطاف البابا ليو الثالث واقتادوه إلى كنيسة القديس ستيفان وكان المتآمرون قد حاولوا سمل عيني البابا ليو وقطع لسانه لكنهم فشلوا في ذلك و استطاع البابا ليو الثالث الهرب و لجأ في البداية إلى كنيسة القديس بطرس، وعندما علم دوق سبوليتو بالمؤامرة و ما حدث للبابا ذهب مع مقاتليه إلى كنيسة القديس بطرس وحملوا البابا و أخذوه الدوق إلى سبوليتو تحت حمايته³.

وبعد ذلك عبر البابا ليو الثالث جبال الألب قاصداً الملك شارلمان، الملك الوحيد الذي باستطاعته مساعدته، فقابل شارلمان الموجود في مدينة بودربورن و

1 - صبره: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية، ص 61.

2 - صبره: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية، ص 61.

3 - Sporschil: Karl der Große, S. 233.

طلب منه المساعدة¹، استقبل شارلمان البابا ليو في بودربورن بحفاوة كبيرة و بمودة.

نتائج شارلمان إمبراطوراً:

من المرجح أن شارلمان فكر في الحصول على لقب الإمبراطور قبل هذه الأحداث في روما، فقد وجد في نفسه وفي أعماله وفي اتساع مملكته ما يؤهله لنيل هذا اللقب العظيم، فبالنسبة له فهو قد أسس مملكة أكبر من الإمبراطورية الرومانية الغربية أو بحجمها على الأقل وأن مملكته لا تقارن بالإمبراطورية البيزنطية المنقسمة على نفسها لذلك يجب إحياء الإمبراطورية الغربية كما يجب أن يكون الإمبراطور في هذه الإمبراطورية زعيماً للسلطة الزمنية فيها و البابا زعيماً دينياً. و هكذا جاءت أحداث روما في عام 799م و لجوء البابا ليو الثالث إليه لتمنح شارلمان فرصة ذهبية لتحقيق طموحه في نيل لقب الإمبراطور².

وصلت في نفس الوقت إلى شارلمان رسائل من أعداء البابا ليو الثالث في روما يؤكدون فيها الاتهامات الموجهة إليه، و بأنه قد أخطأ في حق الكنيسة و ارتكب العديد من الخطايا. فعمل شارلمان على استرضاء البابا بعد سماع أقواله كلها، وقدم له الاحترام و رجاه أن يعود إلى روما تحت حماية قواته ليكون الفصل في هذا النزاع في روما مقر كنيسة القديس بطرس (إي الفاتيكان) بعد أن يلحق به شارلمان.

انتظر شارلمان فترة من الوقت في بادربورن حتى ينهي ابنه الأكبر الحملة التي قام

1 - Schneider: das Frankeich, S. 33.

2 - Sporschil: Karl der Große, S. 236.

بها على نهر الألب وعند عودته أمضى فصل الشتاء في آخن ومن ثم وصل إلى تور حيث أمضى وقتاً أكثر مما خطط له هناك بسبب وفاة زوجته (ليوتجارد) وبعد ذلك اتجه إلى إيطاليا للقيام بمهمة تبرئة البابا ليو الثالث مما نسب إليه من تهمة ومحاسبة معارضييه. لذلك أسرع البابا لملاقاة شارلمان عند حدود روما مرحباً به و محتفلاً بقدومه. وعقد محكمة علنية في قصر اللاتران تمت فيها تبرئة البابا ليو الثالث وإدانة المتآمرين وتقرر إعدامهم لكن ليو الثالث تدخل وخفف عقوبة المتآمرين عليه من الإعدام إلى النفي إلى أراضي الفرنجة¹. و رداً على مساعدة شارلمان الكبيرة للبابا ليو الثالث -و غالباً كما اتفق شارلمان و البابا في مدينة بادربورن في عام 799م- قام البابا ليو الثالث بتتويج شارلمان إمبراطوراً على الرومان، ففي يوم عيد ميلاد السيد المسيح في عام 800م اجتمع في كنيسة القديس بطرس البابا و جميع الكرادلة و رجال الدين الرومان و الفرنجة و شارلمان الكبير لإقامة القداس و الصلاة، وبينما كان شارلمان أثناء صلاته راكعاً أمام المذبح تقدم منه البابا ليو الثالث واضعاً التاج الإمبراطوري على رأسه و هتف جميع الحضور بصوت عالٍ "اللهم امنح الحياة و النصر و السلام لشارل أوغسطس، الذي توج بفضل الله إمبراطوراً عظيماً"²، وبعد ذلك قام البابا ليو الثالث بدهن شارلمان بالزيت المقدس و من الآن فصاعداً أصبح شارلمان و كما كانت عادة القياصرة في الإمبراطورية الرومانية يحمل لقب القيصر و الإمبراطور و أوغسطس.

ولابد هنا من التنويه إلى أن بعض المصادر التاريخية تذكر أن شارلمان قد فوجئ بتتويجه إمبراطوراً من قبل البابا ليو الثالث و أنه لم يكن لديه أدنى فكرة عن

1 - صبره: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية، ص 63 - 65.

2 - Sporschil: Karl der Große, S. 243f.

هذا الأمر أو يتوقعه و قد كتب اينهارد (Einhard) (معاصر شارلمان و مؤرخ سيرته): " أنه (أي شارلمان) ما كان ليدخل الكنيسة في ذلك اليوم العظيم من أيام الأعياد لو علم بعزم البابا..¹ " و مع أن عدداً من المؤرخين صدقوا هذه الرواية و عدّوا أن البابا وحده هو صاحب فكرة التتويج، غير أن هذه الرواية لم تلق تأييد معظم الباحثين الذين يؤكدون أن التتويج كان تلبية لرغبة شارلمان و طموحاته في التاج الإمبراطوري، وهذا أقرب للعقل.

ربما لم يكن شارلمان مقتنعاً بطريقة التتويج، فمن المحتمل أنه كان يرغب في حفل فخم يليق بهذه المناسبة أو ربما لم يكن يرغب أن يتوج على يد البابا و إنما يرغب في أن يتوج نفسه حتى لا يبدو التاج و كأنه هبة من البابوية إلى شارلمان و بالتالي فإنه لا يرضي غرور الفاتح الكبير شارلمان أن يأخذ التاج الإمبراطوري من يد أحد رجال الدين و لو كان البابا نفسه.²

كان تتويج البابوية لشارلمان إمبراطوراً إذاً بقطع الخيط الرفيع الذي كان يربط الإمبراطورية البيزنطية بالبابوية.³ و كانت روما قد غيرت سياستها اتجاه القسطنطينية بعد أن فشل أباطرة الإمبراطورية البيزنطية في كبح التوسع اللومباردي في إيطاليا على حساب البابوية. وقد زال النفوذ البيزنطي لدى البابوية كما انتهى نفوذ البابا في الإمبراطورية البيزنطية منذ أن رفض المجمع الديني السابع (الذي عقد زمن الإمبراطورة البيزنطية إيرين في نيقية 787 م) أن يلبي رغبة البابا في تتبع كنائس صقلية و جنوب إيطاليا (التابعة للإمبراطورية البيزنطية) لسلطة بابا روما وتأكيد أولوية كنيسة روما على جميع الكنائس و اعتبار بابا الفاتيكان الزعيم

1 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 143.

2 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 144.

3 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 163.

الأول للكنيسة. و بناءً على ذلك اهتم البابوات في روما بتوثيق علاقتهم و تقوية ارتباطهم مع ملك الفرنجة الذي خلصهم من الخطر اللومباردي خصوصاً بعد أن استلم اللقب الإمبراطوري عن طريق البابوية. وهكذا أصبح التحالف مع الملك الفرنجي حجر الزاوية في سياسة البابوية. وقد بدأت هذه السياسة منذ عهد البابا ستيفان الثاني وبعده هريان الأول و استمرت و تطورت في زمن خلفه ليو الثالث الذي توج شارلمان إمبراطوراً¹.

نتائج تتويج شارلمان إمبراطوراً:

صحيح أن شارلمان أصبح إمبراطوراً في عام 800م حسب الشكليات المتعارف عليها في الإمبراطورية الرومانية و البيزنطية وإن المناداة باسمه إمبراطوراً تمثل في المعنى الدستوري انتخاب الشعب الروماني له²، لكن من حيث المضمون فإن تتويجه يعد خرقاً للعادات و التقاليد السائدة في المجتمع الروماني فهو أول إمبراطور لا تجري في عروقه الدماء اليونانية أو الرومانية بل هو بربري جرمانى الأصل³.

وبعد تتويج شارلمان إمبراطوراً أصبح في العالم المسيحي إمبراطوريتين: 1- الإمبراطورية البيزنطية في الشرق و عاصمتها القسطنطينية الواقعة على مضيق البوسفور. 2- الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية في الغرب وعاصمتها مدينة ايكس لاشابل (أخن باللغة الألمانية) ولا يربط بين هاتين الإمبراطوريتين سوى أنهما مسيحيتان، أما من حيث العادات و التقاليد و اللغة والثقافة و التركيب البشري

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 60 - 61.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 173.

3 - طرخان: دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 306.

فيما مختلفتان كلياً عن بعضهما. هذا وكان العرف السائد قبل تتويج شارلمان إمبراطوراً هو وجود إمبراطورية واحدة في العالم المسيحي، ولذلك فإن ولادة الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية في الغرب إلى جانب الإمبراطورية البيزنطية في الشرق يعد خرقاً للعرف السائد في ذلك الوقت في العالم المسيحي¹.

هذا واستغل شارلمان حصوله على اللقب الإمبراطوري لتقوية نفوذه وإعلاء مكانته في مملكته، فبعد تتويجه أمر أتباعه ورعيته الذين أقسموا له يمين الولاء في عام 786م أو في عام 792م أن يقسموا له يمين الولاء مجدداً وهو إمبراطور في عام 802م و كانت صيغة القسم قريبة من صيغة الالتزامات و التعهدات التي يقدمها التابع لأمره في النظام الإقطاعي².

وارتقت سلطة شارلمان و قويت معنوياً بفضل اللقب الإمبراطوري كما خوله هذا اللقب سلطة أعظم مما كانت عليه سابقاً على روما والكنيسة بزعماء البابوية فبعد أن كان يعد حامياً لهما أصبح سيداً عليهما كما أصبح سكان المدينة و ملحقاتها، بما فيها البابا، رعية له³.

موقف بيزنطة من تتويج شارلمان:

كان تتويج شارلمان إمبراطوراً في الغرب بمثابة الصدمة الكبيرة للإمبراطورية البيزنطية، فمنذ سقوط روما مركز الإمبراطورية الغربية بيد البرابرة في عام 476م والعالم الروماني لا يوجد فيه إلا إمبراطور واحد هو الإمبراطور البيزنطي الذي ادعى السيادة على القسم الغربي من الإمبراطورية بصفته الوريث الشرعي الوحيد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 61.

2- Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 103.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 175.

لأباطرة الرومان حتى إن البيزنطيين لم يسموا أنفسهم بيزنطيين، بل كانوا يسمون أنفسهم الرومان.

لكن تتويج شارلمان في عام 800م خلق منافساً قوياً و مهدداً لمكانة الإمبراطور البيزنطي، و قوض كل سيطرة تدعيها الإمبراطورية البيزنطية على البابوية و العالم الغربي. و إن هذا التتويج لا يجعل من شارلمان الإمبراطور الأساسي في العالم الروماني، لأن الإمبراطورية في المفهوم السائد في ذلك الزمن لا تحتل رأسين مثلها مثل البابوية، وهذا يعني أن يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة لأنه الإمبراطور المتوج من قبل رأس الكنيسة اللاتينية، و هي الكنيسة العالمية التي تتخذ من روما مقراً و لعلّ هول هذه الصدمة التي أصابت الإمبراطورية البيزنطية هي التي آخرت اعتراف القسطنطينية بشارلمان إمبراطوراً لمدة اثني عشر عاماً (في كانون ثاني 812م)¹.

وانطلاقاً من الفكر السياسي المعاصر لتتصيه إمبراطوراً كان شارلمان مقتنعاً أن تتويجه امبراطوراً تنقصه الشرعية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية لا تعترف بهذا التتويج، وهي التي تمثل القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية. كما أنه من المحتمل أن يقوم البيزنطيون بعزل الإمبراطورة إيرين، ويعينوا مكانها إمبراطوراً ذكراً، وبذلك ينقضي المبرر الذي بنى عليه البابا و شارلمان معارضتهم لوجود امرأة على عرش القسطنطينية و اعتباره من وجهة نظرهم فارغاً، وهذا سيفاقم المشاكل أمام شارلمان². كما لم يكن بإمكانه أن يتهم الإمبراطورية البيزنطية بالهرطقة الدينية لكي يجعل من ذلك سبباً للوصول إلى العرش الإمبراطوري. وهذا ما دفع شارلمان إلى تجنب الاصطدام مع البيزنطيين أو استفزازهم، فقد لقب نفسه

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 163 - 164.

2 - صبره: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية، ص 117.

(حاكم الإمبراطورية الرومانية) مبتعداً بذلك عن اللقب الذي اشتهر به أباطرة القسطنطينية و هو لقب (إمبراطور الرومان) هذا والتزم شارلمان بإظهار المواقف الإيجابية تجاه الإمبراطورية البيزنطية وبدأ يستخدم كل الوسائل المتاحة له من أجل الاعتراف به إمبراطوراً على الإمبراطورية الغربية¹.

ومن أحد الوسائل التي استخدمها شارلمان بالاتفاق مع البابا ليو الثالث للحصول على اعتراف بيزنطة به إمبراطوراً، هو زواج شارلمان من الإمبراطورة إيرين، وبذلك يتم توحيد قسمي الإمبراطورية الشرقية و الغربية، و قبلت إيرين باقتراح شارلمان نظراً لما تعانيه الإمبراطورة من ضغوط خارجية و داخلية على حكمها و إمبراطوريتها، و أرسل شارلمان رسلاً في عام 802م إلى القسطنطينية بهذا الخصوص، لكن أطيح بالإمبراطورة إيرين عن عرشها أثناء وجود بعثة شارلمان في عاصمة البيزنطيين عن طريق ثورة اندلعت ضدها. وبذلك فشل مشروع شارلمان بالزواج من إيرين². اعتلى العرش البيزنطي بعد الإطاحة بالإمبراطورة إيرين، نفقور الأول (802 - 811م) قائد الانقلابيين ضد الإمبراطورة و وزير خزانها³.

استعان شارلمان بالتأني و بعد النظر، فقد كان يعلم جيداً أن نفقور الأول مهدد بهجمات العرب من جهة و البلغار من جهة أخرى، ويكفي أن يضغط عليه عسكرياً ليزيد من صعوباته و مشاكله ويجبره على قبول شروطه، لذلك احتل شارلمان البندقية و دالماسيا في عام 810م التابعتين للإمبراطورية البيزنطية، وكان

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 63.

2 - Sporschil: Karl der Große, S. 251.

3 - عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة، القاهرة 2000،

ص 117.

لاحتلال البندقية وقع كبير على الإمبراطور نقفور الأول بسبب أهميتها التجارية و أدائها دور الوسيط الاقتصادي بين بيزنطة و الغرب، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يعيش فترة صعبة بسبب ضغط البلغار على بيزنطة في البلقان و ضغط العرب عليه في آسيا الصغرى¹. حيث احتل هارون الرشيد بعض الحصون البيزنطية و مدينة طوانة في عام 806م، كما فرض على الإمبراطور نقفور الأول جزية سنوية مقابل عدم الهجوم مجدداً على الأراضي البيزنطية، وهذا يدل على مأزق الإمبراطور و ضعف قدرته العسكرية على مجابهة أعداء إمبراطوريته، وهكذا كان الحال بالنسبة للعلاقة مع شارلمان بعد احتلاله البندقية، فقد اضطر نقفور للتفاوض مع الفرنجة من أجل إجلاء قواتهم من البندقية وإعادتها إلى الحظيرة البيزنطية مقابل اعتراف الإمبراطور نقفور الأول بشرعية شارلمان إمبراطوراً على القسم الغربي من الإمبراطورية. لأجل ذلك أرسل نقفور رسله في عام 810م إلى مدينة ايكس لاشابل مقر شارلمان لعقد الاتفاق بهذا الخصوص بعد أن وافق شارلمان على مضمونه. لكن الأمور لم تسر كما خطط لها نقفور فقد قتل في أحد حروبه مع البلغار في 26 تموز 811م و صنع من جمجمته إناءً شرب فيه خان البلغار كأس النصر مع قواده في حفل أقامه لتخليد انتصاره الكبير على البيزنطيين².

بعد مقتل الإمبراطور نقفور خلفه ابنه ستواركيوس لكنه لم يعيش إلا بضعة أيام بعد المناداة به إمبراطوراً بسبب إصابته بالبليلة أثناء مشاركته مع أبيه في الحرب ضد البلغار وقبل موته عين ستواركيوس قريبه ميخائيل الأول (811 - 813م) إمبراطوراً. استمرت المفاوضات في عهد ميخائيل الذي وافق على شروط

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 177 - 178.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 64.

الاتفاق الذي عُقد بين نفقور الأول و الإمبراطور شارلمان، و أرسل ميخائيل رسله إلى شارلمان في مدينة ايكس لاشابل و معهم وثيقة اعتراف رسمي من ميخائيل بشارلمان إمبراطوراً فقد حيوه على أنه باسيلوس (Basilieus) أي إمبراطوراً على الرومان باللغة اليونانية و كان ذلك في عام 812م، وبهذا الاعتراف يكون قد أصبح هناك إمبراطوران شرعيان للإمبراطورية الرومانية¹.

وهكذا أعيد إحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد 424 عاماً على سقوطها بيد البرابرة الجرمان لكن هذه المرة كان الإمبراطور جرمانياً و ليس رومانياً. إذاً حقق شارلمان طموحه بالحصول على اعتراف رسمي من بيزنطة بلقبه إمبراطوراً على الغرب، و دُون يقول: "تبارك الله الذي أحل السلام المنشود بين إمبراطورية الشرق و إمبراطورية الغرب" و تحاشى شارلمان أن يذكر لقب إمبراطور الرومان كلقب لنفسه²، بل استخدم دائماً اللقب التالي: "شارل المجيد أوغست توجّه الله إمبراطوراً عظيماً ومسالماً وحاكماً للإمبراطورية الرومانية وملكاً على الفرنجة و اللومبارديين برعاية الله". هذا واستمر أباطرة بيزنطة بالتأكيد بأنهم وحدهم أصحاب الحق في لقب إمبراطور الرومان³.

1 - بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس و محمود يوسف زايد، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة 1950، ص 58.

2 - Schneider: das Frankreich, S. 38.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 64-65.

علاقة شارلمان مع هارون الرشيد:

كانت علاقاته ودية مع هارون، بهذه العبارة وصف المؤرخ اينهارد العلاقة بين الإمبراطور شارلمان والخليفة العباسي هارون الرشيد (786-809م)¹. وجرت العادة عند المؤرخين على اعتبار قاعدة (عدو عدوي صديقي) هي التي استخدمت في العلاقات بين الإمبراطورية الكارولنجية والخلافة العباسية، فقد كان كل من شارلمان وهارون الرشيد على عدااء مع الأمويين في الأندلس من جهة والبيزنطيين من جهة أخرى، و أن ما ساعد في التقارب بين الطرفين هو مجابهة أعدائهم المشتركين. بالإضافة إلى ذلك أراد شارلمان أن يتودد للخليفة هارون الرشيد رغبة في إقامة علاقات طيبة معه، وذلك تسهياً لمجيء الحجاج المسيحيين الغربيين إلى الأماكن المقدسة، وكانت بداية العلاقات عندما أرسل شارلمان وفداً رسمياً في عام 797م إلى هارون الرشيد ثم أرسل رسولاً إلى بطريرك القدس في عام 799م. وكان رد الخليفة العباسي إيجابياً على هذه المبادرة حيث أرسل هو أيضاً وفداً لشارلمان في عام 801م و رد شارلمان على هذه البعثة بطريقة مماثلة فأرسل وفداً جديداً في عام 802م. بعد ذلك أرسل هارون الرشيد وفداً جديداً لشارلمان في عام 807م و تبادل الجانبان عن طريق الوفود الهدايا و التكريمات ومن جملة ما أهداه هارون الرشيد للإمبراطور شارلمان كان ساعة مائية دقاقة، وفيلاً، وأواني نحاسية فأخرة و صيواناً ملوناً و أنواعاً فأخرة من العطور وأقمشة حريرية. بالمقابل أرسل شارلمان هدايا فخمة لهارون الرشيد بالإضافة إلى هبات إلى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين².

1 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 104.

2 - بيطار، أمينة: تاريخ العصر العباسي، جامعة تشرين، اللاذقية 1996-1997، ص

وكان نتيجة المفاوضات بين الجانبين في عام 807م قبول الخليفة هارون الرشيد أن يمنح لشارلمان حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين مع المؤسسات المسيحية و السكان و الحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة، هذا وقام بطريك القدس و بعد التشاور مع الخليفة هارون الرشيد بإرسال مفاتيح بيت المقدس إلى شارلمان¹.

شارلمان بعد التتويج و حتى نهاية حكمه:

بعد تتويج شارلمان إمبراطوراً في عام 800م بقي في روما حتى 25 نيسان 801 ليتوجه بعد ذلك إلى مدينة آخن (ايكس لاشابل) هذه المدينة التي تعد من أهم المدن من الناحية السياسية و الإدارية في عهد الأسرة الكارولنجية و يبقى لها رمزية مهمة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الوقت اللاحق. بعد مغادرته روما لم تطأ قدماً شارلمان هذه المدينة أو إيطاليا مرة أخرى، واعتنى شارلمان بعد عودته لمملكته بتنظيم أمورها الداخلية و إعداد القوانين المناسبة لها².

لكن و حتى بعد أن أصبح شارلمان إمبراطوراً متوجاً لإمبراطوريته التي وحدها بعد حروب ضارية، إلا أنه لم يدرك مساوئ تقسيم الإمبراطورية أو المملكة بين الأبناء، بل فضل أن يسير على نهج والده وجده وقبلهم العادات الميروفنجية في تقسيم الحكم و الممالك بين الأبناء³، لذلك قام بتقسيم إمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة في عام 806م وأمر النبلاء و كبار الموظفين بالقسم بالولاء لهذا التقسيم كما أرسل وثيقة التقسيم إلى البابا ليو الثالث لتوقيعها. و كان التقسيم على النحو

1 - حاطوم: تاريخ العصر النوسيط في أوروبا، ج1، ص 179 - 180.

2 - Schneider: das Frankreich, S. 35.

3 - Sporschil: Karl der Große, S. 313.

التالي:1- لويس: والذي سيصبح قيصراً في المستقبل، أخذ جنوب غاليا و بورغوند، 2- بيبينان: أخذ إيطاليا و بافاريا و ألمانين، 3- الولد الأكبر شارل: هذا الابن الذي أوكل والده إليه قيادة المهمات العسكرية و الحملات في الفترة الأخيرة أخذ القسم الرئيس من المملكة بين اللوار والألبي (أي فرنسا حالياً)، أما لمن سيؤول لقب الإمبراطور فلم يحدد ذلك و لم يتم بحث الموضوع¹، في الواقع أن وثيقة التقسيم في عام 806م لن تنفذ بسبب وفاة بيبينان و شارل الأكبر في حياة والدهما.

بعد عام 806م وتقسيم الإمبراطورية قرر شارلمان أن يوكل جزء كبير من المهام لأولاده و خاصة الحملات العسكرية حيث لم يعد يشارك هو بشكل شخصي في الحروب، وأمضى معظم وقته في مدينة آخن و محيطها ممارساً هوايته المفضلة وهي الصيد، وإلى هذه المدينة كانت تصله الأخبار من أنحاء إمبراطوريته و استقبل السفراء فيها كما استقبل الوفد الثاني الذي أرسله الخليفة العباسي هارون الرشيد إليه في عام 807م و اصطحب شارلمان الوفد في رحلة صيد كبيرة².

على الرغم من حسن سير المعارك الحربية بقيادة أولاده وحسن إدارتهم تحت إشرافه، إلا أن طمأنينة شارلمان لم تستمر طويلاً ففي عام 810م توفي ولده بيبينان

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 104.

2 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken,
Bd. 1, S. 488.

أثناء قيادته لإحدى الحملات العسكرية البحرية وبعد عام واحد أي في 811 توفي ولده الأكبر شارل وهذا ما ترك أثراً بالغاً في نفس شارلمان¹.

شارلمان المتعب بسبب مرضه وكبر سنه قرر تتويج ولده المتبقي لويس بيده كقيصر وخليفة له وكان ذلك في 11 تشرين الثاني في عام 813م في مدينة آخن في كنيسة بفالس (Pfalzkirche)². حيث عقد مجلس الإمبراطورية بوجود كبار الموظفين و رجال الدين، الذين سألهم شارلمان إذا كانوا يرضون ويعترفون بأبنه لويس ملكاً و قيصراً عليهم بعد وفاته، فكانت الموافقة بالإجماع، وبعد هذه الموافقة اصطحب ولده لويس إلى مذبح الكنيسة و بعد إقامة القداس أوصاه شارلمان بتقديس الله وحماية الكنيسة ومحبة شعبه فوعده لويس أمام الحاضرين بذلك، و بعد ذلك وضع شارلمان التاج القيصري على رأس ولده، معلنه بذلك ملكاً و قيصراً³. ازداد مرض شارلمان شدةً و توفي في مدينة آخن في 28 كانون الثاني 814م ودفن في كنيسة بفالس في آخن⁴، عن عمر يناهز الثانية والسبعين عاماً قضى منها سبعة وأربعين عاماً في حكم مملكة الفرنجة⁵.

1 - Hegewisch. Dietrich Hermann: Versuch einer Geschichte Kayser Karls des Großen. Leibzig 1777, S. 141f.

2 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bs. 1056. S. 105.

3 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken. Bd. 1, S. 492.

4 - Schneider: das Frankreich, S. 39.

5 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 149.

إنجازات شارلمان وإصلاحاته:

بالإضافة إلى أهمية أعمال شارلمان وإنجازاته الحربية والخارجية ونتويجه إمبراطوراً لأول مرة بين ملوك الجرمان، فإن أعماله الداخلية وإصلاحاته الواسعة التي شملت مختلف المرافق و الاتجاهات أدت إلى ظهور ما يعرف في التاريخ باسم النهضة الكارولنجية. حيث عمل بشكل دؤوب على وضع خطط وإنجاز أعمال كثيرة تظهر من خلالها عظمة مملكته فقد بنى في مدينة آخن (ايكس لاشابل) كاتدرائية مريم العذراء التي تميزت بأسلوب معماري متميز حيث استقدم أشهر المعماريين من كافة البلاد، وفي هذه الكاتدرائية التي حُصنت جثمانه بعد ذلك سيتم فيها تتويج كل القياصرة من بعده. كما أمر بتشييد جسر على نهر الراين عند مدينة ماينز الألمانية وكان طوله مايقارب الـ 500 قدم واستغرق بناءه عشر سنوات. وأمر أيضاً ببناء قصرين يعدان من أفخم القصور حتى ذلك الوقت وهما قصر في إنجيلهيم Ingelheim بالقرب من ماينز و الآخر عند نيمجين Nimjuen قرب نهر الغال، هذا وقد أمر بإصلاح كل الكنائس التي لحقت بها الأضرار أما نتيجة الحروب أو نتيجة الإهمال، وعين مبعوثين وأرسلهم للتأكد من حسن تنفيذ أوامره. جدد أسطوله وأمر ببناء سفن جديدة وأمر بوضع نقاط مراقبة وحراسة دائمة على كل المرافئ و مصبات الأنهار الكبيرة¹.

أما في مجال الثقافة فقد أبدى شارلمان اهتماماً واسعاً بالدراسات العلمية، فشجع العلماء و الأدباء الذين قدموا إلى بلاطه من كل أنحاء أوروبا. وكان لهؤلاء دور مهم في إحياء النهضة الكارولنجية ومن أهمهم كان بطرس البيزي و بولينوس و بولس الشماس و أشهرهم كان ألكوين من إنكلترا الذي قدم جهوداً كثيرة في

1 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 110-114.

خدمة العلم و التعلم فقد قام بتصحيح المخطوطات القديمة وأصلح نظام المدارس الدينية و عمل على رفع مستوى رجال الدين الثقافي. كما ترأس ألكوين مدرسة القصر التي كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها يوماً ما. أصبح بلاط شارلمان مركزاً للعلم و الثقافة يعج بالمعلمين و المؤرخين و الشعراء. كما اعتنى شارلمان و مساعديه بالمكتبات و نسخ الكتب و تصحيحها و رعاية اللغة اللاتينية، مما ساعد على قيام نهضة شاملة شملت كل نواحي العلم والمعرفة¹.

حاول شارلمان أن تشمل إصلاحاته كل مناحي الحياة فاهتم بالتشريع و القضاء و الإدارة، حيث قرر إضافة قوانين جديدة لسد النقص في القوانين القديمة وعدل بعضها الآخر، كما أمر بجمع القوانين الخاصة بكل القبائل التي تخضع لإمرته و تدوينها. كما أمر بتدوين كل الأغاني القديمة الخاصة بالجرمان و التي تمجد أعمال ملوكهم القدامى وتخلد إنجازاتهم الحربية لكي يتم نقلها إلى الأجيال الجديدة².

قسم شارلمان إمبراطوريته المترامية الأطراف إلى أقسام إدارية على رأس كل قسم كونت يعد نائباً عن القيصر شارلمان في وحدته الإدارية. ومهمة الكونت الذي يتمتع بصلاحيات واسعة في كل المجالات هي جمع الأموال و الضرائب للسلطة الإمبراطورية وإعلان المراسيم و الأوامر الصادرة من البلاط الإمبراطوري و الإشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين الإيجاريين وتقديمهم للسلطة المركزية. واختار الكونتات معاونين لهم لمساعدتهم بعد موافقة شارلمان. هذا ووجب على الكونتات في كل أنحاء الإمبراطورية التوجه إلى البلاط الإمبراطوري في مدينة آخن (ايكس لاشابل) في نهاية كل عام لتسليم الضرائب و الأموال التي

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 164 - 165.

2 - اينهارد: سيرة شارلمان، ص 146 - 147.

حصلوها للبلط الإمبراطوري. كما قام شارلمان بتعيين مبعوثين بصفة مفتشين يتم إرسالهم إلى أنحاء الإمبراطورية لضمان حسن سير الإدارة، هذا وحرص شارلمان على عدم تثبيت المبعوثين في دوائر وأقاليم محددة وإنما يقوم بنقلهم كل فترة لكي لا يوطدوا علاقاتهم مع أهالي الأقاليم ويستغلوا مناصبهم للحصول على مصالح شخصية¹.

واهتم شارلمان بالشؤون المالية وأوجد ضوابط للعملة و نظاماً موحداً للموازين و المكييل، فقد أمر شارلمان بإغلاق العديد من دور سك النقود بعد أن تجاوز عددها الستين قبل توليه للعرش و أبقى على عدد قليل من هذه الدور وجعلها تخضع لإشراف السلطة المركزية المباشر، كما أصدر تشريعات مالية وحدد أسعار المواد الغذائية مثل القمح، وحمى التجارة و أنزل العقوبة بالتجار المخالفين وشدد الحراسة على الطرق الداخلية داخل إمبراطوريته لحماية المسافرين و التجار من اللصوص و قطاع الطرق².

الزراعة والصناعة كان لها أيضاً نصيب من اهتمام الإمبراطور شارلمان فأصبحت الضياع في زمن شارلمان بمثابة مزارع نموذجية وفيرة الخيرات، وشجع شارلمان الإقطاعيين وكبار الملاك في إمبراطوريته على العناية والاهتمام بزراعة أملاكهم من الأراضي ومساعدة السلطة المركزية في إصلاح وتقوية جسور الأنهار. أما الصناعة فكانت الأديرة تشكل المراكز الأساسية لها، حيث صنعوا المعادن واستثمروا المصنوعات الجلدية والخشبية، هذا ولم تقتصر الصناعة في

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 165- 166.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 180.

العصر الكارولنجي على الأديرة بل انتشرت في القرى و الأرياف، وعمل شارلمان على حماية الصناعة في الإمبراطورية من المنافسة الخارجية¹.

خلفاء شارلمان و تفكك الإمبراطورية الفرنجية:

بعد حوالي شهر من وفاة شارلمان وصل ولده الوحيد المتبقي في ذلك الوقت لويس إلى آخن قادماً من أكيثانيا. و أمر بفتح وصية والده، وبعد ذلك أعلم السفراء الموجودين في آخن و أبلف القسطنطينية بتوليته العرش الفرنجي و رغبته في إقامة علاقات ودية مع الجميع. وبعد ذلك أمر لويس ابن أخيه المتوفي بيبيان و يدعى بيرنهارد (والذي عين من قبل شارلمان ملكاً على إيطاليا) أن يقسم يمين الولاء و الطاعة له أمام أعضاء مجلس الإمبراطورية وكان ذلك في أيار من عام 814م.

وبعد أقل من عام على تولي لويس عرش السلطة الإمبراطورية حيكت مؤامرة في روما ضد البابا ليو الثالث، أخبر البابا ليو الثالث القيصر الجديد لويس، الذي أخذ عن والده واجب والتزام حماية الكنيسة و البابوية من المؤامرة، فأرسل لويس ابن أخيه بيرنهارد لمساعدة البابا والقضاء على المؤامرة. لكن البابا ليو الثالث توفي في صيف 816م. انتخب البابا استيفان الرابع ليخلف البابا ليو الثالث، وتوجه البابا الجديد بعد شهرين من تنصيبه إلى بلاط القيصر لويس، الذي لاقاه إلى مدينة رايمز، وهنا دهن البابا القيصر لويس بالزيت المقدس وتوجه قيصرًا

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 166 - 167.

على الرومان كما توج زوجة لويس قيصرية أيضاً وأقيم حفل فخم يظهر عظمة المناسبة¹.

بعد توليه العرش الكارولنجي أعاد لويس ترتيب البلاط الإمبراطوري وعزل العديد من مستشاري أبيه وأهمهم كان اداالهارد وأخوه فالالا الذين عزلوا من مناصبهم و نُفيا إلى أحد الأديرة وعين بدلاً منهم هيلساخر مستشاره الشخصي عندما كان في أكيثانيا و القس بندكت الذي اهتم بتنظيم و إصلاح الأديرة في الإمبراطورية، هذا وقد حاول لويس إصلاح القوانين المدنية والدينية في الإمبراطورية الكارولنجية، إلا إنه لم يفكر بالمرس بقانون تقسيم المملكة بين أولاد الملك²، حتى إنه قسم مملكته باكراً جداً ففي عام 817م وضع وثيقة نظم خلالها وراثته وتقسيم مملكته، وبموجب هذا التقسيم حصل ولده الأكبر لوثر الأول على لقب إمبراطور و القسم الأعظم من مملكة الفرنجة وله السيادة والألوية على إخوته الأصغر منه كما أعطى ابنه لوثر الأول لقب قيصر مساعد وحصل ابنه لويس (الألماني) على لقب ملك مساعد على بافاريا وحصل بيبيان على نفس اللقب ولكن على أكيثانيا³. أعلن لويس هذه الوثيقة أثناء انعقاد مجلس المملكة في مدينة آخن (ايكس لاشابل). وبعد عدة أشهر من انتهاء مجلس المملكة أعلن ابن أخ لويس، بيرنهارد بن بيبيان، نفسه ملكاً مستقلاً على إيطاليا، وعلى وجه السرعة زحف لويس بجيشه إلى إيطاليا للقضاء على تمرد ابن أخيه، الذي سلم نفسه لعمه القيصر بسبب عجزه

1 – Hegewisch. Dietrich Hermann: Geschichte der fränkischen Monarchie von dem Tode Karls des Große bis zu dem Abgange der Karolinger. Hamburg, 1779, S. 5-8.

2 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 107.

3 – Scheider: das Frankreich, S. 39f.

عن مواجهته وكان عقاب بيرنهارد أن سمت عيناه وتوفي بعد ثلاثة أيام من سمل عينية¹.

تزوج القيصر لويس مرة ثانية في عام 819م من أميرة تدعى يوديث (Judith) واستطاعت هذه النبيلة أن تأسر قلب وفكر القيصر، وحاولت أن تقنعه بالحد من صلاحيات ابنه الكبير لوثر كما استطاعت أن تغير مساعي القيصر وتعين مكانهم أقرباءها وأتباعها وهذا ضمن لها التحكم بسياسة الإمبراطورية. ومما قوى مكانة يوديث أيضا أنها رزقت بمولود في عام 823م سمته شارل وسيعرف بالمستقبل بشارل الأصلع، وفي كل يوم يكبر فيه ولد لويس الأصغر المدلل كانت تزداد مشاكل وهموم إخوته الآخرين وخصوصاً لوثر لأن أباه أعطى أخاه شارل القسم الكبير من حصته ولذلك أعلن لوثر العصيان ضد سياسة البلاط الملكي في عام 829م. هذا ماسبب اضطرابات كبيرة في المملكة وحروباً أهلية².

اضطر لويس لإعادة تقسيم المملكة في عام 831م بين أولاده بعدما أصبحوا أربعة وحصل التقسيم كما يلي: 1- يأخذ بيبيان، بالإضافة إلى أكيثانيا، جميع البلاد الواقعة بين نهر اللوار والسين وكونتيات شالون و أمين و بونتيو. 2- يأخذ لويس، عدا بافاريا، شمال ألمانين وما يعرف اليوم بالأراضي المنخفضة و بلجيكا والجزء الشمالي الشرقي من فرنسا. 3- يحصل شارل، عدا عن ما حصل عليه في عام 829م القسم الأكبر من بورغند و بروفاسن و نوطيا و باجي، و ويفر و كاستريا وبورسين، ورنس و لأن و موزيلغو و تريرف. ويكون بذلك قد أخذ حصة الأسد من المملكة وذلك على حساب لوثر. 4- لوثر وهو الابن الأكبر

1 - Hegewisch: Geschichte der fränkischen Monarchie. S. 15f.

2 - Mannert. Conrad: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken. Bd. 2. Stuttgart 1832. S. 14-17.

فياخذ فقط إيطاليا. ولا يدخل هذا التقسيم حيز التنفيذ إلا بعد وفاة لويس¹. هذا التقسيم لم يرض أبناء لويس من زوجته الأولى وأعلنوا العصيان ونشبت حروب وصلت إلى ذروتها في عام 833م حيث وقع لويس في الأسر من قبل قوات أولاده، ولأن لوثر أراد تقوية نفوذه على حساب أخويه بيبين و لويس، أعادا والدهما إلى عرشه من جديد في عام 835م، وتحددت ملكية لوثر بإيطاليا فقط. لكن ومن جديد سرعان ما توترت الأجواء بين القيصر لويس و أولاده لأن القيصر لويس وبتحريض من زوجته يوديث أعلن ولده شارل ابن يوديث ملكاً مساعداً له في عام 837م على القسم الأعظم من مملكة الفرنجة.

وبعد ذلك توج شارل نفسه ملكاً في عام 838م، ورداً على ذلك توج لويس (الألماني) نفسه ملكاً في القسم الذي بحوزته، لكن تصاعدت التوترات بعد وفاة بيبين في عام 838م وتحارب الإخوة المتبقون على وراثة أملاك أخيه، فتحالف كل من لويس (الألماني) وأخيه شارل (الأصلع) في عام 839م ضد أخيهما الأكبر لوثر. زادت الأمور سوءاً عند وفاة الإمبراطور العجوز لويس في عام 840م فاستمرت الحرب بين الإخوة². وبالمجمل فقد كان ينقص لويس بعد النظر والحنكة وحب العمل وكثيراً ما كان يتخذ قرارات متناقضة، هذا ولم تكن شخصيته قوية لتساعد على إملاء إرادته الخاصة فهو كان بحاجة دائماً إلى من يسيطر عليه و يوجهه، كان لويس تقياً ورعاً وقد نسب إليه وصف التقي بعد وفاته فأصبح يذكر في المصادر و المراجع باسم (لويس التقي)³.

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 200.

2 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 111f.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 187.

معاهدة فردان 843م:

شكل موت لويس التقي في عام 840م بداية النهاية الرسمية لوحدة الإمبراطورية الكارولنجية. هذه الوحدة التي أرسى قواعدها شارلمان الكبير سوف تنتشظى إلى عدة دول و ممالك بعد عام 840م¹.

ازدادت المشاكل بين الإخوة بعد وفاة والدهم، فأعلن لوثر نفسه إمبراطوراً وأراد أن يتسلط على أملاك أخويه لويس الألماني و شارل الأصلع فنشبت الحرب بين الإخوة الثلاث وخسر لوثر في المعركة الفاصلة في بورغند في عام 841 وعقد صلحاً مع أخويه. لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً لأن لوثر خرق بنوده، فجدد لويس الألماني و شارل الأصلع الحلف ضد أخيهام لوثر في عام 842 وأقسموا أغلظ الأيمان بأن لا يخونوا بعضهم أو يعقد أي منهما صلحاً منفرداً مع أخيهام لوثر². كما أقسم على هذا التحالف جيش لويس باللغة الألمانية وجيش شارل باللغة الفرنسية، وقرر المتحالفان (لويس و شارل) في مدينة ستراسبورغ أن يوحدوا جيوشهم وأن ينقضا على أخيهام الأكبر لوثر. لم يستطع لوثر مجابهة التحالف أو الدفاع عن آخن (ايكس لاشابل) وهرب من المدينة آخذاً معه كل الأشياء الثمينة. وبعد ذلك عرض لوثر على أخويه إنهاء الحرب وعقد الصلح و الاتفاق على تقسيم الإمبراطورية بين الإخوة بشكل نهائي و تشكيل لجنة تضم مبعوثين عن الإخوة

1 – Fried. Johannes: die Formirung Europas 840-1046, 3. aufl.

München 2008, S. 21.

2 – Mensch. Ella: Leitfaden für den Unterricht in der Weltgeschichte.

Bd. 3, Berlin. 1910. S. 38.

الثلاثة لترتيب التقسيم و الاتفاق على كل شيء¹. وهذا ما أفضى إلى توقيع اتفاق فردان في منتصف آب من عام 843م². وبموجب هذا الاتفاق تقاسم الإخوة الإمبراطورية على النحو التالي: 1- لوثر: يأخذ بالإضافة إلى إيطاليا، الفريز و البلاد الواقعة بين نهر الايسكو و الراين. 2- لويس الألماني: يأخذ أسقفيات ماينز و فورمز و شبير الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين مع جميع الأقاليم الواقعة على الضفة اليمنى للنهر (أي شرق نهر الراين) أي ألمانيا. 3- شارل: يأخذ الأراضي الواقعة في غرب مملكة أخيه لوثر (أي القسم الأكبر من غاليا، و شمال أسبانيا)³.

عملياً يكون لوثر الذي حصل على اللقب الإمبراطوري قد أخذ بالإضافة إلى إيطاليا شريطاً من الأراضي يمتد من البحر المتوسط إلى بحر الشمال و يتوسط مملكتي أخويه، و توقيع معاهدة فردان كان بمثابة ورقة النعوة لوحدة الإمبراطورية الفرنجية وإيداناً بنشوء ثلاث ممالك جديدة مستقلة يتميز بعضها عن الآخر بشكل واضح من حيث اللغة والتركيب البشري، ومخاضاً لولادة ثلاث دول في المستقبل القريب وهي: إيطاليا، ألمانيا، فرنسا.

1 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 34f.

2 – Fees, Irmgard: die Rgesten des Kaiserreichs unter den Karolingern 751-918, Bd. 2, Köln 2007, S. 154.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 208.

النظام الإداري والسياسي في عهد الأسرة الكارولنجية:

كان النظام الإداري والسياسي لدى الكارولنجيين قريباً جداً لما كان عليه الحال في عهد الأسرة الميروفنجية¹. وتعد "الحقيقة السالية" من أهم المصادر التي تلقى الضوء على النظم الفرنجية، و الحقيقة السالية هي عبارة عن مجموعة قوانين كتبت باللغة اللاتينية في بداية القرن السادس خلال حكم الملك الميروفنجي كلوفس². فكما هو الحال عند الميروفنجيين تمتع الملك الكارولنجي بسلطة استبدادية مطلقة، فهو يمثل أعلى سلطة قضائية وعسكرية وسياسية ولا يخضع لأي التزام. وحده الدين الذي يلزم الملك احترام الحق و ممارسة العدل و التقوى. وحتى في الأمور الدينية مارس الملك الكارولنجي و لاحقاً الإمبراطور حق الإشراف على انتخاب الأساقفة و رؤساء الأديرة وبعد فترة من الزمن أصبح الإمبراطور في كثير من الأحيان صاحب الحق في اختيار مرشحيه لهذه المناصب. هذا وقد عين الإمبراطور موظفاً خاصاً للنظر في أمور الكنيسة، وأصبح من أهم موظفي البلاط، و عرف هذا الموظف باسم رئيس القساوسة الإمبراطوريين وكانت مكانته تساوي مكانة وظيفة رئيس البلاط. هذا و التصقت صفة القداسة بالملوك و الأباطرة الكارولنجيين، حتى إن ثوب الإمبراطور عند تتويجه كان أشبه برداء الأسقف، في حين كان رداء الملك مشابهاً لرداء القس. وكان من مراسيم تتويج الإمبراطور أو الملك دهن الرأس بالزيت المقدس، ومع الزمن ظن الناس أنهم أصحاب صفات مقدسة لا سبيل لزوالها³.

1 - Schneider: das Frankeich. S. 56.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 46.

3 - عمران، محمود سعيد: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت 1991، ص 39.

قسمت مملكة الفرنجة في عهد الأسرة الكارولنجية (كما في عهد الميروفنجيين من قبلهم) إلى كونتيات تضم كل كونتية عدداً من المدن والقرى و يرأس كل كونتية موظف يدعى كونت يعينه الملك وفضل الكارولنجيين اختيار الكونتات من بين أعضاء الطبقة الأرستقراطية الفرنجية¹. وكان الكونت بمثابة النائب للملك في منطقته في الشؤون الحربية و المالية و القضائية يعين إلى جانب الكونت أسقف له السلطة العليا في الشؤون الروحية في الكونتية وهو كبير القضاة في قضايا رجال الدين، بينما كان الكونت كبير القضاة في قضايا المدنيين².

كان القصر الملكي مركزاً للحكومة عند الكارولنجيين وكان متنقلاً مع الملك. وكان تنظيم القصر شبيهاً بما كان عليه في عهد الميروفنجيين ومن أهم موظفي القصر:

1- حاجب القصر: و هو المسؤول الأول والمشرف على بلاط الملك ويعمل على تأمين احتياجات القصر كالمأوى و الطعام.

2- دوق الاصطبلات الملكية: وهو المسؤول عن حظيرة الأحصنة الخاصة بالملك وعن تنقلات الملك.

3- الساقي: وهو المسؤول عن تأمين المشروبات و الخمر للقصر.

4- الخازن: وهو المسؤول عن حراسة كنز وخزينة الملك³.

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 337.

2 - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص45- 46.

33 - Schneider: das Frankreich, S. 57.

5- كونتات القصر: كانت مهمتهم أعواناً للقضاة في المحكمة الملكية لكن مع الوقت ازدادت أهميتهم و أصبحوا يتراأسون المحكمة الملكية في البلاط.

6- الكتاب: وهم مسؤولون عن تدوين قرارات الملك و إرسال الوثائق الرسمية، ويسمى رئيس الكتاب مستشاراً و في عهد لويس الثقي أصبح بالتدريج يسمى رئيس المستشارين.

وأغلب موظفي القصر كانوا من الطبقة الأرستقراطية وكان أصحابها مستشارين عاديين للملك و كان الملك يكلفهم بمهام متعددة سياسية أو عسكرية¹. بالإضافة إلى هؤلاء وجد عدد آخر من الموظفين الأقل شأناً في البلاط الملكي كما احتوى القصر الملكي على كنيسة صغيرة لإقامة القداس².

بقي أن نذكر أن النظام الملكي الفرنسي الكارولنجي كان نظاماً ملكياً وراثياً ويقضي التقسيم بين أولاد الملك المتوفي و كان التقسيم هو السبب الرئيس لتفتت هذه المملكة.

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 335.

2 - Schneider: das Frankreich. S. 58.

الفصل الرابع

الممالك الفرنجية الثلاث من معاهدة فردان 843 و حتى نهاية الأسرة الكارولنجية

تقسيم مملكة لوثر الأول (المملكة الوسطى):

بالإضافة إلى اللقب الإمبراطوري حصل لوثر على مملكة تمت بشكل طولي و ضيق تتوسط مملكتي أخويه شارل الأصلع غرباً الذي حكم القسم الأكبر من فرنسا و لويس الألماني شرقاً والذي حكم ألمانيا و اتخذ من آخن و روما مركزاً لحكومته. توفي لوثر في عام 855 ولم يستفد من الدرس ومن تجربته الشخصية و نزاعه مع أخوته و والده بسبب تقسيم الحكم، فقد قسم لوثر مملكته بين أولاده أيضاً و بذلك حصل ولده الأصغر شارل (855-863) على البروفانس و قسم من بورغند، و أخذ الولد الأوسط، لوثر الثاني، (855 - 869) آخن و الإقليم المحيط بها، أما الابن الأكبر لويس الثاني (855-875) فأخذ إيطاليا مع لقب القيصر. و توفي الأخ الأصغر شارل باكراً في عام 863 و اقتسم أخواه لويس الثاني و لوثر الثاني مملكته، لأنه لم يكن لديه ولد يرثه، و هذا أدى إلى نزاعات كثيرة مع أعمامهم شارل الأصلع و لويس الألماني، اللذين رفضا هذا التقسيم، و زاد الأوضاع اضطراباً وفاة لوثر الثاني المفاجئة في عام 869¹. حيث ما إن علم عمه شارل الأصلع نبأ وفاته حتى زحف بجيشه إلى لوثرنجيا و احتلها و أعلن نفسه ملكاً عليها. وقبل احتلال لوثرنجيا عمل شارل الأصلع إلى كسب ود

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge, Deutschland bis 1056, S. 114f.

القساوسة و الأدواق في هذه المنطقة حتى قبل موت ابن أخيه. في الوقت الذي احتل فيه شارل الأصلع مقاطعة لوثرنجيا كان أخوه لويس الألماني يعاني من المرض في مدينته ريغنسبورغ و كان يتوقع وفاته في أي لحظة، لكن الأمور سارت بغير ما يتمنى شارل الأصلع، لأن أخاه تغلب على مرضه و سرعان ما جهز جيشه و زحف به إلى قرب نهر الراين و طلب من أخيه الانسحاب من لوثرنجيا و خيره بين الانسحاب و الحرب. شارل الأصلع لم يفكر في الحرب مع أخيه، بل أراد التفاوض مع أخيه لويس الألماني، و هذا ما حدث و قد أثمرت المفاوضات بين الأخوين شارل الأصلع و لويس الألماني عن تقسيم مقاطعة (الآن مملكة) لوثرنجيا بين الأخوين حيث أخذ لويس الألماني القسم الشرقي من مملكة لوثرنجيا و هذا القسم بالأساس ملاصق لمملكته و أخذ شارل الأصلع القسم الغربي المتاخم أيضاً لمملكته، و بالكاد بدأ تقسيم لوثرنجيا حتى وصل مندوبون من القيصر لويس الثاني ومن البابا إلى شارل الأصلع ليطلبوا عمي القيصر بإعادة لوثرنجيا إليه لأنه الوريث الشرعي لأخويه، لكن شارل الأصلع لم يعر ذلك اهتماماً و أعاد الوفد إلى إيطاليا¹. و كانت النتيجة أن قسمت مملكة لوثر إلى ثلاثة أقسام:

1- قسم بقي مع ابنه لويس الثاني القيصر يضم إيطاليا، 2- قسم أخذه أخوه (أخ لوثر ابن لويس التقي) شارل الأصلع و يضم غرب لوثرنجيا، 3- قسم أخذه أخوه لويس الألماني و يضم شرق لوثرنجيا.

مملكة شارل الأصلع (المملكة الغربية)

بعد عدة سنوات من تقسيم لوثرنجيا توفي القيصر لويس الثاني في عام 875 و كأخوته الأصغر منه قبل ذلك لم يترك لويس الثاني وريثاً يخلفه على

1 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd.2, S. 64-66.

عرشه. بعد موت القيصر لويس الثاني، عدّ عمه الأكبر الذي على قيد الحياة لويس الألماني نفسه صاحب الحق الأول باللقب الإمبراطوري و وارثه ابن أخيه القيصر لويس، لذلك أرسل لويس الألماني ولده شارلمان على رأس جيش كبير ليعبر جبال الألب وبعدها يتجه إلى إيطاليا، لكن المفاجأة كانت أن عمه شارل الأصلع كان قد وصل قبله إلى إيطاليا¹. لم يقف لويس الألماني متفرجاً أمام ذهاب أخيه إلى إيطاليا ، بل جهز جيشاً و زحف به إلى القسم التابع لأخيه شارل الأصلع في مقاطعة لوترنجيا، محاولاً بذلك أن يثني أخيه عن مخططه في إيطاليا و ينسحب منها. لكن شارل الأصلع بقي في إيطاليا وكسب ود أغلب الأطراف هناك و توجه البابا يوحنا الثامن قيصرًا في عام 876 و بعد ذلك غادر روما إلى بافيا و بعد ذلك عاد إلى فرنسا². و عندما علم شارل الأصلع بوفاة أخيه لويس الألماني في عام 876 زحف بجيشه نحو ألمانيا محاولاً الاستيلاء على مملكة أخيه بعد أن علم بنشوب الخلاف بين أولاد أخيه، إلا أنه فشل في تنفيذ مخططه، وفي هذه الأثناء كانت إيطاليا تتعرض لغارات العرب المسلمين، الذين سيطروا على بعض الثغور الساحلية ووصلوا إلى تخوم روما، و لأن البابا يوحنا الثامن لم يفضل طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي (باسيل الأول الذي امتلك قوة عسكرية في مدينة باري التي تقع جنوب إيطاليا في عام 876، كما أعلنت دالماسيا تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية في عام 877) لأن البابا لم يرغب بتدخل البيزنطيين في الشأن الإيطالي و لذلك طلب البابا المساعدة العسكرية ضد الخطر الإسلامي من القيصر شارل الأصلع. اضطر شارل الأصلع أن يقود حملة إلى

1 – pfister, Johann Christian von: Geschichte der europäischen Staaten, Geschichte der Deutschen, Bd. 1, Hamburg, 1829, S. 472.

2 – Mannert: Geschichte der alte Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 69.

إيطاليا في عام 877 لأنه بعد حصوله على لقب القيصر وجب عليه حماية البابوية من أي خطر، لكن شارل الأصلع توفي في الطريق قبل أن يبدأ بمحاربة المسلمين. أخفق شارل الأصلع في تحقيق أغلب أهدافه فقد فشل في ألمانيا حيث كان مشروعه الاستيلاء على مملكة أخيه لويس الألماني، كما فشل في إيطاليا و لم يستطع حمايتها من الخطر الإسلامي، وازدادت في عهده غارات النورمانديين على فرنسا فاضطر لأن يشتري السلام معهم بالمال، بالإضافة إلى ذلك فإنه لم يستطع إخضاع الأمراء التابعين لسلطته. كل ذلك فتح الطريق و سبب زوال الأسرة الكارولنجية بعد تصارعها مع الأسرة الكابية حوالي قرن من الزمن¹.

مملكة لويس الألماني (المملكة الشرقية)

حكم لويس الألماني بموجب اتفاق فردان في عام 843 الأراضي التابعة للسلطة الكارولنجية الواقعة شرق نهر الراين بالإضافة إلى مدينة شباير و محيطها و مدينة فورمز و ماينز الواقعة غرب نهر الراين، و هذا ما عرف بالمملكة الشرقية. قام في الجزء الشرقي من مملكة لويس الألماني في إقليم ميرن (Mähren) (سلوفاكيا حالياً) سلطة شبه مستقلة عن سلطة الملك و كان ذلك بداية تشكل مملكة جديدة على الأراضي الكارولنجية بقيادة مومير (Mojmir) (دوق ميرن). وبعد وفاة الدوق مومير في عام 846 دخل لويس الألماني ميرن و عين ابن أخ مومير ويدعى راستيسلاف (Rastislav) حاكماً على إقليم ميرن، لكن راستيسلاف عمل على تثبيت استقلال مقاطعة ميرن عن المملكة الكارولنجية الشرقية و طلب من البابا نيكولاس الأول (858-867) أن يفك ارتباط كنائس إقليم ميرن عن سلطة لويس الألماني و يجعلها تابعة للفاثيكان لكن البابا نيكولاس

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 79 - 80.

رفض هذا الطلب، و هذا ما دفع راستيسلاف للتوجه إلى القيصر البيزنطي ميخائيل الثالث (842-867) طالباً منه تنظيم الكنيسة في ميرن على الطريقة البيزنطية، قابل القيصر ميخائيل الثالث هذا الطلب بالترحاب و أرسل اثنين من موظفيه المختصين بتنظيم الكنيسة إلى ميرن لتنفيذ هذه المهمة. بعد هذه الخطوة من قبل راستيسلاف ازدادت النزاعات بينه و بين الملك لويس الألماني و استمرت هذه النزاعات في عهد ابن أخ راستيسلاف (الذي انقلب على عمه و استولى على الحكم في ميرن) حتى عقد الصلح بين الطرفين عام 874 دفعت بموجبه مقاطعة ميرن جزية سنوية للملك لويس الألماني مقابل حصولها على الاستقلال الذاتي¹.

توقيع هذا الاتفاق فسخ المجال أمام لويس الألماني للتفرغ لمواجهة المشاكل في إيطاليا و على الحدود الغربية لمملكته بسبب نجاح أخيه شارل الأصلع بالدخول إلى إيطاليا و تتويج نفسه إمبراطوراً بعد وفاة ابن أخيه القيصر لويس الثاني بدون وجود ولد يرثه في عام 875، لكن لم يكتب للويس الألماني العمر لتنفيذ مشروعه في مواجهة أخيه شارل الأصلع، حيث توفي في 28 آب 876. أراد شارل الأصلع أن يستغل فرصة وفاة أخيه و أن ينقض بجيشه على القسم الشرقي من لوثرنجيا التابع لمملكة أخيه المتوفي، إلا أن كارل الثالث ابن لويس الألماني استطاع أن يصد هجوم عمه و يلحق به خسارة فادحة، وبعد ذلك توفي القيصر شارل الأصلع في طريقه إلى إيطاليا كما ذكر سابقاً في عام 877م².

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 117f.

2 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 71f.

زوال العصر الكارولنجي في المملكة الشرقية (ألمانيا)

ألمانيا في عهد شارل السمين و أرنولف

بعد وفاة لويس الألماني في عام 876 تقاسم أولاده الثلاثة مملكة أبيهم فأخذ شارلمان بافاريا و جنوب شرق ماركن و بذلك ورث أيضاً النزاع مع مملكة ميرن شرقاً، وأخذ أخوه الأصغر لويس الثالث ماين فرانكن و تورنغن و ساكسن، و أخذ شارل الثالث الملقب بالسمين ألماني و كورتين و قسمت لوثرنجيا بين الإخوة الثلاثة.

توج شارل الثالث إمبراطوراً في عام 881 من قبل البابا يوحنا الثامن (872-882) و لحسن حظ شارل الثالث فقد توفي أخواه شارلمان في عام 880 و لويس الثالث في عام 882 فأصبح السيد الوحيد على المملكة الكارولنجية الشرقية. بالإضافة إلى إيطاليا، لكن شارل الثالث لم يكن لديه القوة و الشجاعة لدفع خطر النورمانديين عن إيطاليا فاضطر إلى شراء انسحابهم بالمال. هذا و بدا في عام 885 أن وحدة الإمبراطورية الكارولنجية تحققت مرة أخرى على يد شارل السمين بعد شغور العرش في فرنسا لأن حفيد شارل الأصلع كان صغيراً في السن ولا يقدر على إدارة دفة الحكم في المملكة الغربية، إلا أن شارل السمين أثبت عدم قدرته و فشله في إدارة الإمبراطورية و الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية و ظهر ذلك جلياً عندما هاجم النورمانديون باريس و قاد الدفاع عن المدينة الدوق أودو (Odo) و لم يستطع القيصر فعل شيء أكثر من شراء انسحاب النورمانديين مرة

أخرى¹، و أمام فشل لويس السمين في إدارة الإمبراطورية و حمايتها من أطماع الغزاة فتحت الطريق أمام ابن أخ لويس السمين (أرنولف بن شارلمان) لكسب ود القادة في الجيش و الدعم الشعبي ضد عمه، فأزاح عمه شارل السمين عن منصبه في عام 887 و حل مكانه على العرش، و توفي شارل السمين بعد تنحيته بفترة قصيرة في شهر كانون الثاني في عام 889م².

بعد تولي أرنولف العرش الكارولنجي بدا و كأن الأمور تميل للتحسن و أنه بمقدوره إعادة مجد الإمبراطورية الكارولنجية الموحدة، فقد أثبت جدارته في الحكم و استطاع أن ينتصر على النورمانديين في عام 891، لكن بقي مركز الثقل في حكم أرنولف في المملكة الشرقية (ألمانيا) و ظهر في أقسام المملكة الأخرى منافسون له على النفوذ و على العرش أيضاً من النبلاء و الأمراء الأقوياء في كل من إيطاليا و لوثرنجيا، و لكن أشدهم خطراً كان في القسم الغربي من المملكة الكارولنجية (فرنسا) حيث لمع نجم الدوق أودو (888-898) بعد صد هجوم النورمانديين على باريس و أعلن نفسه ملكاً (من خارج الأسرة الكارولنجية) على القسم الغربي من مملكة الفرنجة و أيده بذلك الأمراء الفرنسيون، هذا و اعترف الملك أرنولف بأودو ملكاً على القسم الغربي من مملكة الفرنجة (فرنسا)³.

لطالما حلم أرنولف أن يكون إمبراطوراً متوجاً من قبل بابا روما، لذلك لم يتردد في زج نفسه في الصراع السياسي الذي كان يدور بين أمراء إيطاليا و نبلائها، و لبي نداء البابا فورموز (891-896) في عام 894 عندما استدعاه

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 120.

2 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 83.

3 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 121f.

للتدخل في إيطاليا، فقدم أرنولف على رأس حملة عسكرية و احتل عدداً من مدن إيطاليا الشمالية ثم عاد إلى ألمانيا بسبب المشاكل التي اعترضته، ليعود بجيشه مرة ثانية في عام 895 إلى إيطاليا و يدخل روما ليتوجه البابا فورموز إمبراطوراً على إيطاليا و ألمانيا. و بالرغم من هذا التتويج فقد بقيت سلطة أرنولف ضعيفة في إيطاليا و قامت ضده معارضة قوية فشل في القضاء عليها و اضطر إلى العودة إلى ألمانيا بعد إصابته بالشلل و أجلى جميع قواته عن إيطاليا¹.

ألمانيا في عهد لويس الطفل (899-911)

توفي القيصر أرنولف في كانون الأول من عام 899 و خلفه على العرش الألماني ابنه لويس الطفل (الذي كان في السادسة من عمره)، لذلك تشكل مجلس وصاية على الملك الجديد بقيادة أسقف ماينز (هاتو)². إن وجود ملك صغير في السلطة ساعد الأسر الإقطاعية على تقوية نفوذها و تحركت لديهم الرغبة في توسيع نفوذهم فنشبت خلافات ونزاعات بين هذه الأسر، وهذا ما أدى إلى عدم وجود سلطة فعلية في ألمانيا و بالتالي محاولة كل طرف فرض نفوذه على الآخر و أصبحت ألمانيا مهددة من كل الأطراف و كان الخطر الأكبر من قبل الهنغار (الذين قدموا من آسيا و استوطنوا قرب البحر الأسود و بعدها هاجروا إلى قرب نهر الساف، رافد لنهر الدانوب). عندما رأى الهنغار ضعف حكومة الملك الصغير هاجموا الأراضي الألمانية في عام 900 ملحقين الدمار و الخراب بالأراضي التي اندفعوا فيها، و أعادوا الهجوم بأعداد كبيرة في عام 904-907 و عانت بافاريا الأمرين في هذين الهجومين، و بدا أن الخطر الهنغاري لا يقاوم و لا يمكن لأحد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 103.

2 - Dümmler, Ernst: Geschichte des Ostfränkischen Reichs, Bd. 2, Berlin S. 491ff.

إيقافه، خصوصاً أن الألمان لم يجمعوا قواتهم تحت قيادة واحدة لمجابهة الهنغار. وفي عام 910 حاول الملك الشاب الآن لويس مواجهة الهنغار و زحف بجيشه إلى بافاريا لمقاومة الهنغار لكن جيشه تألف فقط من البافاريين و الشفابيين و اضطر لويس إلى الهرب أمام القوات الغازية بسبب ضعف جيشه و قام الهنغار بنهب بافاريا مرات عديدة. إحساس الملك لويس بالعجز عن إدارة مملكته و الدفاع عنها أمام الأخطار الخارجية دفعه لليأس و المرض و توفي في عام 911 دون أن يكون له زوجة رسمية أو على الأقل ولد يرثه، و بوفاته تكون قد انتهت سلالة الذكور من الأسرة الكارولنجية في ألمانيا¹.

الملك كونراد الأول (911-918)

بعد وفاة الملك لويس الطفل في عام 911 انتخب كونراد الأول ملكاً على القسم الشرقي، الألماني، من المملكة الكارولنجية، و كان بذلك أول ملك من خارج الأسرة الكارولنجية يعتلي عرش المملكة الشرقية الكارولنجية و سيكون ذلك بداية لمرحلة جديدة ينتخب فيها الملك انتخاباً ليس فقط من خارج الأسرة الكارولنجية كما حدث مع كونراد بل أيضاً سيتم انتخاب ملوك في المستقبل القريب ليسوا من الفرنجة حتى².

كان كونراد الأول دوق فرانكونيا و انتخب من قبل أدواق ساكسن، و بافاريا، و ألمانيين. ولم تعترف مقاطعة لوثرنجيا بهذا الانتخاب و أعلنت انضمامها إلى

1 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 92 – 103.

2 – Ehlersrs, Joachim: die Entstehung des Deutschen Reiches, 4. Aufl., München 2012, S. 12.

القسم الغربي (الفرنسي) من المملكة الكارولنجية. مارس كونراد الأول دوق فرانكونيا سلطات واسعة في عهد آخر ملك كارولنجي لويس الرابع (الطفل) و كان له دور قيادي في بلاط الملك لويس، لكن عندما أصبح كونراد ملكاً على ألمانيا لم يستطع فرض سلطته على أدواق ألمانيا و كبار إقطاعيها لأنه كان يدين لهم بانتخابه ملكاً عليهم كما أنه لا ينحدر من سلالة ملكية، بالإضافة إلى ذلك فشل كونراد الأول في إخضاع مقاطعة لوثرنجيا و إعادتها إلى حظيرة المملكة الألمانية¹.

عانت ألمانيا في عهد كونراد الأول من هجمات الهنغاريين و نهبهم للأراضي و الممتلكات، ونشبت أيضاً حرب بين الملك كونراد و دوق بافاريا أرنولد الذي هرب و التجأ إلى هنغاريا في عام 917 م حيث استقبل بحفاوة. كانت فترة حكم كونراد الأول سلسلة من الإخفاقات الداخلية و الخارجية و توفي بعد معاناته من المرض في عام 918 دون أن يترك ولداً ذكراً².

زوال العصر الكارولنجي من المملكة الغربية (فرنسا)

1 - الصراع على السلطة بين أودو (كونت باريس) و شارل البسيط:

انقسمت عراً وحدة الممالك الكارولنجية إلى الأبد بعد موت الإمبراطور شارل الثالث (السمين) في عام 888 و ظهرت في فرنسا أسرة جديدة، الأسرة الكابية، أخذت تتنافس الأسرة الكارولنجية على الحكم في فرنسا، هذا و قد دفع الخطر النورماندي المطبق على فرنسا الأمراء الفرنسيين و كبار الإقطاعيين إلى البحث

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 124.

2 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 128-132.

عن شخصية قوية تستطيع إنقاذ البلاد و حمايتها من الأخطار الخارجية المدمرة. و كما ذكر سابقاً فقد فشلت الأسرة الكارولنجية في حماية أراضي الإمبراطورية من غارات النورمانديين و لم يبق من شخصياتها في فرنسا على قيد الحياة إلا شارل البسيط، الذي لا يستطيع فعل شيء، و لذلك أجمع النبلاء الفرنسيون على انتخاب رجل قدير من خارج الأسرة الكارولنجية، ووقع اختيارهم على كونت باريس، أودو، الذي تميز بشجاعته في الدفاع عن مدينة باريس عندما حاصرها النورمانديون في عام 886، و اعتلى أودو العرش الفرنسي في عام 888 بموافقة أغلب الأمراء الفرنسيين، كما اعترف به الملك الألماني أرنولف¹. تمكن أودو في بداية حكمه من صد هجمات النورمانديين و ألحق بهم هزيمة منكرة، فازدادت شعبيته في المملكة الفرنسية و قويت سلطته، لكن حدث هجوم ثانٍ للنورمانديين على فرنسا في عام 890 و اضطر أودو إلى شراء تراجعهم بالمال، هذا العمل سوق على أنه ضعف من قبل أودو و استغل مناهضوه هذه الحادثة للعمل على إعادة العرش الفرنسي إلى الأسرة الكارولنجية، ففي عام 893 توج الأسقف الفرنسي، فولك، شارل البسيط ملكاً على فرنسا، لكن هذا التتويج أدى إلى اندلاع نزاع مسلح على السلطة الملكية بين أودو و شارل البسيط و تدخل في هذا النزاع أطراف عديدة، لكن حادثاً خطيراً وقع في عام 897 و هو أن النورمانديين هاجموا الأراضي الفرنسية مجدداً، وهذا ما دفع الملك المتنازعان إلى التفاوض لوضع نهاية للنزاع المسلح بينهما على أمل توحيد جهود الملكين ضد الغزاة النورمانديين. وكانت نتيجة المفاوضات أن تنازل أودو عن قسم من المملكة الفرنسية لشارل البسيط، و

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 232 - 233.

لحسن حظ شارل أن أودو توفي في عام 898 فصار بذلك الملك الوحيد على فرنسا و بذلك يكون العرش الفرنسي قد عاد للأسرة الكارولنجية¹.

لم يقبل روبرت أخ أودو و وريثه بهذا الواقع الجديد، حيث عدّ نفسه أحق بعرش فرنسا باعتباره وريث أخيه، فثار روبرت ضد الملك شارل البسيط، هذا ما دفع شارل إلى التحالف مع الفيكنغ و تنازل لهم عن إقليم نورمانديا مقابل مساعدته في حروبه ضد روبرت، بالإضافة إلى نورمانديا فقد ساعدت لوثرنجيا شارل في صراعه مع روبرت، وهذا ما ساعد شارل على التفوق على روبرت في البداية، لكن النصر النهائي كان حليف روبرت في عام 922، و توج روبرت نفسه ملكاً على فرنسا بذلك أصبح في فرنسا ملكان في وقت واحد².

لم يستسلم شارل البسيط لخصمه و جهز جيشه و زحف على مدينة سواسون مقر روبرت و نشبت المعركة بين الطرفين في 15 حزيران 923 و قتل روبرت في المعركة لكن جنوده استطاعوا دفع شارل البسيط للانسحاب. واجتمع بعد معركة سواسون و انسحاب القوات الكارولنجية بعض الإقطاعيين الموالين للأسرة الكابية و انتخبوا رؤول صهر روبرت ملكاً على فرنسا. لم يملك الملك شارل البسيط الوقت الكافي لتجميع قواته و تأسيس أحلاف جديدة فقد وقع في الأسر عن طريق كمين نصبه له هربرت فرماندوا في نهاية عام 923. هذا و استخدم هربرت فرماندوا الملك الأسير شارل كورقة رابحة للضغط و ابتزاز ملكه رؤول للحصول على مكاسب سياسية. بقي شارل البسيط في الأسر حتى وفاته في 7 تشرين الأول 929، أما ولده لويس فقد التجأ مع أمه إلى جده (والد أمه) ملك إنكلترا، إدوارد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 81.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 215 - 216.

الأول، و هكذا لم يبق أمام رؤول أي منافس على العرش من الأسرة الكارولنجية في فرنسا¹.

2 - نشوء دوقية نورمانديا في غرب فرنسا:

كان الحدث الأبرز في فترة حكم شارل البسيط هو معاهدة سان كلير التي وقعها مع النورمانديين في تشرين الأول من عام 911. فقد تعرضت فرنسا في عهد شارل البسيط لغارات نورماندية كبيرة بقيادة زعيمهم رولون، لكن النورمانديين تعرضوا لهزيمة قاسية في عام 898 ويمكن تلخيص الأسباب التي دفعت الطرفين لتوقيع هذه الاتفاقية أن كلاً من شارل البسيط و رولون زعيم النورمانديين سئما هذه الحرب و تكاليفها، فقد كان يصعب على شارل وضع حد لهذه الغارات بسبب عدم قدرته الدائمة على جمع جيش إقطاعي تحت قيادته لصد هجمات النورمانديين، فقد كان كل إقطاعي فرنسي يفكر بالدفاع عن أملاكه الخاصة أولاً²، ومن ناحية أخرى فإن الغارات النورماندية الأخيرة لم تحظ بنفس النتائج الإيجابية السابقة بل أدت في بعض الأحيان إلى انتكاسات و قتل عدد كبير من النورمانديين و عدم الحصول على غنائم جديدة، وظهرت فكرة عند بعض قادة النورمانديين في بداية القرن العاشر أنه من الأجدى التخلي عن أعمال السلب و الغزو غير المثمرة مقابل استغلال منطقة خصبة و غنية يمكن الحصول منها على موارد كافية، ومن المتوقع أن تكون هذه الفكرة قد سوقت من قبل رولون الذي أراد إلزام محاربيه بحياة الاستقرار و تثبيتهم حول وادي السين الأدنى. هذا و لاقت هذه الفكرة ترحيباً من الملك شارل البسيط لأن مملكته كان ينقصها الاستقرار و التنظيم العسكري، و بناءً على ذلك عقد الملك الفرنسي شارل البسيط و الزعيم النورماندي رولون في تشرين

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 481 - 484.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 82.

الأول عام 911 اتفاقية سان كلير على الالبت و نصت الاتفاقية على تنازل الملك الفرنسي عن المنطقة التي تقع غرب فرنسا لرولون و سمح للنورمانديين بالإقامة فيها مقابل وقف النورمانديين للغارات على الأراضي الفرنسية، هذا و أطلق فيما بعد على البلاد التي تنازل عنها شارل البسيط إلى رولون في هذه الاتفاقية اسم نورمانديا و عرفت ابتداءً من القرن الحادي عشر باسم دوقية نورمانديا. اعترف رولون بسيادة الملك شارل البسيط على نورمانديا و حلف يمين الولاء لشارل و هذا يعني أنه استلم نورمانديا من الملك، و بعد وفاة رولون أدى أيضاً خليفته غليوم ذي السيف الطويل (937-942) يمين الولاء للملك الفرنسي، و جدد بعده أمراء نورمانديا، باسم ريشارد الأول (943-996)، و هو في سن الطفولة، هذا العمل لدى لويس الرابع¹. و هكذا أصبحت نورمانديا مقاطعة تابعة للمملكة الفرنسية و بقيت كذلك حتى جاء غليوم الفاتح الذي احتل إنكلترا عام 1066 و ضمها إلى نورمانديا و أصبح ملكاً على نورمانديا و إنكلترا معاً.

3 - تجدد النزاع على العرش الفرنسي بين الأسرة الكارولنجية و الأسرة

الكابية 929 - 987

بعد موت شارل البسيط في عام 929 هرب ولده لويس الرابع إلى جده الملك الإنكليزي إدوارد الأول و بذلك يكون الملك رؤول صير روبير (من الأسرة الكابية) قد استنفرد بحكم فرنسا كلها حتى مات في عام 936، و بعد موت الملك رؤول دون أن يترك ولداً يرثه على عرشه اجتمع كبار الأمراء و الإقطاعيين الفرنسيين و أجمعوا على تتويج هوغ الملقب بـ "الأكبر" ملكاً على فرنسا و هوغ هذا هو: ابن حمي رؤول و ابن روبرت دوق باريس الذي أعلن نفسه ملكاً على

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 473 - 479.

فرنسا في عهد شارل البسيط و قتل في المعركة التي دارت بينه و بين شارل البسيط في حزيران 923م¹. لكن هوغ كابية رفض أن يصبح ملكاً في ذلك الوقت، هذا التعفف لم يكن عن بساطة في التفكير بل كان عن ذكاء و بعد نظر امتلكه هوغ الذي أدرك أن تتويجه على الحكم في ذلك الوقت لم يكن لينجح و أن الظروف لم تكن مواتية له تماماً ففضل الحكم و القيادة من الخلف فأعلن ولاءه للبيت الكارولنجي و أقنع كبار الأمراء و الإقطاعيين الفرنسيين بدعوة لويس الرابع بن شارل البسيط الذي سبق و أن التجأ إلى إنكلترا للعودة إلى فرنسا.

أ - لويس الرابع (لويس ما وراء البحر) 936 - 954

أرسل هوغ الأكبر وفداً إلى لويس في إنكلترا و دعاه للعودة إلى فرنسا فلبى الدعوة و عبر البحر عائداً إلى فرنسا، و لذلك لقب ب لويس ما وراء البحر أو البحار، و توج ملكاً على فرنسا في 19 حزيران 936 و بذلك يكون البيت الكارولنجي قد عاد إلى حكم فرنسا مرة أخرى. على عكس أبيه شارل البسيط، اتصف الملك لويس الرابع بالقوة و الذكاء و النشاط و هذا ما ساعده في مواجهة المشاكل، لكن محاولته الاستقلال بسياسته دفعته للنزاع مع هوغ الأكبر، الذي كان الشخصية الأهم في المملكة بعد الملك نظرياً و كان هوغ يتمتع بالقوة المادية و السياسية و لذا كان لويس الرابع مضطراً أن يقبل تدخله الثقيل، لأن نفوذه العظيم الذي تمتع به يمكن أن يكون عوناً حقيقياً له².

لم يستطع هوغ الأكبر تسيير الملك لويس كما خطط و ساءت العلاقة بين الاثنين فغادر لويس مدينة باريس و أقام في مدينة لايون (Laon) بينما بقي هوغ

1 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 83.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 485 - 486.

في باريس. حاول لويس أن يعيد المجد الكارولنجي بأي وسيلة، لذلك وطد علاقاته مع الخصوم السابقين ليركز أعماله ضد العدو الأكبر هوغ¹. كان إعلان أمراء مقاطعة لوثرنجيا ولاءهم للويس الرابع دافعاً لعقد تحالف ضده في عام 939 يضم هوغ الأكبر والإمبراطور الألماني أوتو الأول و دوق نورمانديا غليوم ذا السيف الطويل، و اجتاحت الإمبراطور الألماني أوتو الأول مقاطعة لوثرنجيا في نفس العام و استمر لويس الرابع في مقاومة الأخطار الخارجية و الداخلية حتى إنقلبت الأمور لصالحه في عام 942 بعد أن تدخل الفاتيكان لإصلاح الأمور. وبعد التفاوض بين لويس الرابع و الإمبراطور أوتو الأول أبرم الصلح بين الطرفين في تشرين الثاني عام 942 بعد أن تزوج لويس الرابع أخت الإمبراطور. وعندما كان هوغ الأكبر قد تزوج أيضاً إحدى أخوات الإمبراطور أوتو فقد فسح ذلك المجال للإمبراطور للتدخل بين صهره و لعب دور الحكم و هذا ما أدى إلى تحسن العلاقات بين الأطراف الثلاثة. استمرت بعض المناوشات بين لويس الرابع و هوغ الأكبر حتى عام 950 حيث عقد صلح بين الطرفين ضمن للمملكة الفرنسية الهدوء حتى وفاة الملك لويس الرابع في 10 أيلول 954م².

ب - الملك لوثر و ابنه لويس الخامس 954 - 987

بعد وفاة الملك لويس الرابع في عام 954 خلفه على العرش الفرنسي ابنه لوثر حتى عام 986م³. و على الرغم من أن عمره لم يتجاوز في ذلك الوقت ثلاثة عشر عاماً فإن نتيجته ملكاً جاء دون أي صعوبة، حتى إن هوغ الأكبر لم يبد أي اعتراض على انتخاب و تنصيب لوثر ملكاً. توفي هوغ في 17 حزيران 956 تاركاً

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 216.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 486 - 490.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 83.

ثلاثة أولاد هم: هوغ و قد عرف باسم هوغ كابيه ، و أوتو ، و أود-هنري و كان الثلاثة قاصرين و غير مؤهلين لوراثة دور والدهم القوي، وقع لوثر الخامس في البداية تحت تأثير والدته و مارس سياسة موالية لجده أوتون الأول إمبراطور ألمانيا. تزوج في عام 966 من إيما بنت لوثر ملك إيطاليا المتوفي. بعد وفاة والده الملك لوثر في عام 968 و جده الإمبراطور الألماني في عام 973 الذي كان لوثر يكن له الطاعة و الاحترام، بدأ لوثر بتنفيذ سياسته المستقلة و قطع العلاقات مع ألمانيا و زحف بجيشه نحو مدينة آخن (ايكس لاشابل) و نهب جنوده القصر الملكي و انسحب بعد ذلك. جاء الرد على هذا العمل من خليفة أوتون الأول، أوتو الثاني في عام 978، الذي هاجم فرنسا في تشرين الأول ملحقاً خسائر كبيرة بقوات لوثر و المدن الفرنسية و أدى هوغ كابيه ابن هوغ الأكبر دوراً مهماً في حماية و إجبار أوتو الثاني على الانسحاب. انتهت الحروب بين الطرفين بعقد الصلح بين الطرفين في تموز 980. لم يجن الملك لوثر أي نتائج إيجابية من حربه ضد ألمانيا، أما هوغ كابيه فقد حظي بشعبية متزايدة بعد دفاعه عن باريس في عام 978 و استطاع بذكائه كسب ود رجال الدين و متن علاقاته مع أوتو الثاني و التقاه في روما في عام 981. وهذا ما وتر العلاقات بين لوثر الخامس و هوغ كابيه حتى إنتهت بالصلح في عام 985. توفي الملك لوثر في آذار 986 و خلفه على العرش ابنه لويس الخامس دون مشاكل تذكر على الرغم من أن هوغ كابيه كان باستطاعته منافسة لويس على العرش لما يمتلكه من علاقات و إمكانيات على فعل ذلك. كان لويس الخامس في عمر التاسعة عشر عند اعتلائه العرش، لكن لم يكن لديه إرادة و نشاط والده و لم يستمر في الحكم إلا عاماً واحداً فقد مات بشكل مفاجئ في أيار 987م¹. دون أن يترك ولداً يرثه أو أن يكون له

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 490 - 495.

أخ أو قريب من الأسرة الكارولنجية يرثه، و بذلك جاء موته بمثابة فصل الختام بالنسبة للأسرة الكارولنجية في فرنسا. بعد ذلك تم انتخاب هوغ كابيه ابن هوغ الأكبر ليصبح ملكاً على فرنسا (987-996) بعد وفاة لويس الخامس، و بذلك بدأ تاريخ أسرة كابيه في حكم مملكة فرنسا¹.

المملكة الوسطى (إيطاليا) من نهاية العصر الكارولنجي و حتى نشوء الإمبراطورية الرومانية المقدسة

نشوء مملكة إيطاليا بموجب معاهدة فردان 843

أدت معاهدة فردان عام 843 إلى إنهاء وحدة الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية وتأسيس ثلاث ممالك مستقلة مكانها، حيث يسود بين هذه الممالك الثلاث نوع من التحالف والإخاء يرمي إلى الحفاظ على السلام والاستقرار وإبقاء توزيع الأراضي بين الممالك الثلاث على ما هو عليه. وكما ذكر سابقاً فقد تم بموجب معاهدة فردان اقتسام أبناء الملك لويس الثاني ابن شارلمان الإمبراطورية فيما بينهم، فأخذ شارل الأصغر فرنسا، وأخذ لويس الألماني ألمانيا، بينما حصل لوتار الأول على إيطاليا بالإضافة إلى اللقب الإمبراطوري. توفي لوتار الأول في عام 855 واقتسم أولاده الثلاثة مملكته: فأخذ لويس الثاني شمال إيطاليا، ولوتار الثاني حصل على الشريط الفرنسي، أي الأراضي المنخفضة، أما شارل الصغير فحصل على إقليم البروفانس. وعندما مات لوتار الثاني في عام 869 ضم عمه شارل الأصغر مملكته (الأراضي المنخفضة) إلى مملكة فرنسا. وعندما توفي لويس

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 206.

الثاني عام 875 زحف عمه شارل الأصلع إلى شمال إيطاليا وضم هذه المملكة إلى مملكته أيضاً. وزحف شارل الأصلع بعد ذلك إلى روما حيث توجه البابا يوحنا الثامن إمبراطوراً على فرنسا وإيطاليا معاً. وفي عام 884 لم يبق في فرنسا وإيطاليا أي شخص من الأسرة الكارولنجية سوى شارل البسيط، وهو حفيد شارل الأصلع، وكان في ذلك الوقت في الرابعة من عمره ولا يستطيع الجلوس على العرش الملكي واستلام الحكم، وبناءً على ذلك قام الملك الألماني شارل السمين، ابن لويس الألماني، بضم فرنسا وإيطاليا إلى مملكة ألمانيا، وبذلك تكون قد عادت وحدة الممالك الكارولنجية إلى الحياة مجدداً لكن ذلك لم يستمر طويلاً فبعد موت شارل السمين في عام 888 تجزأت المملكة الكارولنجية مجدداً ولكن هذه المرة كان الانفصال أبدياً، كما بدأت كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا بالاستقلال¹.

النزاع الداخلي على الحكم والتدخل الألماني في إيطاليا

بعد وفاة الملك شارل السمين في عام 888 وانفصال إيطاليا عن ألمانيا اجتمع الأمراء والنبلاء في إيطاليا في مدينة بافيا واختاروا بيرانجيه الأول، حفيد الملك لويس التقى من ابنته جيزيل، ملكاً على إيطاليا، وعلى الرغم من أن حقه في العرش جاء عن طريق وراثة الإناث إلا أن ذلك أدى دوراً مهماً في اختياره ملكاً. هذا وحصل بيرانجيه على الاعتراف به ملكاً على إيطاليا من ملك ألمانيا (مملكة الفرنجة الشرقية) أرنولف و التقى الملكان في نهاية عام 888 في مدينة ترنت. لكن وبعد أقل من عام على اعتلاء بيرانجيه العرش الملكي في إيطاليا استطاع منافس له ويدعى فيدو Wido، دوق مقاطعة سبسلويت التي تقع شرق روما، الاستيلاء على قسم مهم من إيطاليا وحصل على التاج الإمبراطوري في 21 شباط

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 109 - 110.

891 وتوج إمبراطوراً على يد البابا ستيفان الخامس ليكون بذلك أول إمبراطور يحصل على التاج الإمبراطوري ولا تجري في عروقه الدماء الكارولنجية. هذا وبعد ثلاثة أشهر قام فيدو بتعيين ولده لامبرت ملكاً مساعداً له على إيطاليا وفي نيسان 892 قام البابا فورموز بدهن لامبرت بالزيت المقدس وإعلانه قيصرًا في مدينة رافنا. لكن سرعان ما انقلب البابا على الأسرة الحاكمة الجديدة وتحالف مع بيرانجيه الأول ضد فيدو وطلب الاثنان مساعدة ملك ألمانيا أرنولف، الذي قام بإرسال ولده الأكبر في عام 893 على رأس جيش ألماني إلى إيطاليا ولحق به أرنولف في بداية عام 984، وهذا ما دفع القيصر فيدو للهروب، وتوفي في عام 984 وخلفه في منصبه ولده لامبرت وتحت إشراف والدته الأرملة. زحف أرنولف مجدداً إلى إيطاليا في شتاء 895 و 896 ودخل مدينة روما وتوجه البابا فورموز إمبراطوراً في شباط 896، دون أن يأخذ بالحسبان وجود قيصر آخر على قيد الحياة وهو لامبرت. أرسل أرنولف بعد تنصيبه إمبراطوراً قوة عسكرية لمحاربة لامبرت، لكنه سرعان ما أصيب بالشلل واضطر إلى العودة إلى ألمانيا، حيث نظم موضوع وراثة العرش في ألمانيا وترك ولده، غير الشرعي، راتولد كحاكم ينوب عنه في إيطاليا. وفي هذه الأثناء في عام 896 كان بيرانجيه الأول والقيصر لامبرت قد اتفقا على تقسيم إيطاليا فيما بينهم وحكماها سوية حتى وفاة لامبرت في عام 898، وبعد ذلك استلم بيرانجيه حكم إيطاليا وحده. وتوفي الإمبراطور أرنولف في عام 899 وبذلك تكون قد انتهت السيادة الألمانية في إيطاليا¹.

لم يتمتع بيرانجيه الأول طويلاً بحكمه لإيطاليا وحيداً، فقد ظهر منافس جديد له يدعى لويس بن بوزن وهو حفيد السلالة الكارولنجية أيضاً (من ابنة لويس

1 - Goetz, Elke: Geschichte Italiens im Mittelalter, Darmstadt 2010, S. 67ff.

الثاني) وتلقى الدعم من هنغاريا، واستطاع لويس هذا أن يحقق نجاحاً ملموساً في إيطاليا على حساب بيرانجيه الأول واستطاع دخول روما في 901 وتوج نفسه إمبراطوراً أيضاً. ولكن لم يستمر نفوذ الإمبراطور الجديد طويلاً ففي عام 905 استطاع بيرانجيه الأول أن ينتصر على لويس في معركة حاسمة وقع لويس على إثرها أسيراً في يد بيرانجيه الأول الذي قام بسمل عيني لويس، ولقب لويس هذا بعد ذلك بلويس الأعمى¹. واستطاع بيرانجيه الأول بعد ذلك توطيد سلطته في إيطاليا وتوج من قبل البابا إمبراطوراً في عام 915 وظل يحكم إيطاليا حتى وفاته في عام 924. وبعد وفاة بيرانجيه الأول اعتلى العرش الإيطالي دوق البروفانس، هوغو آرل 924-947. وخلف هوغو آرل ولده لوثر في حكم إيطاليا حتى وفاته في عام 950، وبعد وفاته اغتصب الدوق بيرانجيه الثاني العرش الإيطالي. وجدت زوجة الملك الراحل لوثر نفسها مضطرة لطلب مساعدة ملك ألمانيا أوتو الأول (الكبير) فذهبت إلى ألمانيا لمقابلته وطلبت منه مساعدتها في إسقاط بيرانجيه الثاني عن عرش إيطاليا. أسرع أوتو الأول ولبي نداء الأرملة واحتل لومبارديا في عام 951 وأجبر بيرانجيه الثاني على الاعتراف بالسيادة الألمانية، كما تزوج أوتو الأول أرملة الملك الإيطالي الراحل، لوثر بن هوغو آرل. هذا وتمرد عدد من الأمراء الإيطاليين على سلطة أوتو الأول والتدخل الألماني في عام 953. لم يستطع أوتو الأول الذهاب إلى إيطاليا في العام نفسه بسبب كثرة المشاكل الداخلية والاضطرابات في ألمانيا وبسبب تزايد الضغوط الخارجية. استطاع أوتو الأول التخلص من مشاكله الداخلية في ألمانيا في عام 962 وذهب إلى إيطاليا مرة ثانية ودخل روما حيث توجه البابا إمبراطوراً على إيطاليا وألمانيا، وبذلك نشأت ما عرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة.

1 - Goez: Geschichte Italins, S. 69.

والمتتبع للأحداث في إيطاليا في ذلك الوقت يلاحظ أن إيطاليا قد مرت بمرحلة من الانهيار السياسي والتخبط بالإضافة إلى اندلاع صراعات داخلية شعواء بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية ونفقتها. لقد تقائل الأمراء الإقطاعيون فيما بينهم طمعاً في الحصول على السلطة والنفوذ كما تقائل كبار الأمراء منهم على العرش الملكي. عدا عن ذلك فقد زادت أملاك الكنيسة ورجال الدين وحصلوا على أراضي واسعة أما عن طريق الإهداء وإما عن طريق الشراء والاعتصاب، كما امتلك كبار رجال الدين أراضي شاسعة وتمتعوا بصلاحيات إدارية وقضائية ومالية في أسقفياتهم، فالأسقف أصبح في عدد كبير من مدن إيطاليا يجمع لنفسه الضرائب التي كانت تذهب إلى الخزانة الملكية. وشيئاً فشيئاً ضعفت السلطة الملكية في إيطاليا وحلت مكانها سلطات محلية مستقلة استقلالاً شبه تام وهذا ما أدى إلى تجزئة إيطاليا إلى إمارات إقطاعية، علمانية ودينية، لا يملك الملك أي سلطة فعلية عليها. أما مدينة روما فقد سيطرت عليها الطبقة الأرستقراطية الرومانية، وبدأت هذه الطبقة تتحكم بالمنصب البابوي وأصبحت تعين البابوات وتعزلهم حسب مصالحها الخاصة¹.

القواعد البيزنطية على الأراضي الإيطالية:

استطاع شارلمان إلحاق الضربة القاضية بالمملكة اللومباردية وضم شمال إيطاليا إلى مملكته في أواخر القرن الثامن الميلادي، فانتهى بذلك النفوذ البيزنطي في شمال إيطاليا، لكن هذا النفوذ بقي قائماً في جنوب إيطاليا و تحديداً في صقلية. هذا و احتل العرب المسلمون جزيرة صقلية، فلم يبق لبيزنطة في إيطاليا سوى نفوذها في منطقة كالابريا الواقعة جنوب إيطاليا. وبقي نفوذ بيزنطة في القرن

1 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 111.

العاشر فقط على بعض المواقع الصغيرة في جنوب إيطاليا، لكنها بقيت تتطلع إلى استعادة جميع الأراضي التي كانت قد خسرتها في إيطاليا على الرغم من قدراتها العسكرية المحدودة. هذا و بقي النزاع يدور على مدى قرنين من الزمن (القرن التاسع و العاشر) على السيطرة في جنوب إيطاليا بين الإيطاليين من جهة و البيزنطيين من جهة ثانية و العرب المسلمين من جهة ثالثة.

غارات الشعوب المجاورة على إيطاليا

1 - غارات الهنغار على إيطاليا

الهنغار أو المجر: هم قبائل آسيوية دخلوا أوروبا في بداية القرن التاسع قادمين من الشرق و تحركوا باتجاه الغرب في قلب أوروبا واستوطنوا بداية في حوض الدانوب، وشجعت الاضطرابات الداخلية في إيطاليا الهنغار على شن غارات على شمال إيطاليا بقصد السلب و النهب. وكان الهنغار قد هاجموا إيطاليا قبل ألمانيا حيث هاجموا إيطاليا في عام 899 دون ان يلاقوا أي مقاومة تذكر، وكان ذلك بسبب انسحاب الملك الألماني أرنولف إلى ألمانيا و موت القيصر لامبرت و هذا ما حرم شبه الجزيرة الإيطالية من أقوى رجلين قادرين على حماية إيطاليا و صد هجمات الهنغار. استطاع الملك بيرانجييه الأول الذي توج ملكاً على إيطاليا أن يجهز جيشاً للدفاع عن مملكته الإيطالية لكن هذا الجيش لم يستطع إيقاف تقدم القوات الغازية إلا بشكل محدود، و أعاد الهنغار غاراتهم على إيطاليا مجدداً و أعملوا الخراب و الدمار في إيطاليا. بعد ذلك أخذت إيطاليا قسماً من الراحة لأن الهنغار وجهوا قواتهم و جحافلهم باتجاه ألمانيا. لكن هذا لم يثن

الهنغاريين من العودة مجدداً إلى إيطاليا في عام 921 و 922 و 924 وآخر مرة كانت في عام 926 عندما بلغ الغزو الهنغاري طوسكانا وهدد روما بالخطر¹.

توالى غارات الهنغار مجدداً على كل من ألمانيا و إيطاليا إلى أن استطاع الإمبراطور الألماني أوتو الكبير أن يلحق بهم هزيمة نكراء في عام 955، و أسس في أراضيهم مقاطعة أوستريا، أي النمسا، و ألحقها بالمملكة الألمانية. و في عام 1000 أنشأ الملك الهنغاري ستيفان الأول أول مملكة هنغارية مستقلة².

ب - غارات العرب المسلمين على إيطاليا:

قام العرب المسلمون في السنوات الأولى من القرن العاشر بسلسلة غارات على شواطئ البروفانس و على إيطاليا. كان العرب أيضاً قد استطاعوا تشكيل إمارة في إفريقيا الشمالية و صقلية و كامبانيا.

انطلق العرب المسلمون في البداية من إفريقيا لأن المسلمين في صقلية عاشوا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع بسلام نسبي مع المسيحيين و لم يرغبوا في استئناف القتال. لكن أمير القيروان إبراهيم بن أحمد لم يتخل عن فكرة الحرب ضد المسيحيين، و كانت صقلية تابعة له، لكن زعماءها أرادوا الاستقلال عنه فأرسل إليهم ولده عبدالله ليدعم نفوذه في جزيرة صقلية، و أعد أسطولاً ضخماً و اتجه باتجاه صقلية، ودخل عبدالله بن إبراهيم بن أحمد مدينة بالرمو في عام 900 و جعلها رأس حربة في عملياته العسكرية في صقلية. هذا و شعر حكام مدن كالابريا، مقاطعة في جنوب إيطاليا، بالخطر الإسلامي القادم من إفريقيا، فجهزوا جيشاً لنجدة تاورمينا و كاتان، اللتين كانتا معرضتين للخطر بشكل مباشر.

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 459 - 460.

2- فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 113.

قام عبدالله بمهاجمة ريجيو عام 901 و نهبها. و هذا ما أشعل الخوف و الرعب في قلوب المدن المجاورة و خشيت من أن يصيبها ما أصاب ريجيو، فعرضوا على عبدالله أن يدفعوا ضريبة قيمة فقبل بذلك، كان عبدالله يفكر في تقوية النفوذ الإسلامي في صقلية أكثر من تفكيره باحتلال مدن جديدة، و هذا ما تعارض مع سياسة والده إبراهيم الراغب في توسيع الفتوحات.

استدعى إبراهيم ولده عبدالله في عام 902 و اتجه بنفسه إلى صقلية ليقود العمليات العسكرية بدلاً من ولده، فأحرق تاورمينا و عبر مضيق مسينا و رفض دعوات مدن كالابريا لتقديم الضرائب له مقابل وقف الزحف، هذا و مات إبراهيم أثناء حملته العسكرية هذه في تشرين الأول 902. و بعد وفاة إبراهيم تخلى حفيده زيادة الله عن مشروع جده الذي كان يطمح بالوصول إلى روما و قفل عائداً بجيشه إلى صقلية، و هكذا تكون إيطاليا الجنوبية قد نجت من هذا الخطر الداهم¹. اندلعت الاضطرابات في شمال إفريقيا بعد موت إبراهيم حالت دون شن هجوم جديد على إيطاليا الجنوبية، عدا عن ذلك فقد أعلنت صقلية ولاءها و تبعيتها لسلطة الخلفاء العباسيين في بغداد، وعقدت معاهدة سلام و صلح مع مدن كالابريا أيضاً. شن المسلمون الأفارقة عدة غارات على جنوب إيطاليا في النصف الأول من القرن العاشر، لكنها كانت غير مدروسة بانتقان و مؤقتة و لم يرغب قواد هذه الحملات في الاستقرار في إيطاليا الجنوبية. هذا و عقد المسلمون في عام 956 معاهدة صلح مع البيزنطيين المسيطرين في جنوب إيطاليا، لأن كلا الطرفين كان قد أنهكتهم الحروب كما كانت بيزنطة تعاني من صعوبات داخلية و خارجية بينما عانى المسلمون من الفرقة و التشرذم فأعقب ذلك فترة استقرار نسبي².

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 461 - 462.

2- فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 115.

هذا وكما تعرض جنوب إيطاليا لغارات العرب المسلمين الذين انطلقوا من صقلية و شمال إفريقيا، كذلك أيضاً قام العرب المسلمون بشن غارات على شمال إيطاليا منطلقين هذه المرة من الأندلس، ويرجع وجود العرب المسلمين الأندلسيين في البروفانس، إقليم في شمال غرب إيطاليا، إلى السنوات التي تلت معركة بواتية في عام 732، لكن هؤلاء المسلمين استقروا في البروفانس كفلاحين و لم يكن لهم أي نشاط بحري¹. لكن و في أواخر القرن التاسع الميلادي قدمت إلى البروفانس مجموعة من المسلمين الأندلسيين يعرفون ب (البحريين) و هؤلاء البحريون اشتهروا بقيامهم بغزو السواحل الأوربية. وفي البداية كان البحريون على علاقات جيدة مع الأمويين في الأندلس، وهذا ما ساعدهم على إنشاء قواعد بحرية لهم في طرطوشة و بجانة و ادانية على الساحل الشرقي لأسبانيا و في تنس و وهران على ساحل شمال إفريقيا، و غالباً فقد نزل البحريون الأندلسيون في البروفانس و أنشؤوا قاعدة لهم و هي فراكينيت في الفترة الممتدة بين عامي 891 و 894، هذا و نجح البحريون في توسيع وجودهم في إقليم البروفانس نتيجة الحروب الأهلية و التصارع بين الإقطاعيين الإيطاليين بعد تفتت الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية.

عندما أصبح هوغ أرل، دوق البروفانس، ملكاً على إيطاليا (926-947) طلب مساعدة صهره الإمبراطور البيزنطي ضد البحريين الأندلسيين ذلك لأن الإمبراطور البيزنطي كان يملك أسطولاً مجهزاً و قوياً، و في نفس الوقت الذي يهاجم فيه هوغ أرل البحريين برأ في الشمال يقوم صهره بالهجوم البحري، هذا و بدأ الهجوم البيزنطي و الإيطالي على البحريين الأندلسيين في عام 942 و استطاع الأسطول البيزنطي إحراق سفن البحريين، كما قام هوغ أرل بالتضييق عليهم برأ و أجبرهم على الانسحاب إلى قاعدتهم في فراكينيت. بعد انتصار هوغ

1- حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 462.

أرل على البحرين عقد معهم معاهدة صلح و سلم مقابل الاستفادة من إمكاناتهم الحربية ضد خصمه الإمبراطور الألماني أوتو الأول (الكبير). حيث سمح هوغ أرل لهم باحتلال جبال الألب بهدف تأسيس دولة لهم تكون سداً منيعاً بينه وبين خصمه، كما طلب منهم معاملة المسيحيين في إقليم البروفانس معاملة حسنة و عدم التعرض لهم بسوء. احتل أوتو الكبير إيطاليا في عام 960 و أصبح إمبراطوراً على ألمانيا و إيطاليا، فأمر بطرد البحرين الأندلسيين من إقليم البروفانس و جرت معركة فاصلة معهم في تورنور فهزم الأندلسيون و تحصنوا في قاعدتهم فراكسينيت. حاصرت القوات الإمبراطورية فرانكسينيت لمدة عامين و سقطت بعد ذلك بأيدي القوات الإمبراطورية في عام 973، فطرد بعض البحرين الأندلسيين منها و وقع قسم منهم في العبودية. و هكذا انتهى الوجود الإسلامي الأندلسي في إقليم البروفانس بعد أن بقي هناك حوالي قرنين من الزمان¹.

نشوء مملكة نورمانديا في جنوب إيطاليا في القرن الحادي عشر

كانت إيطاليا في نهاية القرن العاشر مقسمة إلى عدد من الوحدات تتصارع على النفوذ فيها عدة قوى كبيرة و هي البيزنطيون و المسلمون و عدد من الدوقيات اللومباردية بالإضافة إلى البابوية التي عملت على تكوين نفوذ سياسي لها بالإضافة إلى نفوذها الديني، و هذا عدا عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي بدأ أباطرتها يتدخلون في شؤون إيطاليا و يسعون إلى الربط بينها و بين ألمانيا و جعلها تحت سيادتهم. هذا ما أدى إلى شيوع الفوضى و الاضطرابات في إيطاليا في تلك الحقبة.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 116 - 117.

ساعدت حالة الفوضى هذه و عدم الاستقرار إلى تمدد نفوذ النورمانديين و وصلوا إلى جنوب إيطاليا في القرن الحادي عشر، حتى تمكنوا أن يؤسسوا مملكة قوية أسهمت بدور بارز و هام في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ذلك أن النورمانديين الذين استوطنوا في غرب فرنسا سرعان ما اعتنقوا الدين المسيحي و تأثروا بالحضارة الفرنسية و لكن دون أن يفقدوا روح المغامرة و حب الحرب، وبكلمة أخرى فإن النورمانديين تعلموا من الفرنسيين تقواهم الدينية و ورثوا عن أجدادهم حب التنقل و الترحال، حتى ذهب كثيرون منهم في رحلات بعيدة المدى بهدف زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة. و كثيراً ما انتهت رحلاتهم بتأسيس دويلات نورماندية كان لها دور مهم في العصور الوسطى¹.

هذا و كان أول احتكاك واضح للنورمانديين مع إيطاليا يعود إلى عام 1016 عندما عادت مجموعة من الحجاج النورمانديين من بيت المقدس و نزلوا في مونت جاجانو على الشاطئ الشرقي. و كان هناك كنيسة قديمة للقديس ميخائيل موضع تبجيل من قبل الحجاج النورمانديين. و هنا بدأت محادثات بين النورمانديين و بين ميلس الذي تزعم ثورة غير ناجحة في أبوليا. و صرح ميلس للنورمانديين أنه بعدد قليل مثلهم من الجنود يستطيع أن يهزم البيزنطيين بسهولة، و بناء على ذلك فقد وعده النورمانديون بأن يعودوا مع أهل بلادهم ليساعدوه. هناك أيضاً رواية أخرى تعود للعام نفسه 1016 تقول إن أربعين حاجاً نورماندياً شجاعاً و هم في طريق عودتهم إلى بلادهم من الحج في بيت المقدس وجدوا جيشاً إسلامياً يحاصر سالرنو فقاموا بجمع الأسلحة و الفرسان من أهل البلاد و استحثوهم على الدفاع عن أراضيهم فهزموا المسلمين و طردوهم. وعندما طلب منهم سكان سالرنو أن يستوطنوا عندهم و يبقوا بينهم كان جوابهم بأن ما قاموا بهم

1- عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 483 - 484.

ما هو إلا في حب الله¹. لكن عندما عاد هؤلاء الحجاج إلى نورمانديا نقلوا إلى أهلهم و معارفهم ما شاهدوا في إيطاليا من تفكك و فوضى، هذا الأمر أغرى الكثير من الطموحين و محبي المغامرة على الهجرة من نورمانديا إلى جنوب إيطاليا ليعملوا جنداً مرتزقة هناك. و يذكر أن دوق نابولي رحب بهم في عام 1030 بعد أن ساعدوه ضد أمير كابوا اللومباردي، و هذا ما دفع دوق نابولي على مكافأة رانولف، زعيم النورمانديين، و منحه منطقة غنية ليقيم فيها مع أتباعه بشكل دائم. أسس النورمانديون في هذه المنطقة مدينة أفرسا Aversa في عام 1030 أول مركز دائم لهم في إيطاليا². انتقل النورمانديون في إيطاليا من خدمة أمير إلى آخر طالما هناك فائدة أكثر، لكن تجمعهم في مراكز محددة جعل نموهم بطيئاً، إلا أن عددهم كان يزداد بشكل مستمر نتيجة تجنيدهم من وطنهم ليصبحوا جنوداً مرتزقة يعملون عند من يدفع لهم أكثر. ذاع صيت النورمانديين و تفوقهم في القتال، و كان أشهر أسرة برزت على مسرح الأحداث أسرة هوتوفيل Hauteville التي مثلت القوة النورماندية الأكبر في هذه المرحلة التأسيسية، برز من زعماء النورمانديين في هذه المرحلة ثلاثة إخوة يلقبون بلقب هوتوفيل هم وليم و همفري و دروجو، و قد اكتسب الإخوة جميعاً صيتاً مجيداً في الحرب والقتال، و قام هؤلاء بمساعدة البيزنطيين في عام 1038 لطرد المسلمين من صقلية. أصبح وليم هوتوفيل أميراً على النورمانديين في أبوليا في عام 1042، و بعد موته في عام 1046 اعترف الإمبراطور الألماني هنري الثالث بأخيه دروجو أميراً على أبوليا. هذا و جاء في ذلك الوقت روبرت جويسكارد من نورمانديا وهو الأخ الرابع من أسرة هوتوفيل، و أصبح روبرت هذا زعيماً للنورمانديين في إيطاليا بعد موت

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 270.

2- عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 285.

أخيه همفري في عام 1057م¹. اشتهر روبرت جويسكارد بأنه سياسي محنك و قائد بارع و شجاع لايعرف الرحمة أو الالتزام بالعهود و يسعى للوصول إلى تحقيق هدفه بأي وسيلة، ومن أعماله أنه وجه كل جهوده لغزو جنوب إيطاليا و أراضي الإمبراطورية البيزنطية و القضاء على نفوذها في إيطاليا. لكن غاب عن تفكير روبرت أن توسع النورمانديين في جنوب إيطاليا، وما رافق ذلك من أعمال تدمير و تخريب أثار غضب البابوية و مخاوفها، صحيح أن الفاتيكان رحب بالنورمانديين ليكونوا عوناً لهم ضد المسلمين من جهة و ضد الكنيسة الأرثوذكسية من جهة أخرى، لكن النورمانديين أثاروا سخط الجميع بعد أن اشتهروا بالسلب و النهب و الوحشية. هذا عدا عن أنهم بدؤوا يعملون لحسابهم الخاص، فأحياناً يقاتلون مع الأمراء اللومبارديين و أحياناً مع القوات البيزنطية، دون أن يكون لهم غاية من ذلك سوى توسيع رقعة أراضيهم و ممتلكاتهم الخاصة على حساب البيزنطيين و اللومبارديين و البابوية جميعاً². غزا روبرت كالبريا في عام 1057 بأكملها، و بذلك أصبح من الواضح أنه لم يعد بإمكان أحد طرد النورمانديين من إيطاليا لدرجة أن البابا غريغوري السابع اعتراه القلق عندما وجد أن النورمانديين يسيطرون على كامل الجزء الجنوبي من إيطاليا بغض النظر أكانت هذه الممتلكات تابعة للإمبراطورية البيزنطية أو البابوية. هذا و استطاع النورمانيون احتلال باري في عام 1071 بعد حصار استمر لثلاث سنوات، كما غزا النورمانديون كل من أبوليا و كالابريا واستطاعوا القضاء على ما تبقى من نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في إيطاليا.

1- عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 271.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 286.

ولم تجد كل محاولات البابا غريغوري السابع المعروف بصرامته في إيقاف التوسع النورماندي، و سريعاُ أيضاً قام روبرت بغزو سالرنو و نابولي. هذا و حاول روبرت أن يمدد نفوذه و يوسع أملاكه على حساب الإمبراطورية البيزنطية نفسها إلا أن محاولاته باءت بالفشل و مات في عام 1085 دون أن يحقق رغبته، لكن يكفيه أنه استطاع تثبيت أقدام النورمانديين في جنوب إيطاليا. انتهت مرحلة الغزو النورماندي في جنوب إيطاليا وهي المرحلة التي استمرت لنصف قرن. هذا و عقب ذلك مرحلة أخرى من الصراع الداخلي بين النورمانديين أنفسهم استمرت ما يقارب نصف القرن أيضاً، حتى استطاع روجير الثاني 1130 - 1154 توحيد جميع الأراضي التي احتلها النورمانديون في إيطاليا تحت سلطته و اتخذ لنفسه لقب ملك في عام 1130م¹.

1- عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 272.



الفصل الخامس

الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية الألمانية)

1 - إحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد الأسرة

الساكسونية 919 - 1024

يطلق المؤرخون الألمان على الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الأسرة الساكسونية اسم ((إمبراطورية الأوتونيين)) و ذلك نسبة إلى اسم مؤسسها الحقيقي أوتو الكبير (936 - 973) و خلفائه من بعده أوتو الثاني (973 - 983) و أوتو الثالث (983 - 1002) و كان أول ملك من الأسرة الساكسونية هو الملك هنري الأول الصياد (919 - 936) و آخرهم الملك هنري الثاني (1002 - 1024).

أ - هنري الأول (الصياد) 919 - 936

توفي الملك لويس الرابع في عام 911 وهو آخر ملك من الأسرة الكارولنجية حكم القسم الشرقي (ألمانيا) من ما كان يعرف بالإمبراطورية الكارولنجية. وبنهاية الأسرة الكارولنجية في ألمانيا انتهت أيضاً الوحدة التي تحققت نوعاً ما بين القبائل و المقاطعات الألمانية في عهد الأسرة الكارولنجية الحاكمة لألمانيا. لكن و بسبب المخاطر الخارجية التي تعرضت لها ألمانيا من قبل الهنغاريين و النورمانديين كان حكام و أمراء المقاطعات الألمانية غير قادرين على الاستغناء عن فكرة المملكة الموحدة و لو نظرياً، لذلك قام أدواق مقاطعات شفاين و بافاريا و فرانكونيا و ساكسن بانتخاب دوق فرانكونيا، كونراد الأول، ملكاً عليهم،

لكن و رغم محاولاته المتعددة فقد فشل كونراد الأول في فرض سلطته على أدواق المقاطعات الألمانية و توحيدهم تحت إمرته بشكل فعلي و توفي في عام 919 دون تحقيق أهدافه¹.

أوصى كونراد الأول وهو على فراش الموت بأن يكون خلفه على العرش الألماني دوق ساكسونيا هنري الأول على الرغم من المنازعات بين الرجلين سابقاً، إلا أن كونراد الأول و على الرغم من خلافه مع هنري فقد اعترف له بقدرته و إمكانياته التي تؤهله لاعتلاء العرش الألماني، لذلك و بعد وفاة كونراد قام أخوه ايبهرارد بتسليم دوق ساكسونيا الإشارات الملكية². هنري الأول، دوق ساكسونيا المولود في عام 876 ورث القوة و النفوذ من والده دوق ساكسونيا بالإضافة إلى ذلك عمد هنري إلى تقوية نفوذه أيضاً من خلال علاقاته و استخدامه الزواج السياسي لتوطيد هذه العلاقات فقد تزوج مرتين، الزوجة الأولى كانت ابنة حاكم ميرسي بورغ و الزوجة الثانية كانت ابنة حاكم فيستاليا، حتى أصبح نفوذ هنري الأول منافساً بل أقوى من نفوذ الملك كونراد الأول³.

انتخب هنري الأول بعد أن التقى مع أخي الملك المتوفي كونراد الأول و استلم منه الإشارات الملكية قرب الحدود بين مقاطعتي ساكسونية و فرانكونيا في مدينة فريتسلار Fritzlar في أيار 919. وبهذا الانتخاب تكون قد انتقلت الملكية

1 – Elze: Eine europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 401.

2– Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 132.

3 – Hirsch, Ferdinand: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, Leipzig 1913, S. 263.

في ألمانيا من الأسرة الفرانكونية إلى الأسرة الساكسونية¹، كان هذا الانتخاب من قبل مقاطعتي ساكسونيا و فرانكونيا فقط و عارضت المقاطعات الألمانية الجنوبية هذا الانتخاب في البداية². و لقب المؤرخون الملك الجديد بهنري الصياد نظراً لشغفه بالصيد.

أثبت الملك هنري الصياد جدارته من اليوم الأول لحكمه فقد رفض التتويج على طريقة الملوك الذين سبقوه باستلام التاج من قبل رجال الدين و دهن الملك الجديد بالزيت المقدس، كما استخدم هنري أسلوباً خاصاً في تقوية نفوذه فلم يعتمد على الحروب في البداية بل استخدم السياسة و الحنكة و عقد الموائيق لكسب ود الأدواق و الأمراء الألمان، فكان أول صلح و معاهدة صداقة متينة عقدها مع ايبيرهارد (أخ الملك كونراد) دوق فرانكونيا و بعد ذلك عقد اتفاقاً مع مقاطعة شوابين و اعترف دوقها بالتبعية للملك الجديد، و عقد الصلح مع دوق بافاريا، أرنولف، في عام 921 و هكذا كسب هنري أهم و أقوى الأدواق الحاكمين للمقاطعات الألمانية مع تمتع هؤلاء بقدر كبير من الاستقلالية في إدارة شؤون مقاطعاتهم السياسية و المالية و الكنسية وكانت واجباتهم اتجاه الملك هي تقديم الخدمات العسكرية للملك و المشاركة في جلسات مجلس المملكة الأعلى تحت قيادة الملك هنري³.

1 – Sevin, Ludwig: Geschichtliches Quellenbuch, Bd. 5, das Deutsche Reich unter den Sächsischen, den Fränkischen und Hohenstaufischen Kaisern, Leipzig 1896, S. 5.

2 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 127.

3 – Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 265.

سياسة هنري الغربية

بالتوازي مع ترتيب وضع مملكته الداخلي عمل هنري على توطيد العلاقات الخارجية. حكمت مقاطعة لوثرنجيا (التي انفصلت في عام 911 عن ألمانيا و أعلنت تبعيتها إلى المملكة الكارولنجية الغربية التي حكمها في ذلك الوقت الملك كارل) أسرة قوية حاولت تثبيت استقلالها عن مملكة فرنسا بإقامة علاقات جديدة مع ألمانيا؛ و هذا ما أدى إلى اندلاع حرب بين الملك الألماني هنري الأول و ملك فرنسا الكارولنجي كارل في عام 920 و لم يستطع أحد الملكين تحقيق النصر على الآخر، و هذا ما دفع كلا الملكين للبحث عن حل وسط يرضي الطرفين فاجتمعا في 7 تشرين الثاني عام 921 عند الحدود الفاصلة بين المملكتين في مدينة بون الواقعة على نهر الراين و عقدا معاهدة صداقة و أقسم على صيانة هذه الاتفاقية أتباع و مرافقو الملكين. واعترف بسيادة الملك كارل على مقاطعة لوثرنجيا، لكن هذه الاتفاقية لم تستمر طويلاً إذ أعلن هنري الحرب على فرنسا و ضم مقاطعة لوثرنجيا إلى مملكته في عام 925 ليصبح في ألمانيا منذ هذا التاريخ خمس مقاطعات كبيرة و هي شفاين، بافاريا، ساكسن، فرانكونيا و لوثرنجيا، و ليدعم هنري سيطرته على لوثرنجيا استعان بالزواج السياسي و زوج ابنته جيبيرجا لدوق مقاطعة لوثرنجيا، كيسيلبيرت. كان لدى الملك هنري الأول طموحات كبيرة في سياسته الخارجية؛ و يدل على ذلك حصوله على (الرمح المقدس) (Heilige Hanze) هذا الرمح الشهير يحوي كما يُزعم على مسامير من صليب السيد المسيح. كان يملك هذا الرمح في ذلك الوقت ملك بورغوند العليا رودولف الثاني و أعطاه للملك هنري الصياد في اجتماع المجلس الأعلى للمملكة الألمانية في عام

926. مقابل لذلك حصل رودولف الثاني على كميات كبيرة من الذهب و الفضة وعلى مدينة بازل (Basel) و اعترف الملك هنري به ملكاً على بورغوندا¹.

سياسة هنري الشرقية و حروبه مع الهنغار

إذا كان هنري قد تصرف في سياسته الغربية و واجه المشاكل المتعلقة بهذه السياسة على أساس أنه ملك للمملكة الألمانية فإن ذلك لم يتحقق في سياسته الشرقية، فقد واجه المشاكل المترتبة عن هجمات الهنغاريين من الشرق وحيداً على أساس أنه دوق ساكسونيا، فقد استمرت هجمات الهنغاريين على المملكة الألمانية و شنوا في عام 924 غزوة كبيرة بقصد السلب و النهب، فقد هاجموا في هذا العام إيطاليا و منها اتجهوا إلى فرنسا و بعد ذلك إلى مقاطعة فرانكونيا و ساكسونيا ثم عادوا إلى بلادهم بعد أن ألحقوا أضراراً كبيرة بالأماكن التي مروا بها. لم يجد هنري الأول نفسه قادراً على مواجهة الهنغار في أرض المعركة و فضل استخدام السياسة و المال لشراء مهادنتهم و نجح بعقد هدنة معهم مقابل دفع جزية مالية سنوية لهم، وقع هنري الصياد على اتفاقية الهدنة مع الهنغار بصفته دوق ساكسونيا و ليس بصفته ملك ألمانيا. وهكذا تكون هذه الاتفاقية حمت فقط مقاطعة ساكسونيا و تورنغن و لم تشمل حماية باقي الأراضي الألمانية من الغزوات الهنغارية. هذا و قام الهنغاريون في عام 926 بالاعتداء على بافاريا و شوابين و لوثرنغن و غرب فرانكونيا². على كل الأحوال فقد استغل الملك هنري فترة الهدنة الباهظة الثمن مع الهنغاريين لتجهيز جيش قوي من الفرسان يستطيع مواجهة الفرسان الهنغاريين السريعين و تحصين الحدود. قَدَّر هنري الأول في عام 932 أنه أصبح قوياً بما فيه الكفاية ليمتنع عن دفع الجزية للهنغاريين و هذا ما دفع

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 130f.

2 – Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 266.

الهنغارين لتجهيز جيش كبير و الهجوم على ألمانيا في عام 933 و وقعت المعركة الحاسمة مع الألمان في 15 آذار 933 حيث إنتصر الملك هنري على الهنغار بفضل تلقيه المساعدة هذه المرة من كل المقاطعات الألمانية. لم تقض هذه المعركة على الخطر الهنغاري بشكل نهائي فقد استطاعت فلول الهنغار الهاربين من المعركة الحاسمة الوصول إلى هنغاريا و إعادة بناء قواتهم و شن عدة غارات على ألمانيا في السنين التالية¹.

آخر عمل عسكري قام به الملك هنري كان حملته على النورمانديين الدانيماركيين شمالاً في عام 934 الذين طلبوا الصلح مع الملك هنري بعد أن أدركوا أنهم عاجزون عن مجابهته، وافق هنري على عقد الصلح مقابل دفع الدانيماركيين جزية سنوية له و تنازلهم عن بعض الأراضي له. أما جنوباً فقد فكر هنري في آخر أيامه في زيارة إيطاليا و لكن ليس كحاج إلى روما و إنما لأهداف سياسة لكن الموت لم يسمح له بالقيام بهذه الخطوة حيث عانى من المرض لفترة و توفي في 2 حزيران 936م².

حقق الملك هنري الصياد انتصارات على كل الجبهات الخارجية و استطاع إخضاع الإقطاعيين و الأمراء لسلطته أو على الأقل اعترفوا بتبعيةهم و خضوعهم

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 132f.

2 –Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 268.

له و لم يتمردوا عليه و ضم مقاطعة لوثرنجيا إلى ألمانيا بشكل كامل و بذلك يكون قد مهد الطريق لولده أوتو الأول لاستكمال نجاحاته¹.

أوتو الأول (الكبير) 936 - 973

1 - انتخاب أوتو الأول ملكاً: المقومات، التتويج، النتائج:

ولد أوتو، الابن الأكبر للملك هنري الصياد و زوجته ماتيلد في 23 تشرين الثاني 912 و سمي على اسم جده دوق مقاطعة ساكسونيا، الذي توفي بعد ولادته بثمانية أيام. كان عمر أوتو عندما انتخب والده ملكاً على العرش الألماني سبع سنوات، و المعلومات عن طفولة أوتو كما قبله شارلمان الكبير شحيحة، لكنه لم يكن على مستوى عال من الثقافة و لم يكن يجيد القراءة و الكتابة في البداية و تعلم ذلك متأخراً و كانت اهتماماته منصبية على تعلم الفروسية و الصيد. و في سن السابعة عشر، في عام 929، رزق أوتو بولده الأول (غير شرعي) من فتاة سلافية كانت سبية و أسماه وليم، و هذا ما دفع والد أوتو هنري الصياد إلى الإسراع بتزويج ولده من فتاة يجري في عروقتها دم الملوك و الأمراء و زوجه أميرة انغلو ساكسونية تدعى ايديت و هي أخت ملك إنكلترا، ايثيلستان (Aethelstan)، 924-939م². مع هذا الزواج بدأت علاقات المصاهرة و الزواج السياسي للأوتونيين.

1 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 145f.

2 - Köpke, Rudolf/ Dümmler, Ernst: Kaiser Otto der Große, humblot, Leibzig 1876, S. 7-10.

جرى اعتلاء أوتو العرش الألماني بعد وفاة والده في عام 936 بدون أي مشاكل على الرغم من عدم تأييد والدته الكامل له في هذا التتويج لأنها كانت ترغب بأن يعتلي العرش الألماني بعد زوجها ولدها الثاني هنري و ليس ابنها الأكبر أوتو و هذا ما أثار بعض المشاكل لاحقاً. أراد هنري الصياد من اختيار و تأهيل ولده أوتو لاعتلاء العرش الملكي من بعده أن يرسخ قاعدة جديدة في اعتلاء العرش الألماني و هي تحديد وراثته العرش في الابن البكر للملك و ذلك نقادياً لحصول مشاكل على وراثته الملك و تقسيم المملكة و نشوب الحروب كما كان يحصل في عهد الأسرة الكارولنجية. وترجع هذه الفكرة إلى عام 929 بعد أن انتصر الملك هنري الصياد على السلاف حيث عقد مجلساً للمملكة نظم من خلاله وراثته العرش و أقر المبدأ الذي يريده و عين ولده البكر أوتو وريثاً أو مرشحاً وحيداً له على العرش، و بذلك يكون قد ألغى مبدأ تقسيم المملكة بين الأبناء كلهم و أسس مبدأ جديداً و هو حصر وراثته العرش بالابن الأكبر و هذا ما سيحافظ على وحدة المملكة الألمانية بعد هذا العام¹. أعاد هنري الصياد التأكيد على وصيته وتنفيذ المبدأ الذي أقره في عام 929 مرة أخرى، بعد مرضه في عام 936 حيث دعا أدواق و أمراء ألمانيا إلى عقد مجلس مملكة عام في مدينة ايرفوت و رشح ولده الأكبر أوتو مجدداً ليخلفه على العرش².

و بناءً على وصية هنري الصياد فقد اجتمع بعد وفاته أدواق و أمراء و كبار الإقطاعيين في مدينة آخن (ايكس لا شابيل) و انتخبوا أوتو ابن هنري ملكاً جديداً عليهم و أقسموا له يمين الولاء و الطاعة و تعهدوا له بتقديم المساعدة و العون ضد أعدائه، و بعد ذلك قام رئيس أساقفة ماينز و من حوله عدد كبير من

1- Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 134.

2 - Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 269.

الأساقفة و القساوسة بمرافقة أوتو إلى الكنيسة حيث وقف رئيس الأساقفة و أوتو ليصرح رئيس الأساقفة أمام الجمهور بالقول التالي "أعلن لكم أن السيد أوتو، الذي اختير من قبل الرب و من أبيه هنري، و الآن من قبل كل الأمراء، قد أصبح ملكاً، فإذا كنتم موافقين على هذا الاختيار، ارفعوا أيديكم اليمنى للسماء"¹ فرفع الجمهور أيديهم عالياً و صرخوا مؤيدين لهذا الاختيار و متمنين للملك الجديد الصحة و النصر.

بعد ذلك تقدم الملك أوتو برفقة رئيس الأساقفة باتجاه مذبح الكنيسة و أعطى رئيس الأساقفة الشارات الملكية للملك الجديد و استلم في البداية السيف الملكي (سيف شارلمان) و خاطب رئيس الأساقفة الملك أثناء استلامه السيف قائلاً: خذ هذا السيف و حارب به كل أعداء المسيحية و الوثنيين و المسيحيين المرتدين، لأنه و بإرادة الله قد حصلت على كل سلطات مملكة الفرنجة للحفاظ على سلام كل المسيحيين. وبعد ذلك استلم أوتو الصولجان و العصا الملكيين. و بذلك وجب على أوتو حسب العرف حماية الأرامل و اليتامى و رجال الدين في مملكته و بعد ذلك دهن رئيس الأساقفة الملك بالزيت المقدس و وضع التاج الملكي على رأسه بمشاركة أسقف كولن و بعد ذلك صعد أوتو إلى العرش الملكي الموجود في الكنيسة².

رسم أوتو الأول بقبوله التتويج من قبل رئيس أساقفة ماينز خطأ جديداً للتعامل مع الكنيسة و رجال الدين بعد أن كان والده هنري الأول قد رفض استلام التاج الملكي عن طريق رجال الدين و رفض حتى إن يقوم رئيس الأساقفة بدهنه

1 – Bär, Adolf: Methodisches Handbuch der Deutschen Geschichte, Bd.

3, Ottonen und Salier, gotha, 1910, S. 35f.

2 – Sevin: das deutsche Reich, S. 8f.

بالزيت المقدس رغبةً منه في عدم الاعتراف بفضل رجال الدين في حصوله على التاج. و بذلك يكون أوتو الأول قد أحيا الطريقة الكارولنجية في التتويج الملكي في مدينة آخن¹.

و من أهم نتائج تتويج أوتو على هذه الطريقة كان ضمان وحدة الإمبراطورية الألمانية و عدم تقسيمها بين الأبناء و كذلك بدأت مشاركة الكنيسة في السلطة الزمنية.

أوتو: بداية حكمه و مرحلة التجربة

وجب على أوتو، الملك الشاب البالغ من العمر 24 عاماً أن يقوم بكل الواجبات و المهام التي قام بها والده الذي تحلى بالشجاعة و القوة و الحنكة من قبله و كانت أول المشاكل التي واجهته عندما اغتيل دوق بوهيميا (التشيك) من قبل أخيه بوليسلاف (Boleslaw) و أعلن الدوق الجديد انفصاله عن المملكة الألمانية و احتاج الجيش الألماني لسنوات عديدة لإجبار الدوق الجديد بالاعتراف بالتبعية للملك أوتو، وتم إخضاعه في عام 950. مباشرةً و بعد اعتقال الملك أوتو العرش أعلن السلاف و الهنغار الحرب على الملك الجديد لاختبار قدراته، ورداً على ذلك جهز أوتو حملة كبيرة في عام 937 و استطاع طردهم و إلحاق الهزيمة بهم².

حصل أوتو على اعتراف جميع الأدواق بالتبعية له و شجعهم على ذلك الاعتقاد بأن أوتو سوف يسير على نفس سياسة والده مع الأدواق، لكن سرعان ما

1 – Köpke: Kaiser Otto der Große, S. 27.

2- Bär: Ottonen und Salier, S. 38f.

تبين أن أوتو لديه سياسة مغايرة للتعامل معهم و هذا ما أدى إلى اندلاع النزاعات بين الملك و الأذواق بسرعة¹.

تفاقمت المشاكل في وجه أوتو بعد وفاة أرنولف دوق بافاريا في الثلاثين من عمره، في 2 تموز 937، لأن دوق بافاريا كان يملك امتيازات قوية جداً و فريدة في المملكة الألمانية حيث امتلك حق تعيين الأساقفة منذ عهد الأسرة الكارولنجية. عين أرنولف، دوق بافاريا، قبل وفاته ولده ايبرهارد ليخلفه دوقاً على بافاريا. طلب الملك أوتو الأول من الدوق الفتى ايبرهارد أن يتخلى عن حق دوق بافاريا في تعيين الأساقفة كشرط لاعتراف أوتو به دوقاً على بافاريا، لكن ايبرهارد رفض شرط الملك و هذا ما دفع الملك أوتو الأول إلى إعلان الحرب على ايبرهارد و قاد بنفسه جيشاً لمحاربة دوق بافاريا الجديد في بداية عام 938 لكنه مني بهزيمة مؤلمة. هذه الحرب دفعت لتوسيع حلف الأذواق المعادي للملك².

و انضم أيضاً دوق فرانكونيا ايبرهارد إلى هذا التحالف المعادي للملك بعد أن كان الاتفاق و التحالف بين هنري الأول و دوق فرانكونيا هو حجر الأساس في سياسة الملك هنري الأول، كسرت هذه القاعدة في بداية عهد أوتو الأول و بدا و كأن ثورة عامة اندلعت في وجه أوتو عندما قام أخوه تانكمار (أخوه من أبيه هنري الصياد من زواجه الأول من هايتبورغ) بالهجوم على شقيق الملك أوتو، هنري، و على أثر هذا الهجوم وقع هنري شقيق الملك في أسر أخيه (أخ أوتو و أخ هنري) تانكمار، الذي قام بتسليم أخيه هنري لدوق فرانكونيا ايبرهارد، بعد ذلك انتقم أتاباع هنري من أخيه تانكمار و قتلوه.

1 – Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 27.

2 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 138.

ايبرهارد دوق فرانكونيا امتلك من الدهاء ما يكفي ليحسن التصرف فقد عامل هنري الأسير معاملة حسنة و أطلق سراحه لأنه كان يعلم أن هنري يطمح لإزاحة أخيه أوتو عن العرش الملكي و الجلوس مكانه¹. أدى هنري دور الوسيط بين ايبرهارد دوق فرانكونيا و بين أخيه أوتو و بناءً على ذلك انتهى الخلاف بين دوق فرانكونيا و ملك ألمانيا. بعد ذلك بدا للملك أوتو أن الوقت قد حان للتفرغ لمقارعة دوق بافاريا الجديد، ايبرهارد ابن الدوق أرنولف، حيث طرد أوتو الدوق ايبرهارد و عين مكانه دوقاً جديداً يدعى بيرتهولد و هو أخ الدوق المتوفي أرنولف و عم ايبرهارد ومن المؤكد أن أوتو عين الدوق الجديد بعد تنازله عن حق دوق بافاريا في تعيين الأساقفة.

لبرهة من الوقت اعتقد الملك أوتو أنه أصبح سيد الموقف، لكن سرعان ما ظهرت مشكلة خطيرة، وهي أن شقيقه هنري، الذي كان لديه أتباع أكثر في مقاطعة ساكسونيا، أعلن التمرد ضده و لجأ إلى دوق لوثرنجيا، كيسيلبيرت، هذا التحالف الجديد ضد أوتو لم يستمر طويلاً و سقط في عام 939 بعد هزيمة عسكرية للمتحالفين من قبل قوات الملك و مع هزيمة هنري العسكرية انفض من حوله أتباعه من مقاطعة ساكسونيا و انطفاً تمردهم. حاول هنري شقيق الملك مجدداً الإطاحة بأخيه هذه المرة عن طريق المؤامرة و الخدعة فقد خطط مع أتباعه من ساكسونيا لاغتيال أخيه في أول يوم من عيد الفصح في عام 941، إلا أن الخطة كشفت قبل تنفيذها و أعدم المتآمرون واعتقل هنري شقيق الملك و نفى إلى أحد

1 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 152f.

الأديرة. هذا النفي لم يستمر طويلاً فقد عفا الملك أوتو عن شقيقه و بعد عام 941 أصبح هنري شقيق الملك أوتو أكثر المخلصين لشقيقه و بقي كذلك حتى وفاته¹.

خرج الملك أوتو الأول (الكبير) في عام 941 من كل المشاكل التي كانت قد واجهته كمنتصر وحيد و بدون أي منازع، فقد قام بنفي ايبرهارد دوق فرانكونيا و لم تقم قائمة بعد ذلك لهذه الدوقية، فقد قسمت أملاك ايبرهارد و أعطى قسم كبير منها لابن أوتو الأول لودولف، الذي أصبح دوق لشفابن و فرانكونيا، كما أعطى أوتو مقاطعة لوثرنجيا لزوج ابنته، الأمير أوتو في عام 944 و بعد وفاة الدوق بيرتهولد، دوق بافاريا، في عام 947، أعطى الملك أوتو دوقية بافاريا لشقيقه هنري، و كذلك أعطى دوقية شفابن بعد وفاة دوقها هيرمان في عام 949 لولده لودولف و بذلك تكون قد أصبحت أغلب مقاطعات ألمانيا تحت سيطرة و حكم الأسرة الملكية الجديدة. على الرغم من سيطرة أسرته على حكم المقاطعات عمل أوتو إلى تقييد سلطة الأذواق في المقاطعات و لم يعطهم صلاحيات واسعة خصوصاً على الكنائس و لم يعد بأيديهم تعيين الموظفين الكبار في دوقياتهم بل أصبح ذلك من اختصاص الملك و جعل كل الصلاحيات بيده وحده، كما نظم مسألة ولاية العرش الملكي من بعده في عام 946 حيث عين ولده لودولف كوريث وحيد من بعده للعرش الملكي و قام كبار الأمراء و الإقطاعيين بمبايعته كوريث للملك².

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, s139f.

2 – Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 271.

التدخل الأول لأوتو في إيطاليا:

صحيح أن زيارة أوتو الكبير الأولى لإيطاليا لم تكلل بالنجاح الكامل لكنها أدت إلى نتائج مهمة و إلى إعادة إحياء العادات الكارولنجية في إيطاليا كريط مصير إيطاليا بألمانيا و تأثرها بها. هذا و كان أول تدخل لأوتو في الشؤون الإيطالية مرتبطاً بسياسته اتجاه برجنديا، التي سار بها على نهج والده هنري الصياد، و تدخل في أول فرصة سانحة، و كان إثر الأحداث بعد موت رودولف الثاني ملك برجنديا العليا في عام 937، حيث قام هوغو، ملك البروفانس (926-947)، بالزواج من أرملة رودولف و خطب ابنة الملك المتوفي ادلهياد لولده لوثر، ليصبح بذلك هوغو مسيطراً على برجنديا العليا و الدنيا. وبهذه الطريقة يكون هوغو قد سيطر على معابر جبال الألب الغربية و التي تشكل مفتاح العبور إلى إيطاليا، لم يقف أوتو مكتوف الأيدي أمام هذه الأحداث فقد أخذ طفل الملك المتوفي رودولف، كونراد (937-993)، و أشرف على تربيته في بلاطه ليجعل منه في المستقبل الملك الشرعي لبرجنديا العليا، و فعلاً أجلسه على عرش برجنديا العليا في عام 942 تحت حمايته بالإضافة إلى ذلك قام الملك أوتو الكبير بتأمين اللجوء و المساعدة عنده لمنافس هوغو القوي في إيطاليا، بيرينجار الثاني، الذي استطاع بفضل مساعدة أوتو أن يسيطر على أعلى و أوسط إيطاليا بسرعة و أن يحصل على التاج الملكي و يتوج ملكاً في مدينة بافيا في عام 950 بعد موت الملك الإيطالي لوثر كما قام بسجن أرملة الملك المتوفي ادلهياد¹.

ادلهياد، أرملة الملك لوثر، كانت الشخصية الوحيدة التي تملك كل الحقوق الشرعية للمطالبة بالعرش الإيطالي الذي سلبه بيرينجار. طلبت ادلهياد مساعدة

1 - Köpke: Kaiser Otto der Große, S. 183ff.

الملك أوتو الأول الذي لم يتردد في نجدها و كان ينتظر هذا الطلب، فزحف بجيوشه في أواخر صيف عام 951 إلى إيطاليا و احتل بافيا و بعد ذلك انتخب من الأمراء و الإقطاعيين الإيطاليين ملكاً على لومبارديا لكنه لم يحصل على التاج الملكي. و في نفس العام تزوج الملك أوتو الأول (الذي كان قد أصبح أرمل بعد وفاة زوجته في عام 946) ادلهاید و هذا ما ساعده على كسب الشرعية في سيطرته على إيطاليا. بالرغم من نجاح أوتو في بافيا إلا أنه لم يتمكن من الذهاب إلى روما و دخولها لأنه اضطر إلى تعديل خطته في إيطاليا بسبب أن ولده ليودولف قد غادر إيطاليا برفقة قسم كبير من الجيش و عاد إلى ألمانيا و أعلن معارضته لسياسة والده، و من المحتمل أن سبب معارضة ليودولف لوالده هو زواج والده من ادلهاید و خشية ليودولف من أن تهدد ادلهاید أو تعدل في أحقيته في وراثة عرش والده (عين ليودولف منذ عام 948 وريث والده الرسمي على العرش) و نظراً للاضطرابات الجديدة في ألمانيا اضطر أوتو إلى العودة سريعاً إلى ألمانيا. أحدثت تصرفات ليودولف شخاً مع والده و أدت إلى نتائج سيئة فقد دفع تطاول الابن على الوالد الملك عدداً من الأذواق إلى التمرد على سلطة أوتو. فقد تحالف دوق لوثرنجيا، كونراد الأحمر، ضد الملك أوتو و عقد تحالفاً مع خصمه بيرينجار و انضم إليهم أسقف مايز، فريديك، و هذا ما هدد مكانة أوتو في ألمانيا، لكن مسار الأحداث تغير في عام 954 عندما قام الهنغاريون بالهجوم بجيش ضخم على الأراضي الإيطالية و الألمانية، هذا الخطر دفع كل الأطراف إلى مراجعة حساباتهم و توحيد جهودهم، فقد عقد مجلس ملكي في مدينة نورنبرغ الألمانية في حزيران 954 بزعامة الملك أوتو الأول و عقد أوتو الصلح مع

الأسقف فريديريك و كونزاد الأحمر و أعلنوا الولاء و الطاعة للملك أوتو كما أعلن ليودولف ابن الملك التوبة في خريف 954 و أبقاه والده وريثاً له على العرش¹.

معركة ليشفيلد و انتصار أوتو الأول على الهنغار 955:

كان إنهاء المشاكل الداخلية في ألمانيا بمثابة الدرع الذي حمى المملكة الألمانية من أخطر و أشرس الأعداء و هم الهنغاريون. فقد شن الهنغار في عام 955 هجوماً عنيفاً و بأعداد كبيرة على المملكة الألمانية و دمروا مقاطعة بافاريا بعد ذلك حاصروا مدينة أوغسبورغ بجيش ضخم، و تولى الدفاع عن المدينة المحاصرة الكاهن أولريش. أمام هذا الخطر الجسيم أسرع الملك أوتو لتشكيل جيش قوي لإنقاذ المدينة المحاصرة و انضم إلى الجيش قوات من ساكسونيا و بافاريا و فرانكونيا و شوابين و بوهيميا، قاد الملك أوتو الجيش و توجه لإنقاذ المدينة المحاصرة².

وقعت المعركة الفاصلة مع الهنغار في 10 آب 955 في مكان يسمى ليشفيلد و يقع جنوب مدينة أوغسبورغ حقق أوتو خلال المعركة نصراً حاسماً على الهنغار و لاحق قلول جيوشهم حتى الحدود الألمانية³. سقط في معركة ليشفيلد من الجانب الألماني الدوق كونزاد الأحمر دوق لوثرنجيا الذي كان له الدور الأبرز في المعركة.

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 141ff.

2- Keller, Hagen/ Althoff, Gerd: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, Krisen und Konssolidierungen 888-1024, klett-cotta 2001, S. 200f.

3 – Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 276.

كان لمعركة ليشفيك و انتصار أوتو الأول فيها تأثير كبير على مكانة أوتو و ازدياد شأنه فقد نودي به بعد المعركة إمبراطوراً و هذا أدى دوراً مهماً في تنويع أوتو في عام 962 قيصرًا و إمبراطوراً على ألمانيا و إيطاليا و هذا ما أكده البابا يوحنا الثاني عشر (955-963) عندما قال: إن أوتو و بعد انتصاراته على البرابرة، الهنغار و غيرهم، أتى إلى روما ليدافع عن الكنيسة المقدسة، و هذا يمنحه حق الحصول على التاج القيصري¹.

تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد أوتو الأول

كان الدافع الأساسي للتدخل الثاني للملك أوتو الكبير في إيطاليا هو ازدياد قوة الملك بيرينجار و توسيع نفوذه في إيطاليا، حيث استغل بيرينجار الاضطرابات الداخلية في إيطاليا لصالحه و قلص نفوذ ألمانيا و الملك أوتو على الأراضي الإيطالية. و لذلك أرسل الملك أوتو الأول ولده ليودولف في عام 956 على رأس جيش كبير إلى إيطاليا. و لم يكتف أوتو الأول بذلك بل سمح بإجراء مفاوضات مع الخليفة العربي عبد الرحمن الثالث في قرطبة بغية القيام بأعمال مشتركة في إيطاليا لكن هذه المفاوضات لم تفض إلى ظهور تعاون بين الطرفين، لكن هذا يدل على أن أوتو الأول كان مستعداً للتعاون مع طرف غير مسيحي لتحقيق أهدافه². في هذه الأثناء كان ليودولف قد نجح في تثبيت الوضع العسكري لصالحه في مناطق إيطاليا العليا، و لكنه و قبل أن يحقق حلمه في أن يصبح ملكاً مساعداً لوالده على إيطاليا توفي في عام 957. بعد وفاة ليودولف استطاع بيرينجار إعادة الوضع في إيطاليا لصالحه كما كان قبل تدخل ليودولف و أن يزيد من توسعه على حساب البابوية، و هذا ما أدى إلى ازدياد التوتر بين بابا الفاتيكان يوحنا

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 145.

2 - Köpke: Kaiser Otto der Große, S. 277-280.

الثاني عشر و الملك بيرينجار، و بناء على ذلك وجد البابا يوحنا الثاني عشر نفسه مضطراً لطلب مساعدة الملك الألماني أوتو الأول و أرسل وفداً في عام 960 إلى الملك أوتو ليطالب منه المساعدة و ليعرض عليه التاج القيصري كما فعل سابقاً البابا ليون الثالث مع شارلمان العظيم¹.

لم يتردد أوتو في تلبية نداء البابا يوحنا الثاني عشر لمساعدته ضد خصومه و للحصول على اللقب الإمبراطوري، لكنه قرر أن يهيء الأمور الداخلية في مملكته قبل السفر إلى إيطاليا. فقد عقد أوتو اجتماعاً لمجلس بلاطه في 16 أيار في عام 961 في مدينة فورمس و أبلغ أعضاء المجلس رغبته في السفر إلى إيطاليا و الحصول على اللقب الإمبراطوري و مساعدة البابا، كما قرر أوتو الأول تعيين ولده أوتو الثاني من زوجته اديلهايد و الذي بلغ من العمر فقط سبع سنوات وريثاً له على العرش الملكي، و لكي يضمن عدم حدوث اضطرابات في مملكته أثناء سفره إلى إيطاليا قرر أوتو تتويج ولده أوتو الثاني ملكاً في مدينة التتويج آخن و فعلاً توج أوتو الثاني في آخن في عيد الخمسين (Pfingsten) في 26 أيار 961 من قبل أسقف ماينز و أسقف كولن ملكاً وريثاً لوالده أوتو الأول².

بعد أن رتب الأوضاع الداخلية في مملكته جمع أوتو الأول جيوشه في مدينة أوغسبورغ و بدأ سيره باتجاه إيطاليا. بالإضافة إلى قوته العسكرية و طلب البابا المساعدة، تسلح أوتو أيضاً بالشرعية التي تمتلكها زوجته اديلهايد في وراثة حكم زوجها الأول لوثر، ملك إيطاليا، و أن بيرينجار ليس إلا مغتصباً لحق زوجته في العرش الإيطالي. دخل أوتو بافيا دون أي مقاومة تذكر من بيرينجار و من

1 – Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 147f.

2 – Köpke: Kaiser Otto der Große, S. 322.

هناك و قبل نهاية تشرين الثاني أرسل أوتو مبعوثه إلى البابا و معه تعليماته لمراسم اللقاء بين البابا و الملك أوتو.

وفي يوم عيد الميلاد من عام 961 تحرك أوتو بجيشه و حاشيته باتجاه روما التي وصلها في 31 كانون الثاني من عام 962. وحصل الاستقبال الرسمي لأوتو و حاشيته الكبيرة في 2 شباط 962 في كنيسة القديس بطرس حيث دهن أوتو بالزيت المقدس و توج بالتاج الإمبراطوري عند مذبح كنيسة بطرس الكبير من قبل البابا يوحنا الثاني عشر، كذلك أيضاً توجت زوجة الملك أوتو، اديلهايد، كقيصرة و أصبحت طريقة التتويج هذه و مراسمها عرفاً للتتويج القيصري في العصور الوسطى¹.

بعد مغادرة أوتو لروما سرعان ما انقلب البابا يوحنا الثاني عشر عليه و تحالف مع خصمه السابق الملك بيرينجار، الذي استدعى البابا الملك الألماني إلى إيطاليا لمساعدته ضده، و كذلك تواصل البابا مع البيزنطيين للتحالف ضد أوتو. هذا ما دفع القيصر أوتو إلى فك الحصار عن الملك بيرينجار و توجه إلى روما مرة ثانية و طرد البابا يوحنا الثاني عشر من روما و أقبله من منصبه البابوي وعين مكانه على الكرسي الرسولي البابا ليون الثامن، وبعد ذلك وضع القيصر أوتو قانوناً وأسساً جديدة لانتخاب البابوات، حيث لا يجوز في المستقبل انتخاب بابا جديد دون موافقة القيصر أوتو و ولده أوتو الثاني من بعده. بينت الأحداث في إيطاليا أن سياسة أوتو في إيطاليا ستكون مهابة طالما أنه موجود في روما، فبعد أن استطاع في نهاية عام 963 إلقاء القبض على الملك بيرينجار و زوجته و أرسلهم إلى المنفى و غادر روما تمكن البابا يوحنا الثاني عشر من العودة إلى

1 – keller: die Zeit der späten karolinger und der Ottonen, S. 209f.

روما و هذا ما اضطر القيصر أوتو إلى العودة مرة أخرى إلى روما و أخذ الثورة التي قامت ضده بشكل دموي و أعاد البابا ليو الثامن إلى منصبه، بقي هذا الانقسام في البابوية في العالم المسيحي اللاتيني حتى بعد وفاة البابا يوحنا الثاني عشر في أيار 964، حتى قدم أوتو الأول مرة جديدة إلى روما في حزيران 964 و ثبت البابا ليو الثامن بشكل نهائي في منصبه البابوي و نفى منافسه بندكت الخامس إلى مدينة هامبورغ الألمانية.

سيطر القيصر أوتو على شمال و وسط إيطاليا بشكل كامل لكن لم يستطع أن يضمن الاستقرار الكامل فقد قامت لومبارديا في عام 965 بالانتفاض على سلطته و دعوة ابن الملك بيرينجار، أدالبرت، إلى إيطاليا و هذا ما دفع أوتو إلى إرسال دوق شفاين، بوخارد الثالث، إلى إيطاليا للقضاء على هذا التمرد، و استطاع بوخارد طرد أدالبرت من لومبارديا¹.

اضطربت الأوضاع في إيطاليا مجدداً بعد وفاة البابا ليو الثامن و اضطر أوتو الأول مجدداً و للمرة الثالثة أن يعود إلى إيطاليا. كان أوتو قد عين البابا يوحنا الثالث عشر خلفاً للبابا ليو الثامن على الكرسي الرسولي في الفاتيكان و لكن سرعان ما اندلعت انتفاضة ضد البابا الجديد رافضة إياه في منصب البابوية و ألقوا القبض عليه في صيف 966، لكنه استطاع الهرب و طلب النجدة من أوتو. وصل أوتو الكبير إلى روما في نفس العام و أعاد البابا يوحنا الثالث عشر إلى منصبه. استمرت إقامة القيصر أوتو في إيطاليا هذه المرة حتى عام 972 و في العام التالي لوصوله إلى إيطاليا أي في عام 967 و في يوم عيد الميلاد توج أوتو الأول ابنه أوتو الثاني كقيصر مساعد له.

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 148f.

تأزمت العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية أثناء إقامة القيصر أوتو الكبير الثالثة في إيطاليا لأنه أخذ يسيطر على أملاك بيزنطة في إيطاليا و اندلعت الحرب بين الطرفين على الأراضي الإيطالية تخللها فترات هدنة و مفاوضات و مراسلات، و توسط بابا روما مراراً بين الطرفين لكن الحروب كانت تتجدد دائماً بشكل عنيف بسبب تضارب المصالح، و لم تنته هذه الحروب إلا بوفاة الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس اغتيالاً على يد ابن أخته تزميسكيس في 10 كانون الأول في عام 969 و بعدها بدأت المفاوضات مجدداً بين الطرفين التي أثمرت عن عقد الصلح و توج الصلح بزواج أوتو الثاني ابن أوتو الكبير من الأميرة البيزنطية (ثيوفانو ابنة الإمبراطور المتوفي رومانوس الثاني 959-962 Romanus II) في عام 972 كما توجت هذه الأميرة كقيصرة في روما أيضاً¹.

بعد الخاتمة المثمرة لإقامة أوتو الأول في إيطاليا عاد القيصر أوتو الكبير مع زوجته ادلهايد و ولده أوتو الثاني و زوجته إلى ألمانيا في آب 972 بعد أن أحيأ عهد الإمبراطورية الرومانية و أصبح قيصرأ على ألمانيا و إيطاليا و ضمن استمرارية أسرته في سدة هذا المنصب بعد أن توج ولده قيصرأ مساعداً له في حياته، توفي أوتو الكبير في مدينة تورنغن في 17 أيار في عام 973م².

أطلق على إمبراطورية أوتو فيما بعد لقب (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) و كانت هذه الإمبراطورية تختلف عن الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية، فمن حيث المساحة كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة أقل اتساعاً من سابقتها الإمبراطورية الكارولنجية فهي لم تضم فرنسا ضمن إطارها الجغرافي هذا و بقيت أجزاء من جنوب إيطاليا تخضع للسلطة البيزنطية، على الرغم من ذلك فإن

1 - keller: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, S. 244ff.

2 - Köpke: Kaiser Otto der Große, S. 509f.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة استطاعت الاستمرار لفترة زمنية طويلة استمرت حتى نهاية العصور الحديثة.

سياسة أوتو الكبير مع الكنيسة و رجال الدين

أراد أوتو الكبير الحد من سلطة الأمراء و الأدواق و منافستهم للسلطة الملكية، و هذا ما دفعه إلى التعاون مع الكنيسة و رجالها ليتخذهم سلاحاً ضد الأمراء عند الحاجة، و لكي يستفيد من دعم الكنيسة أكثر فأكثر كان مضطراً أن يجعل الكنيسة أقوى و أغنى و أن يوسع صلاحياتها و لذلك قام أوتو الكبير بمنح الأساقفة و الكنائس إقطاعات كبيرة كما منح رجال الدين سلطات إضافية قوية في المجال القضائي و المالي و الإداري¹، بالإضافة إلى ذلك سمح لبعض الأساقفة بصك النقود في مقاطعاتهم، إلى جانب جمع الضرائب الموجبة على التجار و الأمراء و ممارسة صلاحيات الكونت الإدارية، بالإضافة إلى ذلك أخضع أوتو الكبير رجال الدين لسلطته وجعلهم مرتبطين به بشكل مباشر حيث جعل تعيينهم و إقالتهم من المناصب الدينية من حق الملك وحده. و بعد تتويجه قيصرًا في روما جعل حتى تعيين البابا في الفاتيكان مشروطاً بموافقته، كما عين مندوبين عنه في روما للإشراف على إدارة المؤسسة البابوية و لكتابة التقارير عن سير الأمور فيها، و هكذا يكون قد فرض سيادة السلطة الإمبراطورية على البابوية في روما. و على الصعيد الخارجي فقد جند أوتو رجال الدين في بعثات تبشيرية أرسلها إلى خارج حدود إمبراطوريته لتقوم بنشر المسيحية و الدعاية له و لبرنامج السياسي التوسعي. بناءً على ذلك شجع أوتو إقامة الكنائس و تشييد الأديرة في الأراضي

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 256.

التي احتلها من السلاف و الهنغار و الدانيماركيين لتكون مركز دعم و إسناد للسلطة الألمانية في تلك المناطق¹.

أوتو الثاني (973-983)

1 - استلامه السلطة:

عندما توفي أوتو الكبير في عام 973، كان ولده أوتو الثاني و الذي بلغ عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً ملكاً منذ اثني عشر عاماً و قيصرًا مساعدًا لوالده و متوجاً من قبل بابا روما منذ خمسة أعوام. هذا و كان والده قد أعطاه امتيازات خاصة في الحكم و سلمه ختماً خاصاً و لم يكن له إخوة أو منافسون على العرش. عقد أوتو الثاني أول اجتماع لبلائه بعد وفاة والده في نهاية حزيران 973 في مدينة فورمز و تم انتخابه فيها و أعلن كبار الأمراء و الأدواق ولاءهم له، وبعدها انتقل إلى مدينة آخن. حمل أوتو الثاني إرثاً كبيراً و مهام كثيرة عن والده، فقد وجب عليه حل المشاكل الداخلية و حماية البابوية و الكنيسة و تنظيم أمور الحكم في إيطاليا التي أمضى فيها مع والده وقتاً ليس بقصير، فقد أقام في إيطاليا برفقة والده منذ تتويجه قيصرًا مساعدًا في عام 967 (كان أوتو الثاني في الثانية عشر من عمره عندما توج قيصرًا مساعدًا) و حتى أيلول من عام 972م². بالإضافة إلى ذلك وجب عليه دفع الأخطار الخارجية التي تحيق بمملكته، و كان أول انتصار عسكري يحققه أوتو الثاني هو تصديه للملك الدانماركي هارالد بلاوتسان الذي حاول توسيع حدوده جنوباً على حساب المملكة الألمانية، فقد استطاع أوتو الثاني

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 106 - 107، 120.

2 - Keller: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, S. 239ff.

رد الملك الدانيماركي على أعقابيه في عام 974 و قام ببناء عدد كبير من الحصون على حدود مملكته شمالاً لمنع أي توغل دانيماركي في المستقبل¹.

سياسة أوتو الثاني الداخلية و الخارجية:

تباينت سياسة أوتو الثاني كلياً عن سياسة أبيه أوتو الكبير. فبينما انتهج الأب سياسة ألمانية بحتة حتى إنه في إحياء الإمبراطورية الرومانية كان يهدف إلى خدمة المصلحة الألمانية، لكن أوتو الثاني انتهج سياسة أشمل و أوسع وفقاً امتدت إلى خارج حدود المملكة الألمانية بكثير.

لم تكن إيطاليا من وجهة نظر أوتو الثاني نقل أهمية عن ألمانيا، لذلك بدأ يعمل على الربط بين البلدين برابط الإمبراطورية القوي، و كان يؤمن بفكرة الإمبراطورية العالمية و بأن سيطرة الإمبراطور على العالم يجب أن تصبح واقعاً معاشاً في كل مكان. هذه الأفكار شكلت تهديداً خطيراً على ألمانيا وعلى الأسرة الساكسونية، لأن سياسة أوتو الثاني - ومن بعده ولده أوتو الثالث - ركزت على إيطاليا أكثر من تركيزها على ألمانيا، و هذا ما أدى إلى بعثرة جهود الملك أوتو الثاني و خلفائه و إلى اضمحلال الأسرة الساكسونية وحتى الإمبراطورية الرومانية بشكل عام².

المشكلة الأولى التي واجهت أوتو الثاني داخلياً كانت من داخل عائلته، ومن مستشاره المقرب منه دوق بافاريا، هنري الثاني (955-995)، بالإضافة إلى ذلك وجد نفسه مهدداً حتى من والدته اديلهيد التي رفضت اعتزال التدخل في سياسة الإمبراطورية بعد وفاة زوجها أوتو الكبير. بدأت المشكلة في بافاريا فقد أدى

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 161.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 264.

دوق بافاريا في البداية (بداية حكم أوتو الثاني) دوراً مهماً في بلاط القيصر أوتو الثاني، ومع الوقت ازداد نفوذه خاصة في جنوب المملكة الألمانية، و تأزمت العلاقة بين القيصر أوتو الثاني و هنري الثاني بعد وفاة دوق شوابن، بوخهارد، في تشرين الثاني 973 و تعيين القيصر لابن أخيه و يدعى أوتو أيضاً دوقاً على مقاطعة شوابن بدلاً من تنصيبها لهنري الثاني دوق بافاريا، الذي خشي القيصر أوتو من ازدياد نفوذه في المملكة. و نتيجة لذلك انقلب دوق بافاريا هنري الثاني على القيصر و انضم إليه في ثورته على القيصر كل من بوهيميا و بولندا، استطاع أوتو الثاني القضاء على هذه الثورة و احتل مدينة ريغنسبورغ و أعاد تنظيم الأوضاع في جنوب ألمانيا¹. بعد ذلك اتبع أوتو الثاني سياسة والده بالاستعانة بالأساقفة و رجال الدين و إضعاف نفوذ كبار الأمراء عن طريق تفتيت ممتلكاتهم.

أما من الناحية الخارجية فقد تعرض أوتو لنكسة عسكرية كبيرة عندما استطاع ملك فرنسا، لوثر، غزو إقليم اللورين في عام 978 و اضطر القيصر أوتو الثاني إلى الفرار من عاصمة ملكه آخن. حاول أوتو الثاني الانتقام من ملك فرنسا و شن هجوماً مضاداً لكن لم يحقق هذا الهجوم النتائج المرجوة و هذا ما عجل عقد الصلح بين فرنسا و ألمانيا في عام 980م². عدا عن ذلك فقد شكلت إيطاليا محور اهتمامات أوتو الثاني، إيطاليا التي كانت في ذلك الوقت تعاني من الفوضى و الاضطراب السياسي بسبب صراعات أمرائها و كبار الإقطاعيين فيما بينهم، هذا بالإضافة إلى ما خلفته غارات المسلمين عليها من فوضى و خوف. استتجد البابا بندكت السابع (974-983) بأوتو الثاني ضد كرسكينوس أكثر أمراء

1 - Keller: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, S. 243-248.

2 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der fanken
Bd. 2, S. 196.

روما نفوذاً، هذا ما دفع أوتو الثاني إلى تجهيز جيشه و عبور جبال الألب في عام 980 و إعادة البابا بندكت إلى منصبه في روما. أوتو الثاني كان يخطط دائماً لجعل سلطته الإمبراطورية سلطة فعلية و أن يقوي نفوذه في إيطاليا على وجه الخصوص، لذلك استثمر وجوده على رأس جيشه في إيطاليا و شن حملة عسكرية على القسم الجنوبي من إيطاليا و ذلك لتحقيق غايتين: الأولى مهاجمة المسلمين الذين عبروا من صقلية و هددوا بنفنتو و طردهم و الثانية تثبيت حقوق زوجته ثيوفانو (وبالتالي حقوقه) في الممتلكات البيزنطية في إيطاليا بعد أن عمدت الدولة البيزنطية إلى المماطلة في تسليم هذه الحقوق¹. كان النجاح حليف الإمبراطور أوتو الثاني في جنوب إيطاليا فقد حققت حملته في عام 981 - 982 أهدافها بالسيطرة على عدد من المدن التابعة للسيطرة البيزنطية مثل سالرنو و باري و تارينتو، هذا و ألحقت قواته هزيمة قاسية بالمسلمين عند قطرون (Cotrone) و قتل على أثر هذه المعركة القائد الشهير و أمير صقلية أبو القاسم، لكن سرعان ما استطاع المسلمون نصب كمين لقوات الإمبراطور أوتو الثاني عند خليج كولون (Colonne) و تكبيدهم خسائر فادحة فيه في عام 982، وبصعوبة بالغة استطاع الإمبراطور النجاة من هذا الكمين.

كان لهزيمة أوتو أمام المسلمين أثر كبير على الإمبراطورية الأوتوية لأنها كانت الهزيمة الأولى التي تعرضت لها هذه الإمبراطورية على يد المسلمين، فقد اتضح أثرها البعيد بأنها قضت على سيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في وسط و جنوب إيطاليا لمدة قرنين من الزمن. زاد الأمور سوءاً بعد هذه الهزيمة لأوتو الثاني، الأخبار القادمة إلى الإمبراطورية بزحف السلاف على نهر الألب و إعلانهم الارتداد عن الدين المسيحي و عودتهم للوثنية كما قاموا بقتل عدد كبير

1 - Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 286f.

من رجال الدين المسيحي. هذا ما دفع أوتو الثاني لعقد مجلس ملكي في فيرونا في عام 983 لبحث هذا الموضوع الخطير و التشاور بشأنه، كان هذا المجمع فرصة و مناسبة لجمع مندوبي ألمانيا و إيطاليا جنباً إلى جنب لمناقشة الموضوع، و هذا كان إشارة واضحة إلى وحدة المملكتين الألمانية و الإيطالية داخل إطار الإمبراطورية¹.

لكن و أثناء انعقاد المجلس الملكي في مدينة فيرونا أنت الأخبار السيئة من شمال و شرق ألمانيا بإعلان الداينماركيين و السلاف الثورة ضد الملك أوتو الثاني، على الرغم من هذا الخطر الكبير في الشمال كان تفكير أوتو منصباً على إيطاليا و كيفية استرجاع السلطة الإمبراطورية على كامل إيطاليا، و هذا ما دفعه إلى تجاهل الدفاع عن ممتلكاته الألمانية شمالاً ضد الداينماركيين و السلاف، و قرر الزحف بجيوشه إلى إيطاليا ليتأثر لنفسه من الهزيمة التي ألحقها به المسلمون، و لهذا السبب عقد اتفاقاً مع جمهورية البندقية في حزيران 983 يكفل لها حرية التجارة مقابل عدم التعرض للقوات الإمبراطورية التي ستحارب المسلمين في إيطاليا². غادر الإمبراطور أوتو الثاني مدينة فيرونا باتجاه إيطاليا وفي طريقه إليها بلغه خبر وفاة البابا بندكت السابع، فقرر أوتو الذهاب إلى روما أولاً لتعيين بابا جديد للفاثيكان و فعلاً وصل إلى روما و عين مستشاره في الشؤون الإيطالية و أسقف مدينة بافيا، يوحنا الرابع عشر، باباً جديداً للفاثيكان (983-984). وبعد

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 266.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 567-868.

ذلك بفترة وجيزة توفي القيصر أوتو الثاني في روما في 27 كانون الأول 983 دون أن يستطيع تحقيق حلمه بإخضاع كامل إيطاليا إلى سلطة الإمبراطورية¹.

أوتو الثالث (983 - 1002)

كانت الأوضاع الداخلية و الخارجية للإمبراطورية الرومانية المقدسة مضطربة جداً عندما توفي الإمبراطور أوتو الثاني، هذا ولم يكن عمر ابنه و خلفه على العرش أوتو الثالث يتجاوز الأعوام الأربعة و هذا ما دفع القوى المعارضة للإمبراطورية إلى استغلال هذه الأوضاع للحصول على المكاسب الشخصية، حيث أعلن دوق بافاريا، هنري الثاني، التمرد و طالب بأن يصبح وصياً على الملك الصغير بدلاً من والدته ثيوفانو و بعد ذلك طالب بالتاج لنفسه، و هنا ظهر دور رجال الدين و الأساقفة في لعب الدور الأقوى في الإمبراطورية و استطاعتهم تثبيت الحكم في الإمبراطورية للشخص الذي يروونه مناسباً، و أيد رجال الدين المسيحيون الإمبراطورة ثيوفانو و ولدها الصغير أوتو الثالث، و هذا ما أجبر الدوق هنري الثاني إلى التراجع و تحديد سلطته بدوقيته فقط. وبعد وفاة الإمبراطورة ثيوفانو في عام 991 تشكل مجلس وصاية على الملك أوتو الثالث، و تزعم رجال الكنيسة هذا المجلس و أشرفوا على تعليم و تربية الملك الصغير أوتو الثالث².

ما إن بلغ أوتو الثالث الخامسة عشرة من عمره في عام 995 حتى قرر السفر إلى إيطاليا ليتوج هناك إمبراطوراً من قبل البابا كما طلب من مربيه يوحنا

1 – Fried, Johannes: der Weg in die Geschichte, die Ursprünge Deutschlands bis 1024, Berlin 1994, S. 560.

2 – Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 200-210.

أن يسافر إلى القسطنطينية لإيجاد أميرة بيزنطية مناسبة للزواج من الملك أوتو الثالث، و يبدو أن نية أوتو الثالث كانت أن يمدد نفوذه إلى الإمبراطورية البيزنطية، و هنا تظهر بوضوح أفكار أوتو الثالث عن معنى الإمبراطورية و ضرورة جعلها عالمية و مسيطرة على العالم المسيحي¹. غادر أوتو الثالث من ألمانيا إلى إيطاليا في شتاء عام 995 و في أثناء طريقه إلى روما بلغه نبأ وفاة البابا يوحنا الرابع عشر المفاجئة. و أثناء إقامة الملك أوتو في بافيا و قبل وصوله إلى روما عين أوتو الثالث قريبه برون في منصب البابوية بلقب البابا غريغور الخامس و كان البابا غريغور الخامس أول ألماني يعتلي هذا المنصب. و قام هذا البابا بتتويج الملك أوتو الثالث إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة في كنيسة القديس بطرس في أيار 996م².

لم تستمر إقامة أوتو الثالث الأولى في إيطاليا طويلاً فسرعان ما عاد إلى ألمانيا لمحاربة السلاف في الشمال الذين ثاروا عليه و طردوا رجال الدين المسيحي و أعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية، لكن و في الوقت نفسه ثار زعيم المعارضة في روما، كرسكينتيوس، ضد البابا غريغور الخامس، و هذا ما دفع الإمبراطور أوتو الثالث للعودة إلى روما و إخضاع المتمردين و إعدام زعيمهم كرسكينتيوس في عام 998. توفي البابا غريغور الخامس فعين أوتو الثالث خلفاً له مربيه جريبرت الذي لقب باسم البابا سلفستر الثاني (999-1003) و تابع هذا البابا الجديد سياسة من سبقوه من البابوات في التحالف مع الإمبراطور لتحقيق أغراض الطرفين³.

1 – Priz: Grundlagen und anfangen Deutschland bis 1056, S. 169.

2 – Keller: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, S. 288.

3 – Fried: der Weg in die Geschichte, S. 585f.

يمكن الاستنتاج من آراء و تصرفات أوتو الثالث أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكاً مقدساً؛ بمعنى جمع السلطة الزمنية و الدينية بيده، كما أراد أن يجعل من روما مركزاً أساسياً للحكم الزمني و الديني، لذلك انصرف الإمبراطور أوتو الثالث عن الاهتمام بالسياسة الألمانية و أراد أن يصبح كقسطنطين الأول، و هذه السياسة انعكست سلباً على الإمبراطورية وكان لها نتائج كارثية عليها، فقد استغلت البابوية دعم الأباطرة لتتخذ نفسها من حالة الموت السريري الذي غطت فيه في القرن العاشر، وبالفعل استطاعت البابوية استعادة مكانتها ودعمت نفوذها ووصلت إلى مرحلة جيدة من القوة في عهد البابا غريغور السابع (1073-1085) وكان ذلك على حساب الأباطرة. بالإضافة إلى ذلك فإن محاولة البابا سلفستر الثاني تقوية نفوذه في بولندا وهنغاريا استنفر شعوب البلدين، فضلاً عن انزعاج أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة البابا سلفستر السلبية اتجاههم. أما في إيطاليا فقد نشبت ثورة في روما ضد البابا والإمبراطور معاً بسبب مضايقات البابا لأهالي روما، ولم يجد الإمبراطور أوتو الثالث حوله مسانداً له يساعده حتى في ألمانيا نفسها. وفي تلك الظروف توفي الإمبراطور أوتو الثالث بالقرب من روما 1002 وبعده توفي البابا سلفستر في عام 1003م¹.

هنري الثاني (1002-1024):

توفي الإمبراطور أوتو الثالث دون أن يترك ولداً يرثه على العرش الإمبراطوري²، فكانت وفاته فرصة مميزة لدوق بافاريا، هنري الثاني، الذي استغل عدم وجود وريث للعرش من الأسرة الأوتونية ورشح نفسه ليصبح ملكاً³. وباعتلاء

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 268.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 197.

3 - Fried: der Weg in die Geschichte, S. 602.

هنري الثاني العرش الملكي في ألمانيا يكون الحكم فيها قد انتقل من الأسرة المباشرة لأوتو الكبير إلى أسرة أخرى من نفس السلالة الساكسونية، وتم هذا الانتقال في الحكم دون حدوث مشاكل كبيرة. هذا ولم يتمتع هنري الثاني بنفس القوة التي كانت لإسلامفه الأوتونيين، لأنه لم ينل الملك عن طريق الوراثة عن آبائه وكان يرجع الفضل في توليه العرش الملكي إلى كبار رجال الدين و الأمراء الألمان¹. وقد تحالف الملك هنري الثاني مع الأساقفة ورجال الدين واستعملهم كوسيلة لتنفيذ سياساته وأعطاهم نفوذاً أوسع، فكانوا ممثلين للسلطة الإمبراطورية في مناطق سيطرتهم، ومن ناحية أخرى شجع هنري الثاني حركة الإصلاح الكلونية، فتمتع رهبان الأديرة الكلونية بدعم الملك وعطفه، الأمر الذي أزعج الأساقفة في ألمانيا وأقلقهم، لأن الرهبان الكلونيين دعوا إلى بسط سلطان البابوية الفعلي على كل كنائس أوروبا الغربية، وهذا يعني تهميشاً وإضعافاً لنفوذ أساقفة ألمانيا والزامهم بالخضوع للسلطة البابوية في روما².

كان التهديد الأكبر الذي هز الإمبراطورية في عهد هنري الثاني هو هجمات السلاف عليها بقيادة حاكم بولندا بوليسلاف الذي عمل على توحيد الشعوب والقبائل السلافية تحت قيادته ليجعل منها قوة كبيرة هدفها طرد الألمان إلى ما وراء نهر الألب. فقد غزا بوليسلاف بقواته بوهميا في عام 1003 وهذا ما استفز هنري الثاني خصوصاً بعد فشل محاولات الصلح بعد أن عرضها أكثر من مرة على بوليسلاف، فأعلن هنري الحرب ضد السلاف وبدأ الهجوم على بوهميا في عام 1004 واستمرت هذه الحرب لفترة طويلة وانتهت بعقد صلح بين الألمان والسلاف

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 269.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 126 - 127.

في عام 1013م¹. هذا وقد استنفدت هذه الحروب الطويلة مع السلاف إمكانيات هنري الثاني ووقته دون أن تؤدي في النهاية إلى نتائج مشرفة بالنسبة للإمبراطورية².

سياسة هنري الثاني في إيطاليا

كانت ردة فعل الإيطاليين على وفاة الإمبراطور أوتو الثالث في عام 1002 سريعة، فما أن علموا بموته حتى نصبوا عليهم ملكاً من إيطاليا يدعى أردوين. وكان وجود عدد لا بأس به من المؤيدين لفكرة الإمبراطورية وللأسرة الأوتوية سبباً لطلب هؤلاء من الملك هنري الثاني القدوم إلى إيطاليا وإزاحة الملك الإيطالي عن عرشه. لكن وبسبب انشغال هنري الثاني بالمشاكل الداخلية في ألمانيا لم يستطع الذهاب إلى إيطاليا حتى عام 1004 ودخل هنري مدينة بافيا ولم يستطع الملك الإيطالي اعتراض طريقه، ولكن وبسبب المشاكل الداخلية في ألمانيا وتعقيد الأوضاع في إيطاليا عاد هنري الثاني إلى ألمانيا دون أن يتوج نفسه إمبراطوراً في روما ودون أن يقضي على الملك الإيطالي بشكل نهائي³.

بعد عقد الصلح مع زعيم السلاف بوليسلاف في عام 1013 أصبحت الأوضاع في ألمانيا مناسبة لسفر الملك هنري إلى إيطاليا ووضع حد للملك الإيطالي الذي لم يستطع القضاء عليه في عام 1004 والأهم من ذلك بالنسبة لهنري كان الحصول على التاج الإمبراطوري وتتويجه من قبل بابا روما. غادر الملك هنري ألمانيا ومعه زوجته باتجاه إيطاليا في نهاية عام 1013 ودخل إلى

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 180.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 270.

3 - Keller: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, S. 338ff.

روما واستقبلهم البابا بندكت الثامن (1012-1024) وتوجه إمبراطوراً في كنيسة القديس بطرس في 14 شباط 1014م¹. غادر الإمبراطور هنري الثاني إيطاليا بعد فترة وجيزة من تنويجه و عاد إلى ألمانيا دون أن يستطيع القضاء بشكل نهائي على الملك الإيطالي أردوين الذي توفي في عام 1015. اضطربت الأوضاع مجدداً في إيطاليا في عام 1020 واضطر الإمبراطور أن يذهب بجيشه إلى هناك بناءً على طلب البابا بندكت الثامن (الذي زار ألمانيا لتدشين كتدرائية بامبرج في عام 1020) المساعدة في القضاء على التمردات في شمال إيطاليا ووسطها.

غادر إمبراطور ألمانيا في نهاية عام 1020 وبقي في إيطاليا حتى صيف عام 1022 دون أن يستطيع أن يحقق كل أهداف حملته العسكرية². عاد الإمبراطور هنري الثاني إلى ألمانيا قبل أن يستقر الوضع تماماً في إيطاليا. هذا وقد بقي الحال مضطرباً في إيطاليا بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء وبين كبار النبلاء والإقطاعيين وصغارهم، وبين المدن ضد بعضها بعضاً.

توفي الإمبراطور هنري الثاني في عام 1024، وبموته انتهى حكم البيت الساكسوني لألمانيا، هذه السلالة التي حكمت ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمن نجحت في إحياء الإمبراطورية الرومانية وإن كانت بصورة مصغرة. تميز عهد هذه الأسرة باستخدام رجال الدين في شؤون الحكم والإدارة للقضاء على النفوذ الإقطاعي.

1 - Fried: der Weg in die Geschichte, S. 626f.

2 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 181.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الأسرة السالية أو الفرانكونية (1024-1056)

بعد وفاة هنري الثاني عام 1024 انتهى عهد الأسرة الساكسونية حيث لم يوجد في هذه الأسرة بعد وفاة هنري وريث ذكر ليعتلي العرش، لكن كبار الإقطاعيين والأدواق حافظوا على ولائهم للأسرة الساكسونية، لذلك انتخبوا نبيلاً من أصل فرانكوني اسمه كونراد ولقب بكونراد الثاني¹، وينحدر كونراد من فرع إناث أوتو الكبير الساكسوني. ومع اعتلاء كونراد الثاني العرش الألماني يبدأ عهد الأسرة السالية أو الفرانكونية. ويمكن اعتبار عصر السالين امتداداً للعصر الساكسوني².

كونراد الثاني (1024-1039)

انتخب كونراد الثاني ملكاً من قبل أمراء ألمانيا في 4 أيلول 1024م³. لم يشبه كونراد الثاني سلفه في شيء، فقد كان كونراد، محارباً ماهراً وشجاعاً، ويحب الأعمال العسكرية ويرى في الحرب الوسيلة الأفضل لفرض احترام الإرادة الإمبراطورية، وكان حاد الطباع ومقتنعاً بأن لا حدود لسلطته ولم يقبل برقابة الكنيسة ورقابة العلمانيين، كما أنه لم يكن يعرف من الأمور الدينية إلا ما هو ضروري للطقوس الدينية العامة⁴. كانت أولى المشاكل الداخلية التي واجهت الملك الجديد، هي عدم اعتراف إقليم اللورين بانتخاب كونراد الثاني ملكاً، واستطاع إخضاع هذا الإقليم بسرعة وإنهاء تمرده. أما سياسته في إيطاليا: فقد كانت إيطاليا

1 - Elze: Eine europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 410.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 197 - 198.

3 - Prize: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 191.

4 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 587.

قد خرجت من تحت مظلة الحكم الألماني عملياً وهذا ما اضطر كونراد وبناءً على طلب بعض الأمراء اللومبارديين إلى الذهاب بجيشه إلى إيطاليا في عام 1026 حيث أمضى ما يقارب العام في شمال إيطاليا واستطاع أن يثبت نفوذه هناك وأخضع خصومه، وبعد ذلك توجه كونراد الثاني إلى روما في ربيع عام 1027 حيث توجه البابا يوحنا التاسع عشر (1024-1033) إمبراطوراً¹، وبعد ذلك زار الإمبراطور كونراد الثاني جنوب إيطاليا للإشراف على تقوية وسائل الدفاع هناك ضد البيزنطيين وبعدها عاد إلى ألمانيا على جناح السرعة ليتفرغ للشؤون الألمانية، ومن المفيد تكراره أن كونراد الثاني انتهج سياسة مختلفة عن سياسة سلفه هنري الثاني، فقد اتجه كونراد الثاني اتجاهها ألمانياً عملياً وتنازل عن الاتجاه العالمي النظري والذي كبد نفوذ هنري الثاني الكثير من الخسائر في ألمانيا. على الرغم من ذلك فقد بلغ نفوذ الإمبراطور كونراد الثاني بعد عودته من إيطاليا إلى ألمانيا درجة من القوة شجعته على جعل الحكم في ألمانيا وراثياً في أسرته، فتزوج ابنه هنري ملكاً في حياته في عام 1028. أثار هذا العمل حفيظة كبار الإقطاعيين والنبلاء وعلى رأسهم دوق شفاين، أرنست، الذي أعلن التمرد على الإمبراطور كونراد الثاني، ولكن لم يكتب لعصيان أرنست النجاح، حيث استطاع الإمبراطور سحق هذه الثورة وحرّم أرنست من دوقيته، وثبت كونراد سيطرته على ألمانيا بشكل محكم².

صحيح أن الأوضاع الداخلية في الإمبراطورية استتبت للقيصر كونراد الثاني، إلا أنه وجب عليه أن يواجه الأخطار الخارجية التي فتحت عليه على ثلاث جبهات من قبل بولندا وبوهيميا وهنغاريا. هذا وقد أعلن بوليسلاف حاكم بولندا نفسه ملكاً على بولندا وتوج نفسه في عام 1025 دون أن يأخذ بعين

1 - Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 308.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 273 - 274.

الاعتبار عدم موافقة الإمبراطور على هكذا إجراء. توفي بوليسلاف في نفس العام وخلفه ولده ميسكو الثاني (Miesko II.). وقد أغار ميسكو على مايس في مقاطعة ساكسونيا في عام 1028 ودمرت قواته الكثير من الكنائس والأماكن وفشل الإمبراطور في صد الهجوم البولندي الأول وأعاد البولنديون الهجوم مرة ثانية في عام 1030 لكن هذه المرة استطاع كونراد الدفاع عن الأراضي الألمانية وفرض الصلح على ميسكو.

أما بوهيميا فقد كانت تابعة إلى السيطرة الألمانية إقطاعياً وساءت العلاقات بين كونراد الثاني وبوهيميا بسبب نزعتها الاستقلالية ورغبتها في التحرر من السيطرة الألمانية، لكن كونراد الثاني استطاع إخضاع بوهيميا في عام 1034. أما إعلان كونراد الحرب على ملك هنغاريا، ستيفان، فكان بسبب مطالبة الأخير بأحقية ولده في الحصول على دوقية بافاريا بحجة أن ولده له حق شرعي في هذه الدوقية عن طريق والدته (أخت هنري الثاني)، هذا ولم تحقق هذه الحرب لكونراد النتائج المرجوة منها واضطر ابن الإمبراطور وخليفته هنري الثالث (نيابة عن والده) إلى توقيع الصلح مع الملك الهنغاري ستيفان¹.

وكان أهم الإنجازات في السياسة الخارجية التي حققها الإمبراطور كونراد الثاني هو نجاحه في الاستيلاء على مملكة بروجنديا وضمها إلى أراضي إمبراطوريته، فقد استغل كونراد وفاة الملك البرجندي رودولف الثالث في أيلول 1032 دون وجود وريث ذكر يعتلي العرش من بعده، وبادر بالتقدم بجيوشه إلى

1 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 194f.

برجنديا وسيطر عليها وأعلن نفسه ملكاً لها في الأول من آب عام 1034م¹. هذا وكان لضم برجنديا نتائج أخرى مهمة، فقد كانت هذه المملكة تتمتع بطابع روماني و أدى ضمها إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى تخفيف الطابع الألماني الذي اتسمت به هذه الإمبراطورية. و حال ضم برجنديا إلى الإمبراطورية دون ارتباطها بفرنسا سياسياً و جغرافياً، هذا و أدت السيطرة على برجنديا إلى ترسيخ مبدأ الوراثة على العرش الألماني. بالإضافة إلى ما سبق فإن برجنديا كانت مركزاً أساسياً لحركة الإصلاح الكلوني و نتج عن ضمها للإمبراطورية سرعة في انتشار هذه الحركة في ألمانيا، كما منع هذا الضم تدخل فرنسا في الشؤون الإيطالية. بمعنى آخر فإن الاستيلاء على برجنديا من قبل الإمبراطور الألماني جعل إمبراطوريته تضم جميع الأراضي التي شملتها اتفاقية فردان في عام 843 ماعدا الجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية (أي فرنسا)².

النجاح الأبرز الذي حققه الإمبراطور كونراد الثاني و الذي بدا أهم من نجاحه في السياسة الخارجية، كان في تثبيت سلطته داخل ألمانيا و إعادة تنظيم الأقاليم و النظام الإقطاعي في ألمانيا، فقد أعاد توزيع الإقطاعات و سلمها إلى الإقطاعيين الصغار و جعلهم مرتبطين به مباشرة و كبح بذلك سلطة و نفوذ كبار الإقطاعيين خاصة و أنه ألغى المناصب الوراثية لكبار الإقطاعيين و الأدواق³. عدا عن ذلك عمل كونراد الثاني على تقوية نفوذ الأساقفة و تمسك بمبدأ تقليدهم

1 - Keller, Hagen: Zwischen regionaler Begrenzung und universalen Horizont, Deutschland im imperium der Salier und Staufer 1024 - 1250, Berlin 1986, S. 97.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 275 - 276.

3 - Priz: Grundlagen und Anfänge Deutsschland bis 1056, S. 196f.

علمانياً (أي تعيينهم من قبل الإمبراطور) و استخدمهم كوسيلة للحد من سلطة الأدواق و كبار الإقطاعيين¹.

بعد النجاح الكبير الذي حققه كونراد الثاني في تطبيق هذا المنهج الجديد في توزيع الإقطاع داخل ألمانيا وفي برجنديا، قرر كونراد أن يطبق هذا الأسلوب في إيطاليا. لكن روح الاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تتنامى في شمال إيطاليا، حتى عند كبار رجال الدين و الأساقفة الذين كانوا قد استنجدوا سابقاً بكونراد ضد كبار الإقطاعيين و الأمراء. ومن بين رجال الدين هؤلاء كان الأسقف أربرت Aribert، رئيس الأساقفة في مدينة ميلانو، الذي كان شبه مستقل في أسقفيته و طمع بنفوذ سياسي قوي إلى جانب نفوذه الديني. هذا الاتجاه لدى أسقف ميلانو أقلق الأمراء المحليين و رأوا في ذلك تعدياً على نفوذهم، فقاوموا أطماعه و هذا ما أدى إلى نشوب حرب بين الطرفين. هذه الحرب كانت السبب المباشر لمغادرة كونراد الثاني ألمانيا و التوجه إلى إيطاليا في عام 1036 لوضع حد للحرب الأهلية هناك. لم يرضخ أربرت لشروط الإمبراطور و هذا ما أدى إلى نشوب حرب طاحنة بين الجانبين. عمد كونراد إلى استعمال سياسته الداخلية الألمانية في إيطاليا أيضاً، حيث استمال صغار النبلاء و الإقطاعيين إلى صفه، و أصدر مرسوماً في عام 1038 يسمح بجعل إقطاعاتهم وراثية في إيطاليا و وعدهم بسياسة ضريبة عادلة و ببعض الامتيازات². على الرغم من هذه الإجراءات لم يستطع الإمبراطور إخضاع أربرت و اضطر لأسباب داخلية ألمانية إلى العودة إلى ألمانيا في عام 1038 دون أن يستطیع القضاء على تمرد أربرت. و توج ولده

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 128.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 276 - 277.

هنري ملكاً في برجنديا و توفي بعد ذلك الإمبراطور كونراد الثاني في مدينة أوترخت في 4 حزيران من عام 1039م¹.

الإمبراطور هنري الثالث 1039 - 1056:

على الرغم من عدم تمكن الإمبراطور كونراد الثاني من القضاء على أربرت في إيطاليا، فإن ذلك لا يعني عدم نجاحه في تأدية مهمته الإمبراطورية بشكل عام، فقد استطاع أن يرسخ نفوذه بشكل قوي و أن يجعل ابنه هنري الثالث يعتلي العرش الإمبراطوري من بعده بدون وجود مشاكل تقض مضجعه و كان هذا أمراً لافتاً للغاية. فبغض النظر عن المقاومة الشرسة لأربرت في مدن ميلانو في إيطاليا ضد السلطة الإمبراطورية بقيادة هنري فإنه يمكن وصف بداية حكم هنري و سنيته الأولى في الحكم بالبداية الناجحة و الموفقة و سوف ينسحب هذا النجاح على فترة حكمه كلها، فبعد حكم أوتو الثاني لم يعتل عرش الإمبراطورية إمبراطور بمقدرة و بموهبة الملك الشاب هنري الثالث و لم تنعم الإمبراطورية بمثل هذه الفترة من الاستقرار و الأمان و القوة. اعتلى هنري الثالث العرش بعد وفاة والده و كان عمره 21 عاماً و كان قد شارك في تحمل أعباء الحكم في حياة والده مما أكسبه خبرة كبيرة في إدارة الإمبراطورية و التعرف عن كثب على أدق التفاصيل².

كانت القضية الأولى التي وجب على الملك الجديد حلها هي مشكلة أربرت، رئيس أساقفة ميلانو، لكنه استخدم السياسة لحل هذه المشكلة و حل الجيش الذي كان والده كونراد الثاني قد أعده للقضاء على أربرت، فبادر الأخير إلى ترجيح العقل و السياسة و ذهب إلى ألمانيا و قدم فروض الطاعة للملك هنري الثالث في

1 - Hirsch: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 313.

2 - Prize: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 202.

عام 1040 و حلف يمين الولاء له بعد أن عفا عنه، هذا و أعاد هنري الثالث رئيس الأساقفة أربرت إلى منصبه، و عاد الاستقرار إلى إيطاليا و أصبح بإمكان الملك الجديد أن يركز جهوده على الأخطار القادمة من الحدود الشرقية للإمبراطورية (من بولندا و بوهيميا و هنغاريا) ¹.

لم يضطر الملك هنري الثالث إلى بذل جهود كبيرة لإخضاع بولندا لسيطرته لأن الحرب الأهلية كانت قد مزقتها، كما و تعرضت لهجوم عنيف من قبل بوهيميا التي أصبحت القوة الأولى في الدول السلافية. لكن هذا الحال لم ينطبق على بوهيميا التي أراد دوقها برتسلاف الأول (1034 - 1055) أن ينصب نفسه ملكاً و أن يرقى أسقف بوهيميا في براغ إلى مرتبة رئيس الأساقفة، وبذلك يحق لبوهيميا الاستقلال الكنسي و بالتالي السياسي. لهذا لم يدخر برتسلاف جهداً لمقاومة محاولات الإمبراطورية الرومانية المقدسة لإخضاع بوهيميا، لكن كل هذه الجهود لم تؤت أكلها أمام قوة الملك هنري الثالث الذي توغل بجيشه في بوهيميا حتى هدد مدينة براغ نفسها في عام 1041، و أمام ذلك لم يجد برتسلاف مفرأ من الخضوع و الاستسلام لهنري الثالث. هذا و قد فرض هنري الثالث شروطاً قاسية على برتسلاف فوجب على الأخير دفع غرامة مالية باهظة، و تحرير كل ما لديه من أسرى و تدمير جميع التحصينات و القلاع المقامة في غابات بوهيميا. و بعد ذلك مثل الدوق برتسلاف أمام الملك هنري الثالث في 10 تشرين الأول من عام 1041 و أعلن الخضوع و التبعية، و بعد ذلك أعاده الملك إلى منصبه كدوق لبوهيميا ².

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 593.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 278 - 279.

المشكلة الأكثر صعوبة التي واجهها الملك هنري كانت في هنجاريا، فبعد وفاة ملك هنجاريا ستيفان في عام 1038 خلفه على العرش ابن أخته و يدعى بيتر، و كان بيتر هذا قد ساعد بوهيميا في حربها ضد الملك هنري الثالث، لكن سرعان ما تعرض بيتر لمشاكل داخلية، و وقوف قسم كبير من الهنغار ضد حكمه و استطاع أحدهم و يدعى أبا Aba أن يطيح به عن عرشه و يجلس مكانه، و اضطر بيتر إثر هذه الأحداث إلى الفرار و اللجوء إلى الملك هنري الثالث و طلب مساعدته في إعادته إلى عرشه. جاءت الفرصة المناسبة للملك هنري الثالث لمساعدة بيتر، بعد هجوم الهنغار بقيادة أبا على إقليم بافاريا الألماني و أعلن الحرب على هنجاريا في عام 1042 و شن عدة حملات عليها في عام 1042 - 1043 و 1044 و كانت نتيجة هذه الحروب فرار أبا و إعادة بيتر إلى عرشه في هنجاريا¹.

بعد أن أحس الملك هنري الثالث بأن الأمور قد استتببت له قرر الزواج للمرة الثانية (بعد أن كانت زوجته الأولى قد توفيت في عام 1038) و تزوج في عام 1043 من ابنة دوق أكيثانيا و تدعى أغنيس Agnes و ساعد هذا الزواج في تثبيت أواصر الصداقة و التحالف مع مملكة برجنديا، كما كان لهذه الأميرة الفرنسية أثر كبير في السياسة الدينية للملك هنري الثالث².

بعد ذلك تفرغ الملك هنري الثالث للعناية بالأمور الداخلية للإمبراطورية، هذا و كانت الإمبراطورية أي ألمانيا و إيطاليا تعانيان من عدم الاستقرار على الرغم من كل الجهود التي بذلها الأباطرة الذين سبقوه كما أن طريقة كونراد الثاني في

1 - Mannert: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken, Bd. 2, S. 293f.

2 Priz: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis 1056, S. 204f.

إدارة النظام الإقطاعي و تشجيعه لصغار النبلاء على حساب كبارهم أدى إلى اندلاع حروب أهلية، مما فرض على الملك هنري الثالث واجباً و جهداً كبيراً للقضاء على هذه الفلاقل و ترسيخ النظام و الأمن في الإمبراطورية الرومانية المقدسة، و لأجل تحقيق هذا الغرض ألغى الملك هنري الثالث سياسة من سبقوه من الأباطرة التي اعتمدت على تركيز السلطة في يدي الإمبراطور و اكتفى بتعيين عدد من أقاربه و معاونيه في الدوقيات الكبيرة، و ترك لهم قسماً من الحرية و الاستقلالية في إدارة دوقياتهم، بعد أن اقتنع أن ألمانيا أصعب من أن تقودها سلطة مركزية تستأثر بكل السلطات¹.

هنري الثالث و البابوية:

تردى الوضع بشكل مقلق في إيطاليا، ففي لومبارديا بدأت حرب أهلية بين النبلاء و أتباعهم، و في روما قامت ثورة ضد بابا الفاتيكان بندكت التاسع و أطاحت به و اعتلى الكرسي الرسولي البابا سيلفستر الثالث في شباط 1044 بدعم من القوى الثورية لكنه لم يستطع الاستمرار أمام منافسه البابا بندكت التاسع الذي استطاع العودة إلى منصب البابوية من جديد، لكن الالفت أن بندكت التاسع تنازل عن الكرسي الرسولي في أيار 1045 لصالح البابا غريغوري السادس. هذه الاضطرابات و دعوة مؤيدي الإصلاح للملك هنري الثالث للقدوم لمساعدتهم و وضع حد للفوضى، دفعت هنري الثالث لعبور جبال الألب في خريف 1046 متوجهاً إلى إيطاليا و كان وصوله إلى لومبارديا كافياً لوضع حد للفوضى فيها و إعادة السلام. التقى الملك هنري الثالث بالبابا غريغوري السادس، الذي طلب منه أن يدعو إلى مجمع ديني في سوتري Sutri قرب روما، و فعلاً عقد أكثر من

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 280.

مجمع ديني تحت إشراف الملك هنري الثالث في عام 1046 كانت نتیجتها عزل البابوات الثلاثة المتنازعين (سلفستر الثالث، بندكت التاسع، غريغوري السادس) و تعيين أسقف بامبرغ سويدغار Suidgar تحت اسم كليمنت الثاني بابا جديداً للكنيسة. هذا التعيين للبابا من قبل هنري كانت بمثابة إعلان واضح و صريح على أن سلطة هنري الثالث تعلو أي سلطة دينية أخرى و أن حكمه مطلق الصلاحيات في الإمبراطورية حتى في الشؤون الكنسية. هذا و قام البابا كليمنت الثاني، و في نفس اليوم الذي احتفل به بتعيينه بابا، بتتويج هنري الثالث و زوجته إمبراطوراً و إمبراطورة على الإمبراطورية الرومانية المقدسة¹. و بعد ذلك عاد الإمبراطور المتوج إلى إمبراطوريته ليتفرغ لتنفيذ مشاريعه فيها، و في أثناء إقامته في ألمانيا احتفظ بسلطته على البابوية و قام بتعيين البابا داماسوس الثاني على الكرسي الرسولي بعد وفاة البابا كليمنت الثاني في عام 1048 و الذي توفي بنفس العام، وبعده عين الإمبراطور هنري الثالث قريبه ليو التاسع (1048-1054) في المنصب البابوي.

و نتيجة لاضطرابات في إيطاليا و لوفاة البابا ليو التاسع اضطر الإمبراطور هنري الثالث للسفر مرة ثانية إلى إيطاليا في عام 1055 لتتصيب بابا جديد على الكرسي الرسولي، ووقع اختياره على مستشاره في السنوات الأخيرة كينبارد الذي حمل اسم البابا فيكتور الثاني (1055 - 1057) و نتيجة لزيادة المشاكل في مقاطعة لوثرنجيا اضطر الإمبراطور هنري الثالث إلى مغادرة إيطاليا بسرعة لوضع حد للمشاكل الجديدة في إمبراطوريته².

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 594 - 596.

2 - Hrich: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, S. 322f.

لقد كانت تصرفات الإمبراطور هنري الثالث مع البابوية و الكنيسة لا تخلو من التناقض؛ فمن جهة كان ضد بيع الوظائف الدينية بالمال، و شجع حركة الإصلاح الكنيسي، ومن جهة ثانية كان حريصاً كل الحرص على فرض هيمنته على البابوية و تدخل بشكل سافر في عزل البابوات و تعيينهم دون الرجوع إلى المجامع الدينية، و هذا بعد ذاته يعدّ خللاً جوهرياً عانت منه الكنيسة في ذلك الوقت. هذا و لم تقف الكنيسة مكتوفة الأيدي في وجه هذا الخلل و حاولت مراراً التحرر من هيمنة السلطة الإمبراطورية و العلمانية عليها و هذا ما استولد الاضطرابات و أحدث نزاعات ضارية بين السلطة الإمبراطورية و السلطة البابوية و أطلت أولى بداياته على المسرح الأوروبي بعد وفاة الإمبراطور هنري الثالث في عام 1056م¹.

الإمبراطور هنري الرابع 1056 - 1106

عندما توفي الإمبراطور هنري الثالث خلفه على العرش ابنه هنري الرابع الذي كان وقت ذاك يبلغ من العمر ست سنوات. و كان والده قبل وفاته في عام 1056 قد عين زوجته أغنيس Agnes (والدة هنري الرابع) والبابا فيكتور الثاني أوصياء على طفله هنري الرابع، بعد وفاته ووجب عليهم تسيير أمور الحكم و الاعتناء بالطفل، لكن البابا فيكتور ما لبث أن توفي في عام 1057 و بعد ذلك تولت القيصرية الوالدة الإشراف على الطفل و إدارة الإمبراطورية و اعتمدت على دائرة ضيقة من الأعوان في إدارة شؤون الإمبراطورية، استمرت أغنيس في الوصاية على ولدها لمدة خمسة عشر عاماً (حتى عام 1072) واستمر هنري في الحكم حتى وفاته في عام 1106 و بذلك تكون قد استمرت فترة حكمه خمسين

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 130.

عاماً كاملاً، وحتى فترة حكم القيصر فريدريك الثالث (1440 - 1493) لم يحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في العصور الوسطى قيصر استمر حكمه كل هذه السنوات¹.

مما لاشك فيه أن وجود صبي قاصر على العرش الإمبراطوري، و استمرار ذلك لفترة طويلة كان له تأثير سلبي على الإمبراطورية و سلطتها، في الوقت الذي كانت فيه الحركة الكلونية تنتشر بسرعة كبيرة و تفرض نفسها في الكنيسة اللاتينية الغربية، و هذا ما أدى إلى تصاعد قوة البابوية و ازدياد نفوذها خصوصاً بعد أن وجدت حلفاء جدداً وأقوياء و كان أبرز الحلفاء الجدد النورمانديون في جنوب إيطاليا².

ما إن استلم هنري الرابع الحكم بصورة عملية و مباشرة في عام 1072 حتى إندلعت ثورة عليه في ساكسونيا و بافاريا و اشترك في هذه الثورة أغلب فئات المجتمع الألماني من أمراء و رجال الدين و مزارعين أحرار، و على الرغم من أن هنري الرابع استطاع إخماد هذه الثورة في عام 1075 و أسر دوق ساكسونيا فإن ألمانيا لم تحصل على الاستقرار الكامل و ظل بعض المتربصين بالإمبراطور ينتظرون الفرصة المواتية لإعلان التمرد عليه³.

في تلك الأثناء كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى الكرسي الرسولي في الفاتيكان في عام 1073 تحت اسم البابا غريغوري السابع. ومن الأرجح أن الأساقفة في ألمانيا كان لديهم قلق و رغبة من البابا الجديد بسبب ما اتصف به من

1 - Keller: Zwischen regionaler Begrenzung, S. 164.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 307.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 130.

صرامة و التزام، فعملوا على تحريض الإمبراطور هنري الرابع على البابا غريغوري بذريعة أنه لم ينتخب بالطريقة (الشرعية) التي نص عليها مجمع روما الديني الذي عقد في عام 1059، و إنما بناءً على وصية سلفه البابا اسكندر الثاني بأن يحل مكانه على الكرسي الرسولي بعد وفاته، و هذا مادفع بجمع المصلين على البابا المتوفي، اسكندر الثاني، بالمناداة بهلديراند لمنصب البابا في كنيسة القديس بطرس في روما¹. هنا أراد الإمبراطور هنري الرابع عدم الاستماع إلى رغبة أساقفة ألمانيا وتصرف على عكس آمانياتهم، فقد اكتفى بإرسال وفد من قبله إلى الفاتيكان لاستيضاح الظروف التي أحاطت باختيار البابا غريغوري السابع. هذا ولم يكن البابا الجديد بأقل حنكة من الإمبراطور و ابتعد عن المواجهة المباشرة هو الآخر، وأمر بتأجيل بقية المراسيم الخاصة بتوليته المنصب البابوي حتى تأتي موافقة الإمبراطور هنري الرابع على تعيينه بابا، وبالفعل أتت موافقة الإمبراطور على تعيين البابا الجديد دون تأخير في حزيران 1074، بالإضافة إلى ذلك وافق الإمبراطور على عزل خمسة من كبار مستشاريه و موظفيه كان البابا الراحل، اسكندر الثاني، قد اتهمهم بالسيمونية و إصدار قرار الحرمان ضدهم².

لم تستمر المجاملة السياسية بين الإمبراطور هنري الرابع و البابا غريغوري السابع طويلاً و أضرمت نار النزاع و الخلافات بين الإمبراطور و البابا على إثر القرارات التي اتخذها البابا غريغوري السابع في المجمع الديني الذي عقد في روما في نهاية عام 1074 و بداية 1075 وكانت هذه القرارات الإصلاحية بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة للعلاقة بين السلطة الإمبراطورية و

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 309.

2 - Barraclough, Geoffrey: The Origins of Modern Germany, new-york, 1984, p.108.

السلطة البابوية و كان أهم هذه القرارات هو حق البابا وحده في تعيين رجال الدين و رؤساء الأديرة، أي و بمعنى آخر إلغاء التقليد العلماني وهذا من شأنه ضرب نظام الحكم الإمبراطوري في الصميم. وعلى إثر صدور هذا القرار بدأ الصراع العلني بين البابا غريغوري السابع والإمبراطور هنري الرابع، هذا الصراع الذي لن يتوقف بوفاة هذين العاهلين بل سيمتد إلى عهد خلفائهم أيضاً لمدة قرنين من الزمن¹.

كانت الشرارة الأولى للنزاع بين الإمبراطور هنري الرابع و البابا غريغوري السابع حول تعيين أساقفة جدد في بعض الأسقفيات في شمال إيطاليا، حيث ادعى كل من البابا و الإمبراطور أحقيته وحده في تعيين من يشغلون هذه الوظائف الدينية. و بناءً على ذلك عقد هنري الرابع مجمعاً إمبراطورياً في مدينة فورمز في عام 1076، و اتخذ قراراً ببطالان انتخاب البابا غريغوري السابع وبعزله من منصب البابوية. و كانت ردة فعل البابا على هذا القرار عند سماعه به، أنه أمر بعقد مجمع ديني في مدينة روما كانت نتيجته إصدار البابا قراراً بخلع هنري من منصب الإمبراطور بالإضافة إلى حرمانه من رحمة الكنيسة².

و هنا أتت الفرصة المناسبة للأمراء الألمان، الذين استغلوا هذا النزاع بين الإمبراطور و البابا و عقدوا مؤتمراً في تريبور في عام 1076 و قرروا إعلان العصيان على الإمبراطور هنري الرابع، حتى يعلن البابا الغفران له. هذا و لم يقف هنري الرابع منتظراً تطور الأحداث و ذهب إلى إيطاليا ووضع نفسه تحت تصرف البابا غريغوري السابع راجياً الغفران منه، و هذا ما حصل عليه من البابا و عاد

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 201 - 202.

2 - Haverkamp, Alfred: Aufbruch und Gestaltung Deutschland 1056 - 1273, München 1993, S. 125f.

أدرجه إلى ألمانيا، و لكن هنري الرابع سيدفع ثمناً باهظاً بحصوله على هذا الغفران، حيث اعترف و للمرة الأولى في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة بحق البابوية في حرمان الإمبراطور من رعاية الكنيسة و عزله من المنصب الإمبراطوري.

هذا و احتج الأمراء الألمان، الذين لم يعد يعجبهم أي شيء يقوم به الإمبراطور هنري الرابع، على ذهاب الإمبراطور لمقابلة البابا غريغوري دون معرفتهم، و عقدوا اجتماعاً في مورخهايم في عام 1077 و قرروا فيه عزل الإمبراطور من منصبه و انتخبوا رودولف، دوق شوابن، إمبراطوراً عليهم. هذا و سارع البابا غريغوري إلى تأييد انتخاب الإمبراطور الجديد (رودولف)، و بالمقابل قام الإمبراطور هنري الرابع بعزل البابا غريغوري السابع و عين في منصبه البابا جيوبرت، رئيس أساقفة رافنا، تحت اسم البابا كليمنت الثالث، و زحف إلى إيطاليا بقواته العسكرية، و حاصر روما و أسقطها في عام 1084. و كان البابا غريغوري السابع قد استجد بحلفائه النورمانديين في جنوب إيطاليا، الذين زحفوا بقواتهم أيضاً و استطاعوا احتلال مدينة روما بعد خروج القوات الإمبراطورية منها¹.

لم ينته الصراع بين الإمبراطورية و البابوية بوفاة البابا غريغوري السابع في عام 1085 و كان هذا النزاع بمثابة حلقة في سلسلة طويلة من الحروب و النزاعات بين السلطين. و مع الوقت سيتبين أن هذا النزاع الذي بدأ حول مشكلة التقليد العلماني له أهمية تاريخية كبيرة، لأنه ليس مجرد خلاف في الشكل حول

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 131.

بعض المراسيم الكنسية، بل أن إشكال تقليد رجال الدين سيشكل محوراً أساسياً للحركة الإصلاحية الكنسية الكبرى¹.

أخذ الصراع مع البابوية جهداً كبيراً من الإمبراطور هنري الرابع و استنزف قواه و هذا ما دفع بعض الأمراء و خاصة أمراء ساكسونيا لإعلان التمرد عليه مرة أخرى، و نجح الأمراء الثائرون في ضم ولدي هنري الرابع و هما، هنري الخامس و كونراد إلى صفوفهم، و استمر الصراع بين الإمبراطور و أولاده حتى إنتهى الأمر بإلقاء القبض على الإمبراطور هنري الرابع و تنصيب ابنه هنري الخامس ملكاً جديداً على ألمانيا في عام 1105 بعد أن اضطر هنري الرابع للتنازل عن عرشه².

الإمبراطور هنري الخامس 1106 - 1125

توفي هنري الرابع في عام 1106 بعد أن تنازل لولده هنري الخامس عن الحكم في عام 1105م³. هذا و لم يحتج هنري الخامس الكثير من الوقت لاكتشاف، أن البابوية التي أيدته في عصيانه و ثورته على والده سوف تعمل ضده و تعكر الأوضاع داخل ألمانيا و خارجها أيضاً. هذا و أثبتت سياسة هنري الخامس أنه لم يكن أقل تمسكاً من والده بحقوقه في التقليد العلماني، فقام بتعيين رجال دين في المناصب الشاغرة في الأسقفيات دون الرجوع إلى رأي بابا الفاتيكان، و هذا ما أثار حنق البابوية، و ازداد الخلاف بين البابوية و الإمبراطورية على مسألة التقليد العلماني، حيث تمسك كلا الطرفين بحقه في تقليد رجال الدين في وظائفهم الكنسية.

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 310.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 202.

3 - Keller: Zwischen regionaler Begrenzung, S. 190.

بأدر هنري الخامس باستخدام القوة لفرض سلطته على البابوية و زحف بجيشه في عام 1110 إلى روما و أرغم البابا باسكال الثاني (1099-1118) والكرادلة للانصياع لرغبته في موضوع التقليد العلماني، حيث وافق البابا مجبراً على أحقية الإمبراطور في تعيين الأساقفة في وظائفهم الكنسية حسب رغبته. وما إن عاد هنري الخامس إلى ألمانيا حتى أعلن البابا نقضه للاتفاق المبرم مع الإمبراطور بحجة أنه حدث تحت التهديد و الضغط. استمر الحال على ما هو عليه حتى عام 1117، حيث ذهب هنري الخامس مرة أخرى إلى إيطاليا و هذا ما دفع البابا باسكال الثاني للهرب من روما ليحتمي بحلفائه النورمانديين في جنوب إيطاليا، لكن البابا باسكال الثاني توفي في عام 1118م¹.

اعتلى البابا غلاسيوس الثاني (1118 - 1119) الكرسي الرسولي لمدة عام بعد البابا باسكال و خلفه بعد ذلك البابا كالكستس الثاني (1119 - 1124) في منصب البابوية. و خلال فترة حكم البابا كالكستس تحسنت العلاقة مع الإمبراطور و هدأ النزاع حول قضية التقليد العلماني لرجال الدين و أدت المحادثات بين الطرفين لعقد اتفاق فورمز الشهير بين الإمبراطور هنري الخامس و البابا كالكستس الثاني في 23 أيلول 1122، و ينص هذا الاتفاق على البنود التالية:

1 - يتم انتخاب الأساقفة و رؤساء الأديرة خارج ألمانيا حسب القانون و التقاليد الكنسية و دون أي تدخل من الإمبراطور و السلطة العلمانية.

2 - يستطيع الإمبراطور تكليف الأسقف بأية سلطة أو مهمة لكن بعد تقليد الأسقف دينياً من قبل البابا.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 132.

3 - يكون اختيار الأساقفة في ألمانيا عن طريق الانتخاب.

4 - يحق للإمبراطور أو مندوبه حضور عملية انتخاب الأسقف داخل ألمانيا فقط.

5 - يقوم الإمبراطور بتقليد الأسقف المنتخب داخل ألمانيا علمانياً قبل تقليده دينياً¹.

ويشكل هذا الاتفاق حلاً وسطاً يرضي الطرفين (البابوي و الإمبراطوري) و يمنع استئثار أي طرف بتقليد رجال الدين في وظائفهم. و يبدو أن اتفاق فورمز لم يكن إلا نهاية للحلقة الأولى من سلسلة النزاع بين البابوية و الإمبراطورية حول مسألة التقليد العلماني. و كان الأمراء و الإقطاعيين الألمان أكثر المستفيدين من هذا الصراع و انشغال الإمبراطور بمشاكله مع البابا، فعملوا على تقوية نفوذهم داخل ألمانيا على حساب سلطة الأباطرة، و قاموا ببناء الحصون و القلاع الخاصة بهم، حيث شكلت هذه الحصون المراكز الأساسية للتنظيم السياسي في ألمانيا و لفرض سلطتهم على أرض الواقع. هذا و توفي البابا كالكستس في عام 1124 و بعده بعام الإمبراطور هنري الخامس².

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد أسرة الهوهنشتاوفن

لوثر الثالث 1125 - 1137

كان الإمبراطور هنري الخامس قد توفي في 23 أيار 1125 دون أن يكون له ولد يرثه على العرش الإمبراطوري. هذا و اجتمع عدد من كبار الأمراء و

1 - Keller: zwischen regionaler Begrenzung, S. 194f.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 133.

الإقطاعيين في ألمانيا في مدينة ماينز في 24 آب 1125 لانتخاب ملك جديد عليهم، و وقع اختيارهم على دوق ساكسونيا لوثر الثالث¹. هذا و قد عانى لوثر الثالث من حدوث اضطرابات في مملكته في بداية حكمه و عصيان عدد من كبار الأمراء لأوامره و رفضهم الاعتراف بسلطته إلى حد أن أمراء شفاين و فرانكونيا نادوا بالدوق كونراد الثالث من أسرة شتاوفن في عام 1127 ملكاً عليهم، و هو أخ فريدريك الثاني دوق شفاين و الذي كان أحد المنافسين الرئيسيين للملك لوثر الثالث عند اعتلائه العرش، بالإضافة إلى مشاكله في ألمانيا فقد كانت الأوضاع في إيطاليا تزداد سوءاً في عهد البابا أنوريوس الثاني (1124 - 1130) حيث قويت شوكة النورمانديين في إيطاليا خصوصاً في صقلية و جنوب إيطاليا و عينوا روجير الثاني ملكاً عليهم. زاد الأمور سوءاً هناك الاختلاف بين الكرادلة في الفاتيكان لتعيين خلفاً للبابا الراحل أنوريوس في عام 1130م². و أدى هذا الاختلاف إلى انتخاب بابوين في نفس الوقت و هما أنوتسنت الثاني و أناكلييت الثاني، و لكن الأغلبية كانت مع البابا أنوتسنت الذي طلب مساعدة الملك لوثر الثالث و التقاه في مدينة أوترخت في آذار 1131 و وعده بمساعدته ضد خصومه. و بالفعل زحف لوثر الثالث على رأس جيشه إلى إيطاليا و دخل روما حيث توجه البابا أنوتسنت في 4 حزيران 1133 مع زوجته إمبراطوراً و إمبراطورة على الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

1 - Schimmelpfennig, Bernhard: Könige und Fürsten, Kaiser und Papst nach dem Wormser Konkordat, München 1996, S. 5f.

2 - Haverkamp, Alfred: Gebhardt Handbuch der Deutschen Geschichte, 12. Jahrhundert 1125 - 1198, 10. Aufl., Klett-Cotta, 2001, S. 58ff.

لكن و بعد أن عاد لوثر الثالث إلى ألمانيا وقع البابا أنوتسنت تحت ضغوط كبيرة و تعرض لعدة مخاطر أهمها أن الملك روجير، ملك صقلية و جنوب إيطاليا، عمل و بمساعدة البابا أناكليت على توسيع ممتلكاته على حساب الأراضي التابعة لسلطة البابا أنوتسنت و هذا ما دفع الإمبراطور لوثر الثالث إلى العودة مرة ثانية إلى إيطاليا في منتصف عام 1136 و حقق بعض النجاحات ضد أعدائه في جنوب إيطاليا و عاد أدراجه إلى ألمانيا حيث توفي في 4 كانون الأول 1137م¹.

الإمبراطور كونراد الثالث 1138 - 1152

عند وفاة الإمبراطور لوثر الثالث عادت الإمبراطورية إلى الحالة التي كانت عليها في عام 1125 عند وفاة الإمبراطور هنري الخامس، و هي عدم وجود وريث للإمبراطور. كان يوجد في ألمانيا في ذلك الوقت رجلين يحسب لهما الحساب و هما الملك و المنافس السابق للإمبراطور لوثر الثالث و هو كونراد الثالث زعيم أسرة شتاوفن و دوق شفاين و الرجل الثاني كان هنري المتكبر و هو دوق بافاريا و ساكسونيا و انحصرت المنافسة بين هذين الزعيمين و انتهت التشاورات إلى انتخاب كونراد الثالث في آذار 1138 ملكاً على ألمانيا². كانت النتيجة الأولى لانتخاب كونراد الثالث ملكاً هي عدم اعتراف هنري المتكبر، دوق بافاريا و ساكسونيا، بالتبعية له و هذا ما فتح باباً جديداً للحروب بين كلا الأسرتين و لم تنته هذه الحروب بوفاة هنري المتكبر عام 1139 بل استمرت بعد وفاته في عهد ولده هنري الملقب بالأسد ولم تتوقف هذه الحرب حتى عام 1144 بعد الاتفاق على الهدنة لمدة سنتين بين الطرفين. و بناءً على طلب البابا أوغين

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 10 - 12.

2 - Haverkamp: 12.Jahrhundert, S. 66f.

الثالث شارك كونراد الثالث مع ملك فرنسا لويس السابع (1137 - 1180) بالحملة الصليبية التي عرفت بالحملة الثانية في عام 1148 و التي فشلت فشلاً ذريعاً. وقبل خوضه هذه المغامرة عين كونراد الثالث ولده هنري السادس في عام 1147 وريثاً له على الملك و ملكاً مساعداً له في نفس الوقت. عاد كونراد من الحملة الصليبية دون الحصول على نصر يستطيع من خلاله تقوية نفوذه على الأمراء الألمان أو على البابوية. حاول كونراد الثالث عقد تحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ضد عدوهما المشترك و هو النورمانديون، و استطاع توقيع اتفاق مع القيصر البيزنطي مانول (1143 - 1180) في عام 1146م¹. و لم تكن علاقة كونراد الثالث مع البابوية في أحسن أحوالها بعد الاتفاق مع بيزنطة، إلا أن كونراد حاول إرضاء البابوية للحصول على اللقب الإمبراطوري و بالفعل أعد العدة للسفر إلى روما لتحقيق هذه الغاية إلا أن القدر لم يساعده و توفي وهو في طريقه إلى روما في عام 1152.

الإمبراطور فريدريك بربروسا 1152 - 1190

كان كونراد الثالث قبل وفاته قد ترك إشارات الإمبراطورية لدى ابن أخيه فريدريك، المعروف بالأول و هو دوق شفاين، لأنه كان يعلم أن حظوظه في اعتلاء العرش أقوى من حظوظ ولده و خصوصاً أن فريدريك هذا هو ابن فريدريك دوق شفاين أخ الملك كونراد الثالث، و أمه هي يوديث أخت هنري المنتكبر وعمه هنري الأسد، ولهذه الأسباب سيكون انتخابه مستساغاً عند كل الأطراف الألمانية وسينهي الصراع بين الأسرتين الأقوى في ألمانيا وهما أسرة شتاوفن وأسرة wolf². وبالفعل اجتمع الأمراء الألمان في مدينة فرانكفورت الألمانية وانتخبوا فريدريك

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 14 - 19.

2 - Haverkamp: 12. Jahrhundert, S. 111.

الأول ملكاً عليهم وبعد ذلك تم تتويجه في آذار 1152 من قبل أسقف مدينة كولن¹. امتلك فريدرىك بربروسا في شخصيته كل صفات وشيم الفروسية التي يعتد بها في ذلك العصر فقد كان شجاعاً ومحارباً ماهراً يحب القتال ويعشق المغامرة بالإضافة إلى همته العالية وحبه للعدل. وهذا ما جعله في نظر الأمراء والإقطاعيين وعامة الشعب مثلاً للفرس الكامل فأحبه الجميع. ولكي يقوي نفوذه داخل مملكته بدأ فريدرىك بالتقرب من الأمراء والإقطاعيين ويعمل على استمالتهم لجانبه فأعطى هنري الأسد، و هو ابن خاله هنري المتكبر زعيم أسرة الفولفيين دوقية بافاريا و فوضه بصلاحيات مطلقة عليها و على ساكسونيا، أما بالنسبة لبقية الأمراء فاستمالتهم بإعطائهم الامتيازات و التفويضات بشكل كبير، و أراد من ذلك الاستفادة من قدراتهم لتسخيرها في سياسته الإيطالية².

تتويج فريدرىك بربروسا إمبراطوراً في عام 1155

كان فريدرىك يستعجل الذهاب إلى إيطاليا منذ انتخابه ملكاً، لكي يفرض سيطرته هناك و يقوي نفوذه و يتوج نفسه إمبراطوراً، وكان فريدرىك قد باشر بإجراء مفاوضات مع مندوبين عن البابا لترتيب الأوضاع و التنسيق بين الطرفين، و جرت هذه المباحثات في مدينة كونستانس الألمانية، و نتج عن هذه المباحثات توقيع اتفاق كونستانس في آذار 1153 بين الطرفين وتعهد كل من فريدرىك والبابا ايوغن الثالث بأن يمنعا القيصر البيزنطي من أي محاولة لتوسيع نفوذه على الأراضي الإيطالية وبأن لا يوقع أي من الطرفين اتفاق هدنة أو سلام مع ملك اللومبارديين في صقلية روجير الثاني، ومقابل توقيع هذا الاتفاق وافق البابا على السماح لفريدرىك بتطليق زوجته بحجة القرابة الضيقة بينه وبين زوجته، كما تعهد

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 20.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 134 - 135.

البابا لفريديريك بأن يتوجه إمبراطوراً في روما وبأن يعلن فريديريك ولداً محبباً للقديس بطرس. وبعد اتفاق كونستانس بحوالي سنة ونصف غادر فريديريك بربروسا ألمانيا باتجاه روما في بداية تشرين الأول 1154. لكن وفي أثناء رحلة فريديريك الأول إلى روما توفي البابا أيوغين الثالث¹.

اعتلى البابا هادريان الرابع (1154-1159) الكرسي الرسولي بعد وفاة البابا أيوغن الثالث، هذا وكان البابا الجديد من أصل إنكليزي ويعتد بنفسه كثيراً ويعتبر أن منصب البابوية يتفوق على المنصب الإمبراطوري، وبالمقابل فقد كان الملك فريديريك يعدّ نفسه كقيصر المستقبل وملك ألمانيا حالياً أقوى سلطة ونفوذاً من البابا، وهذا بعد ذاته كان كافياً لبداية التوتر بين الطرفين؛ وظهر ذلك جلياً في مراسم التتويج الإمبراطوري عندما لم يمسك فريديريك لجام جواد البابا لمساعدته في النزول على الأرض كرمز لتبعية فريديريك للبابا، تأزم الموقف ونزل البابا هادريان الرابع عن فرسه لوحده ورفض منح اللقب الإمبراطوري للملك فريديريك. بقي التوتر الشديد لمدة يومين حدث خلالهما مباحثات بين رجال الملك والبابا. وفي النهاية وجد فريديريك نفسه مضطراً للرضوخ لطلبات البابا، وأقيمت مراسم تتويج جديدة وأمسك فريديريك بلجام حصان البابا وفقاً للتقاليد المتبعة في مثل هذه المناسبات، وأنجزت مراسم التتويج في حزيران 1155 وأصبح فريديريك إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة². وبعد شهر من تتويجه إمبراطوراً بدأ القيصر فريديريك مباحثات مع مندوبي القيصر البيزنطي مانول الأول لشن هجوم مزدوج على صقلية، صحيح أن الهجوم لم يحدث لكن هذه المباحثات كانت إشارة إلى أن العلاقة بين الإمبراطور فريديريك والبابا هادريان ليست على ما يرام، وكانت هذه المباحثات مع

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 24f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 206.

البيزنطيين بمثابة خرق لاتفاق كونستانس، وبعد حوالي عام على مغادرته لألمانيا عاد الإمبراطور فريدريك أدراجه إليها في بداية عام 1157م¹.

أهم الأحداث في الإمبراطورية الرومانية المقدسة بعد تتويج فريدريك ببروسا إمبراطوراً

بعد أن حصل فريدريك ببروسا على التاج الملكي أصبح إقليم لومبارديا بحكم التقاليد تابعاً له، ولذلك بعث الإمبراطور حكاماً مندوبين عنه ليديرُوا شؤون المقاطعات اللومباردية. أذعنّت بعض المدن لمندوبي الإمبراطور والبعض الآخر رفض التبعية المباشرة للإمبراطور، وكانت مدينة ميلانو على رأس المدن التي رفضت الخضوع للإمبراطور. قرر فريدريك اللجوء إلى القوة لفرض سيطرته في إيطاليا، فزحف بجيشه إلى إيطاليا في عام 1158 لإخضاع المدن الثائرة وربما أراد من سيطرته على المدن البحرية الإيطالية أن يستثمرها في التجارة الألمانية في البحر المتوسط. في هذه الأثناء كانت العلاقة بين الإمبراطور والبابا تزداد سوءاً خصوصاً أن البابا كان قد عقد تحالفاً مع النورماندين، وهذا ما دفع الإمبراطور للسيطرة على الأراضي البابوية. اعترض البابا على أعمال فريدريك وعدّها مقدمة لفرض نفوذ الإمبراطور على الحقوق البابوية، ورداً على ذلك قام البابا هادريان بإصدار قرار الحرمان على الإمبراطور فريدريك، لكن هذا القرار لم يشن الإمبراطور عن تنفيذ خطته وتابع زحفه إلى مدينة ميلانو باعتبارها رأس المدن الثائرة. حاصر الإمبراطور ميلانو لمدة ثلاث سنوات عانت خلالها المدينة من الجوع

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 28f.

والإنهاك وهذا ما اضطرها للاستسلام للقوات الإمبراطورية لكن وبعد استسلامها أمر الإمبراطور قواته باضرام النار فيها وإحراقها¹.

كان الغضب والخوف سيدي الموقف في باقي المدن الإيطالية نتيجة لتصرف الإمبراطور في ميلانو، هذه العقوبة لمدينة ميلانو ربما ستكون مصير المدن الأخرى في القريب العاجل إذا بقيت هذه المدن متفرجة على تقدم الإمبراطور. ولذلك شكلت المدن تحالفاً في نهاية عام 1168 وسمي هذا التحالف باسم العصبة اللومباردية. هذا و استطاعت قوات هذا التحالف إلحاق الهزيمة بالقوات الإمبراطورية في عدة معارك كان أشهرها معركة لينانو في أيار 1176م². بعد قيام الإمبراطور فريديك بأربع حملات عسكرية على إيطاليا و خسارته في لينانو اضطر للدخول في مفاوضات مع البابا اسكندر الثالث (1159-1184) ونتج عن هذه المفاوضات توقيع الصلح بين زعمي العالم المسيحي اللاتيني في ذلك الوقت في 24 تموز 1177. وعرف هذا الصلح بصلح البندقية، وافق الإمبراطور بموجب هذا الصلح على إعادة جميع الأراضي التي أخذها من البابا، وتعهد كل طرف مساعدة الآخر ضد أي خطر يتهدهد. كما عقد الإمبراطور اتفاقية هدنة مع اللومبارديين وتطورت فيما بعد في عام 1183 لتصبح هذه الاتفاقية اتفاقية سلم وصداقة وعرفت هذه الاتفاقية باتفاقية كونستانس³. ونصت اتفاقية كونستانس في عام 1183 على أن تتمتع المدن اللومباردية بالاستقلال السياسي والاقتصادي والعسكري وكذلك القضائي، مع احتفاظ الإمبراطور فريديك ببعض مظاهر السيادة الشكلية، كموافقته الاسمية على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 206.

2 - Haverkamp: 12 Jahrhundert, S. 139.

3 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 39.

مالية رمزية للمشاركة في إعداد الجيوش الإمبراطورية. ونتيجة لهذه الأحداث والاتفاقيات أصبحت المدن اللومباردية دويلات شبه مستقلة، وضعف نفوذ الإمبراطور الألماني في شمال إيطاليا وأصبح نفوذه شكلياً فقط، وهذا ما سينتج عنه تفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة وانفصال إيطاليا عن ألمانيا لاحقاً. هذا واستفاد فريدريك بربروسا من فترة الاستقرار التي شهدتها إيطاليا بعد صلح البندقية في عام 1177 لتركيز جهوده لتسوية الأوضاع الداخلية في ألمانيا. ففي عام 1180 استطاع فريدريك كسر شوكة ابن خاله هنري الأسد، الذي استغل انشغال الإمبراطور في إيطاليا ليوطد سيطرته ونفوذه في ألمانيا حتى أصبح يشكل تهديداً كبيراً على سلطة فريدريك، واستطاع الإمبراطور إلحاق هزيمة نكراء بابن خاله هنري الأسد¹.

وفي عام 1184 أحرز الإمبراطور فريدريك كسباً سياسياً مهماً عن طريق الزواج السياسي فقد خطب لابنه هنري، الأميرة كونستانس وريثة صقلية النورماندية، وبذلك أصبحت هذه الجزيرة وما تملكه من قوة وثروة جزءاً من أملاك الإمبراطور بالإضافة إلى ذلك فإن مشروع الزواج هذا وطد صلح البندقية المنعقد في عام 1177 بين الإمبراطور وصقلية².

على الرغم من كل المشاكل التي واجهت الإمبراطور فريدريك بربروسا في ألمانيا وإيطاليا، فإنه وجد الوقت الكافي لتدعيم سلطانه في كل من هنغاريا وبوهيميا وبولندا، كما استحصل على حق تعيين بعض رجال الدين في وظائفهم الكنسية، هذا وكان أفق تفكير فريدريك أكبر وأبعد من أوروبا ذاتها ولعله طمح في

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 136 - 137.

2 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 46.

بعث الإمبراطورية الرومانية بمساحتها القديمة¹، وهذا ما يستنتج من تصرفاته أثناء مشاركته في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة في عام 1189 إلى جانب ملك إنكلترا، ريتشارد قلب الأسد (1189-1199) وملك فرنسا فيليب أغسطس (1180-1223). وتمهيداً لهذه المشاركة عقد صلحاً مع البابوية وجيز الإمبراطور، البالغ من العمر وقت ذلك 65 عاماً، جيشاً ألمانياً وانطلق على رأسه من مدينة ريغنسبورغ الألمانية في أيار 1189. كان سير هذه الحملة متعثراً أثناء مرورها في الأراضي البيزنطية بسبب عدم تعاون البيزنطيين مع الإمبراطور وذلك لتخوف القيصر البيزنطي من تحالف الإمبراطور فريدريك مع أعداء بيزنطة النورماندين ومن مشاريعه في احتلال الأراضي البيزنطية نفسها. لكن الأقدار شاعت أن لا تطأ أقدام الإمبراطور فريدريك ببروسا الأراضي المقدسة في فلسطين أو الانضمام إلى باقي القوات الصليبية فقد مات غرقاً في نهر السالف في آسيا الصغرى في 10 حزيران 1190م².

الإمبراطور هنري السادس 1190-1197

كان هنري السادس ابن الإمبراطور فريدريك ببروسا قد انتخب وتوج ملكاً في حياة والده في عام 1169. كما كان فريدريك ببروسا قد أخذ وعداً من كليمنت الثالث بتتويج ولده هنري السادس قيصرًا من بعده. حمل هنري أعباء السياسة والحكم بتكليف من والده الإمبراطور فريدريك كنائب له أثناء غيابه عن ألمانيا وتواجده في إيطاليا في عام 1184 وكذلك الأمر عندما غادر إلى المشرق أثناء الحملة الصليبية الثالثة. استلم هنري السادس شؤون الحكم في ألمانيا لوحده بعد وفاة والده في آسيا الصغرى في عام 1190 لكنه واجه معارضة قوية من بعض

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 207.

2 - Haverkamp: 12. Jahrhundert, S. 155f.

الأمرء الألمان وخصوصاً من قبل هنري الأسد، وكذلك واجه مشاكل في إيطاليا حيث إنه بعد وفاة الملك الصقلي وليم الثاني في تشرين الثاني 1189 وهو والد زوجة هنري السادس، الأميرة كونستانس، رفض الأمرء النورمانديون تسليم الحكم للأميرة كونستانس، الوريثة الشرعية للحكم في صقلية، وأعطوا مقاليد الحكم لأحد أقارب الملك المتوفي وهو الأمير تانكريد وتوج ملكاً بموافقة البابا أيضاً في 18 كانون الثاني 1190، نتيجةً لهذه الأحداث في إيطاليا وجد هنري السادس نفسه مضطراً للذهاب إلى إيطاليا، لكن ليس فقط ليتوج نفسه قيصرًا بل وللاستعادة حق زوجته المسلوب في حكم صقلية. أعلن الملك هنري السادس أن رحلته إلى روما بغية تتويجه إمبراطوراً ستكون في نهاية شهر أيلول من عام 1190، ولأجل ذلك عمل على تهدئة الأوضاع الداخلية في ألمانيا، فعقد صلحاً مع هنري الأسد وعين أخاه كونراد دوقاً على مقاطعة شفاين¹. لم يستطع هنري السفر إلى روما في الموعد الذي حدده وأجل سفره بضعة أشهر وغادر ألمانيا في آذار من عام 1191، وتوفي البابا كليمنت الثالث عندما كان هنري في طريقه إلى روما في 20 آذار 1191 وانتخب البابا كولسين الثالث خلفاً له وقام البابا الجديد بتتويج هنري السادس إمبراطوراً في كنيسة القديس بطرس في روما في نيسان 1191. وبعد ذلك توجه الإمبراطور المتوج من روما إلى صقلية ونجح في احتلالها، إلا أنه فشل في فرض سيطرته على مدينة نابولي وزاد الأمور تعقيداً أن زوجته الأميرة كونستانس وقعت في أسر القوات المعادية للإمبراطور وأرسلت إلى الأمير الصقلي المنافس لها تانكريد. وبعد أن عاد الإمبراطور إلى ألمانيا وجد أن الأوضاع قد تدهورت كثيراً، حيث استغل الدوق هنري الأسد فترة غيابه في إيطاليا وفرض سيطرته على بعض الأقاليم في ألمانيا ولكن الإمبراطور استطاع إعادة الأمور لمصلحته في

1 - Schimmelpfennig: Könige und Fürsten, S. 49.

ألمانيا في عام 1193، وكان قبل ذلك قد نجح أيضاً في إعادة زوجته الأسيرة في إيطاليا، الأميرة كونستانس إليه لكن بواسطة السياسة وليس نتيجة لعمل عسكري¹.

إن ضم صقلية إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يجعل أباطرتها الألمان ورثةً للنورمانديين في جنوب إيطاليا فقط، بل ورثوا عنهم أيضاً أطماعهم ومصالحهم الخاصة في بسط السيطرة على البحر المتوسط وفي نزاعهم مع الإمبراطورية البيزنطية، وهذا كان كفيلاً بصرف الأباطرة لجهود كبيرة في هذا المجال وأهمالهم لشؤون ألمانيا الداخلية، وهذا كان أحد الأسباب المهمة في انهيار أسرة الهوهنشتاوفن وتشرذم المملكة الألمانية². لقد تصور الإمبراطور هنري السادس نفسه إمبراطوراً رومانياً في نهاية عهده، وهذا ما دفعه لتجهيز قواته بغية الخروج بحملة صليبية إلى المشرق العربي، وصلت الحملة إلى بلاد الشام، لكن الإمبراطور هنري السادس لم يستطع اللحاق بها بسبب مرضه وموته أثناء تواجده في صقلية 1197 عن عمر بلغ ثلاثة وثلاثين عاماً فقط³.

فريدريك الثاني (1197-1250)

انتخاب ملكين لألمانيا في عام 1198

عند وفاة الإمبراطور الشاب هنري السادس في 28 أيلول 1197 كان ولده فريدريك المعروف بالثاني ما يزال صغيراً جداً ولا يتعدى عمره السنوات الأربع ، لذلك قرر عمه فيليب دوق شفاين المولود في عام 1177 أن يكون وصياً عليه ويدير دفة الحكم هو بنفسه حتى يبلغ فريدريك الثاني سن الرشد. لكن المشاكل

1 - Haverkamp: 12. Jahrhundert, S. 158f.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 138.

3 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 208.

الداخلية والتدخلات الخارجية دفعت الأمور في ألمانيا باتجاه آخر، فقد أراد الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد أن يعتلي العرش الألماني أحد أقاربه من أسرة الفولفن المنافسة لأسرة الهوهنشتاوفن وكان هدفه من ذلك أن يضمن وقوف ألمانيا إلى جانبه ضد ملك فرنسا، فيليب الثاني، ولذلك لم يوفر جهداً لكي ينصب قريبه أوتو ابن هنري الأسد والملقب أوتو الرابع ملكاً على ألمانيا ونجح في ذلك عندما استطاعت القوات الموازية لأسرة الفولفن الألمانية من احتلال مدينة آخن (مدينة التتويج حسب التقاليد) وطرد القوات التابعة لأسرة ال شتاوفن المكلفة بحمايتها بعد ثلاثة أسابيع من حصارها، ودخل أوتو ابن هنري الأسد مدينة آخن و توج فيها ملكاً على ألمانيا في 12 تموز 1198. ورداً على ذلك عقد فيليب أخو الإمبراطور الراحل هنري السادس وعم فريديك الثاني تحالفاً مع الملك الفرنسي وكان هذا التحالف موجهاً ضد أوتو الرابع وحليفته إنكلترا. وقام فيليب هوهنشتاوفن بتتويج نفسه هو الآخر ملكاً على ألمانيا في مدينة ماينز في 8 أيلول 1198 ليصبح في ألمانيا ملكاً متوجاً¹. وحده السلاح سوف يقرر من هو الملك الشرعي لألمانيا لتندلع حرب طاحنة بين الأسرتين الأقوى في ألمانيا أثبتت خلالها أسرة هوهنشتاوفن أنها ما تزال أقوى من أسرة فولفن، واستطاع فيليب كسب ود عدد مهم من الأمراء الألمان وأسقف مدينة كولن، الذي كان ضده في البداية، والذي قام بإعادة تتويج فيليب ملكاً على ألمانيا في مدينة آخن هذه المرة في عام 1205. هذا وكان لموت ريتشارد قلب الأسد²، ملك إنكلترا، في عام 1199 تأثير سلبي على موقف أوتو الرابع في ألمانيا حيث خسر أوتو دعم قلب الأسد. لم تستمر

1 - Stürner, wolfgang: Gebhardt Handbuch der Deutschen Geschichte, Dreizehntes Jahrhundert 1198 – 1273, Bd. 6, 10. Aufl., Klett-cotta, 2001, S. 156 – 160.

2 - Keller: zwischen regionaler Bengrenzung, S. 427 – 430.

الأمر لصالح أسرة هوفنشتاوفن، فقد اغتيل الملك فيليب في عام 1208 واعترف بعد ذلك أغلب الأمراء الألمان بأوتو الرابع ملكاً على ألمانيا، وزحف أوتو الرابع بجيشه إلى إيطاليا في عام 1209 ودخل مدينة روما حيث توجه البابا أنوتسنت الثالث إمبراطوراً في 4 تشرين الأول من نفس العام.

هذا وسرعان ما وقع الخلاف بين البابا والإمبراطور الجديد بسبب سياسة أوتو الرابع في إيطاليا. وقع أوتو الرابع في نفس أخطاء أسرة الهوفنشتاوفن في تركيز اهتمامهم على إيطاليا وأهمال الشؤون الألمانية وهذا سيكون له أثر كبير في غضب الأمراء الألمان من سياسة أوتو الرابع ووقوفهم ضده وانتخاب فريديك الثاني ابن الإمبراطور السابق هنري السادس من أسرة الهوفنشتاوفن ملكاً عليهم في عام 1212. طبعاً فإن هذا الانتخاب و نجاح فريديك الثاني في الحصول على التاج الألماني ما كان ليحدث بدون مساعدة فيليب الثاني ملك فرنسا والبابا أنوتسنت الثالث. هذا وبقي النزاع بين الملك فريديك الثاني والإمبراطور أوتو المنهك القوى حتى وفاة الأخير في 19 أيار من عام 1218¹.

فترة حكم الإمبراطور فريديك الثاني 1212-1250

اتصف فريديك الثاني بأنه سياسي بارع ومحارب شجاع ومتقن لدرجة عالية، حيث أتقن التحدث بلغات عديدة حتى اللغة العربية، ونظم الشعر وشجع مختلف أنواع العلوم والفنون، وله اجتهاداته في مجالات الفلسفة والطب والهندسة، ووصف من قبل عدد من المؤرخين بأنه أعجوبة العالم².

1 - Stürner: Dreizehntes Jahrhundert, S. 178 - 188.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 209.

ارتسمت حلقة جديدة من حلقات النزاع بين البابوية والإمبراطورية في عهد الإمبراطور فريدريك الثاني، حيث شكلت الأحداث في إيطاليا شرارة هذا النزاع، فلم يقتنع الإمبراطور بالسيطرة على صقلية وجنوب إيطاليا فقط، بل بدأ يعمل على تقوية نفوذه في المدن اللومباردية في شمال إيطاليا، وهذا ما جعل أملاك البابوية بين فكي كمانشة تسيطر عليها القوات الإمبراطورية شمالاً وجنوباً. هذا وكان الإمبراطور فريدريك الثاني قد وعد البابا أنوتسنت الثالث في عام 1215 بشن حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة كما وعده أيضاً بفصل صقلية عن أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة. لكن الإمبراطور لم يف بوعوده للبابا وبدأ بالمماطلة بالتجهيز لحملة صليبية. عدا عن ذلك توج فريدريك الثاني ولده هنري ملكاً في عام 1220 ليخلفه في حكم صقلية والإمبراطورية معاً، وهذا ما أقلق البابوية واستفزها¹. على الرغم من أن فريدريك الثاني كان قد جدد وعده للبابا في شن حملة صليبية إلى الأراضي المقدسة قبل نتيجته إمبراطوراً من قبل البابا في روما في 22 أيلول 1220، وأعلن موعد انطلاق الحملة في عام 1221، وأجل الإمبراطور الموعد مرة أخرى وجعله في عام 1225 وبعدها حتى عام 1227، وفي النهاية قام البابا غريغوري التاسع (1227-1240) بإصدار قرار حرمان فريدريك من رحمة الكنيسة في عام 1227. عندها وجد الإمبراطور فريدريك الثاني نفسه مضطراً للاسراع بتجهيز حملة صليبية والانطلاق على رأسها باتجاه الأراضي المقدسة وغادر ألمانيا في حزيران 1228، واستطاع فريدريك عقد معاهدة مع السلطان كامل الأيوبي يسمح بموجبها للحجاج المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين لمدة عشر سنوات قادمة. وعد هذا الاتفاق إنجازاً مهماً

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 139.

لفريدريك واستغله أفضل استغلال في سياسته الأوروبية حتى إنه لقب نفسه بعد ذلك بالإمبراطور الروماني وملك صقلية والقدس.¹

لم تستمر إقامة فريدريك الثاني في المشرق وقتاً طويلاً، فقد عاد مسرعاً إلى إيطاليا، حيث كانت القوات البابوية قد استغلت فرصة وجود الإمبراطور في المشرق وشنت هجوماً واسعاً على ممتلكاته في جنوب إيطاليا، حتى إن البابا غريغوري التاسع أشاع أن الإمبراطور قد مات أثناء الحملة الصليبية ليضعف مركزه في الإمبراطورية. لكن ما إن عاد الإمبراطور إلى إيطاليا حتى اضطر البابا إلى استعطاف الإمبراطور لعقد صلح معه، وافق فريدريك الثاني لعقد صلح مع البابا مقابل رفع قرار الحرمان عنه، وبالمقابل تعهد الإمبراطور بحماية أملاك البابوية واعترف بحق البابا في السيادة على مملكة صقلية، وعرف هذا الصلح بصلح سان جرمانو 1230. لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة بين الطرفين فقد تأزمت الأمور مرة أخرى وأصدر البابا غريغوري التاسع قرار حرمان جديد ضد الإمبراطور فريدريك الثاني في عام 1239 وكان ذلك رداً على الحملة العسكرية التي قام بها الإمبراطور على المدن اللومباردية واحتل عدداً كبيراً منها. ازدادت الأمور سوءاً بين البابوية والإمبراطورية في عام 1241 عندما احتلت القوات الإمبراطورية عدداً من المدن الخاضعة لسيطرة البابا في وسط إيطاليا، ولم ينقذ البابا إلا مساندة أهالي روما له، هذا واستمر الصدام بين البابوية والإمبراطورية حتى وفاة الإمبراطور فريدريك الثاني في عام 1250م². و ترك فريدريك الثاني وراءه اسماً لايزال المؤرخون يختلفون في تقديره بين العظمة و العبقريّة و الإلحاد.

1 - Keller: Zwischen regionaler Begrenzung, S. 476f.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 139.

انتهاء فترة حكم أسرة الهوهنشتاوفن للإمبراطورية الرومانية المقدسة

لقد دفع أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن ثمناً باهظاً في ألمانيا نتيجة انشغالهم الدائم بسياساتهم و أحلامهم الإمبراطورية و الإيطالية. فعلى سبيل المثال فإن فريدريك الثاني و خلال 28 عاماً من حكمه لم يقض إلا 12 عاماً في ألمانيا وباقي سنوات حكمه قضاهها منشغلاً بالشؤون الإيطالية¹.

و إذا كان قد سبق اعتلاء فريدريك الثاني العرش عشرون عاماً من الاضطرابات فقد لحقه أيضاً أكثر من ثلاثين عاماً من الفوضى و الاضطرابات و سميت هذه الفترة بفترة الشغور في التاريخ الألماني، غادرت خلالها السلطة الفعلية إلى الأمراء الألمان الذين انتخبوا عليهم ملكاً من أسرة هابسبورغ الألمانية في عام 1273 وهو رودولف هابسبورغ كونت هابسبورغ، الذي طمح للحصول على التاج الإمبراطوري و تفاوض مع البابوية فطلبت منه الخضوع التام لها و التنازل عن حقوق ألمانيا في إيطاليا الجنوبية و صقلية، وعد رودولف البابوية بذلك في عام 1279 آملاً الحصول على اللقب الإمبراطوري لكنه لم يحقق هذا الحلم. لكن أهم أعمال رودولف كانت إعادة تنظيم ألمانيا وبسط الأمن و الاستقرار داخل مملكته، هذا و ظلت أسرة هابسبورغ العريقة تحكم ألمانيا حتى الحرب العالمية الأولى².

هذا ولم تمنع الاضطرابات في ألمانيا حصول تطور حضاري مهم في مدنها بل سارت المدن الألمانية خطوات مهمة على طريق الانتعاش الاقتصادي و الاستقلال السياسي. وهذا ما دفع المدن الألمانية إلى الشعور بالحاجة لترباط أو تحالف لحماية حريتها و استقلالها، وكانت النتيجة تأسيس ما يعرف بعصبة الراين

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج2، ص 121.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 211.

في عام 1254، التي تشكلت من عدة مدن ألمانية أهمها ماينز و فورمز و بازل و ستراسبورغ. كما أن التحالف بين مدينتي هامبورغ و ليوبك وضع حجر الأساس لنشوء مايعرف بالعصبة الهانزية فيما بعد¹.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد أودولف 1292 - 1298

كان الإمبراطور رودولف هابسبورغ قد توفي في عام 1291 وبعد ذلك اجتمع الأمراء الناخبون الألمان في عام 1292 و انتخبوا دوق ناسو أودولف ملكاً عليهم. و فضل الأمراء الناخبون اختيار دوق ضعيف ليصبح ملكاً عليهم على أن يختاروا شخصاً قوياً يحد من نفوذهم مثل ألبرت هابسبورغ². هذا و كان على الملك الجديد أن يوقع على وثيقة تضمن الحفاظ على امتيازات الأمراء و الإقطاعيين الألمان مقابل انتخابه ملكاً عليهم³.

أراد أودولف أن يستغل فرصة الحرب الدائرة بين إنكلترا و فرنسا، فأعلن الحرب على فرنسا، و ذلك لأجل الاستيلاء على مملكة برجنديا و ضمها إلى المملكة الألمانية، حيث كانت هذه المملكة تابعة اسمياً إلى ألمانيا لكنها عملياً وقعت تحت السيطرة الفرنسية في عهد الملك فيليب الرابع 1285 - 1314. لكن أودولف فشل في حربه ضد فرنسا ولم يجن سوى الخيبة و زيادة الأوضاع سوءاً في مملكته الألمانية و اضطر إلى توقيع الصلح مع فرنسا دون أن يستطيع تحقيق أي

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 140.

2 - Dirlmeier, Ulf: Europa im Spätmittelalter 1215 - 1378. 2. Aufl., oldenbourger Grundriß der Geschichte, Bd. 8, München 2009, S. 102.

3 - Menzel, Michael: Gebhardt der Deutschen Geschichte, Die Zeit der Entwürfe 1273 - 1347, Bd. 7a, klett cotta, 2001, S. 112.

مكسب¹. و نتيجة لفشل سياسة الملك أودولف الخارجية و خصوصاً في الحرب التي خاضها مع فرنسا و أيضاً لتأمر عدد مهم من كبار الإقطاعيين من سياسته الداخلية، اجتمع غالبية الأمراء الناخبين في ألمانيا و قرروا عزله عن عرشه و انتخاب ألبرت، دوق النمسا، و هو من أسرة الهابسبورغ ملكاً جديداً عليهم. هذا وكان للسلاح القول الفصل بين الملكين فنشبت معركة بين الملك أودولف و الملك الجديد ألبرت في 2 تموز 1298 و انتهت هذه المعركة بخسارة أودولف لحياته و لتاجه الملكي².

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد ألبرت الأول هابسبورغ

1298_1308

بعد النهاية المأساوية لحياة الملك أودولف، و استتباب الأوضاع في ألمانيا لصالح الملك ألبرت من أسرة هابسبورغ، أصر ألبرت على إعادة انتخابه ملكاً وحيداً هذه المرة على ألمانيا و وفقاً للبروتوكولات و التقاليد المتبعة في التتويج، فاجتمع الأمراء الناخبون الألمان مرة جديدة في مدينة آخن الألمانية و توج ألبرت ملكاً وحيداً على ألمانيا من قبل أسقف كولن في 24 آب 1298³.

هذا و عدّ المؤرخون الألمان الملك ألبرت الأول هابسبورغ، ملك الأمراء الأول في التاريخ الوسيط المتأخر و ذلك نتيجة لطريقة انتخابه و وصوله إلى الحكم. كما أن بابا روما بونيفاس الثامن (1294 - 1303) عدّ ألبرت هابسبورغ

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 141.

2 - Moraw, Peter: von offener Verfassung zu gestalterter Verdichtung, das Reich im späten Mittelalter 1250 bis 1490, Berlin 1985, S. 224.

3 - Menzel: Die Zeit der Entwürfe, S. 121.

مغتصباً للعرش الألماني و ثائراً مجرمأ و رفض الاعتراف به كملك. بالإضافة إلى ذلك فإن وحدة الحال بين الملك و الأمراء الناخبين لم تبق على حالها و بدأت المشاحنات و النزاعات بين الطرفين، و هذا مادفع الأمراء الناخبين في عام 1300 إلى التفكير بخلع الملك ألبرت من منصبه الملكي، لكن ألبرت لم يكن كأودولف و استطاع خلال عامين أي في 1302 إعادة الأمور لصالحه و تسوية الأوضاع مع القسم الأكبر من الأمراء الناخبين¹. طمح ألبرت أن يتوج نفسه إمبراطوراً في روما على الرغم من عداة البابا بونيفاس الثامن الشديد له، لذلك عمد ألبرت هابسبورغ إلى عقد تحالف مع الملك الفرنسي فيليب الرابع و كان قصده من هذا التحالف الموجه ضد البابوية الضغط على البابا بونيفاس لتتويجه إمبراطوراً، و لأجل إتمام هذا التحالف مع الملك الفرنسي دفع ألبرت ثمناً باهظاً لفيليب الرابع، و هو تنازله عن حق ألمانيا في مقاطعة برجنديا الألمانية و تسليمها للملك الفرنسي، و هذا ما كان قد استفز الأمراء الناخبين الألمان و ألهمهم على الملك ألبرت. وبعد ذلك حاول الملك ألبرت جاهداً و مستخدماً الطرق الدبلوماسية أيضاً لإقناع البابا بتتويجه إمبراطوراً و هذا ما وافق البابا عليه أخيراً شرط تخلي ألبرت عن تحالفه مع الملك الفرنسي فيليب الرابع، و لكن موت البابا بونيفاس الثامن في 11 تشرين الأول 1303 حرم الملك ألبرت من تحقيق حلمه في الحصول على التاج الإمبراطوري من قبل البابا. و بعد ذلك لم يحاول ألبرت بشكل جدي العمل على تتويج نفسه إمبراطوراً في روما².

تركزت سياسة ألبرت الداخلية على دعم المدن و مناصرتها ضد سلطة الأمراء و كبار الإقطاعيين، حتى إنه أصدر مرسوماً ألغى بموجبه عدداً من

1 – Moraw: Von Offener Verfassung, S. 224f.

2 – Menzel: Die Zeit der Entwürfe, S. 124 – 130.

الرسوم و الضرائب التي فرضت على المدن بعد عام 1250 و سمح للمدن بمنح امتيازاتها و حقوقها للتجمعات المستوطنة خارج أسورها. هذا و لم تكن نهاية حكم ألبرت أفضل من نهاية سلفه أودولف فقد اغتيل من قبل ابن أخيه يوحنا في أيار 1308، و غالباً كان سبب اغتياله يتعلق بخلافات حول الأملاك الوراثية لأسرة الهابسبورغ. و هكذا تكون انتهت حياة هذا الملك الذي عرف بحزمه و مهارته و قدرته الحربية الفائقة¹.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الإمبراطور هنري السابع لكسمبورغ 1308-1313

بعد وفاة الملك ألبرت في عام 1308 دخل الملك الفرنسي فيليب الرابع على خط اختيار مرشح ليشغل العرش الألماني، و حاول الملك فيليب الرابع جاهداً فرض أخيه كارل على الأمراء الناخبين في ألمانيا ليختاروه ملكاً عليهم، إلا أن محاولاته قد فشلت و وقع اختيار الأمراء الناخبين على كونت لكسمبورغ هنري السابع و انتخبوه ملكاً على ألمانيا في 27 تشرين الثاني 1308م². هذا و يوصف الملك هنري السابع في المصادر بالفارس الشجاع و الحاكم الملهم و الذكي، وكانت أهم أهدافه توحيد قوته مع قوى الأمراء الألمان لإعلاء شأن المملكة الألمانية مجدداً و إعادتها إلى سابق عهدها من القوة و العظمة، و عدّ نفسه كحاكم لألمانيا، حاكماً للإمبراطورية الرومانية المقدسة أيضاً، و تترتب عليه واجبات ضمان السلم و الأمن في العالم المسيحي اللاتيني و جعل مملكته هي الأقوى في هذا العالم المسيحي³. و على الرغم من فترة حكم هنري السابع القصيرة

1 - Dirlmeier: Europa im Spätmittelalter, S. 103.

2 - Moraw: Von offener Verfassung, S. 226.

3 - Menzel: Die Zeit der Entwürfe, s.141.

و التي لا تتعدى السنوات الخمس فقد استطاع تحقيق إنجازين مهمين جداً وهما استطاعته ضم بوهيميا لأملاك أسرته و استطاعته الحصول على التاج الإمبراطوري و نتيجته إمبراطوراً من قبل البابا، أما بشأن بوهيميا فقد استطاع الحصول عليها عن طريق الزواج السياسي، حيث زوّج ولده يوحنا من إليزابيت ابنة ملك بوهيميا في عام 1311 و توج يوحنا ملكاً على بوهيميا في العام نفسه¹.

تتويج هنري السابع إمبراطوراً

بعد أن رتب هنري السابع الأوضاع الداخلية في ألمانيا أصبح بإمكانه تفرغ نفسه للحصول على اللقب الإمبراطوري و كان ذلك بمساعدة الأمراء الألمان الناكبين الذين توسطوا لهنري السابع عند البابا كليمنت الخامس (1305-1314)، هذا و استجاب البابا كليمنت لرغبة الأمراء الألمان و اعترف بهنري السابع ملكاً على ألمانيا في تموز 1309 و وعده بنتيجته إمبراطوراً في المستقبل القريب، و كان موقف البابا الإيجابي هذا بسبب رغبة كليمنت الخامس في كسب ألمانيا و أمرائها إلى جانبه ضد فرنسا و عقد تحالف مع ألمانيا ضد فرنسا. غادر هنري السابع ألمانيا في تشرين الأول 1310 متجهاً إلى روما. وصل هنري السابع إلى ميلانو في 23 كانون الأول 1310 و توج فيها في 6 كانون الثاني 1311 ملكاً على لومبارديا، لكن طريق هنري السابع من ميلانو إلى روما كانت مليئة بالمتاعب و المشاكل و اضطر لخوض عدة حروب، و لم يستطع الوصول إلى روما إلا في أيار من عام 1312. وحقق هنري حلمه و توج إمبراطوراً من قبل البابا في 29 حزيران 1312م². لم يمهل القدر الوقت الكافي للإمبراطور للعودة إلى مملكته الألمانية حيث توفي على الأراضي الإيطالية في 24 آب 1313 عن

1 - Dirlmeier: Europa im Spätmittelalter, S. 103.

2 - Menzel: Die Zeit der Entwürfe, S. 145 - 151.

عمر يناهز 40 عاماً بعد أن أصيب بحمة قاتلة، و دفن الإمبراطور في مدينة بيزا وبعد ذلك انحل جيش الإمبراطور هنري السابع و حاول العودة إلى ألمانيا بأي طريقة¹.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد لويس الرابع 1314-1347 و
فريدريك الجميل 1314 - 1330

انتخاب ملكين في وقت واحد

ساد الاضطراب في صفوف الجيش و في الإمبراطورية بعد الموت المفاجئ للإمبراطور هنري السابع في آب 1313، و كان على الجيش عبور جبال الألب و العودة إلى المملكة الألمانية، و كان على أمراء المملكة انتخاب ملك جديد عليهم. و كان على الأمراء أن يقرروا، أما أن ينتخبوا ملكاً قوياً يستطيع أن يحافظ على قوة المملكة و يرفع شأنها أو يختاروا ملكاً ضعيفاً لا يطمح أو لا يستطيع تقوية نفوذ عائلته على حساب نفوذ الأمراء. و استمرت المناقشات لوقت طويل بين الأمراء الناخبين حول انتخاب ملك، و لم تغب هنا أيضاً محاولات الملك الفرنسي فيليب الرابع لفرض سيطرته على العرش الألماني، فقد سعى لانتخاب ابنه فيليب الخامس ملكاً جديداً لألمانيا و هذه المرة بمساعدة البابا كليمنت، لكن و كما قبل خمس سنوات باءت محاولات فيليب الرابع بالفشل الذريع. وكان في البداية يوجد مرشحان فقط أمام الأمراء الناخبين فإما أن يختاروا ابن الإمبراطور المتوفي هنري السابع، يوحنا، وكان قد أصبح ملك بوهيميا منذ عام 1311 أو يختاروا فريدريك الجميل ابن الملك ألبرت الأول من أسرة الهابسبورغ، فإذا أما أن يختاروا شخصاً من لكسمبرغ أو من الهابسبورغ.

1 - Moraw: von offener Verfassung, S. 228.

هذا و تضاءلت فرص يوحنا لأنه في نفس الوقت ملك لبوهيميا، و ظهر مع الوقت مرشح آخر و هو لويس البافاري من أسرة فيتلسباخ¹. وبعد عام كامل من المشاورات كانت النتيجة السيئة بانتخاب ملكين؛ حيث قام قسم من الأمراء الناخبين بانتخاب فريدرىك الجميل دوق النمسا و ابن الملك الألماني السابق ألبرت هابسبورغ، و قسم آخر من الأمراء الناخبين انتخب لويس الرابع و كان ذلك في أيلول 1314. وكانت النتيجة الطبيعية لانتخاب ملكين في الوقت نفسه هي اندلاع الحرب بين هذين الملكين، و استمرت هذه الحرب لمدة ثمان سنوات حيث استطاع الملك لويس أن يحسم الصراع العسكري لصالحه في عام 1322م². وكان ذلك إثر معركة مولدورف Mühldorf حيث وقع فريدرىك أسيراً بيد لويس الرابع.

بقي الملك فريدرىك الجميل أسيراً لدى الملك لويس الرابع حتى عام 1325 حيث وقع الملكان اتفاقية ميونخ كان أهم بنودها إطلاق سراح الملك فريدرىك و تعهد الملكين بالحفاظ على الأمن و السلام في ألمانيا و تعهد الملك لويس الرابع بقبول فريدرىك الجميل ملكاً معه في نفس الوقت على ألمانيا³.

تتويج لويس إمبراطوراً

قرر الملك لويس الرابع في عام 1327 الحصول على التاج الإمبراطوري و لأجل ذلك غادر من مدينة نورنبرغ الألمانية باتجاه إيطاليا و دخل ميلانو في آذار 1327 و حصل على تاج لومبارديا و أصبح ملكاً على لومبارديا، و بعد ذلك فشل في إقناع البابا يوحنا الثاني و العشرين بأن يتوجه إمبراطوراً في روما، وعلى

1 – Menzel: Die Zeit der Entwürfe, S. 153 – 157.

2 – Dirlmeier: Europa im Spätmittelalter, S. 104.

3 – Menzel: die Zeit der Entwürfe, S. 159ff.

الرغم من ذلك دخل الملك لويس روما في 7 كانون الثاني 1328 بعد أن استطاعت القوات الموالية له طرد قوات البابا يوحنا الثاني والعشرين من مدينة روما. و أعلن لويس الرابع أن البابا مهمته فقط أن يضع التاج الإمبراطوري على رأس الإمبراطور وهو لا يملك حق منح هذا التاج أو اللقب و أن السلطة الإمبراطورية مستمدة من الله مباشرة ولا حاجة لوساطة البابا في هذا المجال، و هذا يعني أنه لا يوجد ما يمنع التتويج دون وجود البابا، و لذلك جرت مراسم تتويج لويس الرابع كإمبراطور في كنيسة القديس بطرس في 17 كانون الثاني 1328 دون وجود البابا يوحنا الثاني والعشرون و دون مشاركته في أي من المراسم. و هذا ما عدّ سابقة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة. هذا و أيد الأمراء الناكبون الألمان الملك لويس الرابع في طريقة التتويج الإمبراطوري هذه و إغفال دور بابا الفاتيكان. لم يقف الإمبراطور لويس الرابع عند هذا الحد، بل قام بخلع البابا يوحنا الثاني والعشرين من منصب البابوية في 18 نيسان 1328 و أعلن ذلك أمام كنيسة القديس بطرس في روما. وبعد شهر من عزل يوحنا الثاني والعشرين، انتخب بابا جديد بدعم من الإمبراطور و هو البابا نيكولاوس الخامس (1328-1330). لكن البابا نيكولاوس الخامس استقال من منصبه في عام 1330 و وضع نفسه تحت رحمة البابا يوحنا الثاني والعشرين الذي عفى عنه¹.

قبل ذلك كان الإمبراطور لويس الرابع قد أقفل عائداً إلى مملكته الألمانية التي وصلها في شباط 1330 و أثناء طريق العودة إلى ألمانيا وصل إلى لويس خبر مهم من شأنه تثبيت الاستقرار في داخل مملكته و هو وفاة فريدريك الجميل في 13 كانون الثاني 1330م².

1 – Menzel: die Zeit der Entwürfe, S. 164-175.

2 – Moraw: von offener Verfassung, S. 233.

هذا و استغل لويس الرابع حصوله على اللقب الإمبراطوري و عدّ نفسه أنه أقوى ملوك أوروبا و أن سلطانه كقيصر يفوقهم جميعاً. و هذا ما دفعه للتدخل في شؤون الممالك الأخرى ففي البداية عقد تحالفاً مع إنكلترا ضد فرنسا في عام 1337 و بعد ذلك غير هذا التحالف و تحالف مع فرنسا في عام 1341. كما عمل الإمبراطور على تقوية نفوذ عائلته داخل ألمانيا عن طريق الزواج السياسي. و استمر الإمبراطور لويس الرابع في حكم إمبراطوريته حتى عام 1347 حيث توفي بعد أن تعرض لحادث سقوط عن الخيل أثناء الصيد في 11 تشرين الأول 1347 و توفي على إثر ذلك الحادث¹.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهد الإمبراطور شارل الرابع لكسمبرغ

1346-1378

توترت العلاقات في أواخر عهد الإمبراطور لويس الرابع بينه و بين الأمراء الناخبين نتيجة لتوجس الأمراء الناخبين من ازدياد نفوذ أسرة لويس الرابع و

محاولة لويس الرابع فرض نفوذه على الأمراء وكبار الإقطاعيين و هذا ما دفع خمسة من الأمراء الناخبين الألمان (أدواق ماينز و كولن و ترير و بوهيميا و ساكسونيا) إلى انتخاب شارل الرابع لكسمبرغ ملكاً منافساً للإمبراطور و الملك لويس الرابع في 11 تموز 1346، هذا وقد جنب موت الإمبراطور لويس الرابع في تشرين الأول 1347 ألمانيا حرباً ضروساً بين الملكين². أصبح الملك شارل الرابع بعد وفاة الإمبراطور و الملك لويس الرابع في 1347 ملكاً وحيداً على ألمانيا. وعلى عكس علاقة الإمبراطور لويس الرابع مع البابوية فقد كانت علاقة

1 - Manzel: die Zeit der Entwürfe, S. 183-190.

2 - Elze: Eine europäische Weltgeschichte, Bd. 1, S. 548.

شارل الرابع جيدة مع البابا كليمنت السادس (1342-1352) حتى إن البابا كان من الذين ساعدوا شارل الرابع على اعتلائه العرش الألماني. ولم ينقص الملك شارل الطموح و الرغبة في الحصول على اللقب الإمبراطوري، فغادر إلى إيطاليا و توجه البابا إمبراطوراً في روما في 5 نيسان 1355 و هذا ما قوى نفوذ الإمبراطور الجديد في ألمانيا و أوروبا كافة¹. لم تطل إقامة الإمبراطور الجديد طويلاً في إيطاليا و عاد في تموز 1355 إلى مملكته الألمانية ليقوم بالتحضير لإنجاز من أهم الإنجازات في عهده بل وفي عهد الأباطرة، لم يكن هذا الإنجاز عسكرياً أو سياسياً هذه المرة بل كان إنجازاً تشريعياً حيث أعد و أصدر ما يعرف بالمرسوم الذهبي Golden Bulle في عام 1356م². هذا المرسوم الذي أعلن في مجلس الإمبراطورية في نورنبرغ في 10 كانون الثاني 1356 و ميتر في 25 تموز 1356، و هو عبارة عن وثيقة على شكل كتاب صغير، و عرف بالمرسوم الذهبي بعد ذلك لأنه ختم بختم من ذهب³. و أهم قاعدة يتضمنها هذا المرسوم هو تحديد عدد الأمراء الناخبين الذين ينتخبون الملك و الإمبراطور الألماني بسبعة أمراء ناخبين هم: رؤساء أساقفة ماينز و كولن و ترير و ملك بوهيميا و دوق بافاريا و دوق ساكسونيا و أمير براندنبورغ أي بثلاثة أمراء ناخبين بمناصب دينية و أربعة بمناصب دنيوية، و سمي هؤلاء الناخبون في التاريخ الألماني بأعمدة الإمبراطورية التي تحمل و تحمي بناء الإمبراطورية من أي خلل⁴. كما نص

1 - Moraw: von offener Verfassung, S. 241-247.

2 - Zeumer, Karl: die Goldene Bulle Kaiser Karls IV., Weimer, 1908, S. 110ff.

3 - Moraw: Von offener Verfassung, S. 247.

4 - Gotthard, Axel: Das Alte Reich, 1495 - 1806, 2. Aufl., WBG, 2005, S. 13f.

المرسوم على تنظيم وراثة الإقطاع، حيث نص على أن تنتقل امتيازات الأمير و أملاكه إلى ابنه الأكبر بالوراثة دون أن يقاسمه أو ينازعه الأبناء الآخرون أو غيرهم من الورثة، وذلك حفاظاً على كيان الإقطاعات و الإمارات الكبرى من التفتت و منعاً لتشرذم المملكة¹. و سيلعب هذا القرار دوراً مهماً في مستقبل العلاقات الاجتماعية، هذا و توجه عدد من أبناء الأمراء و الإقطاعيين ممن تأثروا سلباً بهذا المرسوم إلى البحث عن أملاك و أراضٍ يمكن السيطرة عليها خارج أوروبا. و هكذا فقد شكل المرسوم الذهبي إطاراً إقطاعياً حدد الحياة السياسية لألمانيا في العصور الوسطى المتأخرة و جعل الأمراء و كبار الإقطاعيين القوة الفاعلة في الإمبراطورية حيث وجب على كل إمبراطور جديد و قبل انتخابه أن يوقع على وثيقة تضمن الحفاظ على حقوق و امتيازات الأمراء الناجبين، وقد بقيت المواد التي نص عليها المرسوم الذهبي معمولاً بها حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد نابليون بونابرت في عام 1806م². هذا ولم يتضمن المرسوم الذهبي أي إشارة إلى حق البابوية المصادقة على نتيجة انتخاب الإمبراطور، و هذا يعني أن انتخاب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصبح مسألة داخلية بحتة و خاصة بشعب هذه الإمبراطورية، فلا يحق للبابوية في روما أو غيرها التدخل فيها. وهكذا كسر القيد الأخير الذي كان يكبل الإمبراطورية ويلزمها بكلمة البابوية³.

هذا و عمل الإمبراطور شارل الرابع على تنفيذ خطته بهدوء و كان قد تعلم من أخطاء الأباطرة الذين سبقوه حيث لم يشغل نفسه بالتفاصيل الداخلية للمشاكل

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 143.

2 - Gotthard: das alte Reich, S. 14f.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 143.

في إيطاليا و هذا ما ظهر واضحاً خلال زيارته الثانية لإيطاليا 1368، 1369 حيث لم يقدم مساعدة عسكرية للبابوية في روما أو لأي طرف آخر¹. و حدث في أواخر عهد الإمبراطور شارل الرابع حدث جلل سيؤثر على العالم المسيحي لفترة طويلة بعد ذلك. فبعد وفاة البابا غريغوري الحادي عشر في 28 آذار 1378 تم انتخاب بابوين في نفس الوقت، حيث إنتخب في البداية البابا أوربان السادس في 8 نيسان 1378، إلا أن الكرادلة الفرنسيين لم يعترفوا بهذا الانتخاب و انتخبوا بابا جديداً وهو كليمنت السابع، الذي اتخذ من مدينة أفينيون مقراً له بينما بقي البابا أوربان السادس في الفاتيكان في روما، و بقي السؤال الصعب، من هو البابا الشرعي، دون جواب و هذا ما أدى إلى حدوث انقسام كبير في الكنيسة اللاتينية، و في ذروة هذا الانقسام توفي الإمبراطور شارل الرابع العجوز في 29 تشرين الثاني 1378م².

اعتلى ونسلاس ابن الإمبراطور شارل الرابع العرش الألماني بعد وفاة والده في عام 1378 و عزل ونسلاس عن العرش في عام 1400 بسبب إفراطه في اللهو و المجون، فأعقب ذلك فترة من الصراع و الاقتتال حول شغل العرش الألماني استمرت لعشر سنوات و انتهت هذه الأزمة بتولية سيغسموند (1437 - 1441)، وهو ثاني أبناء الإمبراطور شارل الرابع، على العرش الألماني. توفي سيغسموند دون أن يكون له ولد يرثه على العرش الألماني فاعتلى العرش الألماني بعده ألبرت الثاني من أسرة هابسبورغ، الذي مات بعد عام من توليه العرش³.

1 - Dirlmeier: Europa im Spätmittelalter, S. 106f.

2 - Moraw: Von offener Verfassung, S. 256.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 143 - 144.

توفي الملك ألبرت الثاني في 27 تشرين الأول 1439 في طريق العودة من الحرب مع العثمانيين و خلفه ولده فريدريك الثالث على العرش الألماني و كانت أهم أعمال فريدريك على المستوى السياسي هو تزويج ولده ماكسيميليان الأول لابنة دوق برجنديا، كارل الحكيم، الذي كان له نفوذ كبير في أوروبا وكانت مملكته تتمتع بدخل مالي ممتاز، وتم هذا الزواج في عام 1477 و بذلك ضمنت أسرة هابسبورغ الحصول على المساعدات المالية من برجنديا و كذلك ضم هذه المملكة إلى أملاكهم عن طريق الوراثة¹. هذا و تعرض فريدريك الثالث لنكسة كبيرة في عام 1485 عندما قام الملك الهنغاري ماتياس كورفينوس (1458 - 1490) باحتلال فيينا، مكان إقامة الإمبراطور فريدريك، الذي اضطر إلى الهروب إلى تيرول و هذا ما دفع الإمبراطور إلى استدعاء ابنه من برجنديا إلى فرانكفورت لمساعدته في طرد الهنغاريين من أراضي الإمبراطورية، و كان الإمبراطور قد نجح في إقناع الأمراء الألمان الناخبين في انتخاب ولده ماكسيميليان (ملكاً رومانياً) مساعداً له في عام 1486 لكي يضمن استمرار عائلته على العرش الإمبراطوري². لكن ماكسيميليان لم يستطع مساعدة والده في البداية بسبب حروبه مع فرنسا من أجل برجنديا لذلك عاد إلى برجنديا. وهكذا بقيت فيينا بقبضة الملك الهنغاري ماتياس و مركزاً لحكمه حتى عام 1490 دون أن يستطيع الإمبراطور فريدريك

1 - Wiesflecker, Hermann: Maximilian I. die Fundamente des Habsburgischen Weltreich, Wien 1991, S. 44f.

2 - Kohler, Alfred: Kaiser Maximilian I. und das Kaisertum, in: Georg Schmidt-von Rhein (H.g): Kaiser Maximilian I. Bewahrer und Reformier, Ramstein, 2002, S. 83-90, S. 83.

الثالث تحريرها. ففي عام 1490 عاد ماكسيميليان ابن الإمبراطور من برجنديا و قاد قواته باتجاه فيينا معلناً الحرب على هنغاريا و استطاع تحرير الأراضي الألمانية من الاحتلال الهنغاري في آب 1490م¹. توفي الإمبراطور فريديريك الثالث في 19 آب 1493 عن عمر 78 عاماً في مدينة لينز، وكان قد استمر في الحكم مدة 53 عاماً، وهي أطول فترة حكم لإمبراطور من الأباطرة الذين قبله و الذين بعده². وفي هذه الأثناء كانت الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية المقدسة تتعرض لتهديدات العثمانيين الذين كانوا قد أبادوا الجيش الكرواتي في عام 1493 و يشنون هجوماً على هنغاريا. و هذا ما شكل تحدياً كبيراً و عبئاً ثقيلاً على ماكسيميليان الأول الذي خلف والده على العرش الإمبراطوري³.

اتصف تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة في القرن الخامس عشر بشكل عام بتدهور السلطة الإمبراطورية و انحطاطها بشكل مثير للجدل، حيث لم تعد الحكومة الإمبراطورية بزعامة الإمبراطور تستطيع القيام بأبسط مهماتها و واجباتها الإدارية من جمع الضرائب و حفظ السلم و الاستقرار. أما رأس الهرم الإداري وهو الإمبراطور فقد أصبح نفوذه وسلطته شكلية وأصبح نفوذه أضعف من نفوذ الأمراء الناجبين الذين كانت بيدهم القوة الحقيقية.

إن ضعف سلطة الإمبراطور وازدياد قوة الأمراء وكبار الإقطاعيين أدى إلى نشوء عدد كبير من الإمارات الإقطاعية المستقلة داخل ألمانيا، لا همّ لحكامها

1 - Hollegger, Manfred: Maximilian I.(1459-1519), Herrscher und Mensch einer Zeitwende, Stuttgart 2005, S. 71ff.

2 - Grill, Heinz: Maximilian I. Und seine Zeit, Innsbruck u.a., 1977, S. 43.

3 - Wiesflecker: Fundamente des habsburgischen Weltreich, S. 43.

وأمرائها سوى خوض الحروب لتحقيق مصالحهم الشخصية كما قام بعضهم بالإغارة على المناطق المجاورة وسلب التجار والمنافسين، حتى إنه أطلق نعت (الفرسان اللصوص) على أمراء ألمانيا في ذلك العصر. أما المدن الألمانية فقد سارت في نهج التحرر من سيطرة الإقطاع لكي تقوي نفوذها وتحافظ على مكتسباتها. و لكي تحافظ كل مدينة على امتيازاتها وحقوقها قامت بإعداد الجيوش الخاصة بها من أبنائها، وهذا ما أدى إلى نمو روح "الوطنية" المحلية في كل مدينة، حتى أصبح سكان المدن يهتمون بشؤون مدينتهم أكثر من انشغالهم بأمور الإمبراطورية الألمانية بشكل عام. وهكذا أصبح تاريخ ألمانيا في الفترة الأخيرة من العصور الوسطى سلسلة من الصراعات والحروب بين الأمراء وكبار الإقطاعيين، وهذا ما منع بسط الاستقرار والأمان في البلاد الألمانية، لأن كبار الأساقفة من جهة وكبار الأمراء والإقطاعيين من جهة ثانية والمدن من جهة ثالثة توحدوا على التمسك بنفوذهم وسلطتهم وعدم التنازل عن أي مكتسب أو نفوذ في سبيل قيام سلطة مركزية قوية بيد الإمبراطور¹.

نشأة سويسرا:

شكل بناء ممر كوتهارد Gotthard Pass البري في عام 1200 نقطة تحول مهمة في تاريخ المناطق السويسرية الداخلية، لأن موقع هذا الممر الاستراتيجي الذي يربط وبشكل مباشر بين مدن إيطاليا العليا (الشمالية) وأهمها ميلانو وبين مناطق ومدن جنوب ألمانيا وصولاً إلى نهر الراين، جعله يشكل أهم عقدة مواصلات للطرق التجارية بين إيطاليا وألمانيا وأقاليم الراين وهذا ما أعطى أهمية كبرى للمدن وللقوى المسيطرة على هذا الممر². ونتيجة لمحاولة الأباطرة

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 144.

2 - Dirlmeier: Europa im Spätmittelalter, S. 109.

الألمان الاستثناء بهذا الممر المهم عملت المدن المشرفة عليه إلى التخلص من التبعية للإمبراطورية الألمانية، وكانت أول وثيقة تؤكد أن تحالفاً قد عقد لأجل هذا الهدف بين مدن أوري Ueri، وشفايز Schwyz و نيدفالدن Nidwalden السويسرية قد ظهرت بعد حوالي الأسبوعين من وفاة الملك الألماني رودولف الأول في عام 1291. وكانت هذه المدن هي النواة الأولى لما يعرف بسويسرا حالياً و انضم إليها لاحقاً عددٌ من المقاطعات الأخرى على التوالي وهي لوتسيرن Luzern في عام 1332 و زيورخ Zuerich في عام 1351 و بيرن Bern في عام 1353 وعدد آخر من المدن. وهكذا يمكن القول إن سويسرا نشأت في منتصف القرن الرابع عشر من تحالف هذه المدن وكان هدفها الأساسي الاستقلال عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة بزعامة أباطرتها من آل هابسبورغ، ولأجل هذا الاستقلال كانت سويسرا قد خاضت معركتين فاصلتين ضد القوات الإمبراطورية وهما معركة مورغارتن Morgarten في عام 1315 وكان النصر حليفاً للسويسريين، الذين هزموا قوات آل هابسبورغ، والمعركة الثانية كانت معركة زيمباخ Sempach الحاسمة في 9 تموز 1386 التي شكلت ضربة موجعة لأسرة هابسبورغ، حيث خسرت العائلة الإمبراطورية على أثرها ما تبقى لها من نفوذ في مدينة بازل Basel السويسرية¹.

نشأة الأراضي المنخفضة:

كما هي حال سويسرا فقد تفرعت الأراضي المنخفضة (هولندا) عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة في نهاية العصور الوسطى. وبعد تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بعد شارلمان الكبير قسمت الأراضي المنخفضة إلى

1 - Moraw: von offener Verfassung, S. 218 - 222.

مقاطعتين، مقاطعة فلاندرز التابعة إقطاعياً لفرنسا، ومقاطعة اللورين الأدنى التي ألحقت بألمانيا. وفي القرن الرابع عشر تمكن فيليب الجسور (1342-1404)، أحد أمراء برجنديا أن يؤسس مملكة خاصة به في الأراضي المنخفضة وخلفه في حكم هذه المملكة ابنه يوحنا الشجاع (1404-1419). هذا واتحدت كل من برجنديا و فلاندرز و برابانت في عهد فيليب الطيب (1419-1467) ابن يوحنا الشجاع في عام 1420 وبذلك تكون قد نشأت ما تعرف اليوم بالأراضي المنخفضة (هولندا) كوحدة سياسية. وفي عام 1451 ضمت لكسمبرغ إلى هولندا، وشيئاً فشيئاً بدأت الأراضي المنخفضة تتباعد عن التبعية لفرنسا وألمانيا و أصبح لها طابع حضاري محلي خاص بها نوعاً ما، وتطورت حتى أصبحت دولة رائدة في مختلف المجالات في العصور الحديثة¹.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 147.

الفصل السادس

فرنسا في عهد الأسرة الكابية

1 - انتقال الحكم من الأسرة الكارولنجية إلى الأسرة الكابية:

أدت الغزوات التي تعرضت لها أوروبا في القرنين التاسع و العاشر و ما ترتب عليها من تدهور السلطة الملكية، بالإضافة إلى الاقتتال و النزاعات بين الأمراء و الحكام، إلى حالة من الفوضى العارمة التي انتشرت في معظم بلاد أوروبا الغربية. هذا ما دفع صغار الملاك و الإقطاعيين إلى البحث عن قوة تؤمن لهم الحماية و تدفع عنهم الأخطار، وفي ظل عدم قدرة الملك و السلطة المركزية على تأمين هذه الحماية لهم، اتجه غالبية الناس و صغار الملاك إلى الارتباط و التبعية بمن هم أكثر منهم قوة و نفوذاً من كبار الأمراء و الإقطاعيين بموجب اتفاق ينظم الحقوق و الواجبات المتبادلة، وهذه الطريقة كانت الخيار الوحيد لحماية أنفسهم و ممتلكاتهم من التهديدات و الأخطار التي فتكت بالمجتمع الغربي. بمعنى آخر فإن هؤلاء المستضعفين قبلوا العيش في حال من الهوان و الذل مقابل تعهد كبار الأمراء و الإقطاعيين بحمايتهم و الدفاع عنهم، بينما لم تتجاوز سلطة الملوك العملية دائرة أملاكهم و أراضيهم الخاصة مثلهم في ذلك مثل أي أمير آخر من الأمراء الإقطاعيين. و ظلت فرنسا على هذا الحال الاجتماعي و السياسي طوال القرون العاشر و الحادي عشر و الثاني عشر، و هذا ما أدى إلى تثبيت النظام الإقطاعي لوجوده على حساب سلطة الدولة المركزية، و الحقيقة الواضحة التي ميزت تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي و وصول أسرة كابية إلى حكم فرنسا. و بدأ ذلك منذ عام 887 عندما عزل شارل السمين من

منصبه الملكي و انتخب أودو كونت باريس ملكاً في العام التالي، بعد ما أظهره من شجاعة فائقة في الدفاع عن باريس أثناء تعرضها لحصار الفيكنغ. لكن يبدو أن ذكرى شارلمان و عظمته دفعت المعاصرين إلى الإخلاص للبيت الكارولنجي و التثبيت بأسرته في الحكم¹. و هذا ما أدى إلى نشوب نزاع بين الأسرة الكارولنجية و الأسرة الكابية استمر قرناً من الزمن بهدف الاستئثار بحكم فرنسا، وكانت وفاة لويس الخامس 987 دون أن يكون له ولد يرثه في العرش الفرنسي فصل الختام بالنسبة للأسرة الكارولنجية. وبذلك يكون انتهى حكم الأسرة الكارولنجية لفرنسا إلى الأبد، الذي استمر لفترة قرنين من الزمن. ففي عام 987 توج هوغ غابية بن هوغ الأكبر ملكاً على فرنسا و بذلك يكون قد بدأ تاريخ حكم الأسرة الكابية في فرنسا (يعد هوغ كابية المؤسس الحقيقي للأسرة الكابية وهو ينتسب للبيت الروبيرتي نسبة إلى روبير الأول)².

إن وصول أسرة كابية إلى حكم فرنسا 987 لا يعني أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى. حيث لم يلبث ملوك أسرة كابية أن ورثوا كل حقوق الأسرة الكارولنجية و امتيازاتهم كما أصبحوا السادة على جميع الإقطاعيين و الأمراء، و هناك ثلاث خصائص ميزت وصول هوغ كابية للحكم: 1 - لقد توج ملكاً على مملكة الفرنجة الغربية (فرنسا) ليرث الملوك الكارولنجيين و يقوم بأداء دورهم 2 - جاء ممثلاً لكبار الإقطاعيين و الأمراء 3 - هوغ نفسه لا يعدو أن يكون أميراً إقطاعياً في إقطاعه أو في دوقيته. و إذا كان أحد أسباب سقوط الملكية الكارولنجية هو أنها لم تتمكن من مواكبة التطور الإقطاعي في حين أصبح لا يوجد مكان لسلطة لا تركز على دعائم و أسس إقطاعية، فإنه يمكن

1- عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 204 - 205.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 84.

القول بأن أسرة كابية، الأسرة الملكية الجديدة، استطاعت أن تنفذ نظام الملكية في فرنسا بتزويدها بأفكار و قواعد إقطاعية جديدة مكنتها من مسايرة التطورات الاجتماعية¹.

2 - فرنسا في عهد الملوك الأربعة الأوائل من الأسرة الكابية (هوغ كابية، روبير الثاني، هنري الأول، فيليب الأول) 987 - 1108:

كانت فرنسا عند اعتلاء العرش الفرنسي من قبل الأسرة الكابية مجزأة إلى دوقيات و إمارات إقطاعية كثيرة تحكم في كل منها أسرة إقطاعية معروفة و لها قوانينها و نظمها الخاصة بها، و أكثر من ذلك فقد كان ستة و خمسون من كبار الأمراء و الإقطاعيين يصكون النقود الخاصة بهم، عدا عن وجود العديد من اللهجات الأساسية في فرنسا، و أهم الإمارات و الدوقيات كانت: 1 - دوقية برجنديا في الشرق، 2 - إمارة فلاندرز في الشمال، 3 - دوقية بريتاني و دوقية نورمانديا في الغرب، 4 - دوقية أكيانيا و إمارة تولوز و إمارة برشلونة في الجنوب².

وعلى الرغم من كثرة الأبحاث التي كتبت عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كابية، إلا أن المعلومات الحقيقية عنهم تبقى ناقصة. وبشكل عام فإن الخصائص العامة التي تميز بها عصر هؤلاء الملوك الأربعة (987 - 1108) أظهرتهم في مظهر الضعف أمام كبار الأمراء و الإقطاعيين. و إن كان من المؤكد أن فرنسا بدأت في ذلك العصر بطور جديد من تاريخها، لكن إذا كان

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 207.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 84.

الكارولنجيين الأواخر يمثلون عصر انحطاط و اضمحلال فإن أسرة كابية تمثل عصر تقدم و بناء¹.

وأهم أعمال هوغ كابية (987 - 996) هي إدخاله طريقة جديدة على نظام وراثة العرش الفرنسي، حيث قام بتعيين ولده البكر روبير في حياته ملكاً مساعداً له ليخلفه في الحكم ملكاً وحيداً بعد مماته، و هذا يعني إلغاء فكرة الانتخاب من قبل الأمراء و كبار الإقطاعيين. وبذلك تكون قد ألغيت التقاليد القديمة المتوارثة، و التي تقضي بتقسيم حكم المملكة الفرنجية بين أبناء الملك المتوفي، و أصبح العرش الملكي الفرنسي ينتقل إلى الابن البكر حصراً. و استمر العمل بهذا المبدأ على مدى قرنين من الزمن وهذا ما جعل العرش الفرنسي ينتقل بانسيابية إلى ابنه روبير الثاني (996-1031) (والملقب بالتقي) و بعد روبير الثاني انتقل العرش إلى ولده البكر هنري الأول (1031 - 1060) ثم إلى ولد هنري الأول البكر فيليب الأول (1060 - 1108)².

ولم يكن باستطاعة هؤلاء الملوك و ملوك فرنسا بشكل عام التخلي عن فرض نفوذهم و سيطرتهم على رجال الكنيسة، لأنهم اعتمدوا إلى حد كبير على المساعدات التي منحهم إياها كبار الأساقفة و مقدمو الأديرة، ففي مدينة باريس و حولها وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة امتلكت ثروات ضخمة و دانت بالولاء للملكية. هذا وقدم رؤساء الأديرة و الأسقفيات مبالغ ضخمة للملوك الذين استغلوها في تنظيم قواهم و تدعيم قدراتهم. لكن و على الرغم من هذه المساعدات المهمة فإن ملوك آل كابية الأوائل لم يستطيعوا أن يصبحوا أنداداً لكبار الإقطاعيين و الأمراء

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 209.

2 - Ehlersrs, Joachim: Geschichte Frankreich im Mittelalter, Darmstadt 2009, S. 54, 73, 75, 77.

مثل كونت فلاندروز أو دوق برجنديا¹. و لكن بالمحصلة لم يكن لهؤلاء الملوك الأربعة من الأسرة الكابية نشاط سياسي يعت به و يلفت الأنظار، فقد قضوا سني حكمهم في محاولة إنقاذ ما تبقى لهم من سلطة و نفوذ في إماراتهم الإقطاعية الخاصة. و يمكن القول إن نزاعهم مع الأسرة النورماندية التي كانت تحكم إنكلترا هو أهم حدث سياسي في ذلك الوقت، ففي عام 1087 أعلن غليوم الفاتح ملك إنكلترا و نورمانديا الحرب على فرنسا و اجتاحت منطقة الفيكسان الفرنسية، و لكنه توفي في ذلك العام بسبب المرض، و في عام 1097 قام أيضاً الملك الإنكليزي غليوم الأشقر بحرب خاطفة على فرنسا و لكن لم تسفر هذه الحرب السريعة عن أي نتيجة مهمة².

و لقد كانت مشاركة أعداد كبيرة من الفرسان و الأمراء الإقطاعيين في فرنسا في الحملات الصليبية، من العوامل الأساسية التي ساعدت آل كابية الأوائل في تثبيت نفوذهم ونفوته، لأن هذا أدى إلى اتجاه هؤلاء الأمراء إلى الخوض في غمام الحروب الصليبية في الشرق بدلاً من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض.

3 - فرنسا في عهد الملك لويس السادس (1108 - 1137)

ولد لويس السادس ابن الملك فيليب الأول في أواخر عام 1081، و اعتلى لويس السادس العرش الفرنسي بعد وفاة والده في عام 1108، و كانت تجربته أغنى من تجربة أبيه فقد شارك و هو في سن السادسة عشرة في الحروب ضد

1 - Painter, Sidney: A History of the Middle Ages 284 - 1500. New York, 1911, p.161.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 85.

غليوم الأشقر في عام 1097، و خولته تجربته و مغامراته الحربية أن يشارك أبيه في الحكم و إدارة شؤون المملكة الفرنسية. امتلك لويس السادس منذ فتوته مواهب رجل الحرب و كل صفات الفارس المثالي. لكن من ناحية أخرى فإن هناك عيوباً ملازمة لأسرته لم توفره، فقد كان جشعاً يميل إلى الفساد و الرشوة و مستعداً لبيع خدماته لمن يدفع له أكثر كما كان نهماً شهوانياً و لقب بالسمين بسبب سمته. و رغم السلبات فقد كان لويس السادس أعلى شأناً من الملوك الذين سبقوه و كان يحاول أن يقوي سلطته الملكية¹.

رأى لويس السادس أنه يوجب عليه إخضاع أتباعه الأمراء و الإقطاعيين داخل جزيرة فرنسا (باريس و محيطها) في البداية قبل أن يحاول فرض سلطانه و نفوذه في بقية أرجاء فرنسا. و هكذا لم يأت عام 1120 حتى كان الملك يستطيع أن ينتقل في أنحاء أراضيه الإقطاعية دون أن يكون بحاجة إلى حراسة أو جيوش، كما أن الأمراء و الإقطاعيين أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام. و هذا الاستقرار في أوضاع فرنسا الداخلية ساعد في تنشيط الحياة الاقتصادية بعد أن أمن التجار على أنفسهم و ممتلكاتهم مما ساعد في نشر الخير و الرفاه على الجميع. لكن صحيح أن لويس السادس استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الإقطاعية الخاصة، لكنه لم يتمكن من بسط سلطته على كبار الإقطاعيين و الأمراء في بقية مناطق فرنسا و بقي يشعر بالعجز أمامهم، فقد استمروا يتصرفون كما يريدون دون أن يعيروا الملك أي اهتمام جدي سوى اعترافهم بالتبعية الاسمية له، فلم يدفعوا ما وجب عليهم من ضرائب إقطاعية أو أية ضرائب عسكرية

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج.1، ص 789 - 790.

يفرضها النظام الإقطاعي عليهم¹. و جاءت الظروف لتخدم الملك لويس السادس في فرض سيطرته على بقية الأمراء و الإقطاعيين في بلاده، و ذلك عندما أوصى دوق أكييتانيا وليم العاشر و هو على فراش الموت في عام 1137 بأن تتزوج ابنته و وريثته إليانور من ابن لويس السادس، و هذا ما قدم للملك الفرنسي الفرصة في ضم دوقية تتمتع بقوة و نفوذ كبير إلى جانب إقطاعياته و هذا ما ساعده في فرض سيطرته و نفوذه. وفي هذا الوقت استغل الملك لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء ملك إنكلترا وليم الفاتح المتوفي ليؤكد تبعية هنري الأول ملك إنكلترا له بوصفه دوق نورمانديا².

كان الخطر الأكبر الذي هدد المملكة الفرنسية في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر هو الخطر الذي شكله ملوك إنكلترا، لأن ملوك إنكلترا كانوا قد جمعوا بين التاج الإنكليزي و دوقية نورمانديا، و استمرت حرب الحدود بين فرنسا و إنكلترا، حتى جرح وليم الفاتح في عام 1087 جرحاً بليغاً أثناء إغارته على ضواحي باريس. أما هنري الأول ملك إنكلترا (1100-1135) فقد عمل على تشكيل حلف قوي ضد الملك الفرنسي لويس السادس، حيث ضم هذا الحلف أمراء بريتاني و أمراء جزيرة فرنسا الحاقدين على ازدياد نفوذ الملكية الفرنسية و تعاضم قوتها و أهالي المدن الفلمنكية الذين كانوا على خلاف مع أمرائهم و كونت بلوا Blois ، هذا و تعرض لويس السادس إلى أكثر من هزيمة نتيجة هذا الحلف لكنه بقي محافظاً على مركزه³.

1 - Tout, Thomas Frederick: The Empire and the papacy, 918 - 1273, London 1909, S. 278.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 212.

3 - Tout: the Empire, p. 280.

حافظ الملك لويس السادس حتى نهاية عهده على السلوك الذي حلم به منذ بداية القرن الثاني عشر، و لم يجدد لويس السادس كثيراً في الإدارة بل اكتفى ببقاء إصلاحات أبيه سليمة دون أن تمس و بقي الحكم كما كان في الربع الأخير من القرن الحادي عشر، مركزاً في قبضة عدد من رجال القصر الملكي، بينما حاول الملك دائماً تحقيق الهدف الذي رسمه لنفسه منذ شبابه في فرض السلطة الملكية المركزية على مختلف الطبقات التي تتألف منها المملكة الفرنسية. هذا و تأصلت في فرنسا في عهد لويس السادس ثورة انتزعت من السلطة الأميرية عدداً من المدن و حولتها إلى قومونات، أي هيئات مستقلة ذاتياً، وكانت هذه الحركة قد بدأت في عهد الملك فيليب الأول لكنها زادت في عهد لويس السادس، و قد شجع لويس السادس الثورة القومونية، و هذا ما يفسر العطف و التأييد الذي كسبه في أوساط المدن و بدأ إخلاص المدن للملكية يزداد في القرن الثاني عشر¹.

فرنسا في عهد الملك لويس السابع (1137-1180)

توفي لويس السادس في عام 1137، فخلفه على العرش الفرنسي ولده لويس السابع المعروف بالتقي و الدماثة، وكان عمر لويس السابع عند وفاة والده ستة عشر عاماً وكان واضحاً للجميع أنه ضعيف الإرادة و متردد، فقد رضخ أولاً لنفوذ والدته و نفوذ مربيه و مستشاريه و أخيراً لنفوذ زوجته الملكة إليانور، ابنة وليم العاشر دوق أكييتانيا و وريثته الوحيدة، أدت زوجة الملك دوراً مهماً في حياته و أثرت عليه بشكل كبير حتى إنها استطاعت أن توتر العلاقة بين الملك و رجال الكنيسة. لكن التوافق بين الملك لويس السابع و زوجته إليانور انتهى بعد خمسة عشر عاماً من الزواج، حيث طلق لويس السابع زوجته بعد تكرار الخلافات و

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 797 ، 801.

الصراعات بسبب الاختلاف في الطباع بين الملك و زوجته، فالملك عرف بالتقى و الهدوء، بينما عرفت زوجته بالمرح و حب الطرب و عدم الاكتراث للتقاليد الكاثوليكية¹. وبعد طلاق إيلانور من الملك الفرنسي لويس السابع تزوجت ملك إنكلترا هنري الثاني الذي اعتلى العرش في عام 1154، و هكذا أصبحت ممتلكات ملك إنكلترا تمتد على مساحات واسعة في قلب أوروبا (من المناش حتى البرانس) مما جعل الاقتتال بين ملكي فرنسا و إنكلترا أمراً حتمياً. وكانت الشرارة في مدينة تولوز، فقد منع لويس السابع ملك إنكلترا من الاستيلاء عليها مما تسبب باندلاع الحرب بين الملكين. و كان هنري الثاني قد ارتكب خطأ شنيعاً بقتله رئيس أساقفة كانتربوري، و هذا ما أثار الشعور العام ضد الملك الإنكليزي و دفع كثيرين من أمراء و نبلاء بريطانيا و بواتو و جوين لمساندة الملك الفرنسي لويس السابع. في هذا الوقت استغل لويس السابع الأحداث و اتبع سياسة حكيمة في الداخل و الخارج. داخلياً عمل على ربط الملكية في فرنسا بالطبقة البرجوازية التي أسس لها المدن لتكون مسرحاً لنشاطها و عوناً له على كبار الأمراء و الإقطاعيين. أما خارجياً فقد استطاع لويس السابع من إبرام اتفاق مع أسرة الهوهنشتاوفن في ألمانيا، و استمر هذا التحالف على مدى ثلاثة أجيال بين الأسرتين. بالإضافة إلى ذلك فقد حاول لويس السابع دائماً إثارة القلاقل في إنكلترا ضد ملكها و نجح في ذلك عندما ألّب أولاد الملك هنري نفسه ضد والدهم و ثار أبناء هنري الثلاثة الذين كانوا يتولون الإشراف على أملاك التاج الإنكليزي ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع من خطر المملكة الإنكليزية².

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 87.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 214.

أما عن حروبه الدينية فقد أعلن الملك لويس السابع في يوم عيد ميلاده 1145 في بلاطه و أمام مستشاريه أنه قرر الذهاب إلى الأراضي المقدسة في المشرق العربي لإنقاذ الدول المسيحية بعد أن سقطت الرها و جعلت الموقف حرجاً. و بالفعل شارك الملك لويس السابع مع الإمبراطور الألماني كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية إلى فلسطين في عام 1147، لكن هذه الحملة باءت بالفشل و لم تسفر عن نتائج ذات أهمية تذكر¹.

5 - فرنسا في عهد الملك فيليب أوغسطس 1180 - 1223

توفي الملك لويس السابع في عام 1180 فخلفه ابنه البكر فيليب أوغسطس (الثاني) على العرش الفرنسي، و عرف عن فيليب أوغسطس أنه جمع كل ملكات النجاح في شخصه، فقد كان شجاعاً و حازماً لم ينقصه الدهاء و لم يتردد في سلوك أي سبيل يوصله إلى غايته. فقد كان كريماً مع الكنيسة لكن لم يسمح لرجال الدين أو البابوية بالتدخل في الشؤون السياسية للمملكة الفرنسية. وهذه الصفات جعلته يحصل على ما يريد دون أن يضطر إلى استخدام القوة العسكرية. هذا و كانت فرنسا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الشخصية لتستطيع أن تقف في وجه إنكلترا بزعماء هنري الثاني، و ريتشارد قلب الأسد، و يوحنا، و في وجه ألمانيا بزعماء فريدرىك بربروسا و بعده هنري السادس².

سرعان ما استطاع فيليب أوغسطس تجاوز الأخطاء التي وقع فيها والده، و بدأ مباشرة باستئناف سياسة جده لويس السادس في التمكين للملكية الفرنسية و فرض نفوذها. لذلك تميز عهده بازدياد قوة الملك في الداخل و التوسع في الخارج

1 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 111f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 218 - 219.

و هذه النتائج توصل إليها بعد سلسلة من الإصلاحات الداخلية الشاملة منحتة قوة مضافة جعلته يشكل خطراً على أعدائه في إنكلترا و نورمانديا و فلاندرز و ألمانيا و جنوب فرنسا. حكم فيليب أوغسطس فرنسا لمدة قاربت الأربعة و الأربعين عاماً و هي مدة طويلة تبدل خلالها غالبية كبار الأمراء الإقطاعيين في المملكة الفرنسية، مما قدم له فرصة مناسبة لتأكيد حقوقه الإقطاعية على الأمراء و الإقطاعيين الجدد.

عمل فيليب أوغسطس في البداية على استرضاء الملك هنري الثاني، ملك إنكلترا، ليضمن عدم تدخله في محاولته إخضاع أمراء فلاندرز و شامبني و برجنديا. فدخل فيليب في حرب طويلة ضد هؤلاء الأمراء استمرت من 1181 حتى 1185 حتى استطاع في النهاية أن يخضعهم لسلطته و أصبح بذلك يسيطر على المنطقة الغنية الممتدة من فرماندوا حتى أرتوا. كان من المتعذر على فيليب فرض سيطرته على الإقطاعات الكبرى في فرنسا ما دامت ممتلكات التاج الإنكليزي في شمال و غرب فرنسا تحد من نفوذ الملكية الفرنسية و تمثل خطراً حقيقياً عليها. لذلك عمد فيليب بكل الوسائل المتاحة السياسية و العسكرية لإضعاف قوة إنكلترا في القارة الأوروبية¹. و لأجل ذلك فقد عقد تحالفاً مع فريديك بربروسا ملك ألمانيا في عام 1187 للوقوف في وجه خصومه من كبار الأمراء و الإقطاعيين و خاصة الانجويين في فرنسا و الجلفيين في ألمانيا. و قد استمر التحالف بين ملوك أسرة كابوية في فرنسا و أسرة الهوهنشتاوفن في ألمانيا من جانب و ملوك إنكلترا و الجلفيين من الجانب الآخر المضاد يؤدي دوراً أساسياً في السياسة الأوروبية حتى موقعة بوفان Bouvines عام 1214. هذا و لم تقف محاولات فيليب في إضعاف نفوذ ملك إنكلترا عند حد التحالف مع ألمانيا ضده بل

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 215 - 216.

استغل المشاكل بين هنري الثاني و أولاده ريتشارد و جيوفر و يوحنا و أخذ يساعد أولاد الملك الإنكليزي ضد والدهم و يؤلبهم عليه لكي يضعف نفوذ المملكة الإنكليزية¹.

و عندما خلف ريتشارد الأول (قلب الأسد) والده على العرش الملكي الإنكليزي (1189-1199) قرر أن يشارك مع الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا و الملك الفرنسي فيليب أوغسطس في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة على بلاد المشرق في عام 1190. وكانت النتيجة بعد خروجه لبلاد المشرق أن غرق الإمبراطور الألماني في نهر في آسيا الصغرى، بينما وصل الملك الفرنسي و الملك الإنكليزي إلى الأراضي المقدسة. لكن الملك الفرنسي فيليب أوغسطس ترك الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد في فلسطين و أقفل عائداً إلى فرنسا ليعمل على توسيع ممتلكاته على حساب الممتلكات الإنكليزية. و عندما أدرك ريتشارد قلب الأسد نوايا فيليب الأول ، غادر فلسطين على جناح السرعة و عاد إلى بلاده، لكنه وقع في الأسر بين يدي دوق أوستريا الذي باعه لهنري السادس إمبراطور ألمانيا، الذي خلف فريدريك بربروسا على العرش. أفرج الإمبراطور هنري السادس عن ريتشارد قلب الأسد مقابل مبالغ مالية كبيرة و ذهب بعدها قلب الأسد إلى نورمانديا في فرنسا و أعلن الحرب على الملك الفرنسي، و استمرت هذه الحرب حتى وفاته في عام 1199م².

توفي ريتشارد قلب الأسد في آذار 1199 نتيجة إصابة قاتلة من سهم تعرض له في أرض المعركة ضد القوات الفرنسية، هذا و أراد الملك فيليب أوغسطس استغلال موت الملك الإنكليزي لتحقيق تقدم على الأرض. و لأن قلب

1 Tout: the Empire p. 293.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 88.

الأسد لم يترك ولداً يرثه على العرش اتفق الأمراء الإنكليز على تنصيب أخيه يوحنا ملكاً على إنكلترا و جرت مراسيم التتويج في لندن في 27 نيسان 1199. استمر تقدم القوات الفرنسية على حساب الإنكليز و احتلوا نورمانديا و أرادوا التوغل أكثر في الأراضي التابعة للسيطرة الإنكليزية، لكن فيليب أوغسطس اضطر في 22 أيار 1200 إلى إبرام هدنة مؤقتة مع الملك الإنكليزي يوحنا، لأن بابا روما أنوتسنت الثالث صعد في عدائه ضد الملك الفرنسي فيليب أوغسطس مما اضطر فيليب إلى إيقاف حروبه مع الإنكليز مؤقتاً¹.

كانت تنقص يوحنا ملك إنكلترا الجديد (1199-1216) الموهبة و المقدرة الشخصية التي تميز بها أخوه، و هذا ما أتاح الفرصة لفيليب أوغسطس ملك فرنسا لكي يستمر في سياسة تفتيت أملاك التاج الإنكليزي. و لتحقيق هذه الغاية شرع فيليب بتدبير المال اللازم للحرب من ناحية و بتحريض آرثر دوق بريتاني ضد عمه يوحنا ملك إنكلترا من ناحية أخرى. و ذلك كما حدث سابقاً عندما ألّب أبناء هنري الثاني ضد والدهم و حرض يوحنا ضد أخيه ريتشارد. تظاهر فيليب أوغسطس باعترافه بسيادة آرثر في نورمانديا و بريتاني، و أخذ يعبئ قلاع و حصون هذين الإقليمين بالجند الفرنسيين بحجة مساعدته آرثر ضد عمه. و بعد فترة توقف فيليب أوغسطس عن دعم آرثر مقابل ثمن باهظ اضطر يوحنا ملك إنكلترا إلى دفعه للملك الفرنسي، و هو التخلي عن أفري Evreux لفرنسا، وعن المعاهدات و التحالفات التي عقدها ريتشارد قلب الأسد في ألمانيا و فلاندرز، بالإضافة إلى دفع مبلغ مالي ضخم. و في حين كان يوحنا ملك إنكلترا يفتقر للمال و الرجال، كان فيليب متمتعاً بكل ما يفتقده عدوه، فبدأ يستولي على مدن نورمانديا واحدة بعد الأخرى عن طريق شراء استسلام حامياتها بالمال و في حال فشل في

1 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 133.

ذلك لجأ إلى القوة العسكرية و الحرب، و هكذا و قبل نهاية عام 1205 كان فيليب أوغسطس قد احتل نورمانديا و انجو و مين و تورين، في حين أعلن معظم أمراء بواتو الولاء له أيضاً، و هكذا تكون أملاك التاج الفرنسي قد تضاعفت و زادت مقومات قوته¹.

و بينما كان فيليب أوغسطس منشغلاً في حربه ضد الإنكليز و حلفائهم تشكلت في شمال فرنسا حملة عسكرية (صليبية) هدفها احتلال جنوب فرنسا (أكيتانيا، تولوز، بروفانس)، فقد نشأت في جنوب فرنسا حركتان دينيتان و هما الوالدونية نسبة إلى مؤسسها بطرس والدو، و الكاتارية و تعني حركة الأطهار. خرجت هاتان الحركتان عن تعاليم المذهب الكاثوليكي و دعت الأولى إلى التقشف و العودة بالمسيحية إلى جذورها و تعاليمها الأولى، بينما نادى الثانية بوجود إلهين واحد للخير و الآخر للشر. و أمام هذا الخطر طلب البابا أنوتسنت الثالث من الملك فيليب أوغسطس تجهيز حملة عسكرية للقضاء على هؤلاء المهرطقين و الخارجين عن تعالم الكنيسة الكاثوليكية، لكن فيليب لم يستطع تنفيذ رغبة البابا بسبب انشغاله بحربه ضد يوحنا ملك إنكلترا، و ما كان من كبار الأمراء و الإقطاعيين في فرنسا إلا أنهم حملوا لواء الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وأقدموا على تلبية نداء البابا، فأعدوا حملة (صليبية) في حزيران 1209 بدون تدخل الملك فيليب أوغسطس و زحفوا على رأسها إلى جنوب فرنسا و بعد معارك عنيفة استطاعت هذه الحملة السيطرة على تولوز².

عقد البابا أنوتسنت الثالث مجمعاً دينياً في عام 1215 تقرر فيه إعطاء دوقية تولوز و دوقية ناربون و بعض الإمارات الأخرى في جنوب فرنسا لسيمون

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 219 - 220.

2 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 146 - 149.

دي مونتفورت، الأمير الفرنسي الذي أخذ على عاتقه قيادة الحملة الصليبية ضد الهراطقة. صحيح أن سيمون اعترف بالتبعية للملك فيليب أوغسطس، لكن الملك لم يعجبه تصرف هذا القائد العسكري الذي أصابه الكبرياء و الذي حاول الاستقلال عن الملك و جعل حكم تولوز له و لأسرته، لكن لم ينج سيمون في تنفيذ خطته هذه في تولوز و قتل في بداية عام 1218 عندما كانت تولوز محاصرة من قبل أعدائه. صحيح أن أموري ولد سيمون خلفه في حكم تولوز إلا أنه كان ضعيفاً ولا يملك القدرة لتنفيذ مشروع والده و مجابهة الملك الفرنسي فيليب أوغسطس، الذي أرسل في عام 1222 جيشاً بغية احتلال تولوز، لكن لم يكتب لفيليب أوغسطس العمر ليعرف نتيجة هذه الحملة فقد مرض في شهر أيلول من نفس العام مرضاً عضالاً منعه من أداء واجبه كملك و توفي في 14 تموز 1223م¹.

بالإضافة إلى إنجازات فيليب العسكرية و انتصاره في الحرب المشتركة التي قام بها ضده كل من إمبراطور ألمانيا أوتو الرابع و ملك إنكلترا يوحنا و إلحاقه بهم هزيمة نكراء في موقعة بوفان Bouvines في حزيران 1214، فإن إصلاحات فيليب أوغسطس لانقل أهمية عن هذه الإنجازات العسكرية. فهو كان هادئاً و ودوداً مع الإقطاعيين، وفي نفس الوقت يؤكد نفوذه و سلطانه عليهم دائماً. و سعى فيليب أوغسطس جاهداً و دائماً على وضع حد لتدخل البابا في شؤون الكنيسة الفرنسية، كما فرض على رجال الدين دفع ما يوجب عليهم من ضرائب إلى الخزينة الملكية. و حارب فيليب الاتجاه الذي كان يسعى إلى جعل الوظائف

1 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 150.

الكبرى وراثية في المملكة، لما رأى في ذلك من خطورة تقض كيان الملكية¹. و أعد فيليب جهازاً من الإداريين من أبناء الطبقة الوسطى ليضمن بذلك إخلاصهم له و ارتباطهم بالملك وحده، و أوجد فيليب أوغسطس طبقتين من الموظفين الإداريين، تتألف الطبقة الأولى من الوكلاء الملكيين و مهمتهم الإشراف على تطبيق العدالة و جمع الضرائب و الإيرادات الملكية. و كان يراعى فيهم أن يكونوا تابعين للطبقة الوسطى لكي يضمن إخلاصهم للملك دون غيره و ارتباطهم به، كما كان يحرص على نقلهم من منطقة إلى أخرى قبل أن يستطيعوا إنشاء علاقات خاصة مع أهل المناطق المعينين فيها. أما الطبقة الثانية فكانت عبارة عن الإداريين الذين أوكل إليهم الإشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب أراضي الأعداء، و قد اختير هؤلاء الإداريين من الفرسان و البارونات ذوي الخبرة و التجربة في شؤون الحرب، و بالإضافة إلى مهامهم العسكرية فقد قام الإداريون بوظائف الوكلاء الملكيين في مناطقهم و ساعدتهم في ذلك عدد كبير من الموظفين و المندوبين². كما كوّن مجلساً استشارياً له مؤلفاً من العلمانيين و رجال الدين، لكنه في النهاية بقي يسيطر على جميع السلطات و حصرها به وحده. وعمل فيليب أوغسطس على تقديم كل التسهيلات و الضمانات للمدن، فقد أعطى المدن الجديدة براءات تضمن حريتها، كما ساعد في تشييد أسورها و حماية تجارتها و تطوير صناعاتها. هذا و أصبحت مدينة باريس في عهد الملك فيليب أوغسطس (الثاني) عاصمة حديثة لدولة مركزية في أوروبا. فقد شيد أسوراً لها و أمر ببناء المدارس فيها و رصف شوارعها، كما أعطى جامعة باريس براءة ملكية حفظت لها امتيازاتها الخاصة³. و هكذا فقد استطاع فيليب أوغسطس أن يجعل من فرنسا

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 90.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 227.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 90.

مملكة عظمى و أن يجعل السلطة الملكية فيها على جانب كبير من القوة، و لذلك فهو يعد بالإضافة إلى الملك فيليب الجميل و الملك لويس الحادي عشر أهم ملوك فرنسا في العصور الوسطى على الإطلاق¹.

6 - فرنسا في عهد الملك لويس الثامن 1223 - 1226

كان عمر لويس الثامن ستة و ثلاثين عاماً عندما خلف والده على العرش الفرنسي في 5 آب 1223م². كان قد شارك أباه في الحكم و أوكلت إليه عدد كبير من المهمات، و من ذلك أنه قاد الجيش الفرنسي ضد إنكلترا عندما طلب البارونات في إنكلترا مساعدة الملك فيليب أوغسطس بعد محاولة الملك الإنكليزي يوحنا التملص من بنود العهد الأعظم، كما قام لويس الثامن أيضاً بقيادة جيوش مملكته في الحملة الأليجنسية ضد الهراطقة في جنوب فرنسا، وهي المعضلة التي ورثها عن والده. استمر لويس في اتباع نهج أبيه السياسي في تقوية السلطة الملكية المركزية و العمل على القضاء على الهراطقة الذين سيطروا على جزء من جنوب فرنسا. و في السنة الأخيرة من حكمه 1226 أرسل قواته إلى جنوب فرنسا لمحاربة الهراطقة و دعمه في حربه هذه البابا أونوريوس الثالث، و لم يتمكن أموري دي مونتفورت ابن سيمون قائد الحركة الأليجنسية مجابهة الجيوش الفرنسية فاضطر إلى الاعتراف بسيادة لويس الثامن على أراضي جنوب فرنسا. و بذلك يكون لويس الثامن قد حقق جزءاً كبيراً من أهدافه و أهداف والده قبله في بسط سيطرته على جنوب فرنسا. كان لويس قد تزوج من بلانش القشتالية

1 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 150.

2 - Ehlersrs: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 151.

Blanche of Castile التي أنجبت له ولده لويس المعروف باسم القديس أو لويس التاسع¹.

7 - فرنسا في عهد الملك لويس التاسع 1226 - 1270

كان الملك لويس الثامن قد توفي بشكل مفاجئ في 1226 فخلفه على العرش الفرنسي ولده لويس التاسع، الذي كان يبلغ من العمر وقت ذاك اثني عشر عاماً، و الذي توج ملكاً في 29 تشرين الثاني 1226. و بسبب صغر سنه تولت والدته بلانش القشتالية الوصاية عليه حتى يصبح عمره عشرين عاماً². تفرغت بلانش لتربية ابنها لويس تربية فاضلة و رفضت الزواج رغم جمالها المشهور. و خلال فترة حكمها نجحت في السياسة الداخلية و الخارجية. ففي المجال الداخلي قامت بأعمال اجتماعية مهمة حيث أعتقت عدداً كبيراً من أرقاء الأرض، كما جهزت الكثير من البنات الفقيرات للزواج، بالإضافة إلى ذلك فقد تغلبت على الأدواق وكبار الإقطاعيين الذين حاولوا إعادة حقوقهم القديمة. و أهم مؤامرات الأدواق ضد الملك و والدته كانت في عام 1229 التي تزعمها دوق برجنديا و كونتات بريتانى و شامبني و لامارش، و كانت هذه المؤامرة بتأييد و مساعدة من الملك الإنكليزي هنري الثالث. باءت هذه المؤامرة بالفشل بفضل حزم الملكة الوالدة بلانش من جهة و مساعدة البابوية الحليفة الطبيعية لأعداء الهرطقة من جهة أخرى.

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 220 - 221.

2- Ehlersr: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 153.

أما في مجال السياسة الخارجية فقد عملت على حقن الدماء عندما اشتد النزاع بين فرنسا و إنكلترا و فضلت عقد الصلح بشروط مشرفة¹. استلم لويس التاسع إدارة الحكم في عام 1235 بشكل مباشر و لم يستفد لويس من العبر التي تعلمها أسلافه فذهب مدفوعاً بحماسة الدينية إلى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة، على الرغم من معارضة والدته و تحذير وزرائه و مستشاريه من عدم جدوى هكذا عمل. أمضى لويس التاسع عدة سنوات في التحضير لهذه الحملة و أبحر في عام 1248 على رأس قواته باتجاه مصر، بعد أن أصبح الاعتقاد السائد عن الصليبيين عندئذ أن مصر هي بوابة الوصول إلى الأراضي المقدسة. و على الرغم من نجاحه في احتلال دمياط 1249 إلا أنه تكبد خسائر فادحة عندما حاول احتلال القاهرة و لقي هزيمة عسكرية مدوية قرب المنصورة حيث وقع هو نفسه أسيراً في أيدي المسلمين و لم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة جداً.

كان لويس التاسع متديناً نقياً لذلك كان قادراً على التسليم بحقوق غيره، مثلاً تمسك بحقوقه. وبناءً على ذلك فقد فضل لويس التاسع أن يسالم هنري الثالث ملك إنكلترا بدلاً من محاولة طرد الإنكليز من جاسكوني. و كان لهذه السياسة أثر طيب في العلاقة مع إنكلترا، فقد أدت إلى إقرار صلح باريس بين فرنسا و إنكلترا في عام 1259 بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين، كما دفعت هنري الثالث إلى التنازل عن كل حقوقه الاسمية في نورمانديا و أنجو و مين و تورين و بواتو². و بغض النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية فإنه يمكن القول إن سياسته الخارجية اتسمت بالهدوء و الواقعية، فلم يحاول أن يستغل فرصة انشغال

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 221.

2 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ص 230-231.

أسرة هوهنشتاوفن بمشاكلهم ليحقق لنفسه مكاسب خاصة آنية، كما رفض أن يزوج نفسه في الصراع بين البابوية و الإمبراطورية و لم يستجب لمحاولة البابوية التحريضية لمهاجمة الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني¹. عدا عن ذلك فإن لويس التاسع لم يعمل على استغلال سوء الأوضاع في إنكلترا ليقوم باحتلال أملاكها في فرنسا. صحيح أن لويس التاسع استطاع أن يجعل من فرنسا أقوى مملكة في أوروبا في أواخر حكمه، لكن الظروف الخارجية ساعدته كثيراً في الوصول بفرنسا إلى هذه المكانة، و مثال على هذه الظروف وضع الإمبراطورية الألمانية المقدسة الحرج من ناحية و سوء أحوال الملكية في إنكلترا من ناحية أخرى.

أما فيما يخص سياسة لويس التاسع الداخلية فقد كان حريصاً جداً على احترام حقوق كبار الأمراء و الإقطاعيين و في الوقت نفسه تمسك بسلطانه الملكي و حقوقه العليا في السيادة على المملكة و في عهده كان كبار الأمراء و الإقطاعيين الذين أنهكوا إسلامفه في القرن الثاني عشر قد ماتوا و خلفهم جيل ضعيف من الأمراء و الإقطاعيين الذين لم يجلبوا متاعب كثيرة للمملكة. هذا و أدخل لويس التاسع الكثير من القوانين الجديدة التي تحرم الثأر و قتل العبيد و الأتباع دون محاكمة، كما فرض المحاكمة بالأدلة و الشهود بدلاً من المبارزة. و أمر بزيادة عدد المحاكم الملكية و تقليل محاكم البارونات، و لكي يضمن لويس التاسع حسن سير عمل القضاء، قرر حق استئناف أحكام محاكم البارونات أمام محكمة الملك المركزية.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان لكل صاحب مظلمة الحق في مقابلة الملك ليعرض عليه مظلمته في القصر الملكي أو في أي مكان آخر، و يذكر أن الملك

1 - Tout: the Empire, p. 420.

لويس التاسع كثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة في الكنيسة و يجلس تحت أحد الأشجار و حوله رجاله، فيأتي إليه أي مظلوم و يشرح له قصته دون تعقيد المراسيم الرسمية، و قد يقرر الملك مباشرة الحكم أو يبت في المسألة أو يحيلها إلى أحد معاونيه إذا كان الأمر يحتاج إلى دراسة و تمحيص، و بالمحصلة فإن فرنسا في عهد لويس التاسع نعمت برخاء لم تعرفه منذ قرون و أمن و استقرار كان الناس بحاجة إليه و هذا ما ساعد على زيادة إنتاج و ثروات فرنسا¹.

أما بالنسبة لسياسة لويس التاسع اتجاه الكنيسة و رجال الدين فقد قامت على أساس حماية الكنيسة من جشع الأمراء و الموظفين الملكيين، و الحفاظ على كل حقوقها و ميزاتهما، لكن و في الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية على الكنيسة و حرص على الحصول على هذه الحقوق كاملة غير منقوصة، حيث لم يسمح للكنيسة و رجال الدين بالتدخل في الشؤون السياسية و العلمانية و فرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام. هذا و قد كان لرهبان منظمتي الفرنسيسكان و الدومينكان مكانة خاصة عند الملك لويس التاسع على حساب غيرهم من المنظمات الأخرى. لكن إفراط لويس التاسع في التدين كان له نتائج سلبية في بعض الأحيان، حيث دفعه ذلك إلى التطرف في اضطهاد اليهود و الهرطقة، و إلى السماح بتنفيذ أعنف الإجراءات ضد الالبيجنيين، مما كان له تأثير سلبي جداً في الحضارة البروفنسالية. و على الرغم من المأساة الشخصية التي لحقت به في حملته الصليبية على مصر في عام 1249 و الخسائر الكبيرة التي لحقت بقواته وقت ذاك، فإن لويس التاسع سرعان ما نسي الدرس القاسي الذي أخذه قرب مدينة المنصورة في هذه الحملة و أخذ يفكر في أواخر عهده بالقيام بحملة صليبية جديدة. وكانت وجهة الحملة هذه المرة تونس في شمال إفريقيا. وصل لويس التاسع

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 221 - 222.

على رأس أسطوليه في عام 1270 إلى شواطئ تونس في أسوأ وقت من فصول السنة، عدا عن ذلك فإن لويس التاسع لم يكن في سن تمكنه من ركوب الخيل كما أصيب جيشه بمرض الطاعون فهلك هو و أغلب جيشه في هذه الحملة، و بذلك تكون فرنسا قد خسرت أبرز من جمع بين المواهب الخلقية و السياسية في سلسلة ملوكها العظام¹.

8 - فرنسا في عهد الملك فيليب الثالث 1270 - 1285

توفي الملك لويس التاسع في عام 1270 أمام سوبحل قرطاجة و خلفه على العرش الفرنسي ولده فيليب الثالث، الذي كان يبلغ من العمر وقتئذ 25 عاماً، لم يحمل فيليب صفات والده الحسنة و لم يهتم بتحصيل تعليم جيد في صغره وكان جل اهتمامه بالصيد، و لقبه معاصروه بالجرىء. هذا و حاول فيليب الثالث التدخل في شؤون ألمانيا الداخلية بعد وفاة ملكها ريتشارد في عام 1272 و أرسل رسالة إلى الأمراء الناخبين في ألمانيا على إثر ذلك داعياً إياهم لانتخاب قريبه ملكاً على العرش الألماني و هذا ما قابلته البابوية بزعامة البابا غريغوري العاشر برفض شديد و أفضلت مشروع فيليب².

هذا و كان فيليب قد ورث مملكة فرنسا القوية بفضل أعمال إسلامفه، ولم يكن فيليب الثالث قوياً مثلهم و لكن القوانين و الأنظمة التي كان إسلامفه قد وضعوها ساعدته كثيراً و لم تظهر عدم قدرته بشكل واضح. هذا و لعب الحظ دوراً مهماً في حياة فيليب، حيث نجح في ضم بعض الأقاليم إلى فرنسا دون

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 233 - 234.

2 - Ehlersr: Geschichte Frankreich im Mittelalter, S. 172f.

الاضطرار إلى شن الحروب و إراقة الدماء، و نتج عن ذلك القضاء على جزء كبير من مقومات نظام الملكية الإقطاعية في فرنسا و ظهور الملكية المركزية. ومن ذلك فقد كان الفرنسيون، أمير بواتيه، قد أبحر هو و زوجته مع الملك لويس التاسع في الحملة الصليبية و لقيا حتفهما هناك، وبما أن فيليب الثالث ملك على فرنسا فقد آلت إليه أملاكهما الواسعة في تولوز و بروفانس و بواتو و أفرن، و الشيء نفسه حدث في عام 1274 بعد وفاة هنري ملك نافاري و كونت شامباني، حيث لم يكن للملك هنري وريث سوى طفلة عمرها ثلاث سنوات فطلبت أمها حماية الملك الفرنسي فيليب الثالث، الذي لم يضيع هذه الفرصة و وضع أراضيها تحت حماية الملك الفرنسي، و زوج الأم الأرملة لولده فيليب. و هكذا و بشكل متدرج بدأ الحكم الإقطاعي يتقلص في فرنسا و بدأت تتبلور فيها الدولة الملكية المركزية¹.

9 - فرنسا في عهد الملك فيليب الرابع 1285 - 1314

توفي فيليب الثالث في عام 1285 فخلفه ولده فيليب الرابع الملقب ب (الجميل أو الوسيم لجمال وجهه) على العرش الفرنسي، و امتاز فيليب الرابع ببعد نظره والدهاء و الحنكة السياسية. و كانت سياسته تتمحور حول توحيد فرنسا تحت سيادة الملك وحده و توسيع حدودها و تحقيق زعامتها على غرب أوروبا. لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش الفرنسي أن الحدود الطبيعية لمملكته هي الراين و الألب و البرانس، و بناءً على ذلك أخذ يعد الخطط و المشاريع لضم الجهات و الأقاليم التي ظلت بعيدة عن نفوذه و سلطته. و جاء الوقت المناسب لتنفيذ هذه المشاريع في عام 1293 عندما اعتدى بعض صيادي جاسكوني على الصيادين

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 223 - 224.

النورمانديين، و رفض الفريق الأول التقاضي أمام المحاكم الفرنسية، فاستغل فيليب هذا الحادث و فرصة انشغال الملك الإنكليزي إدوارد الأول (1272 - 1307) بالمشاكل الداخلية. و استدعاه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن الإخلال بتعهداته الإقطاعية. هذا و كان إدوارد مشغولاً بحرب الإسكتلنديين، فوعد بالحضور في وقت قريب، و بعث أخاه إدموند بدلاً عنه، كما تنازل لفيليب عن بعض القلاع على الحدود ضماناً لقدمه مستقبلاً. و لم يستطع إدوارد الحضور لمقابلة الملك الفرنسي فيليب في الوقت المحدد، و هذا ما أدى إلى تصعيد التوتر بين الطرفين، و إعلان الحرب، و استطاع فيليب احتلال جوين و هاجم فلاندرز في عام 1297. و انتهت هذه الحلقة من الصراع بعقد صلح مؤقت بين الطرفين في عام 1298 و بعد تجدد الحروب وقع اتفاق نهائي بين إدوارد الأول و فيليب في عام 1303. و جدد مرة أخرى في عام 1305 م¹.

و أما بالنسبة لعلاقة فيليب الرابع مع الكنيسة فلم تكن علاقة جيدة، و السبب أن فيليب فرض الضرائب على رجال الدين الفرنسيين مما دفعهم لتقديم شكوى للبابا بونيفيس الثامن (1294 - 1303)، و بعدها أصدر البابا قراراً في عام 1296 ينص على بطلان حق الملوك في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة دون إذن من البابا. و هذا ما سبب استياء الملك الفرنسي فيليب الرابع فمنع جميع الأجانب من دخول الأراضي الفرنسية و كان هدفه من ذلك منع وصول المندوبين البابويين إليها، كما منع خروج الذهب و الفضة و النقود إلى خارج فرنسا ليحول دون وصول أموال الكنائس الفرنسية إلى الخزانة البابوية. توفي البابا بونيفيس الثامن في عام 1303، و أتى بعده إلى الكرسي الرسولي في

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 235 - 237.

الفاتيكان بابوات معتدلون مثل بندكت الحادي عشر و كليمنت الخامس، فأدى ذلك إلى تحسن العلاقة بين البابوية و الملكية الفرنسية.

أوعز فيليب الرابع بملاحقة اليهود واضطهادهم في فرنسا وأمر بطردهم خارج المملكة ومصادرة أملاكهم و ثرواتهم الوافرة التي حصلوا عليها من التجارة و إقراض الأموال. كما لم يسلم فرسان الداوية (وهم مجموعة صليبية عادوا من بلاد المشرق حاملين الأموال و الغنائم، فقاموا بنشاط مالي واسع في أوروبا) من أطماع الملك فيليب الرابع، حيث أمر بملاحقتهم و مصادرة أموالهم و ممتلكاتهم. إن حاجة فيليب الرابع الملحة للأموال دفعتة أيضاً إلى التلاعب بالعملة و خلطها بالمعادن الرخيصة، كما فرض ضرائب باهظة على الواردات و الصادرات و على النقابات و الأديرة و على الطبقة البرجوازية و المدن¹. و هذا كان له أثر سلبي وسيء على الاقتصاد الفرنسي و أدى إلى هروب رجال المال من اليهود و اللومبارديين فتعطلت التجارة و شلت حركتها². أما من الناحية التشريعية و الإدارية فقد قام فيليب الرابع بفصل بقية الإقطاعيين من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس، و أدخل مكانهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الروماني و تأثروا بما فيه من حب للملكية و اعتراف بسيادتها. كما أمر بإنشاء محكمة أو غرفة مالية الغاية منها الفصل في المنازعات و الخصومات التي تقوم حول الضرائب و غيرها من المشاكل المالية. لكن يبقى أهم عمل إداري قام به فيليب الرابع، و هو دعوته لمجلس طبقات الأمة لأول مرة في عام 1302، و هذا المجلس الذي سيكون له دور بارز فيما بعد في تاريخ فرنسا، و في هذا المجلس دعا فيليب الرابع ممثلين عن طبقات المجتمع الثلاث: رجال الدين، و النبلاء، و

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 92-93.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 225.

البرجوازيين. و تكررت الدعوة أكثر من مرة، كما حدث في عام 1302 و 1303 أثناء صراع فيليب الرابع مع البابا بونيفيس الثامن، و عام 1308 عندما حل منظمة الداوية، و عام 1314 عندما احتاج الملك إلى الأموال لخوض الحرب في فلاندرز¹.

و عندما توفي الملك فيليب الرابع في عام 1314 كان الاستياء كبيراً، و حاول كبار الأمراء و النبلاء أن يستغلوا فرصة زوال قوة العاهل ليأخذوا بثأرهم من عصر السطوة و الهيمنة الملكية و شكلوا عصابات و ألقوا المسؤولية على مستشاري الملك الراحل².

نهاية الأسيرة الكابية عام 1328

بعد وفاة فيليب الرابع في عام 1314 خلفه على العرش الفرنسي ولده البكر لويس العاشر لمدة عامين (1314-1316) و بعده اعتلى العرش الفرنسي ابن آخر لفيليب الرابع و هو فيليب الخامس الملقب ب (الطويل) و استمر حكمه حتى عام 1322م³. و عمل فيليب الخامس على تثبيت دعائم السلطة الملكية في باريس، ومنع الإقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات عسكرية في قلاعهم ما لم تكن هذه الحصون و القلاع على الحدود. كما اجتمع في عهد فيليب الخامس مجلس طبقات الأمة عدة مرات حتى وصل هذا المجلس إلى درجة معتبرة من النضج و التكامل⁴. و بعد وفاة الملك فيليب الخامس اعتلى العرش الفرنسي أخوه الأصغر و

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 242 - 243.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج2، ص 90.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج2، ص 91.

4 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 93.

اسمه شارل الرابع الملقب ب (الجميل) (1322 - 1328) وتشابه مع والده فيليب الرابع في سياسة فرض الضرائب و التلاعب في قيمة النقد. أما خارجياً فقد انشغل شارل الرابع بحرب فلاندروز، و هي الحرب التي لم تتوقف في عهد فيليب الرابع. بالإضافة إلى حرب فلاندروز فقد أشعل شارل الرابع الصراع مجدداً مع إنكلترا بسبب استيلائه على معظم جاسكوني. توفي شارل الرابع في عام 1328 دون أن يترك وريثاً يخلفه على العرش الفرنسي مما أدى إلى إسدال الستار على تاريخ الأسرة الكابية في حكم فرنسا.

اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة الملك شارل الرابع في عام 1328، فانتخبوا فيليب فالوا ملكاً جديداً على فرنسا و عرف باسم فيليب السادس. لم يكن لهذا الانتخاب أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من أحد أسباب اندلاع حرب المئة عام بين إنكلترا و فرنسا¹.

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 244.



الفصل السابع

إنكلترا (بريطانيا) من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر

1 - استيطان الأنغلوساكسون في إنكلترا و تأسيس الممالك الأنغلوساكسونية :

هاجر الكلتيون من شمال أوروبا باتجاه المناطق المجاورة و استوطن قسم منهم في بريطانيا في القرن السادس قبل الميلاد، (و كانت إنكلترا تسمى بريطانيا قبل القرن التاسع الميلادي). وفي القرن الأول الميلادي عام 43م احتل الرومان في عهد الإمبراطور كلاوديوس جنوب بريطانيا فخضع سكانها الكلتيون للسيادة الرومانية و تأثروا بحضارة هذه الإمبراطورية. وفي بداية القرن الخامس ميلادي (401م) اضطرت الإمبراطورية الرومانية لسحب قواتها من بريطانيا و نقلتها إلى إيطاليا لكي تحميها من هجمات البرابرة بالإضافة إلى ذلك فإن الكلتيين كانوا قد تمردوا قبل ذلك على السلطات الرومانية و طردوا مندوبيها و موظفيها من بلادهم، فأصبحت بريطانيا مستقلة عن الإدارة الرومانية. بدأت القبائل الجرمانية الشمالية (الأنجلو و الساكسون و الجوت) تغير من شمال أوروبا على بريطانيا، لكن ليس بقصد السلب و الغزو فحسب، بل بقصد الإقامة و الإستيطان في بريطانيا. و بدأ الدين المسيحي يدخل إلى الأراضي البريطانية في بداية القرن السابع وفي عام 664 أعلن أول ملك من ملوك بريطانيا انتمائه إلى الكنيسة الرومانية¹.

1 - Maurer, Michael: Geschichte Englands, 3. Aufl., Stuttgart 2014, S. 15.

وبعد صراع استمر حوالي قرنين من الزمن مع الكلتيين تمكن الأنغلوساكسون في مطلع القرن السابع أيضاً من الاستيلاء على معظم الأراضي البريطانية. أما الكلتيون فاضطروا للتقهقر، فبعضهم ذهب إلى المناطق الشمالية حيث أسسوا إمارات في شوتلاند وأوليس، و بعضهم الآخر كان مضطراً للخضوع لحكم الغزاة الجدد، الأنغلوساكسون و انصهروا في مجتمعهم¹.

شكل الأنغلوساكسون في بداية القرن الثامن الميلادي عدداً كبيراً من الممالك الصغيرة المستقلة بعضها عن بعض، و شكلت تلك الممالك الصغيرة العديدة سبع ممالك، و قد سميت هذه الممالك مجتمعة هيبتارشى Heptarchie و تعني الممالك السبع و هو الاسم الذي عرفت فيه بريطانيا في ذلك الوقت²، و هذه الممالك هي: كنت (في الزاوية الشرقية من بريطانيا، و قد أسستها قبائل الجوت)، أوسكس، سيسكس، إسكس (تقع في الجنوب الشرقي و قد أسسها قبائل الساكسون)، أنغليا أو إنكلترا الشرقية (تقع شرقاً)، نورثومبريا (تقع في الشمال)، ميرسيا (تقع في الوسط و الغرب) وهذه الممالك الثلاثة الأخيرة أسستها قبائل الأنغلو. هذا و لم تكن هذه الممالك متحدة مع بعضها البعض، بل كانت تتنازع دائماً و تحاول كل منها فرض سلطتها على الممالك الأخرى. هذا و كان لمملكة نورثومبريا سيطرة اسمية على باقي الممالك البريطانية الأخرى. وفي القرن التاسع احتلت مملكة أوسكس مكان الصدارة و الزعامة، حيث أخضعت الممالك الأخرى لسيطرتها و وحدتها في مملكة واحدة بزعامة ملكها إيكيرت (802-839). و منذ ذلك الوقت أصبحت بريطانيا تعرف باسم إنكلترا.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 151.

2 - Maurer: Geschichte Englands, S. 15.

هناك عوامل داخلية و خارجية ساعدت على توحيد بريطانيا في مملكة واحدة. ففي القرن التاسع الميلادي وجد في بريطانيا طبقة إقطاعية تعمل دائماً للسيطرة على أملاك صغار الفلاحين و الملاك وتعمل على تجريدهم من هذه الاملاك. و بناءً على ذلك فكان الشغل الشاغل لكبار الإقطاعيين ضم الممالك البريطانية الصغيرة في مملكة واحدة بهدف تأسيس نظام إداري و عسكري قوي يستطيع القضاء على تمردات الفلاحين و صغار الملاك إن حدثت. و هكذا تم توحيد بريطانيا بناءً على مساعي كبار الإقطاعيين، و الدليل على ذلك هو أنه لم يتم تشكيل مجلس شعبي يمثل صغار الملاك و الفلاحين في مملكة إنكلترا بل تأسس ما يسمى ب (مجلس الحكماء) الذي ضم في صفوفه كبار الإقطاعيين فقط. ومن اللافت أنه لم يكن يحق للملك الإنكليزي إقرار القضايا دون الرجوع إلى مجلس الحكماء. أما بالنسبة للعوامل الخارجية التي ساعدت على توحيد بريطانيا في مملكة واحدة، فكانت غارات النورمانديين على أراضي بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن. حيث دفعت هذه الغارات الممالك الأنغلوساكسونية على الاتحاد في مملكة واحدة بهدف توحيد الجهود و القوى للدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية¹.

2 - النورمانديون أو الفيكينغ:

يقصد بالنورمانديين أو بالفيكينغ العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندناوة و شبه جزيرة الدانيمارك و التي شكلت غاراتها على أوروبا خطراً كبيراً عليها في القرن التاسع. و قد أطلقت هذه العناصر على نفسها، كما أطلق عليها

1 -فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 152.

المعاصرون، اسم الفيكينغ Viking بمعنى سكان الخلجان، و هي الظاهرة الطبيعية الواضحة التي تكثر في شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا¹.

و هناك فرق بين الفيكينغ الذين يرجعون إلى الأصل النيتوني أو الجرمانى و بين العناصر الجرمانية الأولى التي أغارت على أوروبا في أواخر العصور القديمة و بداية العصور الوسطى. حيث إن الفيكينغ أو النورمانديين بقوا برابرة محافظين على عاداتهم البدائية فيما يختص بنظم الحكم و البناء الاجتماعى و الديانة، و ظلوا حتى القرن التاسع يعيشون في هذه العزلة غربيين و بعيدين عن المجتمع و العالم الرومانى و عالم البحر المتوسط، على عكس غيرهم من القبائل الجرمانية السالفة التي احتكت بالحضارة الرومانية و بالديانة المسيحية قبل اجتياحها حدود الإمبراطورية بعدة قرون. هذا و لم تخطط الإمبراطورية الرومانية أو الإمبراطورية الفرنجية لتوسيع نفوذها ليشمل تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع، حيث بدأت هذه العناصر و القبائل تشن غاراتها على العالم الأوروبى الجنوبى، و هذا ما دفع بعض المؤلفين إلى القول إن النورمانديين هم الذين استكشفوا أوروبا و ليس أوروبا هي التي كشفت عن النورمانديين.

دفعت الطبيعة بالفيكينغ أو النورمانديين باتجاه البحر، فبرعوا في صناعة السفن الصغيرة المكشوفة و التي امتازت بطولها و قلة عرضها و سيرت بالمجداف أو الشراع، و قد جابوا فيها شواطئ أوروبا من بحر البلطيق حتى البحر المتوسط، حتى إنهم تجاوزوا هذه البحار و قاموا برحلات متكررة إلى أعالي المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشعوب البحرية التي عرفت أوروبا في العصور الوسطى. لهذا كانت غارات النورمانديين دائماً عبر البحر و بشكل أقرب إلى القرصنة منه

1 - Mawer, Allen: The Vikings, New York 1913, S. 1.

إلى الزحف البري الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية قبل ذلك بنحو أربعة قرون من الزمن. كما اتصف الفيكنغ بمهارتهم في القتال و قوة تسلحهم، (المؤلف من بلطة و رمح طويل و درع و خوذة من الحديد لكل محارب) ¹.

بدأ النورمانديون يشنون غاراتهم على أوروبا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي. و نجح النورمانديون في غاراتهم بسبب تشرذم أوروبا الغربية إلى ممالك و إمارات إقطاعية تتنازع فيما بينها من ناحية، و بفضل شهرتهم في الملاحة و سرعة سفنهم و اتقانهم لفنون القتال من ناحية أخرى. كانت غارات النورمانديين في البداية سريعة و مؤقتة، حيث كانوا يقومون بغزواتهم خلال الصيف، و بعد ذلك يعودون إلى بلادهم في الخريف محملين بالغنائم. و لكن مع الوقت بدأ النورمانديون يستوطنون على شواطئ البلاد التي يغيرون عليها، و بعد ذلك ينطلقون منها إلى داخل البلاد المعادية، فيحتلون المدن و القرى و ينشرون الخوف و الهلع في كل مكان يصلون إليه. كان ملوك أوروبا و كبار أمرائها و إقطاعيها عاجزين عن صد هجمات النورمانديين، لذلك كانوا مجبرين على شراء انسحابهم و إيقاف غزواتهم بالمال أو عن طريق عقد اتفاقيات يسمحون لهم من خلالها بتشكيل مستعمرات استيطانية في الأراضي التابعة لممالكهم و إقطاعاتهم و هذا ما حدث كثيراً في كل من فرنسا و إنكلترا.

اتجه النورمانديون الغربيون (النرويجيون و الدنماركيون) بغزواتهم باتجاه الغرب و الشمال و الجنوب، حيث وصل النرويجيون إلى إنكلترا و إيرلندا و اسكتلندا و آيسلندا و غرينلندا و سوبحل أمريكا الشمالية، بينما و صل الدانماركيون إلى ألمانيا و إنكلترا و فرنسا و أسبانيا و إيطاليا. أما النورمانديون

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 174 - 175.

الشرقيون (السويديون) فقد اجتازوا بحر البلطيق و غزوا أوروبا الشرقية فوصلوا إلى سويحل البحر الأسود و بحر قزوين¹.

مرت علاقة النورمانديين بغرب أوروبا بثلاثة أدوار رئيسية: الأول دور الهجوم و الثاني دور الاستقرار و الثالث دور الدفاع. أما في دور الهجوم فقد بدأ منذ أواخر القرن الثامن عندما بدأ النورمانديون يهددون شواطئ إنكلترا و اسكتلندا و إيرلندا و أخذت هذه الغارات شكلاً خطيراً بعد وفاة شارلمان و خصوصاً بعد وفاة لويس النقي. أما الدور الثاني فبدأ منذ منتصف القرن التاسع، حيث بدأ النورمانديون يمضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات محصنة قرب شواطئ البلاد التي يغيرون عليها. و بعد أن كانوا في الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة، أصبحوا في الدور الثاني يغيرون على غرب أوروبا على شكل مجموعات كبيرة و معهم نساؤهم و أطفالهم بهدف الاستقرار في البلاد الجديدة. و هكذا استطاع النورمانديون إنشاء مستعمرة قصيرة العمر في إيرلندا في عام 843 كما بدؤوا يستقرون في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد باسم نورمانديا. و بعد ذلك شرعوا يتوغلون تدريجياً في داخل البلاد الجديدة. و كلما غادر الأهالي الأجزاء القريبة باتجاه الداخل تبعهم النورمانديون. و هكذا استقر النورمانديون في الجزء الغربي من فرنسا بعد منتصف القرن التاسع و أصبح يعرف هذا القسم من فرنسا باسم نورمانديا. أما الدور الثالث في قصة هجرة النورمانديين فهو الدور الذي امتاز بمقاومة أهل البلاد الأصليين و حكامها للنورمانديين في حين التزم الأخيرون بالدفاع عن أنفسهم. و قد كانت نقطة البداية

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 153 - 154.

في هذا الدور عندما قاوم حاكم باريس، الكونت أودو، النورمانديين عندما حاصروا باريس 885 - 887م¹.

3 - غارات النورمانيين الدانيماركيين على إنكلترا في القرنين التاسع و العاشر

بدأ النورمانديون الدانيماركيون يشنون غزواتهم على أراضي إنكلترا منذ أواخر القرن الثامن و أوائل التاسع الميلادي. لكن غزواتهم في البداية اتسمت بطابع السلب و النهب و الحصول على الغنائم، لكن مع الوقت بدأت تكتسب هذه الغارات الطابع الإستيطاني و خصوصاً منذ العقد الرابع من القرن التاسع الميلادي حيث اشتدت غاراتهم في شكل جماعات صغيرة، و منذ عام 865 وصلت جماعة كبيرة منهم بهدف الإستيطان². و في عام 866 طلب ملك فرنسا شارل الأصغر من الدانيماركيين أن يغادروا فرنسا مقابل مبالغ كبيرة من المال، و هذا ما أدى إلى تركيز الدانيماركيين غاراتهم على إنكلترا و احتلوا المنطقة الشمالية الشرقية منها، نورثومبريا و ميرسيا و أنغليا الشرقية. أما بالنسبة لمملكة أوكس فاستطاعت الحفاظ على استقلالها، بل و استطاعت جمع كل الممالك البريطانية حولها و أصبحت المركز الرئيسي لمقاومة الدانيماركيين الغزاة. و كان ألفريد العظيم (871-899) أول ملك على إنكلترا بكل ممالكها، و كان لهذا الملك دور كبير في تاريخ إنكلترا و عد عهده نقطة تحول في تاريخ إنكلترا³. و في العام الأول لاعتلاء ألفريد العرش، ظهر كبطل شعبي تمكن من التصدي للغزاة في معارك كثيرة لم

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 177 - 178.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 231.

3 - Vollrath, Hanna: die englischen Könige im Mittelalter, München 2004, S. 32.

يكن النصر فيها حاسماً لأي طرف، و في عام 872 عقد ألفريد صلحاً مع الدانيماركيين لم يكن هذا الصلح سوى عبارة عن هدنة استغلها الطرفان لحشد القوات و جمع القدرات و تكررت المعارك بين الطرفين 878 - 892. و حاول ألفريد تنظيم قواته العسكرية بشكل غير تقليدي، حيث سلح المواطنين و استدعاهم للدفاع عن المملكة بالتناوب، حيث كان يحارب بعضهم و يبقى بعضهم الآخر في الحقول. عدا عن ذلك قام بتحسين الأماكن المهمة و الحساسة و وفر لها كل وسائل الدفاع الضرورية، و جهز سفناً على طريقة سفن أعدائه النورمانديين و نجح بضرب أعدائه في عام 896.

اهتم ألفريد بالعمل على نشر الدين المسيحي و ارتبط بالبابوية و قام بزيارة الفاتيكان عدة مرات. كما اهتم بالتعليم و أسس المدارس. اعتنى بالإضافة إلى ذلك بالإدارة المدنية و أعاد للقانون سلطته بعد أن ألغتها الحرب، و أمر بجمع القوانين و التقاليد و إعادة تصنيفها ثم أدخل عليها تعديلات تلائم الدين المسيحي، و شيد ألفريد العديد من الكنائس و الأديرة¹.

و تعد معاهدة الصلح في عام 885 بين ألفريد و النورمانديين من أهم المعاهدات في عهد ألفريد على الرغم من تجدد النزاع بين الطرفين بعدها، لكن هذه الحروب لم تغير شيئاً مهماً في معاهدة عام 885 التي تنص على ترسيم الحدود الفاصلة بين مملكة الأنغلوساكسون و مملكة النورمانديين الدانيماركيين على الأراضي الإنكليزية، فكانت الحدود عبارة عن الخط الممتد من مصب نهر

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 231 - 233.

التيتمز حتى شستر، بمعنى آخر أن لندن و الجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفريد، في حين التزم النورمانديون بالأراضي الواقعة شمالي هذا الخط¹.

توفي ألفريد، ملك إنكلترا في عام 899، ليقوم بعده خلفاؤه من الملوك الأنغلوساكسون في القرن العاشر بحروب تحريرية لاسترداد الأراضي التي احتلها الدانيماركيون في إنكلترا، فقد استطاع إدوارد بن ألفريد العظيم و الذي خلفه على العرش (899 - 924) أن يسترد ميريسا و أنغليا الشرقية من الدانيماركيين، و استطاع ابنه أثيلستان (925 - 939) تحرير نورثومبريا، فأصبح بعد ذلك ملكاً على إنكلترا كلها. هذا و كان قد رفع شأن أثيلستان في العالم الأوروبي زواج شارل البسيط من أخته الأولى و زواج الدوق الفرنجي هوغ الكبير من أخته الثانية و زواج أوتو الثالث من أخته الثالثة. و في زمن ملك إنكلترا، إدموند (939 - 946)، حاول الدانيماركيون السيطرة على بعض أقاليم في إنكلترا، لكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل. و خلف إدموند على عرش إنكلترا أخوه أدرد (946 - 955)، و الذي استطاع أيضاً إحباط محاولات الدانيماركيين في احتلال أجزاء من إنكلترا. وفي عهد كل من الملك أدوي (955 - 959) و أخيه ادغار (959 - 975) عم الاستقرار المملكة الأنغلوساكسونية، فقد توقفت في عهدهما غارات الدانيماركيين على أراضي إنكلترا. لكن في الربع الأخير من القرن العاشر انتشرت الفوضى و عمت الاضطرابات في كل إنكلترا، و ذلك بسبب الحروب و النزاع بين أبناء الملوك و أتباعهم على عرش إنكلترا. و هذا ما فتح الطريق أمام الدنماركيين ليتابعوا شن غاراتهم على أراضي إنكلترا في الفترة الممتدة بين عامي 980 و 994. هذا و أوقف الدنماركيون هجماتهم على إنكلترا لفترة قصيرة في نهاية القرن العاشر، و ذلك بسبب تعهد ملك إنكلترا اثلرد (978 - 1016) بدفع مبالغ مالية

1 - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 190.

كبيرة لملك الدانيماركيين سفيند، الذي كان قد قاد العمليات العسكرية الأخيرة بنفسه ضد إنكلترا¹.

4 - احتلال الدانيماركيين إنكلترا في النصف الأول من القرن الحادي عشر و تشكل الإمبراطورية الدانيماركية

اجتاحت قوات الملك الدانيماركي سفيند جنوب النرويج و أخضعها لسلطته في بداية القرن الحادي عشر. في هذا الوقت كان ملك إنكلترا اثلرد يعقد التحالفات و يعد العدة للتخلص من دفع الجزية للملك الدانيماركي و التخلص من هذا الخطر، و لأجل ذلك فقد تزوج الملك اثلرد من إيما Emma ابنة دوق نورمانديا².

وفي عام 1002 أحس الملك اثلرد بأنه يملك من القوة ما يكفي لتنفيذ مخططاته و مجابهة ملك الدانيمارك فأمر في 13 تشرين الثاني 1002 بملاحقة كل الدانيماركيين المتواجدين على أراضي إنكلترا و قتلهم، وكان من ضمن من قتلوا في حمام الدم هذا أخت ملك الدانيمارك سفيند و زوجها. هذا العمل دفع الملك الدانيماركي للانتقام بشدة من اثلرد فقد جهز جيشه أفضل تجهيز و أرسله في عام 1009 إلى إنكلترا، قام هذا الجيش الضخم بالسلب و النهب و التدمير في إنكلترا على مدى ثلاثة أعوام و انتهت هذه الحملة العسكرية في عام 1012 حيث أجبر الثرد على دفع مبالغ مالية طائلة للملك الدانيماركي مقابل الهدنة، لكن سرعان ما تجددت الأعمال العسكرية و اجتاح ملك الدانيمارك إنكلترا بقواته في

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 155.

2 - Maurer: Geschichte Englands, S. 24.

1013 و سيطر على كامل إنكلترا و أصبح ملكاً عليها في نفس العام، بينما فرّ الملك اثلرد هارباً إلى نورمانديا¹.

توفي سفيند، ملك الدانيمارك و إنكلترا، في عام 1014 و خلفه ابنه البكر هارلود ملكاً على الدانيمارك و ابنه الثاني كنوت ملكاً على النرويج و إنكلترا. عمل كنوت الملقب بالعظيم أو بالكبير (1014 – 1035) على توطيد سلطته و فرض نفوذه في إنكلترا². لكن و بعد فترة قصيرة من وفاة الملك سفيند استطاع ملك إنكلترا اثلرد، الذي لجأ إلى نورمانديا، أن يجمع قواه و يعود مرة ثانية إلى إنكلترا ملكاً، وجد كنوت ابن سفيند الأصغر نفسه مضطراً أمام ضغط اثلرد العسكري لمغادرة إنكلترا و الذهاب إلى أخيه هارلود ملك الدانيمارك. لكن و بعد أن عاد اثلرد إلى إنكلترا ارتكب نفس الخطأ السابق في عمليات القتل و الاغتيال بحق الدانيماركيين. قام كنوت بعد ذلك بمهاجمة إنكلترا بمساعدة أخيه هارلود ملك الدانيمارك في عام 1015 و استطاع أن يعيد سيطرته على معظم مناطقها. توفي الملك اثلرد في نيسان 1016 و خلفه ابنه إدموند ملكاً على إنكلترا. جهز إدموند جيشاً كبيراً وهاجم القوات الدانيماركية لكنه تعرض لخسارة فادحة بعد معركة حاسمة تعرض فيها للخيانة في تشرين الأول 1016. و وجد إدموند نفسه مضطراً بعد هذه الهزيمة للتفاوض مع كنوت على اقتسام حكم إنكلترا بينهما. وكانت نتيجة المفاوضات تقسيم إنكلترا إلى قسم يحكمه كنوت و يضم ميرسيا و نورثومبريا، و قسم يحكمه إدموند و يضم أوكس. هذا و تضمنت الاتفاقية بندا ينص أنه إذا مات أحد الملكين فيخلفه الملك الآخر. و هكذا انتهت الحروب بين الملكين، و

1 – Sarnowsky, Jürgen: England im Mittelalter, Darmstadt 2002, S. 46.

2 – Maurer: Geschichte Englands, S. 25.

لكن بسبب موت إدموند المفاجئ في 30 تشرين الثاني 1016، أصبح الملك الدانيماركي كنوت الكبير ملكاً على كل إنكلترا و دون حرب هذه المرة¹.

عندما كان الملك كنوت منشغلاً في حروبه في إنكلترا 1015 - 1017 استطاعت النرويج التحرر مؤقتاً من سيطرة الدانيمارك، فقد استطاع أحد الأشخاص النرويجيين و اسمه أولاف القوي أن يعتلي العرش النرويجي و يضع حداً للسيطرة الدانيماركية عليها. لكن هذا لم يعن أن هذا الحال سيستمر، حيث لم يغيب عن تفكير كنوت استعادة النرويج للحظيرة الدانيماركية عندما تأتي فرصة مناسبة. و في عام 1019 توفي ملك الدانيمارك هارلود ابن الملك سفيند و أخ الملك كنوت دون أن يكون له وريث على العرش. فأصبح أخوه كنوت ملكاً على الدانيمارك و إنكلترا معاً. رغب الملك كنوت أن يجعل من بحر البلطيق بحيرة دانيماركية، و لأجل ذلك أرسل حملات عسكرية بحرية إلى شواطئ البلطيق الجنوبية و الشرقية و أسس أيضاً مراكز نفوذ دانيماركية بين الشعوب السلافية المستوطنة هناك. استمر النزاع السياسي و العسكري بين الملك كنوت و أولاف لفترة لا بأس بها استطاع كنوت أخيراً الفوز على أولاف و قتله و استعادة حكم النرويج في عام 1030. و بذلك تكون قد تشكلت الإمبراطورية الدانيماركية تحت حكم الملك كنوت الذي كان في الوقت نفسه ملكاً لثلاث ممالك و هي: الدانيمارك و إنكلترا و النرويج بالإضافة إلى الأقاليم السلافية المنتشرة على شواطئ بحر البلطيق. بالإضافة إلى ذلك أعلن ملكاً إيكوسيا و إيرلندا بأنهما أتباع الملك كنوت و يعترفون بسيادته. كما اعترف كل من شوتلاندة و أوركاد بسلطة كنوت. لكن هذه الإمبراطورية الجديدة كانت تفتقد للتماسك و الاندماج، لأنها كانت تحتوي عدة

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 46.

أجناس مختلفة لا يجمع بينهما شيء مشترك يضمن استمراريتها. لم يكن بمقدور الملك كنوت إدارة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف وحده، و هذا ما دفعه لتقاسم إدارتها مع أولاده، فعين ولده هارتا ملكاً على الدانيمارك و ولده سفيند الثاني ملكاً على النرويج، بينما حكم هو إنكلترا بشكل مباشر. ومن اللافت أن كل مملكة من هذه الممالك الثلاث حافظت على نظمها و قوانينها و مجالسها الخاصة، دون أن يكون هناك نظام واحد يطبق في الممالك الثلاث و يجمع بينها¹.

طلق كنوت زوجته الأولى و تزوج أرملة ملك إنكلترا السابق اثرد، و كان لزوجته الجديدة ولدان من الملك الراحل و لاجئان في مقاطعة نورمانديا هما ألفرد و إدوارد، و إدوارد هذا سيصبح ملكاً على إنكلترا بعد فترة من الزمن باسم إدوارد المعترف. حاول الملك كنوت أن يدمج كل الأثنيات و الشعوب في إنكلترة مع بعضها بعضاً بقدر المستطاع. و فهم كنوت جيداً أي دور يمكن أن تؤديه الكنيسة في تنفيذ سياسته هذه. و لأجل ذلك فهو لم يعتنق الدين المسيحي فقط كما فعل قبله الملوك الدانيماركيون، بل أرسل عدداً كبيراً من رجال الدين المسيحي من الأنغلوساكسونيا إلى بلاده الأصلية، الدانيمارك، لنشر الدين المسيحي هناك، و استخدم كنوت الكنيسة كداعم أساسي لسياسته و بسط نفوذه.

هذا و عمل كنوت على تنظيم جيش قوي و منظم في إنكلترا، و لأن كنوت كان يحكم عدة ممالك في وقت واحد لم يكن باستطاعته التواجد في إنكلترا دائماً و لذلك قام بتنظيم الجهاز الإداري في إنكلترا و جعل نفسه رئيساً عليه و كلف أدواق المقاطعات بمهام مخصصة في حال غيابه و كمندوبين عنه. نظم كنوت الأمور السياسية و الإدارية في إنكلترا بشكل يضمن عدم قيام أي تمرد أو عصيان ضد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 157.

حكمه في المستقبل، فعمل على مكافأة الأمراء الذين ساعدوه و أيدوا حكمه بتعيينهم في الوظائف المهمة و أعطاهم الأراضي و الإقطاعات و في الوقت نفسه عمل على القضاء على كل من وجد بهم خطراً يهدد عرشه وقام بإعدامهم. كان عهد كنوت العظيم مميزاً بالنسبة لتاريخ إنكلترا و خصوصاً من ناحية الازدهار الاقتصادي و التجاري. حيث أقام علاقات تبادل تجاري متعددة مع الدول الاسكندنافية و بلاد فلاندرز. و كانت أهم نتائج عصر كنوت هي دمج العناصر الدانيماركية مع الأنغلوساكسونية في إنكلترا¹.

توفي كنوت العظيم في عام 1035 فخلفه على العرش الإنكليزي ولده هارلود، في حين كان ولده سفيند الثاني يحكم النرويج و ولده هارتا يحكم في الدانيمارك. و في عام 1035 أعلن ماغنوس ابن أولاف القوي الثورة ضد الحكم الدانيماركي في النرويج، مما أجبر سفيند الثاني إلى الفرار و الذهاب إلى الدانيمارك حيث توفي في عام 1036. بعد ذلك أعلن ماغنوس الحرب على الدانيمارك نفسها و هاجمها، ثم عقد معاهدة صلح مع ملكها هارتا، حيث اعترف كل منهما بسلطة الآخر. كما اتفقا على أنه في حين وفاة أحدهما دون أن يكون له وريث فيخلفه الآخر على عرشه. هذا و توفي الملك هارتا في عام 1042 فخلفه ماغنوس ملكاً على الدانيمارك و النرويج في الوقت نفسه حتى عام 1047.

حكم هارلود بن كنوت إنكلترا منذ عام 1035 و حتى 1040، وبعد وفاته خلفه أخوه هارتا الذي بقي ملكاً حتى وفاته في عام 1042. استعادت الأسرة الأنغلوساكسونية العرش الإنكليزي بعد وفاة هارتا، حيث استلم الحكم إدوارد بن اتلرد و إيما (1042 – 1066) و عرف الملك إدوارد بتقواه و ورعه الديني لذلك

1 – Mauer: Geschichte Englands, S. 25f.

لقب ب (المعترف) لكن لم تكن سلطة إدوارد قوية في إنكلترا، بسبب ضعف شخصيته و كثرة تدينه، كما نازعه على الحكم و النفوذ أسرة غودون التي حكم أفراد منها معظم مناطق إنكلترا. لكن مصير إنكلترا و تاريخها تغير مجراه بسبب قيام غليوم الفاتح، دوق نورمانديا، باحتلال إنكلترا¹.

احتلال إنكلترا من قبل غليوم الفاتح و تشكل المملكة الأنغلية - النورماندية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر

في الوقت الذي كان فيه جهد بابوات روما و على رأسهم البابا غريغوري السابع منصبا على تحرير الكرسي الرسولي في الفاتيكان من ضغوط القيصريّة البابوية و تأمين الاستقلال له و جعله يتفوق على كل الدول المسيحية، كان احتلال إنكلترا على يد غليوم الفاتح يرسم ملامح جديدة لوجه أوروبا الغربية. فقد أنشأ اتحاد إنكلترا و نورمانديا تحت تاج واحد، دولة جديدة، حول ألمانش و ولد في القرن الثاني عشر نزاعاً مريراً بين المملكة الكايبية و المملكة الأنغلية-النورماندية و استمر هذا النزاع حتى أواخر العصور الوسطى.

في مطلع القرن العاشر استوطنت العناصر النورماندية الاسكندنافية في شمال غرب فرنسا و أطلق على هذا الإقليم مقاطعة نورمانديا كناية عن العناصر التي حلت فيه. وكان ملك الفرنجة شارل البسيط قد سمح للنورمانديين بالإستييطان في مقاطعة نورمانديا مقابل أن يعترفوا بسيادته و التبعية الاسمية له. كانت هذه التبعية عملياً ضعيفة و نمت السلطة المحلية و النزعة الاستقلالية في نورمانديا بشكل مستمر. كان ريتشارد الأول (943 - 996) أول من حكم دوقية نورمانديا و خلفه الدوق ريتشارد الثاني (996 - 1027) و كانت سياسة هذين الدوقين

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 158.

تتصب على الحيلولة دون وقوع أي تعد على الدوقية و سلطاتها و الحفاظ على وحدتها ضد هجمات البارونات. و لم يتشكل في نورمانديا سلطات إقطاعية واسعة و قوية يمكن أن تنافس بقوتها السلطة الدوقية.

أصبح غليوم، الذي لقب بالفاتح أو بالداعي بعد أن تمكن من احتلال إنكلترا، دوقاً على نورمانديا في عام 1035. وكان عمره عندما استلم الحكم ثماني سنوات فقط. لم تخل بداية حكم غليوم من الاضطرابات و المشاكل حيث حاول كبار الإقطاعيين و البارونات التطاول على السلطة الدوقية، لكن الدوق غليوم الذي اتصف بصفات الحاكم القوي و المسيطر استطاع بمساعدة ملك فرنسا هنري الأول القضاء على تمرد البارونات الثائرين في معركة الكثبان عام 1047م¹.

بعد موت الملك كنوت تفتت إمبراطوريته الكبرى. و انتخب النبلاء العلمانيون و رجال الدين المسيحي شخصاً من سلالة الملك ألفرد الكبير وهو (إدوارد المعترف 1042 - 1066) و أجلسوه على العرش الملكي في إنكلترا. هذا و شهد عهد الملك إدوارد المراحل الأولى للتحلل السياسي للملكة مقابل نمو سلطة كبار الإقطاعيين و البارونات. و نتيجة لموت إدوارد في عام 1066 دون وجود وريث يخلفه على العرش الإنكليزي، قام النبلاء الأنغلو ساكسون بانتخاب أقوى النبلاء، هارولد جونسون، على أساس المبدأ الانتخابي الجرمانى القديم ليصبح ملكاً على إنكلترا. لكن غليوم، دوق نورمانديا الطموح، ادعى أحقيته في وراثة عرش إنكلترا بالوراثة عن طريق جدته، و ادعى أن كلاً من إدوارد و هارولد قد وعداه باعتلاء عرش إنكلترا عند موت إدوارد. استطاع غليوم أن يوحد شعبه في نورمانديا خلف قيادته و تمكن من إنشاء أكبر دولة إقطاعية في أوروبا الغربية

1 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوربة، ج1، ص 685 - 686.

على أساس مركزي و استطاع أن يكسب دعم الكنيسة و أظهر نفسه كحامٍ لها وهذا ما زاد أسهمه لدى البابوية. عباً الدوق غليوم كل الجيش الإقطاعي في دوقية نورمانديا تقريباً كما جند المرتزقة وكل من يتوق للمغامرات في الخارج و حصل غليوم على تأييد معنوي كبير من البابوية لأن الفاتيكان لم يكن راضياً عن حال الكنيسة في إنكلترا، لأنها كانت تدير شؤونها بشكل مستقل تماماً، و انتشر فيها الفساد و كانت البابوية تتوقع أن يؤدي غزو غليوم لإنكلترا إلى إصلاح الكنيسة فيها¹.

جهز غليوم جيشه و خطته الحربية بعناية و عبر البحر بجيشه من نورمانديا إلى شواطئ إنكلترا الجنوبية، في هذه الأثناء كان هارولد قد علم بأن غليوم كان قد جهز جيشه و اتجه باتجاه إنكلترا، لذلك قرر هارولد ملاقاته عدوه غليوم عند الشواطئ الإنكليزية لمفاجأته. وصلت القوات النورماندية بقيادة غليوم إلى شواطئ إنكلترا و جرت معركة حاسمة قرب الشاطئ في سهل هاستنغر في 14 تشرين الأول 1066 استطاعت فيها القوات النورماندية إلحاق الهزيمة بالقوات الإنكليزية و قتل الملك هارولد و أخيه في المعركة، مما اضطر القوات الإنكليزية المتبقية إلى الفرار أمام غليوم و جنوده. وبعد معركة هاستنغر تابع غليوم زحفه إلى مشارف مدينة لندن التي استسلمت له و قدمت التاج الملكي له، و توج ملكاً على إنكلترا في يوم عيد الميلاد من عام 1066 باسم غليوم الأول و لقب بعد ذلك باسم (غليوم الفاتح)². هناك عوامل عديدة كانت قد أدت دوراً مساعداً في نجاح

1 - كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية و النهاية، ج2، ترجمة قاسم

عبد قاسم، عين، القاهرة 1997، ص 389 - 391.

2 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 79 - 81.

الاحتلال النورماندي لإنكلترا، و أهم هذه العوامل هي: 1 - تفوق الجيش النورماندي على الجيش الإنكليزي عدداً و عدة 2 - افتقار إنكلترا لوجود الوحدة السياسية 3- عدم وجود حس الانتماء لإنكلترا كوطن بشكل قوي 4 - النزاع القائم بين الإقطاعيين الإنكليز أنفسهم 5 - ضعف السلطة الملكية المركزية¹.

العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية و النظم الإدارية في إنكلترا في عهد غليوم الفاتح

كان غليوم الفاتح قد أقسم أمام مجلس الأعيان بعد تتويجه ملكاً على إنكلترا بأنه سوف يحترم القوانين المتبعة في إنكلترا و ربما كان مضطراً إلى ذلك لتهدئة النفوس و لإرضاء الشعب في إنكلترا. لكن حكم إنكلترا لم يكن سهلاً في مثل تلك الأوضاع، فقد وجد الكثير من الأمراء و الإقطاعيين الذين كانوا يتحينون الفرص لطرد غليوم و النورمانديين من بلادهم، و استمرت هذه المرحلة لخمس سنوات تقريباً. ومن هذه الأحداث أن الشعب في إنكلترا قام بثورة ضد غليوم في عام 1067 أي في العام التالي لاحتلال إنكلترا. و قد اندلعت هذه الثورة التي أشعلها بعض النبلاء عندما كان غليوم غائباً عن إنكلترا حيث عاد إلى نورمانديا لإعادة ترتيب بعض أمور إمارته الداخلية. لكن وما إن علم غليوم بنشوب ثورة ضده في إنكلترا حتى عاد مسرعاً إليها و استطاع إخماد الفتنة فيها بالطرق العسكرية، و لكن القوة العسكرية لم تكن كافية لضمان عدم حدوث أمر مماثل، لذلك قام غليوم بالقضاء على الأمراء و كبار الإقطاعيين بتجريدهم من أراضيهم و ممتلكاتهم التي كانت تشكل الخطر الأكبر عليه، و أعطى هذه الأراضي لموظفيه و رجاله المقربين منه من النورمانديين و قام الملاك النورمانديون الجدد أنفسهم ببناء قصور

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 159 - 160.

محصنة و قلاع للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد الأصليين، هذا و احتفظ غليوم
بقسم كبير من الأراضي الإنكليزية لنفسه حيث أصبحت هذه الأراضي ملكاً للتاج
الملكي¹.

و هكذا أدى احتلال غليوم لإنكلترا إلى صبغ المملكة بالصبغة الإقطاعية
بشكل كامل و لم يأت عام 1087 حتى كان القسم الأكبر من هذه العملية قد تم
إنجازه. و باعتبار أن غليوم الفاتح عد نفسه السيد الأعلى على كل قرية إقطاعية
في إنكلترا بموجب الفتح، فقد تمكن من بناء هيكل إقطاعي دقيق يدور في فلك
الملك باعتباره السيد الإقطاعي لكل فارس في المملكة. و كما هو الوضع في
نورمانديا، فقد تم إخضاع الأساقفة و رجال الدين لالتزامات إقطاعية كبيرة في
البداية، و بعد ذلك أعطيت هذه الإقطاعات للنبلاء المدنيين و باستثناء كبار
الإقطاعيين في مناطق الحدود و الأطراف و الذين حصلوا على امتيازات خاصة و
مساحات كبيرة من الأراضي، كانت ضياع و أملاك أي سيد إقطاعي كبير مبعثرة
و موزعة بين مقاطعتين أو أكثر لمنع نمو أي نزعة استقلالية إقليمية². و بناء
على هذا النظام أصبح معظم الفلاحين الأحرار أتباعاً للإقطاعيين، كما تدهورت
أوضاعهم الاقتصادية نتيجة للاستغلال الإقطاعي الجائر. هذا و كان غليوم قد
صادر أملاك الذين لم يناصروه في البداية، إلا أنه سمح لهم بافتدائها و
استعادتها، شرط أن يصبحوا أتباعاً له و يقدموا له ما يطلبه من خدمات. و قد
بلغت أملاك غليوم الخاصة في إنكلترا حوالي 7/1 من إجمالي الأراضي الصالحة

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 244.

2 - كانتور: التاريخ الوسيط، ج2، ص 392 - 393.

للزراعة، و هذا ما أدى إلى تنامي قوة الملك و تعاظم نفوذه و ترسيخ سلطته الملكية¹.

أرسل غليوم الفاتح في عام 1086 المحققين إلى كافة أنحاء إنكلترا من مدن و قرى و كلفهم بإحصاء جميع ملكيات المملكة و تقدير الواردات التي يمكن الحصول عليها، و بناءً على هذه الأوامر قام المحققون بإحصاء دقيق جداً لعدد الأتباع و الفلاحين، و أصل الملكيات و اسم مالكيها، و عدد الحيوانات الداجنة و الغابات و المروج و المراعي و الطواحين و غير ذلك من مصادر الثروة². أراد الملك غليوم من خلال هذا الإحصاء الاقتصادي أن يعرف بالضبط مقدار ما يملك كل فرد من أتباعه و مقدار دخله، لكي يفرض عليه الضريبة المالية المناسبة ويحدد له مقدار الخدمات الإقطاعية العسكرية التي يجب أن يؤديها له، هذا و وضعت لجنة الإحصاء المعلومات التي جمعتها في كتاب أطلق عليه فيما بعد اسم (كتاب الحساب الأخير). و سبب هذه التسمية هو أنه وجب على كل مالك أن يعترف أمام هذه اللجنة بكل ما يملك تماماً كما لو كان يعترف في محكمة الإله في يوم الحساب الأخير ساعة القيامة³. و بعد الانتهاء من إعداد هذا الكتاب أو السجل دعا غليوم حوالي ستين ألفاً من الملاك إلى اجتماع عقد في مدينة سالزبوري Salisbury حيث أقسموا يمين الطاعة و الولاء للملك غليوم.

استمد غليوم الفاتح الشرعية من البابوية عندما قام باحتلال إنكلترا، هذا و امتدت سلطته إلى رجال الدين أيضاً، فعندما احتل إنكلترا وجد غليوم رجال الدين في إنكلترا يعيشون حياة أقرب إلى الحياة المدنية منها إلى الحياة الكنسية و لم

1 - فرح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 160.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوربة، ج1، ص 700.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 160.

يستطع غليوم إصلاح رجال الدين فعمل على استبدال بعضهم برجال دين من نورمانديا، فاستقدم الأساقفة و القساوسة و رؤساء الأديرة. لكن غليوم و رغم الدعم المعنوي الكبير الذي قدمته له البابوية لاحتلال إنكلترا فقد اشترط على الكنيسة في إنكلترا عدم دخول أي مبعوث بابوي إلى أراضي إنكلترا إلا بإذن الملك شخصياً، كما طلب عدم إعلان أو تنفيذ أي قرار بابوي إلا بعد الرجوع للملك.

وفيما يخص التنظيمات المدنية فقد عامل غليوم أهل البلاد معاملة الفاتحين. و لكي يثبت دعائم حكمه أقام حكومة زاد عدد وزرائها تدريجياً، و تطلب هذا الكثير من الأموال للإنفاق على الحكومة، و لأجل ذلك أمر غليوم بإعادة جميع الضرائب التي كان إدوارد المتعرف قد ألغاهها، و زاد على ذلك بفرضه ضرائب على الصادرات و الواردات و استخدام الطرق و القناطر. هذا و أمر غليوم رجاله بتفتيش الأماكن و خصوصاً الأديرة للبحث عن الأموال و المدخرات عندما وصل إلى مسامعه أن البعض خبئوا أموالهم في أماكن سرية في الأديرة¹.

أدهش غليوم الفاتح و أبناؤه معاصريهم بمدى اتساع مواردهم المالية، و لم يكن هذا بسبب ثروة إنكلترا فقط، فمن المؤكد أن ثروة فرنسا و ألمانيا كانت تفوقها بكثير، ولكن لأن الملك غليوم استطاع أن يفرض الضرائب على موارد مملكته بدرجة تتعدى كثيراً قدرة أي حاكم آخر في أوروبا. و هذه الكفاءة النسبية للنظام الضريبي الملكي في إنكلترا و الذي أسسه غليوم تساعد على فهم السبب الحقيقي أن ملك إنكلترا كان و حتى القرن الخامس عشر قادراً على أن يلحق الهزائم الساحقة بالملوك الفرنسيين، الذين كانوا يحكمون ممالك بلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف سكان إنكلترا و كانت ثرواتهم الزراعية و الصناعية و التجارية أكثر بكثير

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 245 - 246.

من ثروات إنكلترا. و لأن الحروب و في أي عصر تكلف أموالاً كثيرة، فكانت سلطة أي ملك و قوته تعتمد على كفاءة نظامه الضريبي و شموليته، و بناءً على ذلك بقي الملك الأنجلو-نورماندي على مدى قرن تقريباً متفوقاً على ملوك أسرة كابية في فرنسا، كذلك لم يكن هناك أي حاكم في الإمبراطورية الرومانية المقدسة على مدى القرنين الثاني عشر و الثالث عشر يستطيع أن يتحكم في موارد بلاده المالية مثل ملك إنكلترا¹.

وصل عدد سكان إنكلترا في القرن الحادي عشر إلى مايقارب 1,5 مليون نسمة غالبيتهم العظمى يسكنون في الأرياف و قسم قليل يقطن المدن. أيد سكان المدن الذين يعمل غالبيتهم في الصناعة و التجارة سياسة الملك غليوم الفاتح، لأن أعمالهم تتطور و تزدهر صناعتهم و تجارتهم عندما توجد سلطة ملكية قوية تحافظ على الأمن و الاستقرار و تحمي البلاد من الانقسام إلى إمارات إقطاعية متصارعة فيما بينها. هذا الاستقرار السياسي أدى إلى تنشيط الصناعة و التجارة الداخلية و الخارجية و بالتالي أدى إلى نمو و تطور المدن في إنكلترا.

قسم غليوم الفاتح إنكلترا إلى عدة مقاطعات و عين على كل مقاطعة حاكماً مدنياً (شريف) من النورمانديين يمثل السلطة الملكية في مقاطعته. و كانت مهمة الشريف إدارة المقاطعة و الإشراف على المحاكم بالإضافة إلى حفظ الأمن و النظام و جمع الضرائب و دخل الأراضي التابعة للملك شخصياً. هذا و أبقى غليوم الفاتح على الميليشيا الشعبية، و أنشأ في الوقت نفسه جيشاً إقطاعياً يقدمه الإقطاعيون في إنكلترا لخدمة الملك عند الحاجة. كما حافظ غليوم على ما يسمى (مجلس الحكماء) الذي يشكله الملك من شخصيات مدنية و عسكرية و دينية

1 - كانتور : التاريخ الوسيط، ج2، 393_394.

للبحث في بعض الأمور المهمة، لكن في المحصلة بقيت إرادة الملك هي المرجع الأساسي و الأخير في كل القضايا¹.

توفي الملك غليوم الفاتح في عام 1087 و عاش أثره بعد وفاته، وأصبحت إنكلترا بعد عام 1066 تلعب دوراً أساسياً في السياسة الأوروبية، و تأثر تاريخ أوروبا الغربية باتحاد مملكة إنكلترا و دوقية نورمانديا تحت تاج واحد و نشأت قوة جديدة حول بحر ألمانش و هددت الدول المجاورة لها و خاصة المملكة الكابية. و اتجه النشاط السياسي في الغرب من جهة نحو الصراع بين الكهنوت و الإمبراطورية و من جهة أخرى نحو الصراع بين المملكة الكابية و المملكة الأنغلو-نورماندية و سيستمر هذا النزاع حتى بداية العصور الحديثة².

إنكلترا في القرن الثاني عشر

توفي غليوم الفاتح في عام 1087، بعد نصره على الملك الفرنسي فيليب الأول و هزيمة القوات الفرنسية، عندما تعرض لإصابة خطيرة بعد وقوعه عن فرسه في غمرة هذا الانتصار و تسببت هذه الإصابة بموته. و عندما علم أولاد غليوم بقرب نهاية والدهم بدأ الصراع على وراثة العرش، و كان ابنه روبرت قد حارب أباه من أجل نورمانديا و كانت النتيجة أن أوصى غليوم بدوقية نورمانديا بعد وفاته لولده روبرت، و انتهى النزاع بحصول روبرت و هو الابن الأكبر على نورمانديا بينما أصبح الولد الثاني غليوم روفوس (الأحمر) و الذي عرف باسم

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 162 - 163.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوربة، ج1، ص 706 - 707.

غليوم الثاني ملكاً على إنكلترا (1087-1100). أما الولد الثالث و هو هنري الأول فقد تولى حكم إنكلترا بعد أخيه غليوم (1100-1135) ¹.

إنكلترة في عهد الملك هنري الأول 1100-1135

بدأت مدن إنكلترا في عهد الملك هنري الأول تنمو و تتطور تدريجياً مع بداية القرن الثاني عشر، و قدم إليها الفلاحون الفقراء من الأرياف فازداد عدد سكانها و نشأت فيها صناعات مختلفة و نشطت التجارة أيضاً. ومع التطور التدريجي للصناعة و التجارة ظهرت في المدن الإنكليزية طبقة اجتماعية جديدة تشمل الصناع و التجار. و كان هذا نواة لتأسيس هؤلاء النقابات لتنظيم العلاقات فيما بينهم و لحماية مصالحهم. شجع الملك هنري الأول على تطور المدن، لأنه عدّ أن باستطاعته دعم سلطته من خلال المدن و سكانها أكثر بكثير من الاعتماد على الإقطاعيين. كما أنه سوف يستفيد اقتصادياً من خلال تحصيل الضرائب التي ستفرض على الصناعة و التجارة. و لأجل ذلك أصدر هنري الأول مراسيم كثيرة تصب في صالح سكان المدن، و نالت مدينة لندن حصة الأسد من الامتيازات، فقد مُنحت حق الإدارة المحلية و أعطي لسكانها حق التقاضي في مدينتهم و ليس في مدن أخرى، هذا و أعفي أهلها من الخدمة العسكرية و من واجب إطعام حاشية الملك عندما تزور لندن، و بالإضافة إلى كل ذلك فقد أعفيت البضائع اللندنية من الرسوم الجمركية في كافة أرجاء إنكلترا. وكانت صناعة الصوف و الأقمشة في لندن قد حققت تطوراً لافتاً و أصبحت هذه الصناعات تصدر إلى كل من فرنسا و إيطاليا و دول و ممالك أخرى ².

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 246.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 163-164.

أجرى هنري الأول أثناء فترة حكمه تعديلات قضائية و إدارية كبيرة، حيث طور عمل المحاكم و أصبح البارونات يتقاضون في نزاعاتهم أمام المحكمة الملكية أما بقية الرعية فيمكنهم التقاضي أمام المحاكم المحلية. أما إدارياً فقد أنشأ مجلس المستشارين يرأسه قاضي مستشار أول يكون خبيراً في شؤون السياسة و القضاء و مع الوقت أصبح رئيس هذا المجلس ينوب عن الملك في الحكم في حال غيابه كما كان مسؤولاً عن المحكمة الملكية و عن الخزينة و مجلس الشؤون المالية، و وجب على كل شريف تقديم كل تفاصيل دخل و نفقات مقاطعته مرتين في العام إلى هذا المجلس. استطاع هنري الأول بواسطة إصلاحاته الإدارية لجم تأثير كبار البارونات في سياسة المملكة و كان ذلك لصالح صغار الملاك و الشرفاء أيضاً¹.

ظهر هنري الأول كحاكم قوي يستطيع أن يدير شؤون المملكة الأنغلو-نورماندية بشكل جيد و كان يعمل على تهيئة الأوضاع لولده الوحيد غليوم لكي يخلفه على العرش. لكن حدثت كارثة في عام 1120 تسببت بمقتل ولده الشرعي الوحيد بعد أن غرقت سفينته في عرض البحر². كان هنري الأول قد رزق بابنة وحيدة حملت اسم والدتها ماتيلدا، و أنجبت الابنة ولداً وحيداً من زوجها جوفورا بلانتاجونية كونت مقاطعة أنجو في فرنسا، فأسمته هنري باسم جده ملك إنكلترا. هذا و سيتوج هنري بن ماتيلدا ملكاً على إنكلترا فيما بعد و سيحكم باسم هنري الثاني. توفي هنري الأول في كانون الثاني 1135 إثر تجدد الاشتباكات في نورمانديا.

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 91f.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 248.

إنكلترا في عهد الملك هنري الثاني 1153-1189

بعد موت الملك هنري الأول رفض بارونات و أساقفة إنكلترا أن تحكمهم امرأة إنكليزية متزوجة من أمير فرنسي (جوفورا) و لذلك قرر النبلاء و الأساقفة في إنكلترا انتخاب ستيفن كونت بلوا، و هو ابن أخت الملك هنري الأول، و حفيد الملك غليوم الفاتح، ليصبح ملكاً على إنكلترا¹.

و نتيجة للاختلاف حول تنصيب ستيفن ملكاً اندلعت حرب أهلية في إنكلترا دارت رحاها بين الإقطاعيين الذين يؤيدون ستيفن من جهة، و الإقطاعيين الذين يدعمون حق ماتيلدا في عرش إنكلترا من جهة أخرى. بالتأكيد لم يكن الإقطاعيون مكترئين بقضية عرش إنكلترا فقط، و إنما كانت كل فئة تقاتل الأخرى لكي تحصل على امتيازات و مكاسب جديدة و خاصة لها. استمرت الحروب الأهلية في إنكلترا حتى عام 1153 حيث عقد اتفاق بين ستيفن ملك إنكلترا و هنري بن ماتيلدا، نص هذا الاتفاق على إنهاء الاقتتال بين الطرفين و اعتراف هنري بـستيفن ملكاً على إنكلترا مقابل اعتراف ستيفن بهنري وريثاً له يخلفه على عرش إنكلترا بعد وفاته. توفي الملك ستيفن في العام التالي للاتفاق 1154 و خلفه على عرش إنكلترا هنري الثاني (حفيد هنري الأول من ابنته ماتيلدا و زوجها الفرنسي جوفورا) الذي كان في الوقت نفسه يحكم قسماً مهماً من فرنسا².

اعتلى هنري الثاني العرش الإنكليزي في عام 1154 نتيجة للتسوية المبرمة بين أطراف الحرب الأهلية في إنكلترا. صحيح كان وصوله إلى العرش كوريث اسمي للملك ستيفن لكن اعتلاءه للعرش عدّ من عدة نواح بداية جديدة على طريق

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 93.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 164 - 165.

تبدل الحكم في إنكلترا. فقد طور هنري الثاني القوانين و استطاع أن يبسط سيطرته على أقاليم أوسع من تلك التي كانت في عهد إسلامفه النورمانديين و خصوصاً أنه تزوج من الأميرة الينونور الاكيتانية، ليصبح بذلك أقوى حاكم في أوروبا في ذلك الوقت¹.

عرف عن هنري الثاني أنه كان حاد الطباع كثير المطامع و طموحاً و يملك ذاكرة قوية. و لكي يسيطر هنري على مملكته بدأ بالحد من نفوذ الإقطاعيين و إخضاعهم واحداً تلو الآخر، كما أمر بهدم عدد كبير من الحصون و القلاع الإقطاعية و أقام هنري حكمه على أساس العدل و النظام و نشر الأمن و السلم داخل أرجاء مملكته. استطاع الملك هنري الثاني إخضاع إيرلندة لسلطته و استقبل في بلاطه سفراء و مندوبين للدول و الممالك التي تطلب المساعدة أو المشورة لبلاطهم². كذلك عمل هنري على تطوير القضاء و أنشأ المحاكم التابعة للقصر الملكي. و كان التقاضي في هذه المحاكم مأجوراً يوجب على أصحاب الدعاوي دفع مبالغ من المال كأجور كي ينظر في قضاياهم. أراد الملك هنري الثاني التخلص من الاعتماد على الإقطاعيين في جمع الجنود و تجهيز الجيش و لذلك فرض هنري ضريبة المجهود الحربي على الشعب، فأمن بذلك حصوله على موارد مالية كافية لاستئجار الجنود المرتزقة عندما تستدعي الحاجة لذلك. عدا عن ذلك فقد نظم هنري الثاني ما يعرف بالجيش الشعبي، حيث فرض على كل مواطن حر امتلاك سلاح محدد حسب قدرته المالية. كما قام هنري بإخضاع الكنيسة لسلطته و كان هدفه من كل هذه الإصلاحات تقوية النفوذ الملكي و السلطة المركزية³.

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 95.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 251.

3 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 165.

وكما كان الحال عند وفاة الملك غليوم الفاتح قبل مئة عام كذلك كان الحال في إنكلترا بعد وفاة الملك هنري الثاني في عام 1189 حيث اندلع النزاع بين أبناء هنري الثاني: ريتشارد و يوحنا، الإخوة استلموا العرش الإنكليزي بعد وفاة والدهم على التوالي ريتشارد (1189-1199) و يوحنا (1199-1216).¹

إنكلترا في عهد الملك ريتشارد قلب الأسد 1189-1199

عرف ريتشارد بلقب ريتشارد قلب الأسد، و كان قد ولد في اكسفورد عام 1157، و عاش أغلب وقته في مقاطعة أكييتانيا الفرنسية ليدبر شؤون المقاطعة عوضاً عن والدته إليانور. هذا وكان لحياته في مقاطعة أكييتانيا أثر بالغ في ثقافته فلم يعد إنكليزياً تماماً بل تأثر بالثقافة الفرنسية الجنوبية و خصوصاً الشعر و الغناء و حب المغامرة.²

هذا و كان ملك فرنسا فيليب أوغسطس قد ساعد ريتشارد قلب الأسد في الوصول إلى العرش الإنكليزي و دعمه و قام ريتشارد و فيليب بقيادة القوات الصليبية معاً إلى الأراضي المقدسة في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة في عام 1190 لكن العلاقات الطيبة لم تستمر طويلاً بين العاهلين، فقد عاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا لمتابعة مصالحه و لما علم ريتشارد بذلك غادر هو أيضاً بلاد المشرق لكن و في أثناء عودته لبلاده وقع أسيراً في يد عدوه الإمبراطور الألماني هنري السادس.³

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 105.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 255.

3 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوربة، ج2، ص 66.

وفي فترة غياب ريتشارد قلب الأسد عن إنكلترا، ناب عنه في تسيير أمور الحكم في إنكلترا و فرنسا عدد من المستشارين الذين ركزوا اهتمامهم على فرض الضرائب الباهظة و جمع الأموال الكثيرة من شعوب فرنسا و إنكلترا لكي تتفق على الحملة الصليبية، و اضطر مستشارو ريتشارد إلى دفع مبلغ مئة ألف جنيه لتخليصه من الأسر. و أدت زيادة الضرائب على الشعب إلى عصيان و ثورة في صفوف الطبقة الكادحة في مدينة لندن. لكن حكومة ريتشارد استطاعت أن تطفي هذه الثورة بقوة السلاح، و أُلقت القبض على زعيم الثوار (وليم ذي اللحية الطويلة) و أعدم مع مناصريه¹.

إنكلترا في القرن الثالث عشر

إنكلترا في عهد الملك يوحنا 1199-1216

توفي ريتشارد قلب الأسد في 6 نيسان 1199 بعد أن تعرض للإصابة بسهم في أحد المعارك ضد أعدائه على الأراضي الفرنسية و كان عمره وقت ذاك لم يتجاوز 41 عاماً. و خلفه على العرش الإنكليزي شقيقه يوحنا. و أول عمل قام به يوحنا هو شراء صلح مع الملك الفرنسي فيليب أوغسطس بالمال في 22 أيار 1200. هذا الصلح لم يستمر طويلاً و بدأ فيليب أوغسطس يدعم معارضي يوحنا ملك إنكلترا من الإقطاعيين، كما حرض فيليب أوغسطس ، آرثر كونت بريتاني، و هو حفيد الملك هنري الثاني، ضد الملك يوحنا و منحه مقاطعة نورمانديا و أنجو و بواتو، و تشجع آرثر و طالب بالعرش الإنكليزي لنفسه و ساعده فيليب بالمال و الرجال لتحقيق هدفه. و نشبت الحرب بين الملك يوحنا و المطالب بالعرش آرثر و انتصر يوحنا على آرثر بعد معركة حاسمة في تموز 1202.

1 - Vollrath: die englischen Könige, S. 80.

استغل الملك فيليب أوغسطس الفرصة و تقدم لغزو مقاطعة نورمانديا و كان الموقف لصالحه، حيث كان الملك يوحنا ينقصه المال و القوات فهزمه فيليب و هرب إلى إنكلترا، و ضم فيليب بعد ذلك إلى فرنسا كل الممتلكات الإنكليزية في القارة الأوروبية و هي نورمانديا و مين و أنجو و تورين في عام 1205 و حلف إقطاعيوها يمين الطاعة و الولاء للملك الفرنسي فيليب أوغسطس¹.

عرف الملك يوحنا بالقسوة و العنف و التسرع و قلة التدبير. في أول عهده كانت العلاقات بينه و بين البابا أنوتسنت الثالث سيئة، و لكنه اضطر فيما بعد أن يعترف بسيادة البابوية، كما تعهد لها بتقديم مبلغ من المال سنوياً رمزاً للتبعية لها، هذا و انضم الملك يوحنا إلى التحالف الذي أسسه الإمبراطور الألماني أوتو الرابع و كونت فلاندرز ضد الملك الفرنسي فيليب أوغسطس، لكنه لم يحصد من هذا التدخل في الصراع بين ألمانيا و فرنسا إلا الخسارة و الفشل و انزعاج البارونات في إنكلترا من سياسته هذه. أراد الملك يوحنا فرض ضرائب جديدة على البارونات في إنكلترا لكي يستأنف حربه ضد فرنسا، لكن البارونات وقفوا ضده و شكلوا تكتلاً لمواجهة سياسته و استطاعوا أن يجبروه على توقيع ما عرف ب (العهد العظيم) في عام 1215. و العهد العظيم كان عبارة عن وثيقة إقطاعية تنظم العلاقات بين الملك و كبار الإقطاعيين في إنكلترا و تحمي حقوق الإقطاعيين و حقوق رجال الدين و الكنيسة و التجار، بالإضافة إلى أنها تقيد سلطة الملك ببعض القيود و القوانين. صحيح أن فكرة خضوع الملك في إنكلترا لسلطة القانون لم تنفذ في أكثر الأوقات، لكن هذه الفكرة بقيت تمثل ركناً أساسياً في دستور إنكلترا، كما بقيت وثيقة العهد الأعظم تذكر ملوك إنكلترا بأن سلطتهم يقيد بها القانون².

1 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص 258.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 166.

كان أعداء الملك يوحنا من كبار الإقطاعيين في إنكلترا قد طلبوا العون من
عدو يوحنا اللدود و هو الملك الفرنسي فيليب أوغسطس الذي قام بإرسال ولده
لويس الثامن لمساعدة النبلاء و الإقطاعيين و ليتولى العرش الإنكليزي في حال
تمكنه من هزيمة الملك يوحنا. في هذا الوقت قام يوحنا بضرب النبلاء في كل
مكان و أراد معاقبتهم، لكن الملك يوحنا توفي فجأة في 19 تشرين الأول 1216م¹.

إنكلترا في عهد الملك هنري الثالث 1216 - 1272

تغير الموقف كلياً بعد وفاة الملك يوحنا، حيث مال النبلاء و الإقطاعيون
في إنكلترا إلى الملك المرتقب هنري بن يوحنا فانفض الأمراء و النبلاء الإنكليز
من حول لويس و طالبوه بالعودة إلى فرنسا، و توج هنري الثالث ابن الملك
المتوفي ملكاً على إنكلترا (1216 - 1272) على الرغم من أن عمره لم يتجاوز
الست سنوات في ذلك الوقت. وضع هنري تحت وصاية وليم لامارش إيرل
ممبروك. و أصدر الوصي على العرش العهد الأعظم مرة ثانية و هذه المرة باسم
الملك الجديد هنري الثالث فهدأت النفوس كلها و التف شعب إنكلترا حول ملكه
الجديد كما تلقى هنري الدعم من البابوية و غالبية رجال الدين، و هكذا فضل
شعب إنكلترا أن يحكمه ملك إنكليزي طفل على ملك فرنسي غريب. و بقي هنري
الثالث تحت الوصاية حتى عام 1223 حيث أعلن البابا أونوريوس الثالث أن
الملك هنري بلغ سن الرشد و عليه أن يحكم بمفرده².

1 - Vollrath: die englischen Könige, S. 81.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 263 - 264.

كان هنري الثالث فاشلاً في السياسة، فقد تسربت في فترة حكمه أموال إنكلترا إلى خزانة الفاتيكان بحجة الحروب الصليبية كما أجزل العطاء على الأجانب الذين قدموا إلى إنكلترا من البروفانس و سافوي و غيرهما، و هذا ما أثار غضب الشعب الإنكليزي. اشتدت حاجة هنري الثالث إلى الأموال مما اضطره اللجوء إلى المجلس الكبير (البرلمان) فقرر المجلس طرد كل الأجانب من البلاد و أن يتولى إدارة شؤون الحكم مجموعة من البارونات بمثابة وزراء مسؤولين أمام البرلمان. و هكذا قام البارونات بحكم إنكلترا بزعامة كبيرهم سيمون دي مونتفورت، الذي استطاع إنهاء حالة الحرب مع فرنسا و وضع حداً للفساد الإداري. و في عام 1265 عقد المجلس الكبير (البرلمان) في إنكلترا جلسة اشترك فيها ممثلون عن المدن لأول مرة، و هذا ما أعطى البرلمان طابعاً شعبياً و أصبح سيمون دي مونتفورت صاحب الفضل الأكبر في نشأة فكرة مجلس العموم البريطاني¹. حكم هنري الثالث إنكلترا لمدة 56 عاماً و لم يزد في فترة الحكم في تاريخ إنكلترا سوى الملك جورج الثالث (1760 - 1820) و الملكة فيكتوريا (1837 - 1901) و لكن رغم فترة حكمه الطويلة فقد توفي في عام 1272 دون أن يسجل باسمه أي عمل عظيم².

إنكلترة في عهد الملك إدوارد الأول 1272 - 1307

اعتلى إدوارد الأول (1272 - 1307) العرش الإنكليزي بعد وفاة والده، و كان إدوارد رجلاً ذكياً، قوي الإرادة محنكاً في السياسة صبوراً في الحرب و خبيراً في فنونها، و كان قد خرج على رأس حملة صليبية عندما كان لا يزال أميراً في عام 1270 و عاد في أيلول 1272 إلى الغرب، و ذهب إدوارد إلى بابا روما و

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 166 - 165.

2 - Vollrath: die englischen Könige, S. 102.

قدم هناك الولاء للملك الفرنسي فيليب الثالث باعتباره تابعاً له إقطاعياً في فرنسا، بعد ذلك أقفل عائداً إلى إنكلترا حيث وصلها في عام 1274 و توج ملكاً على إنكلترا في 19 آب من نفس العام¹. هذا و يعد عهد إدوارد الأول من أكثر العهود نجاحاً و تميزاً في تاريخ إنكلترا، و يعود ذلك إلى عدة عوامل، فقد درب أغلبية الشعب في إنكلترا على حمل السلاح، و أعاد هيكلية الجيش و تنظيمه و استطاع بفضل قوة جيشه العسكرية احتلال ويلز و كسب اسكتلندة في عام 1284، كما رفض إدوارد دفع الجزية التي كان الملك يوحنا قد تعهد بدفعها للبابوية عندما استسلم للفاتيكان².

هذا و عمل إدوارد على تحقيق الوحدة بين أجزاء الجزر الإنكليزية لكي يصنع منها دولة مترابطة و قوية، و منح أكبر أولاده لقب أمير ويلز في عام 1301. كما أصدر إدوارد الأول تشريعاً في عام 1279 يحد فيه من ازدياد أراضي الكنيسة، التي ملكت أكثر من ثلث الأراضي الزراعية في إنكلترا، و ذلك بوضع المنح و الهدايا التي تقدم للكنيسة تحت الإدارة الملكية. و كما أصدر إدوارد في عام 1290 تشريعاً جديداً يقلص فيه عدد الإقطاعيين الذين يتوسطون بين الملك و صاحب الأرض الفعلي، كما سمح بشراء الأراضي و بيعها بعد أن كان الإقطاع هو السبيل الوحيد للحصول على الأراضي. أما قضائياً فقد جزأ إدوارد الأول المحكمة الملكية إلى ثلاثة أقسام: قسم خاص بحسابات الدولة و القضايا المالية، و قسم ثاني خاص بالدعاوى المدنية بين الأهالي، و قسم ثالث يهتم بالقضايا التي تخص الملك و تهمة. عدا عن ذلك فقد دعا إدوارد الأول لانعقاد

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 151.

2 - عمران: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. ص 265.

برلمان نموذجي في عام 1290، حيث ضم ذلك البرلمان كل عناصر المجتمع التي أصبح البرلمان الإنكليزي يتألف منها فيما بعد: نبلاء و أساقفة و رؤساء أديرة، بالإضافة إلى اثنين من فرسان كل مقاطعة و مندوبين يمثلون أهالي المدن و غيرهم. و بعد ذلك انضم الفرسان إلى البرجوازيين و ممثلي المدن ليشكلوا مجلس العموم البريطاني، في حين انضم النبلاء إلى الأساقفة ليشكلوا مجلس اللوردات. و من اللافت أن إدوارد الأول أمر بطرد اليهود من إنكلترا في عام 1290، بعد أن ازداد نفوذهم و تحكموا بالحياة الاقتصادية، مما أثار حنق الشعب الإنكليزي عليهم¹.

إنكلترا في القرن الرابع عشر:

توفي الملك إدوارد الأول في 7 تموز 1307 في حربه الأخيرة ضد اسكتلندة و كان عمره وقتئذٍ 68 عاماً. و خلفه على العرش الإنكليزي ولده إدوارد الثاني حيث توج ملكاً في شباط 1308. و اتصف إدوارد الثاني بكل الصفات التي تؤدي إلى فشله في الحكم فقد كان قاصراً في السياسة و يحب اللهو و المجون، و هذا ما دفع البرلمان الإنكليزي إلى عزله في عام 1327 و إعدامه ليكون بذلك أول ملك يعزل في إنكلترا بعد الفتح النورماندي لها². خلف إدوارد الثاني ابنه إدوارد الثالث على عرش إنكلترا (1327 - 1377) و كناية عن اسم إدوارد الثالث و والده إدوارد الثاني و جده إدوارد الأول سميت فترة حكمهم بين عامي (1272 - 1377) بالعصر الإدوردي³. و كانت من أهم الأحداث التي وقعت في عهد الملك إدوارد الثالث اندلاع حرب المئة عام بين إنكلترا و فرنسا. و اجتاح مرض

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 167 - 168.

2 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 157 - 160f.

3 - Vollrath: die englischen Könige, S. 130

الطاعون أو ما يعرف بالوباء الأسود أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر، حيث قاست منه إنكلترا كثيراً، فقد نضبت مصادر الرزق وقل الطعام و قلت الأيدي العاملة و تضاعفت الأسعار بشكل كبير. و نتيجة لذلك صدرت في إنكلترا مراسيم عام 1351 و عام 1360 لتحديد الأجور و الأتعاب و فرض العمل على كل رجل و امرأة عمره دون الستين عاماً. هذا و ساءت العلاقات أيضاً في عهد إدوارد الثالث مع البابوية بسبب دعم البابا لفرنسا في حرب المئة عام. و بسبب ذلك رفض البرلمان في إنكلترا في عام 1351 مبدأ تعيين البابا لكبار رجال الدين في إنكلترا، كما رفض دفع الأموال التي كان الملك الإنكليزي يوحنا قد تعهد بدفعها سنوياً لبابا الفاتيكان¹. كذلك ظهرت في إنكلترا حركة دينية إصلاحية كان أشهر روادها حنا ويكليف (1328 - 1384) الذي كان قد درس في جامعة إكسفورد و شغف بالدراسة و البحث الديني و عدّ أن رجال الدين يجب عليهم أن ينصرفوا إلى واجباتهم الأساسية و هي العمل على نشر التعاليم المسيحية الصحيحة و أن اتجأهم إلى جمع الثروات الطائلة انحراف عن تعاليم الدين ويؤدي إلى انهك خزانة الدولة، كما هاجم حياة الرهبنة و عدها ضعفاً و استسلاماً لحياة الكسل و الهدوء و عدّ أن تدخل رجال الدين في حياة الناس و شؤونهم الخاصة بادعائهم أنهم صلة الوصل بين الإنسان و خالقه أمر يتعارض مع تعاليم الدين الصحيح. كما أكد ويكليف عدم التقيد بالبابوية و بأن الإنجيل هو المصدر الأساسي لتعاليم الدين المسيحي². توفي الملك إدوارد الثالث في عام 1377 فخلفه على العرش الإنكليزي ولده ريتشارد الثاني (1377 - 1399) الذي كان يبلغ من العمر وقت ذاك عشر سنوات فقط. و كان قد قضى معظم هذا الوقت في مقاطعة أكتيانيا في

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 168.

2 - أحمد، محمد/ الناييف، حسام: تاريخ أوروبا الحديث، جامعة دمشق 2011 - 2012، ص

فرنسا و التي كانت تتبع لإنكلترا و لذلك فقد تأثر ريتشارد بالعادات الفرنسية كما أنه تكلم الفرنسية بطلاقة. تعرض هذا الملك الفتى لأزمات كثيرة في بداية عهده و منها كانت ثورة الفلاحين في إنكلترا في عام 1381، أما خارجياً فقد أراد هو و مستشاروه المضي في الحرب مع فرنسا حتى إركاعها و هزيمتها. نفذ ريتشارد بعض السياسات الجائرة و الظالمة على شعبه و خصوصاً في عام 1397 و هذا ما أثار سخط الشعب في إنكلترا عليه و قرر البرلمان في إنكلترا في عام 1399 عزل ريتشارد من منصبه الملكي بحجة مخالفته للقانون و نقضه لقسمه الملكي عندما اعتلى العرش¹.

إنكلترا في القرن الخامس عشر:

كان الملك ريتشارد قد عزل من قبل البرلمان في إنكلترا في 29 أيلول 1399، و بعد عدة أيام اجتمع البرلمان و اختار هنري الرابع (1399-1413) أحد أقارب الأسرة الحاكمة في إنكلترا ملكاً جديداً و أعلنوا الولاء له كما وجب على الملك الجديد أيضاً الموافقة على شروط و مطالب البرلمان. حاول هنري الرابع تلافي أخطاء سلفه ريتشارد و حاول التقرب من الشعب، لكن هذا لم يمنع قيام ثورات داخلية ضده و كانت أولها في عام 1400، كما قام بعدة حروب ضد اسكتلندة، هذا و لأن دعم فرنسا للمتمردين على سلطة الملك هنري في إنكلترا و اسكتلندة كان واضحاً بالنسبة لهنري، أدى ذلك إلى تصعيد الأجواء المتوترة بالأساس مع فرنسا و إلى اندلاع حرب بحرية بين السفن الإنكليزية و السفن الفرنسية. هذا و عمل هنري الرابع على استغلال سوء الأوضاع الداخلية في فرنسا و أرسل جيشه إلى فرنسا في أيار 1412 لكنه لم يحقق النتائج المرجوة منه، و

1 - Vollrath: die englischen Könige, S. 157 - 170.

بسبب الأوضاع الداخلية و الخارجية الصعبة و المعقدة، وجد الملك هنري الرابع نفسه مضطراً لتقديم تنازلات للبرلمان، و كان ذلك في مصلحة المدن و النبلاء بشكل عام، كما استطاع البرلمان الحصول على حق الإشراف على النفقات الحكومية و تعيين كبار الموظفين في عام 1404. تطور مرض الملك هنري الرابع الذي لازمه منذ العام 1405 و أخذ ينهكه شيئاً فشيئاً، و لذلك فقد عمل هنري الرابع على إعادة فكرة توريث العرش لولده قبل وفاته أو ضمان انتخابه خلفاً له و نجح في ذلك و بذلك يكون التاج الملكي قد انتقل إلى أسرة جديدة في إنكلترا. توفي هنري الرابع في آذار 1413 و خلفه على العرش الإنكليزي ولده هنري الخامس¹.

استمرت الاضطرابات الداخلية في بداية عهد الملك هنري الخامس (1413 - 1422)، و حاول البارونات في لندن استبدال الملك هنري الخامس بمرشح آخر من الأسرة الحاكمة السابقة، لكنهم فشلوا في ذلك. بدأ هنري الخامس بمحاربة الهراطقة و الخارجين عن الدين في رأيه و رأي البرلمان، و الذين شكلوا حركة أطلق عليها اسم اللولاريين، و استطاع هنري إلقاء القبض على زعماء الهراطقة و قادتهم العسكريين و إعدامهم في مدينة لندن. هذا و تعرض هنري الخامس لمحاولة اغتيال قبل ذهابه إلى فرنسا في عام 1415، لكن هذه المحاولة فشلت و أُلقي القبض على المخططين و قدموا للمحاكمة التي قضت بقتلهم. و استطاع هنري الخامس بعد ذلك بسط الاستقرار في إنكلترا نسبياً، لكن ذلك لم يستمر طويلاً بسبب قيام عصيان ضده بزعامة ريتشارد دوق يورك و الذي سيصبح أهم و أخطر أعداء ولده هنري السادس في المستقبل القريب. و حقق هنري الخامس بعض

1 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 172 - 176.

الانتصارات الجزئية في حربه ضد فرنسا مما انعكس إيجابياً على علاقته مع البرلمان في إنكلترا و على السياسة الداخلية فيها، و استطاع في عام 1415 الحصول على موافقة البرلمان على زيادة الضرائب على صناعة الصوف و الجلد و الفرو للحصول على الأموال اللازمة لحروبه.

توفي هنري الخامس في آب 1422 و هو شاب لم يبلغ من العمر 35 عاماً، و كان قد استطاع في فترة حكمه القصيرة إعادة الوحدة إلى إنكلترا و استطاع أن يقوي مطامع و حقوق إنكلترا في فرنسا، لكن وفاته المبكرة وضعت كل نجاحاته التي حققها في دائرة الخطر¹.

خلف هنري الخامس ولده هنري السادس (1422 - 1461) الذي لم يكن قد تجاوز عمره العام الواحد عند وفاة والده، الذي عين دوقين أوصياء عليه قبل وفاته، دوقاً وصياً في فرنسا و دوقاً في إنكلترا. حلت الهزيمة في عهد هنري السادس بالقوات الإنكليزية التي كانت تواجه جيش فرنسا في معركة تالبوت، و وقعت مدينة بورдо بأيدي الجنود الفرنسيين في عام 1453، لتضع بذلك نهاية لحرب المئة عام بين إنكلترا و فرنسا بعد أن أنهكت هذه الحرب مقدرات إنكلترا و ثرواتها. أما داخلياً فقد تمرد ريتشارد دوق يورك على الملك هنري السادس و بدأ نزاع مسلح بين الطرفين أدى إلى اندلاع حرب أهلية في إنكلترا و عرفت هذه الحرب بحرب الوردتين، لأن أنصار الملك هنري السادس اتخذوا الوردة الحمراء شعاراً لهم، في حين اتخذ أنصار ريتشارد دوق يورك الوردة البيضاء شعاراً لهم، أفضت هذه الحرب إلى مقتل ريتشارد دوق يورك في عام 1460، فقاد الثورة بعده

1 -Vollrath:die englischen Könige, S. 173- 178.

2- Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 179.

ابنه إدوارد الرابع الذي استطاع قتل الملك هنري السادس و نصب نفسه ملكاً على إنكلترا في عام 1483م¹.

بدأ و كأن إدوارد الرابع قد استطاع إرساء قواعد الحكم و الاستقرار السياسي في إنكلترا، و اعتقد بأن الأمور ستسير كما خطط لها بعد وفاته، و بعد أن عين أخاه ريتشارد وصياً على أولاده الصغار الذي سيشرف على الحكم حتى بلوغهم سن الرشد و بعدها سيسلمهم حكم إنكلترا و سيقف إلى جانبهم دائماً، لكن ريتشارد لم يكن عند حسن ظن أخيه فاجتصب العرش في إنكلترا بعد وفاة أخيه و اتخذ لنفسه لقب ريتشارد الثالث و حكم بين عامي (1483 - 1485). هذا ما أدى إلى نشوب اضطرابات في إنكلترا لأن أتباع أولاد أخيه إدوارد و أرملة حاولوا استعادة العرش و أبرز الشخصيات التي حاربت ريتشارد الرابع كان هنري تيودور الذي استطاع إلحاق الهزيمة بالملك ريتشارد و قتله في آب عام 1485. و لأن ولد ريتشارد الوحيد كان قد توفي قبله بعام أي 1484، فإن الحكم في إنكلترا سوف ينتقل لأسرة هنري تيودور الذي اعتلى عرش إنكلترا باسم هنري السابع (1485 - 1509) ليكون بذلك قد أسس أسرة حاكمة جديدة هي أسرة تيودور².

صحيح أن إنكلترا تعرضت لحروب داخلية و خارجية كثيرة في القرنين الرابع عشر و الخامس عشر، لكنها بالمقابل استطاعت أن تحقق تقدماً ملحوظاً في هذه الحقبة على الصعيد الحضاري، حيث تطورت في إنكلترا صناعة الصوف و ازدهرت تجارته، كما دخلت الطباعة لأول مرة إلى إنكلترا في عام 1474. بالإضافة إلى ذلك فقد تابعت الجامعات في إنكلترا تطورها و نشاطها العلمي، و أسس الملك هنري السادس كلية الملك و جامعة كامبردج. أما على الصعيد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 169.

2 - Volrath: die englischen Könige, S. 214f, 221, 224ff.

المعماري فلم تتوقف حركة بناء الكاتدرائيات و الكنائس محافظةً على الطراز القوطي و الإنكليزي الرائع. و نالت اللغة الإنكليزية نصيبها من التطور، و هذا ما هياً للنهضة الأدبية التي قادها شكسبير في القرن السادس عشر. كذلك سيطر البرلمان في إنكلترا على سلطات و صلاحيات كبيرة و واسعة، و أصبحت قوانينه و تشريعاته تصدر مطبوعة باللغة الإنكليزية¹.

حرب المئة عام بين إنكلترا و فرنسا:

يطلق اسم حرب المئة عام على سلسلة الحروب التي دارت بين إنكلترا و فرنسا بين عامي 1337 و 1453 و لم يكن الصراع صراعاً بين مملكتين أو دولتين فقط، بل كان صراعاً بين أسرتين حاكمتين، فقد حكمت في فرنسا أسرة فالو بينما حكمت في إنكلترا أسرة بلانتاجونية و استمرت هذه الحرب على مدى فترة حكم خمسة ملوك إنكليز و خمسة ملوك فرنسيين.

أسباب الحرب

منذ أن احتل غليوم الفاتح (دوق مقاطعة نورمانديا في فرنسا) إنكلترا عام 1066 و العداء يكتنف العلاقات بين إنكلترا و فرنسا. و سبب هذا العداء أن ملوك إنكلترا النورمانديين كانوا قد احتفظوا بأموالهم في غرب فرنسا في حين عدّ ملوك فرنسا وجود تلك الممتلكات الإنكليزية على حدود بلادهم من جهة الغرب خطراً يقض مضجع الملوك في فرنسا و يمنعهم من توسيع نفوذهم إلى المحيط الأطلسي. و بناءً على ذلك عمل ملوك فرنسا بلا كلل أو ملل على إزالة نفوذ إنكلترا من غرب فرنسا و في المقابل جابه ملوك إنكلترا سياسة فرنسا هذه و

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 170.

تمسكوا بممتلكاتهم في غرب فرنسا و قاتلوا بشراسة للاحتفاظ بها حتى وصل بهم الأمر إلى الادعاء بأحقيتهم في الحصول على التاج الفرنسي، و هناك أسباب أخرى لهذه الحرب و هي تضارب المصالح الاقتصادية بين إنكلترا و فرنسا في إقليم الفلاندرز، كذلك أيضاً كانت محاولات فرنسا الدائمة للسيطرة على إقليم غاسكونيا في جنوب غرب فرنسا، و الذي كان يخضع لسيطرة إنكلترا و كان عدم توصل الطرفين لحل ينهي الصراع حول هذا الإقليم، سبباً من أسباب حرب المئة عام. و أحد الأسباب المهمة أيضاً لاندلاع هذه الحرب هو الصراع المسلح بين إنكلترا و اسكتلندة و هروب ملك اسكتلندة إلى فرنسا و لجوؤه إلى ملكها و الذي استقبله بكل حفاوة، و عمل ملك اسكتلندة اللاجئ في فرنسا و بناءً على مصلحته الخاصة على إذكاء نار الفتنة و الاقتتال بين فرنسا و إنكلترا و تحريض ملك فرنسا على الحرب¹. أما السبب المباشر لاندلاع حرب المئة عام فكان مطالبة إدوارد الثالث ملك إنكلترا، الذي كانت والدته إيزابيلا شقيقة لملك فرنسا، بعرش فرنسا في عام 1328 بصفة رسمية، ففي هذا العام توفي شارل الرابع ملك فرنسا و قريب إدوارد من أسرة آل كابيه دون أن يكون له ولد يرثه على عرش فرنسا، و في هذا العام اجتمع مجلس طبقات الأمة في فرنسا و اختار شخصاً من خارج الأسرة الكابيه و هو فيليب فالوا ملكاً على فرنسا و عرف باسم فيليب السادس بعد أن قرر مجلس طبقات الأمة في فرنسا و لأسباب سياسية عدم أحقية إدوارد في العرش الفرنسي و منع توريث العرش الفرنسي عن طريق الإناث. و نتيجة لتفاقم الأزمة و تصاعد التوتر اندلعت حرب المئة عام في عام 1337م².

1 – Maurer: Geschichte Englands, S. 65.

2 – Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 163.

مراحل الحرب:

لم تستمر حرب المئة عام لمدة مئة عام تماماً و لم تكن عبارة عن حروب مستمرة و اقتتال دائم بين الجيوش الإنكليزية و الجيوش الفرنسية، بل كانت عبارة عن هجمات متباعدة زمنياً تخللتها الهدنة و الصلح مرات عديدة. هناك بعض المؤرخين الذين قسموا حرب المئة عام إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى تمتد بين سنتي 1337 - 1380 و أهم أحداثها كان انتصار الإنكليز عند كريسي و استيلائهم على كالية، و بعد ذلك انتصارهم في بواتية و ما حدث في ثورة باريس و معاهدة بريتاني. أما المرحلة الثانية فتتمتد بين عامي 1380 و 1415 و اتسمت هذه الفترة بالهدوء و وقف المعارك بين الطرفين. أما المرحلة الثالثة فتتمتد بين عامي 1415 و 1453 و فيها تجددت المعارك و الحروب على يد هنري الخامس ملك إنكلترا و حليفه دوق برجنديا، و كان النصر لحليف إنكلترا في اجينكورت كما قام الإنكليز بغزو شمال فرنسا، لكن سرعان ما عادت برجنديا إلى التحالف مع فرنسا و انتهت المعارك و الحرب بآخراج الإنكليز بشكل نهائي من الأراضي الفرنسية عام 1453م¹. بالمقابل هناك مؤرخون قسموا حرب المئة عام إلى فترتين: الفترة الأولى تمتد بين عامي 1337 و 1399 حيث بدأت هذه الفترة في عهد ملك إنكلترا إدوارد الثالث (1327 - 1377) و استمرت في عهد خلفه ريتشارد الثاني حتى عزل عن العرش في عام 1399. أما الفترة الثانية فتتمتد من عام 1400 حتى عام 1453 أي منذ اعتلاء هنري الرابع العرش الإنكليزي و استمرت في عهد خلفه هنري الخامس و ابنه هنري السادس لتنتهي في عام 1453م².

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 171.

2 - Sarnowsky: England im Mittelalter, S. 161, 173.

جان دارك:

لن تعالج هنا تفاصيل حرب المئة عام، لكنه لابد من الإشارة إلى قصة الفتاة الفرنسية جان دارك Jeanne d'Arc و التي أصبحت البطلّة الأسطورية في الفصل الأخير من فصول هذه الحرب و جان هذه، فتاة ريفية يقال إنها سمعت نداءً من السماء و هي ترعى أغنامها فتأديها بأن تغادر قريتها إلى مدينة أورليان الفرنسية لتخليصها من جحيم الإنكليز الذين فرضوا حصاراً قاسياً عليها، و أن تصبح ولي العهد الفرنسي شارل السابع بعد ذلك إلى مدينة رايمز حيث توج ملكاً في كاتدرائيتها. نفذت جان دارك الأوامر السماوية و حققت الرسالتين فتم طرد الإنكليز من أورليان و اصطحبت شارل السابع إلى رايمز حيث توج ملكاً في 17 تموز 1429. لكن و أثناء القتال في إحدى المعارك وقعت جان دارك أسيرة في أيدي القوات البرجندية التي سلمتها بدورها إلى القوات الإنكليزية الذين قاموا بمحاكمتها على أساس أنها ساحرة و أعدمتم في 30 أيار 1431. و يقال إن استشهاد جان درك بهذه الطريقة ولد بين الفرنسيين روحاً من الحماسة و الاتحاد و الأمل بالنصر، مما ساعدهم على تنظيم جيوشهم و تحسين هجماتهم، فبحروا الإنكليز من الأراضي الفرنسية في عام 1453م¹.

نتائج الحرب:

إن حرباً طويلة و عنيفة كحرب المئة عام لا يمكن أن تمر دون أن تترك وراءها نتائج كثيرة و آثاراً بعيدة المدى في الحياة الإنسانية. لأن مثل هذه الحروب تؤدي إلى تحطيم العادات و التقاليد التي كانت سائدة و متأصلة و ينلونها دائماً تضخم مفاجئ في مصروفات الدول و الممالك، فإن الحاجة إلى الأموال، و التي

1 - Maurer: Geschichte Englands, S. 70.

هي عصب الحروب عادة، تخلق مشاكل متعددة و تفتح آفاقاً جديدة و واسعة لم تكن تخطر ببال، كما أنها تقذف برجال جدد إلى مراتب الحكم العليا كما و تقلب أوضاع التوزيع الاقتصادي بين طبقات المجتمع رأساً على عقب. إن حرب المئة عام جلبت على كل من فرنسا و إنكلترا كثيراً من السلبات و الإيجابيات، ففي المرحلة الأخيرة من الحرب تمكن ملك فرنسا شارل السابع أن يؤسس في فرنسا حكومة ملتزمة تتقن الإدارة و التدبير و أن يبني لفرنسا جيشاً نظامياً قاده ضباط محترفون معينون من قبل الملك، لا فرسان من الإقطاعيين كما كان الحال سابقاً. كذلك خصص الملك شارل ضريبة ملكية من ضرائب الدخل فقط للإنفاق على الجيش، ومنع الإقطاعيين من تشكيل جيوش خاصة بهم دون الحصول على إذن ملكي، ومن إثارة الحروب الداخلية فيما بينهم. عدا عن ذلك فقد تطور سلاح الجيش الفرنسي و أدخل استخدام المدفعية و البارود على نطاق واسع في المعارك. لكن حاجة الملوك في فرنسا لتغطية نفقات المعارك و الحروب دفعتهم إلى تخفيض قيمة العملة بخلطها بمعادن رخيصة، و هذا ما أدى إلى ارتفاع الأسعار و إلى ارتباكات مالية ناجمة عن التضخم المالي. كما قام الملك الفرنسي بفرض ضرائب جديدة على الشعب الفرنسي كضريبة احتكار الملح التي أقرت في عام 1431 و أصبحت أسوأ من أسس الدخل الملكي في فرنسا حتى زمن الثورة الفرنسية¹.

أما في إنكلترا، فصحيح أن الإنكليز خسروا في الحرب و فقدوا ممتلكاتهم في فرنسا، لكنهم في الوقت نفسه كسبوا أشياء كثيرة من هذه الحرب الطويلة الأمد، فمن الناحية الاقتصادية تطورت في إنكلترا صناعة الصوف و ازدهرت تجارتها، بسبب أن الخوف من خطر النقل البحري أثناء الحرب جعل الإنكليز يقومون

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 171- 172.

بصنع أصواف أغنامهم أقمشة في إنكلترا، أما عسكرياً فقد حقق الإنكليز تقدماً واسعاً في فنون الحرب البرية و البحرية بسبب الاحتكاك الحربي على مدى سنين طويلة مع القوات الفرنسية. أما ثقافياً فقد انتعشت اللغة الإنكليزية القومية في إنكلترا و بدأت تحل مكان اللغة الفرنسية في المؤلفات الأدبية و المحاكم و البرلمان و المراسلات بين الملوك و المتقنين، كما بدأ كل من الكتاب في إنكلترا و فرنسا ينهج منهجاً خاصاً. هذا أدى إلى انتشار شعور بالتباعد بين الأمتين الإنكليزية و الفرنسية، بدلاً مما كان بينهما من التآلف و التقارب. أما الناحية الدستورية فقد تمتع البرلمان في إنكلترا مع الوقت بسلطات واسعة، لأن حاجة الملوك إلى الأموال اضطرتهم إلى اللجوء إلى البرلمان لفرض الضرائب على شعب إنكلترا، و هذا ما جعل البرلمان صاحب قرار في تحديد سياسة البلاد و إدارتها. و أما من الناحية الاجتماعية فلم تتمكن الحكومات الإقطاعية من إغفال الطبقات الدنيا و مصالحها من الحرفيين و الصناعيين و الفلاحين الذين بدؤوا يشكلون المجتمع بشكل جديد¹.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 172 - 173.



الفصل الثامن

الحروب الصليبية

تعد الحروب الصليبية فصلاً، بل أهم الفصول، في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب¹. والكلمة الإنكليزية للحرب الصليبية هي Crusade و هي مشتقة من اللفظ الاسباني Cruzada أي عليه علامة الصليب²، أما في اللغة الألمانية فيطلق عليها Kreuzzüge و تعني حملات الصليب. و استمرت هذه الحملات الصليبية حوالي مائتي عام تقريباً بالتحديد الفترة الممتدة من 1095 - 1291، و الحروب الصليبية عبارة عن سلسلة من الحملات العسكرية قام بها الغرب المسيحي بهدف السيطرة المباشرة على بلاد الشام بشكل أساسي.

ومن الملاحظ أن بذور الحروب الصليبية، جرى بزرها في تربة فرنسية، و إن الذي بشر بهذه الحروب بابا من أصل فرنسي، كما أنها بدأت و استمرت في جوهرها مشروعاً فرنسياً بالدرجة الأولى و إن المملكة التي أقامها الصليبيون في المشرق، كانت أيضاً في جوهرها مملكة فرنسية، في لغتها و عاداتها، و في سلبياتها و إيجابياتها. و ليس غريباً أن تكون فرنسا مهد الحروب الصليبية، فقد

1 - باكر، ارنت: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريشي، دار النهضة العربية، ط2، بيروت 1967، ص 9.

2 - عمران، محمود: تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 2000، ص 17.

كانت موطن الحركة الكلوونية، التي كانت تشجع على الحج إلى بيت المقدس أيضاً¹.

أسباب الحروب الصليبية:

شاركت في الحروب الصليبية فئات و طبقات مختلفة من المجتمع الأوروبي، و لذلك فمن الطبيعي أن تكون الدوافع و الأسباب التي شجعت هذه الطبقات و الفئات للتوجه إلى المشرق متنوعة و متداخلة. فهناك أسباب اجتماعية و اقتصادية و سياسية و أدخل الغرب الأوروبي بزعامة البابوية الأسباب الدينية و دمجها بكل هذه الأسباب مجتمعة².

وعن الأسباب الاجتماعية للحروب الصليبية، فقد كانت طبقة الفلاحين في أوروبا تشكل نسبة كبيرة من المجتمع الأوروبي الإقطاعي و كانت هذه الطبقة تعاني من قساوة الحياة و تفتقر للأمن و الاستقرار. يضاف إلى ذلك فإن أغلب الأراضي الزراعية قد بارت و أصابها الخراب من جراء غارات العناصر الشمالية، كما تحطمت الجسور و غطت مياه الأنهار جانباً من هذه الأراضي. كما أن النبلاء و الأمراء كانوا يرفضون تحويل أراضي غاباتهم إلى أراض زراعية و استصلاحها لرغبتهم في الاحتفاظ بهذه الغابات خاصة بهم للصيد. و هذا ما أدى إلى عدم كفاية موارد الأراضي لسد حاجات السكان في الوقت الذي زاد فيه عدد السكان. بالإضافة إلى هذا فقد كانت القرى في أوروبا خالية من الأسوار و بذلك أصبحت عرضة للنهب و السطو من بعض المارقين و الخارجين عن القانون، أو

1 - باكر: الحروب الصليبية، ص 23-24.

2 - قاسم، قاسم: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، دار عين، الهرم 1999، ص 74.

أثناء الحروب الأهلية التي سادت الحكم الإقطاعي¹. هذا و لم يكن هناك أمل أمام أولئك الفقراء للخلاص من أوضاعهم التي ورثوها عن آبائهم و أجدادهم، حيث ارتبطوا بالأرض بشكل أبدي يعانون المشقة و الفقر و يخلفهم أبناؤهم في خدمتها ليقدموا ثمرة تعبهم لسادتهم من الحكام الإقطاعيين، و لذلك مأن ظهرت الدعوة للحروب الصليبية حتى وجدت استجابة مطلقة من غالبية العوام و الفلاحين في غرب أوروبا حيث لبوا النداء بسرعة و حماسة لا عن وازع عميق و لا تحمساً للدين و طاعة للكنيسة ورغبتها، بل لأنهم وجدوا في المشاركة في تلك الحملات فرصة قلما يتيحها القدر للخلاص من حياة العبودية و الظلم التي ظلوا يرزحون تحت أغلالها فترة طويلة. وبالنسبة لهم فمهما يتعرضوا له من مخاطر في طريقهم إلى الشرق و مهما يكن مستوى الحياة التي سيعيشونها في الشرق فإن الأمور لا يمكن أن تصل بهم أسوأ من الحضيض الذي هوى إليه في أوروبا².

هذا و قد وجدت عوامل خاصة و غاية في الأهمية شجعت طبقة النبلاء للانخراط في الحروب الصليبية، ذلك أن الإقطاعات في غربي أوروبا لم تعد تكفي أفراد العائلات النبيلة المتزايدة و خصوصاً بعد تطبيق نظام وراثي إقطاعي جديد في أوروبا في القرن الحادي عشر و ينص هذا النظام على منح أكبر أولاد السيد الإقطاعي، إقطاعاته و أملاكه و امتيازاته بعد وفاة الوالد، و هكذا يصبح على باقي الأبناء السعي في اتجاه مختلف للحصول على إقطاعات خاصة لهم³. ومن الطبيعي أن يبحث هؤلاء الفرسان عن أراض جديدة خارج أوروبا يسيطرون عليها

1 - عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص 19.

2 - عاشور، سعيد: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة 1964، ص

12-13.

3 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 20.

و يستغلون جهود فلاحيتها. بالإضافة إلى ذلك فقد حلم هؤلاء الفرسان بنهب خيرات الشرق و ثرواته الأسطورية التي كانت في مخيلتهم عنها، الشيء الكثير من الأمور المبالغ فيها. و قد كان أغلب هؤلاء الفرسان قد أثقلته الديون، لذلك فإن مشاركتهم في الحروب الصليبية ستكون حجة يتذرعون بها للتهرب من دفع هذه الديون. أما بالنسبة لكبار الإقطاعيين فقد شاركوا في الحملات الصليبية بسبب طمعهم في توسيع أملاكهم و زيادة ثرواتهم. كما حلموا بتأسيس إمارات إقطاعية أو ممالك في المناطق التي سيحتلونها في الشرق، لكن على الرغم من هذه الأحلام البراقة فلم يشترك في الحملات الصليبية سوى عدد قليل من هؤلاء الإقطاعيين.

أما عن العوامل الاقتصادية للحروب الصليبية فبدت واضحة و جلية في مساهمة المدن الأوروبية و خصوصاً الإيطالية، مثل البندقية و جنوا و بيزا، حيث ساهمت بشكل فعال و قوي في هذه الحروب. لقد كانت لهذه المدن مصالح تجارية كبيرة وراء مساهمتها و انخراطها في الحملات الصليبية إلى الشرق، فالسلاجقة الأتراك و البيزنطيون كانوا يسيطرون على غرب آسيا و حوض البحر المتوسط الشرقي، و هم بذلك يشلون تجارة المدن الإيطالية هذه مع المشرق. و لذلك رغبت المدن الإيطالية بإزاحة هؤلاء المنافسين عن طريقهم و تأسيس محطات تجارية لها على شاطئ البحر المتوسط الشرقي كي تمارس دور الوسيط التجاري بين الشرق و الغرب. لكن هذه الرغبة لا تتحقق دون استخدام القوة العسكرية، و هذا ما يعزل حماسة المدن الإيطالية للمشاركة في الحملات الصليبية و تقديمها السلاح و المؤنة و السفن للمحاربين.¹

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 304.

و هناك أسباب سياسية هامة لقيام الحروب الصليبية ضد المشرق، فبعد سيطرة الأتراك السلاجقة على فلسطين و منها بيت المقدس في عام 1070 أخذ الحجاج المسيحيون يتحدثون عن متاعب و صعوبات كانوا يتعرضون لها أثناء رحلتهم للحج عند عودتهم إلى بلدانهم، و ذاع في أوروبا في هذه المرحلة أن أحد رجال الدين الأوروبيين و كانت له شهرته في الحروب الصليبية و يدعى بطرس الناسك المولود في باميان في بيكاردية، إحدى مقاطعات مملكة فرنسا، توجه للحج في بيت المقدس و قابل سمعان، بطرك بيت المقدس، في عام 1088، هذا و نقل بطرس الناسك هموم و متاعب بطرك القدس سمعان لبابا الفاتيكان أوربان الثاني عند عودته من رحلة الحج. حيث وعد البابا أوربان بمساعدة بطرك القدس¹. ومن الأسباب السياسية أيضاً ما لحق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف و انحطاط. و واقع الأمر أن القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية تعد البوابة الشرقية لأوروبا، بقيت تواجه الإمبراطورية الفارسية ثم القوات الإسلامية لفترة طويلة كما كان عليها مواجهة غزوات الجرمان. و في المرحلة السابقة للحروب الصليبية بدأ الانحطاط يفتك في مفاصل الإمبراطورية. كما بدأ عناصر من البجناكية و الكومان و البلغار في مهاجمتها. و كان الأكثر خطورة في هجماتهم هم السلاجقة الأتراك الذين استطاعوا هزيمة القوات الإمبراطورية بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع (1067 - 1071) في عام 1071 في معركة مانذكرد التي كاد يقضي فيها على القوات البيزنطية. هذا و تابع السلاجقة انتصاراتهم و استولوا على أنطاكية في عام 1085 و بعد ذلك توغلوا في آسيا الصغرى حتى وصلوا نيقية و احتلوها و اتخذوها عاصمة لهم، و بذلك غدا هؤلاء السلاجقة على مشارف بحر

1 - الحريري، سيد: الاخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة

1899، ص 17.

ممره و أخذوا يعدون العدة للهجوم على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، القسطنطينية.

و بسبب الخوف من مواجهة السلاجقة و تعاظم خطرهم على الإمبراطورية البيزنطية وجد الإمبراطور الكسيوس الأول (1081 - 1118) نفسه مضطراً إلى عقد صلح مهين معهم. و هذا ما دفع الإمبراطور إلى الكتابة إلى البابا أوربان الثاني (1088 - 1099) في روما يطلب منه النجدة و المساعدة¹.

أرادت البابوية فرض سيطرتها و نفوذها على الكنائس الشرقية و البيزنطية التي استقلت عنها. و بناءً على ذلك استجاب البابا أوربان الثاني إلى طلب الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الأول الذي أرسل وفداً إلى بابا روما يطلب منه أن ينجده بجيش من الغرب الأوروبي يساعد الإمبراطورية البيزنطية على دحر السلاجقة الأتراك و ردهم على أعقابهم بعد أن سيطروا على غالبية آسيا الصغرى و على أنطاكية و القدس أيضاً. أما ثمن هذه الخدمة فهو إنهاء الانشقاق بين الكنيسة البيزنطية الشرقية و الكنيسة اللاتينية الغربية وتوحيد الكنيستين تحت زعامة بابا الفاتيكان. و لكي يستعطف الوفد البيزنطي مشاعر البابا و رجال الدين الغربيين، الذين كانوا قد اجتمعوا معهم في مجمع ديني في مدينة ببلزانس عام 1095، رسم لهم بمبالغة و تضخيم كبيرين صورة محزنة عن الاضطهاد الذي يقاسيه المسيحيون الشرقيون الذين يعيشون في كنف دولة السلاجقة و عن سوء المعاملة التي يتعرض لها حجاج بيت المقدس القادمين من أوروبا. و عدا عن ذلك كان إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من السقوط بأيدي السلاجقة المسلمين يعني بالنسبة للبابوية الحفاظ على السور المنيع الذي يحمي أوروبا المسيحية من جهة

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 19.

الشرق، و بالتالي إبعاد الخطر السلجوقي عن أوروبا نفسها. و من ناحية أخرى فقد كانت البابوية في صراع مع السلطة الزمنية بزعامة أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على السيادة العليا في العالم المسيحي الغربي، فالبابوية أرادت فرض سلطتها على الإمبراطور الألماني، بينما عمل الإمبراطور جاهدًا لفرض سلطته على البابوية. و هكذا فإذا حققت البابوية عملاً عظيماً بنتيجة تزعمها الحملات الصليبية، فإن ذلك سيساعدها على تحقيق أهدافها في فرض سيادتها على السلطة الزمنية، بالإضافة إلى تثبيت سلطتها الروحية. عدا عن ذلك فإن البابوية ستكسب نتيجة مشاركتها في الحروب الصليبية أموالاً ضخمة. فقد انتشر رجال الدين المسيحي في كافة أرجاء أوروبا يجمعون التبرعات و حتى الضرائب من كل فرد بحجة تمويل الحملات الصليبية، لكن هذه الأموال و في كثير من الأحيان لم تصرف على المشروع الذي جمعت من أجله، بل ذهب قسم كبير منها إلى جيوب رجال الدين و خزافة الفاتيكان. بالإضافة إلى ذلك فقد بقيت هذه التبرعات تجمع حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية¹.

رحلات الحج الأوروبية إلى القدس قبل الحملات الصليبية

حدثت حركة الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي، و دخلت بلاد الشام بما فيها فلسطين تحت السيادة العربية الإسلامية، و بصفة عامة اتسمت سياسة المسلمين تجاه الأماكن المقدسة لدى المسيحيين بالتسامح الديني و لم تتسم بالتعصب. هذا و لم تتوقف رحلات الحجاج المسيحيين الأوروبيين إلى بيت المقدس بعد الفتح الإسلامي لفلسطين بل إن الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة شهد ازدهاراً من خلال توطيد العلاقات بين الدولة العباسية

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 205 - 206.

و خصوصاً في عهد الخليفة هارون الرشيد (786 - 809) و شارلمان إمبراطور الفرنجة. و من الملاحظ أنه في القرن العاشر الميلادي حدثت تطورات مهمة في أوروبا حيث ظهرت حركة كلوني في عام 910م في فرنسا و قامت هذه الحركة بإصلاح أوضاع الكنيسة و الأديرة في أوروبا و أحدثت نهضة دينية كبيرة، عملت على ازدهار حركة الحج و إقامة شبكة كبيرة تهتم بأمور الحجاج و شؤونهم، و عملت على عرض كافة التسهيلات اللازمة من أجل توفير ما يلزم الحجاج من احتياجات متنوعة. هذا و يرى بعض المؤرخين أن لحركة دير كلوني و اهتمامها بالحج إلى الأراضي المقدسة أهمية كبيرة في التأثير في قيام الحروب الصليبية التي هدفت إلى جعل الأراضي المقدسة في قبضة المسيحيين الأوروبيين و إبعاد السيادة الإسلامية عنها.

يعد القرن الحادي عشر الميلادي مرحلة حاسمة بالنسبة إلى الحج إلى فلسطين، ففي بداية هذا القرن، أي في فترة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (999 - 1021)، يلاحظ تعثر في حركة الحج المسيحي إلى القدس لكن هذه المرحلة كانت استثنائية و سرعان ما عادت حركة الحج إلى سابق عهدها، فقد قام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (1035 - 1094) بتوقيع اتفاقية مع الإمبراطور قسطنطين العاشر (1059 - 1067) حلت الخلافات القائمة بشأن الأماكن المقدسة و نظمت أمور الحجاج الأوروبيين¹. و يلاحظ في هذا القرن (القرن الحادي عشر) تزايد أعداد الحجاج المسيحيين إلى فلسطين، ففي البداية ذهب العامة إلى الحج و بعد ذلك بدأ يذهب أولئك الذين ينتمون للطبقات الوسطى، ثم قام بالحج العديد من الملوك و الأمراء و كبار الإقطاعيين و الأساقفة. هذا و

1 - عوض، محمد: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، عين، الهرم 1999، ص

ازدادت ظاهرة الحج المسيحي إلى فلسطين، ومن الأمور ذات الدلالة أيضاً أنه خلال عام 1065 حدث "الحج الألماني الكبير" الذي قاده رئيس أساقفة ماينز و أسقف بامبرغ و يقال إن عدد الحجاج بلغ أكثر من سبعة آلاف من الرجال و النساء¹. هذا و كان الحجاج الأوروبيون و خاصة الأمراء، يعجبون بمدن الشرق و بمظاهر الترف و الفخامة التي يعيشها الأمراء البيزنطيون و غيرهم من أمراء المشرق، كما فتن الأوروبيون بأدوات الزينة و العطور و التحف الشرقية و المصنوعات الفنية، فتكوّن عندهم تصور خيالي عن سحر الشرق و عظمة الحياة هناك، في حين لم تكن مثل هذه الحياة معتادة عندهم في أوروبا على الرغم من امتلاكهم الثروات و الكنوز و الأراضي الواسعة. و هذا هو أحد الأسباب التي أثارت رغبة الأمراء الأوروبيين للانخراط في الحروب الصليبية².

الأوضاع العامة في المشرق الإسلامي عشية الحروب الصليبية

أدت الحملات الصليبية، في وقت كان فيه العالم الإسلامي، يعاني من الانقسامات السياسية، و الخلافات المذهبية. و كانت بلاد الشام تعيش في وضع سياسي مزري. فقد توزعت مدنها بين حكام و أمراء، يخشى كل واحد منهم الآخر، و أصبحت بلاد الشام مسرحاً للنزاع العسكري و المذهبي بين الفاطميين و السلاجقة، مما جعلها ضعيفة منهكة القوى عندما بدأت الجيوش الصليبية تصل ديارها.

1 - زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو 1986، ص 23.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 211.

خضع جزء من العالم العربي الإسلامي في أوائل القرن الحادي عشر ميلادي، للخلافة العباسية في بغداد، و جزء آخر للخلافة الفاطمية في القاهرة، و جزء ثالث لورثة الخلافة الأموية في قرطبة من دول الطوائف و قد أخذ الضعف يتفشى في هذه الدول، التي كانت تحكم العالم العربي و الإسلامي، و ازداد خطر الدول المستقلة، التي استقلت عن الخلافة بسبب ضعفها أحياناً، فما تكاد تظهر دولة حتى تختفي و تزول بسرعة لتحل مكانها دول أخرى. و مما زاد الأمور سوءاً الآثار التدميرية التي خلفتها شعوب الغز بقيادة السلاجقة، منذ أن بدؤوا بالسيطرة على الأراضي العربية. هذا و لم يتوسع السلاجقة على حساب المسلمين فقط، بل قاموا بالتمدد على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى و عملوا على القضاء على الإمبراطورية البيزنطية. كما سعوا للقضاء على الخلافة الفاطمية من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت سلطة الخلافة العباسية. ففي عام 1071 تمكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان من إنزال هزيمة قاسية بالروم البيزنطيين في معركة مناذكرد (ملاذكرد) الشهيرة. هذا و تعد معركة مناذكرد نقطة تحول هامة في التاريخ البيزنطي. فقد غدت الإمبراطورية البيزنطية عاجزة تماماً عن إيقاف زحف الغزاة السلاجقة داخل أراضيها. كما حاول السلاجقة الهجوم على القسطنطينية نفسها بعد أن نجحوا في فتح الطريق أمامهم في آسيا الصغرى، فاقتحم السلاجقة آسيا الصغرى كلها و أعملوا النهب و التدمير فيها، و خربوا الأراضي الزراعية و دمروا الطرق و القنوات، و بات من المتعذر على بيزنطة استعادة المقاطعات التي استولى عليها السلاجقة، كما أن تلك المقاطعات عدا عن أهميتها الحربية و العسكرية للإمبراطورية البيزنطية كانت تعد مصدراً هاماً للحبوب و المؤن. و لم تعد بيزنطة حامية للغرب الأوروبي كما كانت من قبل و أصبحت مضطرة إلى

الاعتماد على الجند المرتزقة من المسيحيين الكاثوليك في أوروبا الغربية لصد غارات السلاجقة¹.

استطاع السلاجقة تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف، لأول مرة منذ وقت طويل، و احتفظ السلاجقة بالخلفاء العباسيين حكاماً اسميين. إلا أن عصر الازدهار و التفوق السلجوقي لم يستمر طويلاً، فبعد وفاة السلطان السلجوقي ملك شاه في عام 1092، بدأ الانهيار و الضعف يذب في دولتهم، بسبب الحرب الداخلية التي نشبت بين أولاده من جهة و بسبب الخلافات الأخرى التي عصفت بالمسلمين من جهة ثانية، فقد تصارع كل من العباسيين و الفاطميين للسيطرة على بلاد الشام التي تعد حلقة الوصل بين مصر و العراق. و قد واكب ضعف الخلافة العباسية في بغداد انحسار نفوذها في كثير من البلاد ومن جملتها الشام و هذا ما ساعد الفاطميين على مد نفوذهم إلى هناك و سيطروا على الأجزاء الجنوبية و الساحلية من بلاد الشام حتى قدوم الحملات الصليبية. و لم يقف الأمر على الصراع بين الخلافة العباسية و الخلافة الفاطمية، بل إن الأمراء المحليين استغلوا ضعف السلطة المركزية في كل من بغداد و القاهرة و أسسوا إمارات لهم في أرجاء مختلفة من بلاد الشام و ثبتوا أقدامهم فيها مثل بنو طيء في ما وراء نهر الأردن، و بنو عمار في طرابلس، و بنو الجراح في غزة و الرملة، و بنو منقذ في شيراز، و بنو مرداس في حلب، و ابن ملاعب في حمص، و ابن أبي عقيل في صور². لقد عانت بلاد الشام كثيراً من فقدان الأمن و عدم الاستقرار و

1 - زكار، سهيل/ جوني، وفاء/ اسماعيل، اكتمال: حروب الفرنجة (الصليبية) جامعة دمشق 2007-2008، ص 48-50.

2 - الحوييري، محمود: الأوضاع في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاذ، دار المعارف، القاهرة 1979، ص 5-6.

الاضطراب، بسبب حكم السلاجقة التركمان الذين انتشروا في بلاد الشام و استطاعوا على مدى ثلث قرن من الزمن، تدمير بلاد الشام بشكل لا مثيل له في تاريخها المديد، و عندما أشرف القرن الحادي عشر الميلادي على نهايته، كانت بلاد الشام في حالة من الإنهاك و الضعف و الانحطاط و التدهور الداخلي و الخارجي لا نظير له. و كانت هذه البلاد تخضع لعدد من الحكام التركمان، الذين لا ارتباط لهم بحضارة البلاد و لغتها و تقاليدها و معتقداتها، و كان هم هؤلاء الحكام التركمان النزاع في سبيل السلطة و المال، دون أي رادع أخلاقي، و كان من نتائج أعمالهم، بالإضافة إلى الدمار و التخريب الذي أحدثوه، تحطيم قوة القبائل العربية، مع تحطيم قوة أهل المدن¹.

أوضاع الإمبراطورية البيزنطية عشية الحروب الصليبية:

كانت الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية في سبعينيات القرن الحادي عشر تمثل فرصة ممتازة لتدخل أوروبا الغربية اللاتينية في شؤونها. خصوصاً و أن الإمبراطورية البيزنطية كانت قد خارت قواها من جراء نمو السيادة الإقطاعية و برهنت على عجزها في الصمود أمام جيوش السلاجقة، الذين كانوا آخر موجات الغزاة الآسيويين الذين توغلوا في عالم البحر المتوسط. إذ كان السلاجقة قد استعادوا أنطاكية من المسيحيين كما ألحقوا هزيمة ساحقة بالبيزنطيين في معركة مناذکرد 1071م². عدا عن ذلك فقد تلاشت طبقة الفلاحين الأحرار الذين كانوا سابقاً يشكلون عماد الجيش البيزنطي و يقومون بالدفاع عن مناطقهم دون أن يأخذوا مرتبات شهرية من الخزانة الإمبراطورية، و ذلك حسب نظام الثغور العسكرية الذي أحدث في القرن السابع، وأصبحت الدولة البيزنطية تعتمد بصورة

1 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 52، 53.

2 - كانتور، نورمان: التاريخ الوسيط، ج2، ص 406.

أساسية على جيوش المرتزقة من الغرباء الذين يتلقون مرتبات عالية مقابل خدماتهم العسكرية. لكن هذه السياسة العسكرية أفقرت الخزانة البيزنطية، فكانت السلطات فيها مضطرة لفرض ضرائب جديدة على الشعب أو زيادتها، و هذا ما أساء لعامة الشعب من الطبقة الكادحة و تدمرت من السياسة المالية المجحفة¹.

هذا و لم تقتصر الكوارث و الاعتداءات الخارجية التي تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر على ما فعله السلاجقة بالأقاليم الآسيوية للإمبراطورية، و إنما تعرضت الأقاليم الأوروبية التابعة للسلطة البيزنطية في ذلك الوقت أيضاً لخطر النورمانديين الذين حاولوا السيطرة على أملاك بيزنطة الأوروبية². لكن بيزنطة استطاعت أن تضع حداً لمحاولات النورمانديين بمساعدة تجار مدينة البندقية الإيطاليين، الذين حصلوا مقابل ذلك على امتيازات تجارية و تسهيلات في جميع أرجاء الإمبراطورية البيزنطية و على سوق تجاري خاص بهم في العاصمة القسطنطينية. أما في الشرق فقد كان السلاجقة الأتراك يجهزون جيوشهم لشن هجوم جديد على أملاك بيزنطة في آسيا الصغرى. و في الشمال تحركت أيضاً قبائل البيتشنغ الآسيوية، فاجتاحت البلقان و اقتربت هي و القبائل السلافية معاً من أسوار القسطنطينية في عام 1091، لكن بيزنطة تمكنت من التصدي للمهاجمين و ردتهم على أعقابهم. و بسبب هذه الظروف الصعبة و المعقدة التي كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية كان الأباطرة في القسطنطينية مضطرين لطلب المساعدة من بابا الفاتيكان مراراً و تكراراً، و كذلك الأمر فقد وجهوا نداءات الاستغاثة إلى الإمبراطور الألماني أو إلى

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 308.

2 - عاشور، سعيد: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج1، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1971، ص 123-124.

غيره من ملوك أوروبا لمساعدتهم في الدفاع عن إمبراطوريتهم. لكن حكام أوروبا اللاتينية اتخذوا من طلبات أباطرة بيزنطة ذريعة لتدخلهم في شؤون بيزنطة الداخلية. كما أصبح لديهم صورة عن ضعف البيزنطيين و السلاجقة معاً، و هذا ما دفعهم للتوقع بسهولة احتلال المشرق المضطرب و السيطرة عليه بسرعة¹.

الحملة الصليبية الأولى:

إن الفكرة الأولى لتنفيذ حرب صليبية في الأراضي المقدسة كانت من بنات أفكار البابا أوربان الثاني، ففي السنوات الأخيرة من حياة البابا غريغوري السابع كانت الحالة في المشرق العربي تستدعي القلق بسبب سيطرة السلاجقة الأتراك على القدس في 1078 و أنطاكية 1085 و احتلوا عدداً من الجزر في البحر المتوسط في عام 1092 و أصبح حج المسيحيين الأوروبيين مستحيلاً بعد أن دمرت الكنائس و عاث الاضطهاد بشدة غير مألوفة. و في المؤتمر الذي عقده البابا أوربان الثاني في بليزانس من 1 إلى 7 آذار 1095 وصل إليه وفد أرسله الإمبراطور البيزنطي، الكيسوس كومنين بغية التوصل إلى البابا و جميع المؤمنين بالمسيح لإسعافه بنجدة للدفاع عن الكنيسة المقدسة. و لعل رسل الكيسوس لاستعطاف الكنيسة اللاتينية، استطاعوا رسم لوحة مؤثرة عن الآلام و المعاناة التي يتحملها المسيحيون الشرقيون من السلاجقة الأتراك، حتى إن أوربان الثاني أخذته الرأفة بهذا العذاب الإنساني و أخذ يتصور تدريجياً إعداد جيش غربي ليخلص الأراضي المقدسة و ليضع حداً لتعصب السلاجقة². إن مشروع إرسال حملة إلى الشرق بتأثير الوفد البيزنطي في مجمع بليزانس، أخذ يتبلور و يتضح في صيف 1095. و حتى أواخر حزيران من نفس العام كان البابا أوربان الثاني قد جاب

1 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 213.

2 - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، ص 830-831.

لومبارديا ثم اتجه نحو فرنسا و استقر بها حتى أواخر تموز، و جال في الكثير من المدن الفرنسية حتى وصل إلى كلوني في 18 تشرين الأول و منها ذهب إلى كليرمونت ليفتتح في 18 تشرين الثاني المجمع الديني الكبير الذي دعا إليه أثناء وجوده في فرنسا. و بعد مضي تسعة أيام من انعقاد المؤتمر و مناقشة المسائل الكنسية المتعددة، وجه البابا أوربان الثاني دعوته في اليوم العاشر إلى المسيحيين جميعاً للاتحاد لانتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. هذا و كان البابا قد عرض على المجتمعين، هول ما تعانيه الأراضي المقدسة و حاجاتها من متاعب و صعوبات بسبب سيطرة المسلمين عليها، الأمر الذي يتطلب من المسيحيين الغربيين إنقاذ إخوانهم في الشرق. وجه البابا دعوته للأغنياء و للفقراء في أوروبا، ليترك الجميع مشاكلهم في أوروبا اللاتينية و يوجهون جهودهم ضد المسلمين في المشرق، حيث يرعاهم الله و يغفر ذنوبهم و يبارك جهودهم، ثم نادى البابا أوربان الثاني بالاسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة الاستعداد للرحيل شرقاً مع بداية فصل الصيف القادم، هذا و لاقى هذا النداء استجابة كبيرة من جمهور الحاضرين في كليرمونت فصاح الجميع بأصوات عالية مرددين العبارة التالية (هذه مشيئة الله)، و كان هذا المجمع الديني و نتائجه إيذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية سوف تستمر حوالي القرنين من الزمن¹.

انتقل البابا أوربان الثاني إلى مدن أخرى و بقي لمدة تسعة أشهر يخطب داعياً للحملة الصليبية. و لما عاد إلى روما بعد أن غاب عنها لمدة عامين، أخذ على عاتقه أن يحل جميع المسيحيين من جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين. حيث حرر أرقاء الأرض، و حرر التابع الإقطاعي طول مدة الحرب

1 - عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة، ص 132-133.

بما عليه من التزامات لسيده الإقطاعي، و منح جميع المشاركين في الحملة ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الإقطاعية، و ضمن لهم حماية الكنيسة لأملهم طول فترة غيابهم. كما وعد كل من يقتل في الحرب بأن تغفر له جميع ذنوبه، كما أعفى السكان من الضرائب و أجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة مقابل هذا التأجيل، عدا عن ذلك قام البابا بإطلاق سراح المسجونين و خفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في فلسطين. كما أمر البابا بوقف كل الحروب القائمة بين المسيحيين، و وضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الإقطاعي. و هكذا توحدت أوروبا بشكل مثير للاهتمام، و وجد البابا أوربان نفسه السيد المطاع في أوروبا. هذا و نشطت الدعايات المعتادة في الحروب فأخذت تشيع و تؤكد الاضطهاد الذي يقاسيه المسيحيون في فلسطين و هذا ما أثار حماسة الأوروبيين فتجمعت خلال عام واحد جموع كبيرة من الصليبيين، ثم انطلقوا باتجاه المشرق في عام 1096م¹.

هذا و تألفت الحملة الصليبية الأولى كما هو معروف من قسمين: 1 - الحملة الشعبية (أو حملة العامة و الفقراء) 2 - الحملة النظامية (أو حملة الأمراء).

1 - الحملة الشعبية أو حملات العامة

أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة، ارتبطت بالتاريخ عادةً باسم بطرس الناسك. صحيح أن البابا كان قد طلب من الأساقفة الدعوة للحروب الصليبية، لكن هذا لم يقتصر عليهم، بل ظهرت طائفة جديدة من الدعاة الذين قاموا بجهد كبير و واسع النطاق في الدعاية لمشروع السيطرة على الأماكن

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 25، 26.

المقدسة، و على رأس هؤلاء الدعاة كان اسم بطرس الناسك. هذا و أدى بطرس الناسك دوراً مهماً في التأثير على جماهير العامة و الناس البسيطين في غرب أوروبا، بحيث إنهم كانوا لا يكادون يسمعون حديثه حتى تسيطر عليهم الحماسة فيجتمعون بسرعة كبيرة و يبدؤون بالزحف شرقاً دون إعطاء البابا و الأمراء مهلة كافية لتنظيم الحركة الصليبية تنظيماً جيداً من الناحيتين السياسية و العسكرية، هذا و تابع بطرس الناسك دعوته بقوة، و جاب في مختلف مناطق فرنسا، و خرج منها بعدد ضخم من الأتباع حوالي خمسة عشر ألفاً، اصطحب بعضهم نساءهم و أطفالهم¹. و في نفس الوقت الذي كان فيه بطرس الناسك يمضي في دعوته للحرب ظهر زعيم آخر من زعماء العامة يدعى والتر المفلس. و سرعان ما قاد والتر أتباعه عبر هنغاريا ثم أراضي الإمبراطورية البيزنطية، و في الطريق تعرضت الأقاليم الواقعة على طول هذا الطريق للنهب و السلب من قبل هؤلاء الصليبيين على الرغم من أن سكان هذه الأقاليم مسيحيون. و على الرغم من ذلك فقد رحب حكام بيزنطة في البلقان بتلك الجموع الصليبية بالرغم من مظهرها الرث الذي يدل على سوء تنظيمها و إعدادها و جهل أفرادها بأبسط مبادئ القتال. و هكذا وصل الصليبيون إلى صوفية و أدرنة وبعد ذلك وصلوا إلى القسطنطينية في عام 1096م، و هناك أذن لهم الإمبراطور الكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى قدوم بطرس الناسك. قدم بطرس من كولينا على رأس مجموعته عابراً ألمانيا و هنغاريا و قامت مجموعته بأعمال السلب و النهب على

1 - زكار/ جوني/ اسماعيل، حروب الفرنجة، ص 53-54.

الطريق أيضاً حتى وصلوا إلى القسطنطينية حيث التقوا بجماعة والتز في آب 1096م¹.

على الرغم من البوادر المزعجة التي ظهرت من الصليبيين أثناء اجتيازهم أراضي الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين استقبل بطرس الناسك بحفاوة و تكريم و قدم له و لجماعته النصح بألا يتسرعوا في العبور إلى آسيا الصغرى قبل أن تصل إليهم إمدادات و قوات عسكرية نظامية من الغرب المسيحي تساعد في الصمود في وجه الأتراك السلاجقة. على أن انتظار تلك الجموع أمام أسوار القسطنطينية لم يلبث أن سبب مشاكل كثيرة للإمبراطورية بسبب استمرارهم في أعمال السلب و النهب و الاعتداء على أهالي القرى المجاورة، حتى إن الكنائس لم تنجوا من اعتداءات هؤلاء المشاركين في الحروب الصليبية.

كان إحساس الخيبة واضحاً لدى الإمبراطور و شعبه، لأن بيزنطة كانت قد طلبت من البابوية إمدادها بجيوش و فرق عسكرية لمساعدتهم في دفع خطر المسلمين، لكنها وجدت على أراضيها الآلاف من عامة الشعب الأوروبي دخلوا إلى أراضيها ليحصلوا على المؤن و الكساء إن لم يكن بالطرق السلمية فليكن بطرق السلب و النهب و الاعتداء على رعايا الإمبراطور الأمنين. و هذا ما دفع الإمبراطور إلى أن يعيد النظر في سياسته اتجاههم، حيث دفعه القلق على القسطنطينية إلى الإسراع بنقلهم إلى الشاطئ الآسيوي للبوسفور، و مع التأكيد عليهم بالتجمع و الانتظار عند أحد الأماكن الحصينة بالقرب من البوسفور، حتى تصلهم الإمدادات و الجيوش النظامية من الغرب. لكن هذه النصائح لم تنش هذه

1 - سميث، جوناثان ريلي: الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد

الشاعر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999، ص 94.

الجموع عن السلب و النهب و أخذوا يوسعون دائرة أعمالهم دون أن يردعهم أن نيقية، عاصمة السلطان قلع أرسلان بن سليمان، على بعد عدة كيلو مترات منهم فقط¹.

سرعان ما بدأت المناوشات بين الصليبيين من جهة و السلاجقة الأتراك من جهة ثانية، هذا و استطاع الصليبيون تحقيق بعض الانتصارات المحلية في المواجهات الصغيرة الأولى، و هذا ما جعلهم يعتززون بقوتهم و يبالغون في الهجوم على أراضي السلاجقة. عدا عن ذلك فقد استغلوا ذهاب بطرس الناسك إلى القسطنطينية للقاء الإمبراطور و قرروا الزحف على نيقية، و كان عدد الصليبيين 25 ألفاً، منهم خمسمائة فارس فقط، و الباقي كانوا من المشاة غير المنظمين و لا توجد قيادة موحدة لهم. و استطاع السلاجقة مباغته هؤلاء أثناء زحفهم في 21 تشرين الأول 1096، فلم يستطع غالبيتهم المقاومة، و أعمل السلاجقة فيهم القتل و الذبح حتى لم ينج منهم إلا ثلاثة آلاف. عندما سمع الإمبراطور البيزنطي بهذه الكارثة، قام بإرسال بعض السفن الحربية محملة بالامدادات للصليبيين، لكن الأوان كان قد فات، فحملت فلول الصليبيين إلى القسطنطينية و ظلوا في رعاية الإمبراطور حتى وصول حملة الأمراء. و هكذا فشلت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك و والتر المفلس في تحقيق أي هدف من أهدافها².

الحملة النظامية (حملة الأمراء):

بينما كانت تلك الأحداث تجري مع الحملة الشعبية كان الأمراء و الإقطاعيون الذين حملوا راية الصليب قد جمع كل منهم رجاله في إقليمه، و لم

1 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 55-57.

2 - زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 58.

يكن من بين هؤلاء زعماء أو ملوك، لأن كلاً من ملك فرنسا، فيليب الأول ، و ملك ألمانيا، هنري الرابع، و ملك إنكلترا، غليوم الثاني، كانوا على علاقة سيئة مع البابوية في ذلك الوقت. هذا و انضم الكثيرون من الإشراف و النبلاء إلى صفوف المقاتلين، و كانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين الفرنجة. و بذلك كانت الحملة الصليبية الأولى في الأغلب مغامرة فرنجية¹. هذا و تشكلت حملة الأمراء هذه من أربع مجموعات كبيرة:

المجموعة الأولى: تسلم قيادتها غودفري دوق اللورين و أخوه بلدوين و كانت هذه المجموعة مؤلفة من خليط من الفرنسيين و الألمان، و كان غالبيتهم من الفرنسيين.

المجموعة الثانية: و هي مؤلفة من النورمانديين، و كانت قادمة من إيطاليا الوسطى بقيادة بوهيموند دي تارنت ابن روبرت جويسكارد و ابن أخيه تانكرد.

المجموعة الثالثة: كانت بقيادة ريموند سانت جيل، كونت تولوز، يرافقه مندوب البابا أدهمردى مونتيل أسقف بوي الذي عينه البابا أوربان الثاني رئيساً روحياً للحملة الصليبية الأولى.

المجموعة الرابعة: تألفت هذه المجموعة من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمانديا، ابن غليوم الفاتح، و صهره أتين ستفن أمير بلوا و شارتر².

و هكذا فإن القوات الصليبية لم تكن لها قيادة موحدة، بل كانت كل مجموعة تشكل جيشاً أو وحدة عسكرية مستقلة لها قيادتها الخاصة. و تميزت هذه القوات

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 27-28.

2 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 57، 60، 61، 62.

الإقطاعية بتجهيزها الممتاز من ناحية السلاح و المؤونة و المال فقد كانت أفضل بكثير مما كانت عليه القوات الشعبية التي سبقتها إلى القسطنطينية. لكن التحقق أيضاً بهذه الحملة (حملة الأمراء) عدد كبير من الفلاحين و المعدمين الذين لا يملكون سلاحاً و لا مالاً و في أحسن الأحوال كان تسليحهم سيئاً.

غادرت قوات الأمراء الإقطاعيين أوروبا باتجاه الشرق في أواخر عام 1096. هذا و سلكت هذه القوات طرقاً مختلفة، فقسم منها سار في الطريق البرية المحاذية لنهري الراين و الدانوب، و قسم ثانٍ سار في الطريق البرية المحاذية لشاطئ البحر الادرياتيكي، و القسم الثالث اجتاز إيطاليا و ركب البحر متوجهاً إلى البلقان. و في ربيع 1097 وصلت جيوش الأمراء الإقطاعيين إلى محاذة القسطنطينية و كان عددها يتراوح بين ستين ألف و مائة ألف. هذا و نشب خلاف عميق بين القوات الصليبية هذه و بين الإمبراطورية البيزنطية، قبل سماح الأخيرة للصليبيين بدخول عاصمتها. فالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين توجس من نوايا الصليبيين و انزعج من تصرفاتهم و أعمال السلب و النهب التي قاموا بها اتجاه المسيحيين الشرقيين، لذلك لم يسمح بفتح أبواب عاصمته لهم في البداية. هذا و لم يكن هدف الصليبيين من الحملة التي جاؤوا فيها مساعدة الإمبراطورية البيزنطية في استرجاع المقاطعات و الأقاليم التي احتلها السلاجقة منها، بل كانت غايتهم الأساسية تأسيس إمارات لهم في المشرق العربي وتحقيق مكاسب اقتصادية وغيرها. ولما كان الإمبراطور الكسيوس كومنين يريد من الصليبيين أن يقاتلوا من أجل بيزنطة، فإنه لم يسمح لهم بدخول عاصمته إلا بعد أن أقسم كبار قادتهم يمين الولاء و التبعية له و تعهدوا بتسليمه الأراضي البيزنطية التي سوف يسترجعوها من السلاجقة، ما عدا الأرض المقدسة أي فلسطين. و من جهة ثانية تكفل الإمبراطور البيزنطي لهؤلاء القادة الصليبيين بتقديم المؤن لهم و كل أنواع الدعم و الإمداد الممكن و التي تساعدهم على تحقيق النصر. و في الحقيقة لم يكن الإمبراطور

الكسيوس يثق بيمين الولاء الذي أقسمه الأمراء الأوروبيون له، كما لم يكن نية هؤلاء تنفيذ ما أقسموا عليه و ما وعدوا به¹.

عبرت القوات الصليبية بحر مرمرة بعد أن تم الاتفاق مع الإمبراطور في عام 1097 و كانت لا تزال موزعة القيادة. و كان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أكثر انقساماً على أنفسهم من المسيحيين، فقد مزقت المنازعات الدينية وحدتهم في شمال إفريقيا و كان الخلفاء الفاطميون في الشرق يسيطرون على بلاد الشام الجنوبية، بينما كان منافسهم السلاجقة يمتلكون الجزء الشمالي و القسم الأكبر من آسيا الصغرى و تمردت أرمينيا على حكامها السلاجقة و تحالفت مع الصليبيين، هذا و كان أول عمل قام به الصليبيون ضد السلاجقة هو حصار مدينة نيقية، حيث استسلمت الحامية السلجوقية التركية في 19 حزيران 1097 بعد أن وعدوا الإمبراطور الكسيوس بالمحافظة على حياتها و أمر الإمبراطور برفع العلم الإمبراطوري على حصنها، و حمى المدينة من النهب، و أرضى الزعماء الإقطاعيين بالهدايا الثمينة، و لكن الجنود الصليبيين اتهموا الإمبراطور الكسيوس بأنه فاوض السلاجقة سراً و بدون علمهم². استراح الصليبيون في المدينة لمدة أسبوع و بعد ذلك تابعوا زحفهم إلى الشرق و التقوا عند سهل ضورييلوم بجيش سلجوقي بقيادة قلج أرسلان، و جرت معركة حاسمة انتصر فيها الصليبيون على السلاجقة في تموز 1097 انتصاراً ساحقاً و بعد ذلك اخترق الصليبيون آسيا الصغرى دون أن يواجهوا مقاومة تذكر³. فاحتلوا أق شهر و قونيه ثم أريجلي، و

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 311-312.

2 - السوري، وليم: الحروب الصليبية، ج1، ترجمة حسن حبشي، الأهرام، القاهرة 1991، ص 216-218.

3 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 29.

هناك هزموا جيشاً تركياً هزيمة منكراً عند محاولته اعتراضهم و كان ذلك في 10 أيلول 1097. و بعد ذلك انفصل تانكرد و بلدوين شقيق غودفري دوق اللورين عن الجيش الرئيسي، للإغارة على كيليكيا و الاستيلاء على طرسوس و أخنه و مصيص و الاسكندرونة، ثم ذهب بلدوين شرقاً صوب غازي عينتاب و الزها التي وصلها في شباط 1098، حيث قام حاكمها الأرمني بفتح أبوابها لبلدوين الذي أقام فيها أول إمارة صليبية. وفي الوقت نفسه انضم تانكرد مجدداً إلى الحملة الصليبية التي كانت قد تقدمت في طريق قيساريه و كوماننا و مرعش باتجاه أنطاكية حيث وصلت الحملة الصليبية في 21 تشرين الأول 1097، هذا و استمر حصار أنطاكية من قبل القوات المعادية حتى حزيران 1098 حيث استطاع الصليبيون احتلالها. لكن لم تمض أربعة أيام على احتلال أنطاكية من قبل الصليبيين حتى حاصروهم جيش ضخم من المسلمين أتى لنجدة المدينة بقيادة كريغا حاكم الموصل السلجوقي. و هذا ما وضع الصليبيين في موقف محرج جداً و أصبحوا محاصرين بقوة. هذا و استطاعت القوات الصليبية شن هجوم مفاجئ و ناجح على الجيش السلجوقي الذي كان يحاصروهم و أجبروهم على الفرار في معركة من أشهر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية، خصوصاً بعد أن كان قد دبّ الأمل في نفوس الصليبيين عندما اكتشفوا قطعة أثرية تحت أرضية الكاتدرائية و اعتقدوا أنها بقايا الحربة المقدسة التي طعن بها المسيح و هو على خشبة الصليب، فتحمسوا جميعاً لخوض تلك المعركة¹.

بعد ذلك بدأ الصراع بين الأمراء الصليبيين على حكم أنطاكية، فالأمير النورماندي بوهيموند أراد أن يستأثر بحكم هذه المدينة وحده، في حين نافسه على حكمها بعض الأمراء، بينما أراد آخرون تسليمها للإمبراطور البيزنطي حسب

1 - سميث: الحملة الصليبية الأولى، ص 111-112.

الوعود التي قطعوها على أنفسهم. و في النهاية انتصر بوهيموند النورماندي على منافسيه، و أسس في أنطاكية إمارة صليبية مستقلة و حكمها بنفسه.

بعد احتلال أنطاكية و تأسيس إمارة صليبية فيها للنورمانديين تابع الصليبيون زحفهم باتجاه القدس، التي حاصروها لمدة خمسة أسابيع لتسقط بأيديهم في 15 تموز 1099 و أعقب هذا الغزو استباحة القدس مدة ثلاثة أيام، أعمل الصليبيون خلالها القتل و الذبح بحق المدافعين عن هذه المدينة المقدسة من مسلمين و مسيحيين و قتلوا أعداداً كبيرة منهم، هذا و عامل الصليبيون سكان القدس من المسلمين و المسيحيين بوحشية لا نظير لها، كما أضرم الصليبيون النار في بيوت العبادة الإسلامية و اليهودية و المنازل الموجودة في بيت المقدس. و باحتلال القدس تكون الحملة الصليبية الأولى قد حققت هدفها المعلن و هو الاستيلاء على بيت المقدس و تحريره من يد المسلمين، و تأسيس المملكة اللاتينية في القدس¹.

هذا و لم تقتنه مهمة الجيوش الصليبية الاستعمارية بالكامل باحتلال القدس، حيث بقيت هناك بعض المدن الساحلية مثل قيساريه و عكا و صور و طرابلس و بعض المدن الداخلية مثل دمشق و حمص و حماة و حلب في أيدي المسلمين. وقد وجد الصليبيون ضرورة ملحة في احتلال المدن الساحلية لضمان اتصالهم بأوروبا عن طريق البحر، لذلك طلبوا من المدن الإيطالية القوية، البندقية و جنوا و بيزا، أن تمدهم بأسطول بحري قوي يساعدهم على احتلال سواحل بلاد الشام، مقابل أن تأخذ هذه المدن ثلث الغنائم التي يستولون عليها و على سوق تجارية في كل مدينة يحتلونها. و بالفعل قدمت هذه المدن مساعدات بحرية للقوات الصليبية

1 - براور، يوشع: الإستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ترجمة عبد

الحافظ البناء، عين، الهرم 2001، ص 29-30.

و استطاع الصليبيون بفضل هذه المساعدات احتلال قيساريه في 1101 و عكا في عام 1103 و طرابلس في عام 1109 و بيروت في عام 1110 و صور في عام 1124¹ .

هذا و في أوائل القرن الثاني عشر انطلقت عدة حملات صغيرة من أوروبا و جاءت إلى آسيا الصغرى لمساعدة الصليبيين في المشرق و مساندتهم ضد السلاجقة الأتراك. و استطاعت إحدى هذه الحملات الصليبية الصغيرة تخلص أمير أنطاكية بوهيموند الذي كان قد وقع في الأسر بأيدي السلاجقة الأتراك في عام 1100. لكن وبشكل عام فقد فشلت حملات النجدة الصليبية في صراعها هذا مع السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى و اضطر بوهيموند إلى الانسحاب هارباً مع ما بقي من هؤلاء الصليبيين على قيد الحياة² .

أوضاع الإمارات الصليبية في المشرق و مملكة بيت المقدس

أدت الحملة الصليبية الأولى إلى نشوء ثلاث إمارات صليبية في المشرق و هي إمارة الرها، أنطاكية، إمارة طرابلس، بالإضافة إلى مملكة القدس التي تضم جنوب سوريا. و كانت الإمارات الصليبية الثلاث تتبع مملكة القدس اسمياً، بينما في الواقع حصلت كل إمارة على استقلالها الذاتي. و أول ملك حكم مملكة القدس الصليبية هو غودفري الذي اختير من قبل أمراء الحملة الصليبية كحاكم للقدس بلقب ملك، لكنه رفض لقب ملك و رفض أن يتوج ملكاً في المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجاً من الشوك. هذا و اكتفى غودفري بلقب (حامي القبر المقدس)³ . لكن

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 35، 37، 42، 54.

2 - فرح: تاريخ أوربا السياسي في العصور الوسطى، ص 219.

3 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 168.

غودفري كان أول و آخر حاكم صليبي يعترف بتبعيته للبابا أو البطريرك اللاتيني. فقد أعلن بلدوين، الذي خلف أخاه في وراثة عرش المملكة اللاتينية في بيت المقدس¹، بوضوح أنه حصل على العرش (بنعمة من الرب) و بمشيئته دون الاعتماد على أي واسطة.

أعلنت القدس عاصمةً للملكة الصليبية، و منذ أن أصبحت مدينة القدس عاصمة، قام الحكام الصليبيون الأوائل بإعادة تعمير المدينة بالسكان، و ذلك بسبب سقوط عدد كبير من سكانها قتلًا خلال الهجوم الصليبي على المدينة، و حولت بعض المساجد إلى كنائس و أصبح المسجد الأقصى قصرًا ملكيًا للحاكم الصليبي. كما أصدر حكام المملكة في البداية عدة مراسيم لتنظيم المملكة و الحياة فيها، فصدر مرسوم صليبي يهدد كل سادة الأرض الغائبين (كبار الإقطاعيين) بفقدان أملاكهم إذا لم يعودوا حالاً إلى المناطق التي غادروها، و صدر مرسوم آخر بغرض تشجيع الإقامة و السكن في مدينة القدس و نص هذا المرسوم أيضاً على إلغاء كل الرسوم و الضرائب على المواد الغذائية التي تدخل المدينة عبر بواباتها. عدا عن ذلك فقد لجأ الحكام الصليبيون في القدس إلى نظام لإعادة السكان إلى بيت المقدس ففي عام 1115 نظم الحكام في القدس عملية هجرة المسيحيين الشرقيين من منطقة ما وراء نهر الأردن إلى القدس، ومنح الحكام الصليبيون لهؤلاء المهاجرين المنطقة الشمالية الشرقية من المدينة و التي كانت قبل ذلك حياً لليهود. هذا و يرجع فضل أهمية مدينة القدس إلى وجود الحاكم الصليبي فيها و الذي كان يحمل لقباً ملكياً، أما أنطاكية فقد كانت إمارة صليبية، و كان سادة الرها و طرابلس يحملون لقب كونت. و خلال فترة قصيرة في القرن

1 - الشارترى، فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان د.

ت. ، ص 8.

الثاني عشر الميلادي، استطاعت الدولة الأرمنية في آسيا الصغرى استعادة قوتها و تنويح حاكمها ملكاً عليها¹.

بعد أن استقر الصليبيون في الممتلكات الجديدة، نقلوا إليها الأوضاع الاجتماعية و السياسية القائمة في وطن أغليبتهم (فرنسا). و لكنهم اضطروا في بعض الأحيان إلى مراعاة بعض خصائص النظام الاقتصادي و العلاقات الاجتماعية المتأصلة في المناطق المحتلة. قام الصليبيون بتقسيم جميع الأراضي المحتلة إلى قطاعات زراعية و وزعت على الفرسان الصليبيين مقابل أن يقدموا خدمات عسكرية للملك عندما يدعوهم للقتال. كذلك حصل بعض الفلاحين الأوروبيين الذين انخرطوا في الحروب الصليبية، على لقب فارس و حصلوا بعد ذلك على إقطاعات زراعية، و كان أغلب الفلاحين من السكان المحليين من مسلمين و مسيحيين، سوريين و لبنانيين و غيرهم من العرب و الأرمن و اليونان. و عندما استقر الأسىاد الجدد في الأراضي المحتلة، حولوا الفلاحين المحليين في القرى من مسلمين و مسيحيين إلى أقنان خلال احتلال سوريا و لبنان و فلسطين من قبل الصليبيين و تعرضت جماهير السكان العرب في القرى و المدن للظلم و التعسف في معاملتهم، و اضطر قسم كبير من المسلمين إلى مغادرة أماكنهم الدائمة، أما الكثيرون ممن بقوا و وقعوا في أسر الصليبيين، فقد باعواهم عبيداً، و عانى هؤلاء الأمرين في بداية الحكم الصليبي للمناطق العربية. هذا و لم تكن ظروف حياة الأقنان أفضل بكثير من ظروف حياة العبيد، فقد كانوا يعانون من الاستغلال القاسي من قبل أسىادهم و من قبل السلطة المركزية، و كانت تعتبر أراضيهم ملكاً للمحتلين. و كانوا يربطون الأقنان بقطع الأراضي التي كانوا يبيعونها و يشترونها. كما كان على الأقنان تقديم أعمال السخرة للأسىاد، ففي أراضي

1 - براور : الإستيطان الصليبي في فلسطين، ص 57-60.

استثمارات ملوك القدس مثلاً كان على الأقبان أن يعملوا كسخرة لمدة تتراوح بين أربعة أيام و ستة أيام في الشهر¹.

نظر الأقبان، سوىء كانوا من السوريين و اللبنانيين أو من غيرهم من العرب، إلى الغزاة الأجانب نظرة عدا، هذا و ردوا عليهم أكثر من مرة رداً حازماً. و تاريخ الصليبيين في سوريا و لبنان و فلسطين يحفل كله بنضال السكان و المزارعين المحليين ضد الأسياد الغربيين، ففي عام 1125 انتفض الفلاحون في بيروت و صيدا ضد الإقطاعيين الجدد و في عام 1131 حصل الشيء نفسه في طرابلس و تكرر في عام 1266م².

لم يكتف الصليبيون بالسيطرة على الأراضي العربية و استغلال فلاحها و استبدادهم، بل عمدوا إلى احتكار التجارة الخارجية أيضاً. حيث حصل تجار المدن الإيطالية المشهورة، البندقية و جنوا و بيزا، في موانئ بلاد الشام على امتيازات تجارية خاصة و تسهيلات متنوعة تصب في خدمة مصالحهم، فقد خصصت لهم في كل مدينة عدد من الأحياء و الأنظمة الخاصة و المستقلة، و كان يسير أمورها و يديرها قنصل يتم تعيينه من قبل حكام المدن الإيطالية المذكورة. هذا و أبحرت السفن الإيطالية من الموانئ الأوروبية و هي مزودة بالدقيق الأبيض و السلاح و الخيول و المنسوجات الكتانية و الصوفية و عدد آخر من البضائع الغربية بينما عادت هذه السفن من الموانئ العربية محملة بشتى أنواع البضائع الشرقية من عطور و بهارات و أصبغة و سكر و فواكه و خضار و خمر و قطن و أحجار كريمة و زجاج و حرير و إلى غير ذلك. هذا و أشرفت المدن الإيطالية التجارية على تنظيم التجارة بين الغرب و الشرق، لكن التنافس بين التجار

1 - زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 132-134.

2 - زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 136.

الإيطاليين أنفسهم أدى إلى نشوب نزاعات مسلحة بين هذه المدن في بعض الأحيان. عدا عن ذلك فقد بدأت بعض المدن الأوروبية الأخرى كمدينة مرسيليا الفرنسية و برشلونة الأسبانية تنافس المدن الإيطالية و بدأت بالتجارة مع الشرق بشكل مباشر. و هكذا تحكم التجار الأوروبيون بالتبادل التجاري بين أوروبا و المشرق، بعد أن كانت بأيدي التجار البيزنطيين و التجار العرب، و هذا ما يعلل تهاافت التجار الأوروبيين على استعمار بلاد المشرق العربي و استخدام ذرائع دينية مصطنعة للوصول إلى هذه الغاية¹.

كانت الإمارات الصليبية في المشرق تفنقر لمقومات القوة و الصمود، و لم تستطع الاستمرار لولا حصولها على مساعدات دائمة من أوروبا اللاتينية. فقد كانت السلطة الملكية في القدس ضعيفة و سيطرتها على الإمارات الصليبية سيطرة شكلية فحسب²، كما كان المسلمون الذين يسيطرون على مدن بلاد الشام الداخلية يقومون بشن غارات دائمة على المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون. عدا عن ذلك فقد أدت المنازعات و المنافسة بين الأمراء الصليبيين أنفسهم على السلطة و الحكم و التجارة إلى وقوع نزاعات مسلحة فيما بينهم، فقد لجأ بعضهم إلى طلب المساعدة من البيزنطيين و حتى من المسلمين. هذا و تناقص عدد الصليبيين تدريجياً من المشرق، حيث عاد الكثيرون منهم إلى أوطانهم الأصلية في أوروبا بعد أن حصلوا على الغنائم و الأموال التي أشبعت أطماعهم. و من ناحية أخرى فقد كانت بيزنطة لا تتظر بعين الرضا على استئثار الصليبيين بمدينة الرها و أنطاكية و عدم إعادتهما إليها، لذلك تحالفت بيزنطة مع السلاجقة الأتراك لتوحيد أعمالهم ضد الصليبيين. و هكذا أصبحت الإمارات الصليبية في وضع لا

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 315-316.

2 - زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 139.

تحدد عليه من الضعف في النصف الأول من القرن الثاني عشر، و لكن الأمر الذي ساعدها على الاستمرار و الصمود هو تفتت القوى الإسلامية و ضعفها و عدم وجود جبهة قوية متحدة تستطيع إجبار الصليبيين على مغادرة الأراضي العربية المحتلة.

و نتيجة لإدراك الصليبيين لضعفهم في المشرق، عملوا على تشكيل منظمات عسكرية دائمة تجمع بين الديرية و الفروسية أي دمج الحياة الدينية بالحياة الحربية. فشكلوا في عام 1119 منظمة الديرين العسكرية و كان مركزها دير في مدينة القدس، و بعد ذلك تشكلت منظمة الهوسبيتاليين، و مركزها مشفى القديس يوحنا في مدينة القدس. هذا و تشكلت في أواخر القرن الثاني عشر منظمة عسكرية دينية من الفرسان الألمان في فلسطين. و كان فرسان هذه المنظمات العسكرية يقضون حياتهم في الأديرة و لايسمح لهم بالزواج و يخضعون لسلطة بابا الفاتيكان مباشرة و ليس للسلطات الصليبية في المشرق. هذا و انتشرت حصونهم بكثرة على الحدود الشرقية للإمارات الصليبية و منها قلعة الحصن و دير مارجرس في وادي النضارة. و عندما طرد الصليبيون من سوريا حمل هؤلاء الفرسان معهم كل الثروات التي جمعوها إلى أوروبا، فأصبحوا من كبار الملاك و أسسوا البنوك هناك¹.

الحملة الصليبية الثانية

مات ملك مملكة القدس فولك أف انجوي في عام 1143 و خلفه ولده بلدوين (1143 - 1162) على العرش، الذي كان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره فتولت والدته مليسند أمر الوصاية عليه و إدارة المملكة. أما إمارة الزها فقد

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 221-222.

حكمها جوسلين الثاني (1131 - 1150) و هو الذي ورث عن أبيه الثروة و الجاه لكنه لم يكن ناجحاً في إدارة إمارته و مستهتراً في شؤون الحكم و أمضى معظم وقته مقيماً في مدينة تل باشر. يضاف إلى ذلك النزاع بين الأمراء الصليبيين فقد بدأ صراع بين جوسلين الثاني و ورهيموند أف بواتيه أمير أنطاكية (1136 - 1149) و هما أميراً الرها و أنطاكية اللذان يتوليا أمر حماية الإمارات الصليبية في الشمال¹.

كان السلجوقي عماد الدين زنكي أتابك الموصل يراقب تلك المشاحنات و استغل الفرصة و زحف بجيشه باتجاه الرها ليفرض عليها حصاراً قوياً بدأ في 28 تشرين الثاني 1144. استمر الحصار لمدة أربعة أسابيع و حاول جوسلين الثاني خلالها إنقاذ مدينة الرها قادماً من تل باشر لكنه اضطر للتراجع و طلب جوسلين مساعدة ملكة القدس التي أرسلت جيشاً لإنقاذ الرها، لكن زنكي استطاع إسقاط المدينة و احتلالها قبل وصول جيش الإنقاذ الصليبي الذي أرسلته ملكة القدس².

كان استرداد الرها من قبل عماد الدين زنكي و طرد الصليبيين منها أول ضربة موجعة ضد أول إمارة أقامها الصليبيون في منطقة الشرق الإسلامي، كما فتح الباب واسعاً أمام محاولات المسلمين لاستعادة أراضيهم بعدما لمسوى ضعف الكيان الصليبي. و هكذا جاء سقوط الرها إيذاناً بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجح الصليبيون الأوائل في إقامته في الشرق. لم يغب عن ذهن الغرب اللاتيني الخطورة التي ترتبت على فقدان الرها، لذلك حاول زعماء و ملوك أوروبا الغربية

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 65.

2 - رانسيان، ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، مملكة القدس، ج2، ترجمة نور الدين خليل،

مكتبة الشروق، القاهرة 1996، ص 272-275.

الإسراع إلى ترميم ذلك البناء و تدعيمه، و هبوا لنجدة الإمارات الصليبية بالشام قبل أن تسقط بيد نور الدين الزنكي و المسلمين.

لقد كان سقوط الرها إذاً السبب المباشر في قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية. فبعد سقوطها وجه البابا يوجين الثالث (1145 - 1153) رسالة إلى ملك فرنسا لويس السابع في بداية عام 1145 و شرح له الآثار السيئة لسقوط الرها بيد الزنكي. قام ملك فرنسا بدوره بالتواصل مع الإمبراطور الألماني كونراد الثالث الذي أيد فكرة شن حرب صليبية بقيادته و قيادة الملك لويس السابع إلى المشرق. و حدد موعد لانطلاق هذه الحملة بتاريخ 15 حزيران 1147. و سارت القوات الألمانية و القوات الفرنسية بشكل منفصل، و بدأت القوات الألمانية أولاً بالوصول إلى مشارف الحدود البيزنطية في أوروبا. انزعج الإمبراطور البيزنطي مانويل بعد سماعه بأخبار هذه الحملة و ضخامة أعدادها و بدأ يحصن عاصمته، القسطنطينية، و راسل الإمبراطور كونراد و طلب منه التعهد بمراعاة مصالح الإمبراطور البيزنطي فأقسم كونراد على ذلك، على الرغم من هذا فقد قام الجنود الصليبيون بأعمال السلب و النهب و التي أغضبت حكام بيزنطة و سكانها. على كل حال غادرت القوات الألمانية القسطنطينية بعد أن زود الإمبراطور البيزنطي هذه الحملة بالمرشدين و النصائح، و سارت القوات الألمانية باتجاه هدفها، و هو تحرير الرها، لكن السلاجقة الأتراك انقضوا على هذه القوات الصليبية و ألحقوا بالألمان خسائر فادحة حيث قتل و جرح أعداد كبيرة جداً من الجيش الألماني حتى إن الإمبراطور الألماني، كونراد الثالث، نفسه أصيب بجرحين في هذه المعركة أحدهما في رأسه و هذا ما أدى إلى مزيد من الاضطراب و الفوضى في صفوف القوات الألمانية و

انتهت حملة الجيش الألماني بكارثة و كانت رحلته عبر آسيا الصغرى وبالاً عليه،
و هذا سيكون له أسوأ الأثر على نتائج الحملة بأكملها¹.

أما القوات الفرنسية و على رأسها لويس السابع فقد خرجت متأخرة حوالي
الشهر من رحيل الإمبراطور الألماني كونراد الثالث. هذا و كانت قوات لويس
مساوية تقريباً في أعدادها للجيش الألماني، و اصطحب لويس معه زوجته إليانور
وريشة مقاطعة أكييتانيا. صحيح أن القوات الفرنسية كانت أكثر تنظيماً من الجيش
الألماني لكن هذا لم يمنع حدوث بعض الاضطرابات مع المواطنين البيزنطيين في
الأقاليم التي مروا بها. التقى لويس السابع بالملك الألماني الذي أخبره بالكارثة التي
حلت به و بقواته و اتفقا أن يوحدوا جيوشهما و يهاجما السلاجقة، و انطلق
الملكان من القسطنطينية باتجاه آسيا الصغرى بمحاذاة الساحل لكن الملك كونراد
مرض في الطريق و اضطر إلى العودة إلى القسطنطينية للعلاج حيث أشرف
الإمبراطور البيزنطي مانويل شخصياً على علاجه. و بعد ذلك اضطر الملك
الفرنسي لويس السابع إلى إكمال زحفه بجيوشه دون انتظار كونراد الثالث ملك
ألمانيا. وصلت حملة لويس إلى أنطاكية في كانون الثاني 1148 و بعد مغادرة
القوات الفرنسية لأنطاكية تعرضت لهجمات شرسة من قبل السلاجقة الذين ألحقوا
خسائر فادحة بجيش لويس السابع و بعد معاناة قاسية استطاع لويس و قواته
الوصول إلى أضاليا، و بعد حصوله على المؤن هناك قرر متابعة الحملة بحراً
حيث أبحر ما يقارب الأسابيع الخمسة و وصل إلى ميناء السويدية في 19 آذار
1148م². و في هذه الأثناء كان كونراد الموجود في القسطنطينية قد شفي و ذهب
أيضاً عبر البحر باتجاه بيت المقدس، هذا و التقى كونراد الثالث بالملك لويس

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 65-80.

2 - رانسيان: تاريخ الحملات الصليبية، مملكة القدس، ج2، ص 303-316.

السابع في القدس و عقدا مشاورات مع بلدوين الثاني، ملك مملكة القدس، و كبار الشخصيات الدينية. طرح في هذه المشاورات آراء مختلفة حول مهمة الحملة و في النهاية اتفق الجميع على مهاجمة دمشق، و بالفعل غادرت القوات الصليبية و اتجهت صوب دمشق و استولى الملك كونراد الثالث، ملك ألمانيا، على المزة و وصل إلى الرينة الواقعة على نهر بردى تحت أسوار المدينة مباشرة، لكن أهالي دمشق استطاعوا الدفاع عن مدينتهم و طرد الصليبيين من أمام أسورها و قاموا بهجوم معاكس ضد القوات الصليبية التي اضطر ملوكها لعقد اجتماع بحضرة كونراد الثالث و لويس السابع و بلدوين الثاني، لكن هذا الاجتماع فشل في وضع خطة ناجحة للتغلب على القوات الشامية و تحول الوضع لصالح الدمشقيين فتبدل موقفهم من الدفاع إلى الهجوم، و اضطر الملك الفرنسي لويس السابع و الملك الألماني كونراد الثالث إلى الانسحاب من أمام دمشق و التراجع في 28 تموز 1148م¹. سار الصليبيون باتجاه الجليل و تعرضوا لهجمات المسلمين أثناء انسحابهم و وصلت الحملة الصليبية المتقهقرة إلى فلسطين في أوائل آب 1148. لم تحقق هذه الحملة أي إنجاز سوى أنها فقدت أعداداً كبيرة من رجالها و قادراً عظيماً من عتادها، كما فقد الملوك المشاركون في هذه الحملة الكثير من هيباتهم و كرامتهم. لم يمكث كونراد طويلاً في فلسطين بعد العودة من دمشق و أبحر مع رجاله من عكا في أيلول 1148 باتجاه القسطنطينية و غادرها في كانون الثاني 1149 باتجاه ألمانيا خالي الوفاض من مغامرته في قتال المسلمين. أما الملك لويس السابع فظل مقيماً في بيت المقدس حتى أوائل صيف 1149 حيث غادر فلسطين بحراً باتجاه إيطاليا التي وصلها في تموز 1149 و منها عاد إلى فرنسا

1 - الشهابي، قتيبة: صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، وزارة الثقافة، دمشق 1998، ص

دون تحقيق أي هدف من أهداف حملته الصليبية على المشرق¹. و هكذا انتهت ما سميت بالحملة الصليبية الثانية بالفشل الذريع.

اتحاد سورية و مصر و العراق في عهد صلاح الدين الأيوبي

إن الانتصارات التي حققها الصليبيون في المشرق في مطلع القرن الثاني عشر ميلادي كانت بسبب تفتت القوى العربية و الإسلامية و تصارعها فيما بينها أكثر ما كانت بسبب تخطيط الصليبيين و شجاعتهم. و عندما اتحدت قوات سورية و مصر و العراق، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، استطاعت أن تلقن هؤلاء المستعمرين الصليبيين دروساً قاسية و أن تلحق بهم هزائم نكراء. ففي عام 1146 توفي عماد الدين زنكي أتابك الموصل بعد أن قام بتحرير الرها من الغزاة الصليبيين و ضم حلب إلى إمارة الموصل في شمال العراق. خلف عماد الدين زنكي ولده نور الدين محمود، الذي عمل جاهداً على تحقيق الوحدة بين العراق و سورية و مصر لكي يحشد قوات هذه البلدان كلها ضد الصليبيين. استطاع نور الدين في عام 1154 ضم مدينة دمشق إلى إمارته، و بدأ يعد العدة للتوجه إلى مصر. إلا أن أموري الأول، الملك الصليبي في القدس، أخذ ينافس نور الدين في السيطرة على مصر. و لأن الخلافة الفاطمية في مصر كانت منهكة القوى ضعيفة، فقد استطاع الملك أموري الأول من إرسال أربع حملات عسكرية ضدها. بالإضافة إلى ذلك فقد ساعده البيزنطيون في أعماله الحربية ضد الفاطميين حيث أرسلوا أسطولاً حاصر مدينة دمياط في عام 1169. و بالرغم من ذلك فقد استطاعت القوات العسكرية التي أرسلها نور الدين زنكي إلى مصر من إحباط

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 96-100.

محاولة الأسطول البيزنطي احتلال مدينة دمياط و تصدت للصليبيين القادمين من مملكة القدس و ردتهم على أعقابهم¹.

توفي نور الدين محمود الزنكي في عام 1173 تاركاً لصالح الدين الأيوبي مهمة إكمال برنامجه في توحيد القوى الإسلامية و مقارعة الصليبيين. و بالفعل فقد أثبت صلاح الدين كفاءته في تحقيق المهمة الملقاة على عاتقه، فاستطاع توحيد مصر و سوريا و شمال العراق تحت سيادته، كما جمع قوات الأقطار الثلاثة تحت رايته. و في 26 حزيران 1187 خاضت القوات الإسلامية، المكونة من عناصر عربية و تركية و كردية معركة طاحنة مع القوات الغازية الصليبية و المكونة من حوالي العشرين ألفاً من العساكر، في سهل حطين قرب بحيرة طبرية في فلسطين. و حسمت معركة حطين الموقف في المشرق لصالح المسلمين حيث أبيدت فيها أعداد كبيرة من القوات الصليبية². دخلت قوات صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين عكا و يافا و صيدا و بيروت و عسقلان، و هكذا حررت ساحل بلاد الشام من سيطرة الصليبيين، باستثناء مدينة صور التي صمدت بسبب مساعدة السفن الإيطالية لها من جهة البحر. و من أهم الإنجازات كان سقوط مدينة القدس بأيدي المسلمين، حيث سمحوا لمن فيها من الغزاة الأوروبيين بمغادرتها دون خيل أو سلاح بالإضافة إلى فدية مالية عن كل شخص يخرج منها، ففضى أكثر هؤلاء الصليبيين جوعاً و من لم يتمكن من افتداء نفسه بالمال فقد بيع عبداً في سوق النخاسة. و على أية حال كان المسلمون أرحم بكثير من الصليبيين الأوروبيين الذين ارتكبوا أفظع الجرائم و نكلوا بسكان القدس عندما غزوها في عام 1099 و سيطروا عليها.

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 318.

2 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 267 - 297.

استطاع صلاح الدين الأيوبي تحرير معظم المناطق التي احتلها الصليبيون، فلم يبق لهم سوى بعض الأماكن في القسم الشمالي من ساحل الشام. هذا و لم يعد بإمكان الصليبيين الباقين في المشرق تجنيد جيش جديد، و إذا ما أرادوا استعادة المناطق التي فقدوها كان لابد لهم من شن حملة صليبية جديدة تأتي من أوروبا كي تساعدهم على إنجاز ذلك و بالفعل هذا ما حدث¹.

الحملة الصليبية الثالثة

بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين و ما تلاها من انتصارات حتى سقوط بيت المقدس و ما بعدها من مدن و حصون، أسرعت رسل الصليبيين من الممتلكات الصليبية إلى غرب أوروبا لتنقل نبأ الكارثة التي حلت بهم على يد المسلمين. و ما أن علم البابا أوربان الثالث (1180-1187) بهذه الأخبار حتى عاجله الموت في تشرين الأول 1187 و تولى بعده البابا غريغوري الثامن منصب البابوية، الذي سارع بمراسلة حكام الغرب الأوروبي يدعوهم إلى بذل كل جهودهم لإنقاذ الممالك الصليبية في المشرق، و الدعوة إلى إعلان هدنة داخل أوروبا لمدة سبع سنوات و الدعوة إلى الصيام و الوعد لجميع الصليبيين بغفران الذنوب. هذا و توفي البابا غريغوري السابع بعد شهرين من توليه منصب البابوية ليحل مكانه البابا كليمنت الثالث (1187-1191) على الكرسي الرسولي في الفاتيكان. قام البابا الجديد بإرسال موفديه للدعوة في أنحاء أوروبا للخروج بحملة صليبية إلى المشرق و المعروفة بالحملة الثالثة.

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 224 - 225.

حظيت هذه الحملة بقيادات لم تتوفر لأي حملة أخرى فقد خرج على رأسها الإمبراطور الألماني فريدرىك بربروسا و ملك فرنسا فيليب أوغسطس و ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد¹.

كان فريدرىك قد شارك في الحملة الصليبية الثانية و كان في هذه المرحلة قد بلغ السبعين من عمره، و كان قد تعهد بقيادة جيشه و التوجه إلى المشرق العربي في ربيع 1188. هذا و خرج فريدرىك على رأس قواته في 23 حزيران 1189 عبر الدانوب مخترباً هنغاريا حتى وصل أراضي الإمبراطورية البيزنطية التي كان يحكمها الإمبراطور إسحق إنجيلوس (1185 - 1195) و بعد عدة أشهر عبر الجيش الألماني إلى آسيا الصغرى عن طريق مضيق الدردنيل متجهاً لمحاصرة قونية التي دخلتها الجيوش الألمانية و بعد فترة بسيطة تقدم الجيش الألماني من قونية حتى وصل إلى مقربة من نهر سالف في إقليم أرمينيا، وهو النهر الذي غرق فيه الإمبراطور فريدرىك بربروسا، و هذا ما شكل ضربة قاسمة للعالم الغربي بشكل عام و للحملة الصليبية الثالثة بشكل خاص. تولى فريدرىك الثاني، دوق شفاين و ابن فريدرىك بربروسا، قيادة الجيش بعد وفاة والده، بعد أن عاد الكثير منه إلى أوروبا، و وصل إلى أنطاكية في 21 حزيران 1190 حيث دفن والده في كترائيتها².

و في هذه الأثناء كانت القوات الإنكليزية و الفرنسية قد غادرت بلادها بحراً للاشتراك بالحملة الصليبية الثالثة و تحت قيادة ملكيها ريتشارد قلب الأسد و فيليب أوغسطس. أبحرت الأساطيل الفرنسية و الإنكليزية من فرنسا باتجاه صقلية و

1 - غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية و الصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1990، ص 45- 47.

2 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 148 - 149.

توقفت الحملة طويلاً في مسينا (أو مسينة مدينة إيطالية في جزيرة صقلية) و في نهاية آذار من عام 1191 غادر الملك الفرنسي فيليب أوغسطس مسينا باتجاه فلسطين و بعده بعدة أيام أبحر ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد على رأس أسطول كبير ضخم ضم حوالي 180 سفينة ركاب و حمولة كبيرة و 39 سفينة حربية، فوصل أولاً إلى جزيرة كريت ثم إلى جزيرة رودوس و بعدها إلى جزيرة قبرص التي استطاع احتلالها بعد عدة معارك. و في بداية حزيران من عام 1191 وصل أسطول ملك فرنسا و بعده أسطول ملك إنكلترا إلى عكا و بدؤوا بمهاجمتها حيث سقطت في 12 تموز 1191 بأيدي القوات الصليبية. و بعد احتلال عكا غادر فيليب أوغسطس عائداً إلى بلاده بينما بقي ريتشارد قلب الأسد فيها على رأس القوات الصليبية. و بعد فترة زحفت هذه القوات باتجاه عسقلان التي استطاع ريتشارد احتلالها. و من هناك وصلته أخبار سيئة من إنكلترا استدعته للعودة إليها. و هذا ما دفع ريتشارد إلى الاجتماع بالملك العادل أخ صلاح الدين الأيوبي أكثر من مرة، و تم طرح عدة حلول للخلافات بين الطرفين، لكن في البداية لم يوضع أي حل منها حيز التنفيذ بسبب رفض صلاح الدين، لكن في النهاية وجد صلاح الدين الأيوبي نفسه مضطراً لقبول الصلح مع الملك ريتشارد قلب الأسد وأثمرت المفاوضات أخيراً عن عقد اتفاق عرف باسم (صلح الرملة) تمت الموافقة عليه في 3 أيلول 1192 وأهم بنود الاتفاق كانت على النحو التالي :1- بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا و حتى مدينة صور بيد الصليبيين.

2- تسليم عسقلان إلى صلاح الدين شرط هدم أسوارها.

3- امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية بدءاً من عسقلان.

4- تبقى القدس بيد صلاح الدين.

5- السماح للحجاج المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة في القدس.

6- حرية تنقل الأفراد والتجار.

7- السماح لأنطاكية و طرابلس بالدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا.

8- مدة الصلح ثلاث سنوات.

بعد توقيع هذا الاتفاق عاد ريتشارد قلب الأسد إلى عكا وبعدها غادر إلى أوروبا و بذلك تكون قد انتهت ما عرفت باسم الحملة الصليبية الثالثة¹.

الحملة الصليبية الرابعة:

تعد الحملة الصليبية الرابعة من الأحداث الغربية في تاريخ الحروب الصليبية، لما تميزت به من طابع مختلف عن باقي الحملات الصليبية الأخرى وهو أن وجهتها واتجاهها كان ضد القسطنطينية، هذه العاصمة المسيحية، بدلا من اتجاهها ضد مصر لاحتلالها ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأماكن المقدسة في فلسطين كما كان مقرراً²، وكما استنتج ريتشارد قلب الأسد بأن مفتاح إعادة احتلال القدس هو احتلال مصر أولاً، وكان ريتشارد قد صرح برأيه هذا عند مغادرة فلسطين³. هذا وقد اختلفت آراء المؤرخين حول مسؤولية تغيير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة ضد القسطنطينية فيرجع بعضهم مسؤولية هذا التغيير إلى البابا

1 - زكار / جوني / اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 323 - 328.

2 - غنيم، اسمت: الحملة الصليبية الرابعة و مسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، القاهرة 1982، ص 5.

3 - رانسيما، ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ממكة عكا، ترجمة نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة 1998، ص 153.

أنوتسنت الثالث (1198-1216)، بدافع أساسي وهو العداء القديم بين الكنيستين اللاتينية الغربية و الأرثوذكسية الشرقية، و رغبة البابا أنوتسنت في إخضاع الكنيسة الشرقية في القسطنطينية للسيطرة البابوية و الانتقام من البيزنطيين الذين أعاقوا مرور القوات الصليبية عبر أراضيهم و سببوا لها المتاعب و المضايقات منذ قيام الحروب الصليبية. أما قسم آخر من المؤرخين فيحمل قائد الحملة الصليبية الرابعة، الماركيز بونيفيس أوف مونتفات، مسؤولية تغيير اتجاه الحملة، واعتبروه أنه صاحب الدور الأساسي و الأقوى، و أن احتلال القسطنطينية، كان عملاً هاماً و لكنه ليس ألمانيا أو بندقياً، و إنما فرنسياً بامتياز. وهناك بعض المؤرخين ممن رأى أن البنادقة ودوقهم العجوز أنريكو داندولو، هم المسؤولون عن هذا التغيير في اتجاه الحملة الصليبية، ويستندون في رأيهم هذا إلى المعاهدة التي عقدها البنادقة مع سلطان مصر الملك العادل الأيوبي، و عدوا ان البندقية خدعت الصليبيين و غررت بهم وأنهم في الوقت الذي اتفقوا معهم فيه على نقلهم إلى مصر كان الصليبيون ينتظرون في إيطاليا استعداداً للسفر إلى مصر، في نفس الوقت كانت البندقية قد أبرمت اتفاقاً مع الملك العادل الأيوبي مفاده: أن يغير البنادقة اتجاه الحملة الصليبية عن مصر مقابل منحهم امتيازات جديدة و هي حي خاص بهم في الإسكندرية و منحهم الأمان لأنفسهم و بضائعهم و تجارتهم و الحجاج الذين يأتون معهم لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، و كانت هذه المعاهدة قد أبرمت بشكل رسمي في 13 أيار 1202. و عزز أصحاب وجهة النظر هذه رأيهم بمسؤولية البندقية، عن انحراف اتجاه الحملة، برغبة البندقية في استعادة مركزها و امتيازاتها التجارية في العاصمة البيزنطية، القسطنطينية، تلك الامتيازات التي حرّمهم منها الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس الثالث و منحها لمنافسيهم من جنوا و بيزا. و هناك بعض المؤرخين ممن حمل الملك الألماني

فيليب الثاني مسؤولية تغيير وجهة الحملة الصليبية الرابعة، لكي يعيد لوالد زوجته عرشه المفقود من جهة، و لإحراز التفوق على البابوية من جهة أخرى¹.

و بكافة الأحوال فمن المؤكد أن الصليبيين راحوا يبحثون عن وسيلة نقل لرحلتهم البحرية و دخلوا في مفاوضات مع البندقية في عام 1201 و أفضت المحادثات إلى توقيع اتفاقية بين الصليبيين و البندقية تقضي بحصول البندقية على 85000 مارك فضي مقابل توفير وسائل النقل و الأطعمة لمدة عام، بدءاً من 28 حزيران 1202، لعدد من الفرسان قدره 4500 فارس و خيولهم و 9000 فارس بدون لقب و 20000 جندي مشاة. و عدا عن ذلك توفر البندقية خمسين قادساً لمرافقة الحملة الصليبية شريطة أن تحصل على نصف ما تحققه الحملة من غنائم. و ما إن عقد الاتفاق حتى استدعي الصليبيون للتجمع في البندقية و هم على أهبة الاستعداد للإبحار باتجاه مصر لاحتلالها². هذا و قرر قادة الحملة الصليبية الرابعة تحويل خطة الحملة الصليبية في مهاجمة مصر إلى مهاجمة القسطنطينية، و ساعدتهم الأحوال الجارية وقتذاك، فقد تبين للصليبيين الذين اجتمعوا في إيطاليا في خريف عام 1202، أنه من الصعب بل من المستحيل أن يجمعوا مبلغ 85000 مارك، الذي وعدوا بتقديمه للبندقية كما نص الاتفاق، فعمدت البندقية إلى أن توضح لقادة الحملة ما يجوز أن يتخذوا من سبيل لمواجهة هذه المشكلة، فاقترحوا عليهم، أنه يمكن تسوية ديونهم للبندقية، إذا قاموا بتأدية بعض الخدمات لصالح البندقية ومن أهم هذه الخدمات الخاصة كان الاستيلاء على مدينة زارا، و هي ميناء على البحر الأدرياتيكي، ادعى البنادقة أن المجريين قد انتزعوهم منهم. و هذا ما وافق عليه القادة الصليبيون، حيث احتلوا زارا في تشرين

1 - غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص 13- 15.

2 - رانسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 156- 157.

الثاني 1202، و بعد الاستيلاء عليها قرر القادة الصليبيون التوجه إلى القسطنطينية و السبب في ذلك أن الإمبراطور ألكسيوس الثالث كان قد اغتصب العرش البيزنطي من أخيه إسحق و سجنه و سمل عينيه، بينما فر ابن إسحق و اسمه ألكسيوس أيضاً، إلى أوروبا و قابل البابا وطلب مساعدته كما التحق بالجيش الصليبي الذي هاجم زارا و حثه على الذهاب إلى القسطنطينية بعد أن أغراه بوعود جذابة و بمساعدات عسكرية و مالية، و بناءً على ذلك قرر قادة الجيش الصليبي توجيه الحملة إلى القسطنطينية، التي وصلوها في تموز 1203، حيث هرب الإمبراطور ألكسيوس مغتصب العرش البيزنطي¹. دخلت القوات الصليبية مدينة القسطنطينية و توج الأمير ألكسيوس إمبراطوراً مشاركاً في العرش مع والده إسحق في بداية آب 1203. قام الإمبراطور ألكسيوس مباشرة بعد التتويج بطلب مهلة من الجيش الصليبي حتى آذار 1204 لكي يتمكن من دفع ما اتفقوا عليه، و تعهد بأنه سيتحمل نفقاتهم طوال هذه المدة. لكن ألكسيوس لم يف بتعهداته للقوات الصليبية و في الوقت نفسه حنق عليه أهل القسطنطينية لاستنجاده بهذه القوات فعزلوه من منصبه و أودعوه السجن و اختاروا إمبراطوراً جديداً عليهم يدعى مورزو فلوس Mourzu Phlus. بعد ذلك توفي الإمبراطور إسحق من كثرة الهم و لقي ولده ألكسيوس حتفه بعد أن دس له السم في الطعام بأمر من الإمبراطور الجديد مورزو فلوس. بعد اعتقال الإمبراطور الجديد للعرش البيزنطي لم يعد هناك من أمل أمام الصليبيين في الحصول على مطالبهم و حقوقهم أو تنفيذ أي شروط التزم بها قبله الإمبراطور ألكسيوس. لذلك لم يكن هناك حل أمامهم لتحصيل مطالبهم إلا باللجوء للقوة، و بناءً على ذلك عقد قادة الحملة الصليبية اجتماعاً مع البنادقة، عزابي الحملة، أفضى إلى اتفاق في أواخر آذار 1204، و نص هذا الاتفاق على

1 - باركر: الحروب الصليبية، ص 100-102.

مهاجمة القسطنطينية و احتلالها، و في حال نجحوا في ذلك يفتسمون بالنصف كل ما يحصلون عليه منها من الغنائم و الإسلامب، و أن يختاروا ستة أشخاص من الصليبيين، و ستة أشخاص من البنادقة، و يقسم هؤلاء جميعاً أن ينتخبوا من بينهم الرجل الأجدر ليتوج إمبراطوراً على الإمبراطورية البيزنطية، و يحصل هذا الإمبراطور على ربع ما يتم احتلاله داخل القسطنطينية و خارجها، أما الثلاثة الأرباع الأخرى فتقسم بالتساوي بين الصليبيين و البنادقة. و أن يتم اختيار اثني عشر شخصاً من الصليبيين و مثلهم من البنادقة و هؤلاء الأربعة و العشرون شخصاً مهمتهم توزيع الإقطاعات و مناصب الشرف، و ينظمون من يقوم على خدمة الإمبراطور¹. و بذلك يكون الصليبيون و البنادقة قد تخلوا صراحة عن هدف الحملة الصليبية الرابعة الأساسي و هو محاربة المسلمين و استعادة بيت المقدس².

بدأ حصار القسطنطينية في 8 نيسان 1204 و استطاعوا الاستيلاء على بعض أبراج حماية المدينة بعد أن قتلوا المدافعين عنها و بعد ذلك تسربوا إلى داخل القسطنطينية، و هذا ما أزعج الإمبراطور مورزو فلوس، الذي فر هارباً، لتسقط القسطنطينية بيد الصليبيين و البنادقة في يوم الاثنين 12 نيسان 1204، الذين قاموا بإحراق قسم من المدينة و شرعوا بقتل من صادمهم من البيزنطيين، و بعد ذلك قاموا بنهب المدينة حتى الكنائس و الأديرة لم تنج من السلب و النهب. و بعد الانتهاء من أعمال السلب التي اجتاحت القسطنطينية كان على المحتلين مهمة اختيار إمبراطور لاتيني يحكم الإمبراطورية البيزنطية، و نفذوا ما اتفقوا عليه سابقاً و اختارت اللجنة المؤلفة من اثني عشر شخصاً من الصليبيين و البنادقة،

1 - غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص 93-97.

2 - رانسيان: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 163-164.

بلدوين كونت فلاندرز و هينولت إمبراطوراً في 19 أيار 1204 على الإمبراطورية البيزنطية و تم تنويجه في 16 أيار 1204 في احتفال فخم في كنيسة أيا صوفيا¹.

عقد الإمبراطور بلدوين مجلساً للبلاط في القسطنطينية و منح حوالي 600 شخص من أتباعه إقطاعيات، كما صدر دستور يركز جزئياً على نظريات القانونيين الإقطاعية و جزئياً على ما كان يعتقد أنه متبع في مملكة القدس. و أنشأ مجلس يتألف من كبار ملاك الأراضي يساعدهم الحاكم البندقي للقسطنطينية، المطلق الصلاحية بودستا، و كانت مهمة هذا المجلس تقديم المشورة للإمبراطور في الأمور السياسية، و يوجه العمليات العسكرية، و من صلاحياته أيضاً نقض الأوامر الإدارية التي تصدر عن الإمبراطور. و أسست محكمة عليا لتنظيم علاقات الإمبراطور بأتباعه².

الإمبراطورية اللاتينية في بيزنطة 1204 - 1261

سميت الإمبراطورية الجديدة التي أسسها الصليبيون في بيزنطة باسم (الإمبراطورية اللاتينية). و استمرت من عام 1204 و حتى 1261 و كان أول إمبراطور صليبي حكمها هو الأمير الفرنسي بلدوين من أشهر قادة الحملة الصليبية الرابعة. و قد أنشأ بعض الأمراء الصليبيين الآخرين إمارات و ممالك تحت ظل الإمبراطورية اللاتينية الجديدة و هذه الإمارات و الممالك هي: مملكة تيسالونيكية، إمارة أخائيا، دوقية أثينا. أما مدينة البندقية فقد استحوذت على حصّة الأسد من مكاسب الحملة الصليبية الرابعة، حيث بلغت حصتها ثلاثة أثمان

1 - غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص 97-102.

2 - رانيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 167.

الإمبراطورية البيزنطية و تتشكل من: ربع مدينة القسطنطينية، الثغور البحرية و الجزر المسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى شبه جزيرة القرم في الشمال و إلى مصر و الشام في الجنوب، و عدد من مناطق في ألبانيا، جزيرة كريت، القسم الجنوبي الغربي من البيلوبونيز المطل على البحر الأدرياتيكي. و نتيجة لهذه المكاسب و الثروات الكبيرة أصبحت جمهورية البندقية أهم دولة تجارية استعمارية في ذلك الوقت¹.

و هكذا، أصبحت كل المقاطعات الأوروبية التي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية في قبضة الصليبيين و الكنيسة اللاتينية، إلا أن الصليبيين لم يكونوا على صواب عندما اعتقدوا أن الاستيلاء على القسطنطينية سوف يعطيهم الإمبراطورية كلها، فقد أدى ضياع الإمبراطورية البيزنطية في البداية إلى الفوضى و الاضطراب، و في غضون سنتين تشكلت ثلاث دول وراثية ففي الشرق احتل حفيديان للإمبراطور أندرونيكوس، هما الكسيوس و داود كومنينوس، طرابزون و أقاما دولتهما بطول شواطئ البحر الأسود المطلة على آسيا الصغرى، و قد نجحا في ذلك بمساعدة عمتهما ملكة جورجيا. قتل داود في عام 1206 خلال حروبه لتوسيع سلطانه باتجاه البوسفور، و عاش الكسيوس ليتخذ لنفسه لقب الإمبراطور و ليؤسس أسرة حاكمة استمرت لمدة قرنين و نصف من الزمن. أما في الغرب فاستطاع أحد أبناء السفاح من أسرة أنجيلوس من أن يصبح حاكماً دكتاتورياً في ابيروس و أسس أسرة حاكمة فيها. و أما أكثر الممالك الثلاث جمالاً و تنظيماً فكانت الإمبراطورية التي أسستها في نيقية ابنة الإمبراطور الكسيوس الثالث، أنا و زوجها تيودور لاسكاريس، الذي سرعان ما استطاع توسيع حكمه ليشمل أغلب

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 227 - 228.

الأراضي المتروكة لبيزنطة في آسيا. و بعد حوالي أكثر من خمسين عاماً
سيستطيع خلفاءه العودة إلى حكم بيزنطة¹.

و لأن مدينة جنوا كانت المنافسة التجارية الأقوى لمدينة البندقية على
التجارة العالمية، فقد أعطى تجار جنوا إمبراطور نيقية البيزنطي الأموال و العتاد و
السفن اللازمة لكي يستخدمها في حربه ضد الإمبراطورية اللاتينية و السيطرة على
المدن و الأراضي التي احتلها ألد منافسيهم البنادقة.

و بناءً على ذلك يمكن القول إن المنافسة التجارية بين مدينتي البندقية و
جنوا الإيطاليتين هي من العوامل الأساسية في تحريك الأحداث الدائرة في فلك ما
يعرف بالحروب الصليبية. فإذا كان تجار البندقية هم الذين أنشؤوا الإمبراطورية
اللاتينية الصليبية في القسطنطينية من أجل الحفاظ على مصالحهم التجارية، فإن
منافسيهم تجار جنوا هم الذين لم يوفروا جهداً و بذلوا كل غالٍ و نفيس من أجل
القضاء على هذه الإمبراطورية اللاتينية. ففي عام 1261 استطاع إمبراطور نيقية
البيزنطي ميخائيل باليولوغ من استرجاع القسطنطينية و الأراضي البيزنطية التي
احتلها الصليبيون، باستثناء بعض الأقاليم في جنوب شبه جزيرة اليونان و وسطها.
و هكذا تم إحياء الإمبراطورية البيزنطية من جديد، و لكن هذه الإمبراطورية كانت
تعاني من الشلل بسبب ضربات الصليبيين و السلاجقة و البلغار و غيرهم من
الأعداء الطامعين بها².

1 - رانسيمن: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 168-169.

2 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 323.

الحملة الصليبية الخامسة 1217 - 1221

كانت الحملة الصليبية الخامسة آخر حملة صليبية في عهد البابا أنوتسنت الرابع. و السبب الرئيسي لهذه الحملة كان حماسة البابا أنوتسنت الشديدة لاستعادة بيت المقدس، على الرغم من عدم الحاجة الماسة لذلك خلال الأربعين عاماً التي تلت ضياع بيت المقدس من يد الصليبيين، فقد خلف الملك العادل أخاه صلاح الدين على ممتلكاته، لا في مصر فحسب، بل في الشام أيضاً و أبرم مع الصليبيين عدداً من معاهدات الهدنة في أعوام، 1198-1203، 1204-1210، 1211-1217. و بينما عم الهدوء و الاستقرار على إثر المعاهدات، في الأراضي المقدسة، ركز الصليبيون اهتمامهم على جهات أخرى و أهمها حاجات الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية. لكن البابا أنوتسنت لم يقبل أن ينسى بيت المقدس و لم يوفر جهداً لاستعادته¹. و لأجل ذلك عقد البابا مجمعاً دينياً في 11 تشرين الثاني 1215 و ألقى على المجتمعين خطاباً عبّر فيه عما تعانيه مدينة القدس تحت حكم المسلمين، على حد زعمه، و طلب من الحاضرين مساعدته في القيام بتحرير بيت المقدس، و من المعروف أن البابا استعان بفصاحته لجذب أذهان الحاضرين و استثارة عواطفهم. ناقش المؤتمر عدة مشاريع و خطط لاستعادة بيت المقدس، و كان من بينها مشروع مهاجمة مصر، و انتهى الأمر بأن قرر المجلس احتلال مصر كفاتحة لإعادة احتلال القدس. و تقرر أن تتجمع قوات الحملة الصليبية الخامسة في أول حزيران من عام 1217. و طلب البابا من الجميع أن يتخلوا عن منازعاتهم و الكف عن الحروب لمدة ثلاث سنوات حتى يعم الاستقرار كافة أرجاء أوروبا اللاتينية و تتمكن الحملة من السير إلى مصر في الموعد المحدد. و صدر عن المؤتمر بعض الامتيازات الروحية للذين سيشاركون

1 - باركر: الحروب الصليبية، ص 105-106.

في هذه الحملة، فقد وعد البابا الذين يقدمون سفنهم لحمل الجنود أو الذين يعملون في بناء هذه السفن أو يسأهمون في نفقات الحملة بغفران خطاياهم، عدا عن الإعفاءات المادية للذين سيذهبون مع الحملة على نفقتهم الخاصة. حيث قرر البابا إعفاءهم من دفع الضرائب بمجرد الاشتراك في الحملة الصليبية، و وضع أملاكهم تحت حماية الكنيسة حتى عودتهم، و تأجيل دفع ما عليهم من ديون أيضاً. بالإضافة إلى ذلك فقد تقرر منع التعامل التجاري مع المسلمين مع تهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته. كما أعطت القرارات الحق لمن يلقي القبض على أي تاجر لاتيني يتعامل مع المسلمين أن يعامله معاملة الأسرى. هذا و هدد البابا أنوتسنت بقرار الحرمان كل من يخالف القرارات البابوية في هذا الشأن. و بعد ذلك قام البابا بإرسال الدعاة و المبشرين للدعوة للحملة الصليبية في كافة أنحاء أوروبا اللاتينية¹.

توفي البابا أنوتسنت الثالث في تموز 1216، و تولى أنوريوس الثالث المنصب البابوي من بعده، الذي كان متحمساً لإكمال مشروع البابا أنوتسنت الثالث في شن الحملة الصليبية. انطلقت الحملة من إيطاليا في أيلول من عام 1217 و وصلت بعد 16 يوماً إلى عكا و كانت هذه الحملة قليلة العدد، فقد ساروا من عكا في 3 تشرين الثاني 1217 باتجاه بيسان و خربوها ثم عادوا إلى عكا ليغادر قسم من القوات الصليبية عائدين إلى بلادهم. هذا و جاءت دفعة جديدة من القوات الصليبية إلى عكا في نيسان من عام 1218 و بعد أسبوعين قدمت القوات الصليبية المنتظرة في إيطاليا. تجمعت كل القوات الصليبية المشاركة في الحملة الصليبية الخامسة في عكا تمهيداً للإبحار باتجاه مصر لاحتلالها كما

1 - عمران، محمود: الحملة الصليبية الخامسة، دار المعارف، الاسكندرية 1985، ص 147

كان مخططاً من قبل البابوية، و انطلقت هذه القوات في 24 أيار 1218 و وصلت إلى دمياط في 27 أيار و بدأت العمليات العسكرية المضنية ضد دمياط، التي احتلوها بعد خسائر فادحة في صفوفهم و بعد طول قتال في تشرين الثاني 1219م¹. و في عام 1221 أرادت القوات الصليبية احتلال القاهرة و تحركت باتجاهها و وصلت القوات إلى مدينة المنصورة و عسكرت فيها و أثناء وجودها فيها عرض السلطان الكامل على القوات الصليبية من جديد، ما سبق و أن عرضه مرات عديدة، من شروط و هي: 1 - التنازل عن معظم مملكة القدس 2 - تسليم الصليب المقدس (الذي استولى عليه صلاح الدين عام 1187) 3 - إعادة جميع الأسرى. لكن المندوب البابوي أصر على دفع تعويض كبير و هذا ما تسبب بفشل المفاوضات. و استعد السلطان للقتال و قامت قواته بمطاردة الصليبيين حتى دمياط. و في نهاية آب من عام 1221 اضطرت القوات الصليبية إلى عقد معاهدة مع السلطان الكامل و بموجبها يجري انسحاب الصليبيين و يتسلمون الصليب المقدس مقابل إعادة دمياط إلى السلطان الكامل. و تقرر أن تكون مدة المعاهدة ثماني سنوات و لا يجوز نقضها إلا عند قدوم ملك أو إمبراطور أوروبي إلى الشرق. و بناءً على هذه الشروط جلى الصليبيون عن مصر، و انتهت بذلك ما عرفت بالحملة الصليبية الخامسة².

الحملة الصليبية السادسة 1228 - 1229

كان الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني قد وعد البابوية بشن حملة صليبية إلى المشرق لكنه اضطر أكثر من مرة إلى تأجيل الحملة و عدم الشروع بها و هذا ما أغضب البابوية و فاقم المشاكل و الصراع معها. توفي البابا أنوريوس الثالث

1 - رانسيما، تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 192-201، 207.

2 - باركر: الحروب الصليبية، ص 108-109.

في عام 1227 و خلفه على الكرسي الرسولي البابا غريغوري التاسع. الذي أصدر بحق فريديريك الثاني قرار الحرمان في 29 أيلول 1227 لأنه لم ينفذ وعده في سان جرمانو الذي يقضي بشن الحملة الصليبية في آب من عام 1227¹. لكن الذي لم يعرفه البابا غريغوري التاسع هو أن فريديريك كان عازماً هذه المرة بالفعل على شن الحملة الصليبية و المغادرة إلى سوريا، لأن الأوضاع السياسية في المشرق كانت متوترة و مناسبة له لشن الحملة، فالصراع بين الأيوبيين أنفسهم كان على أشده بين الكامل محمد حاكم مصر و المعظم عيسى حاكم دمشق، الذي تحالف مع سلطان خوارزم، لذلك لم يجد الكامل وسيلة سوى البحث عن حليف يوازي الحلف الذي تشكل ضده، لذلك أرسل في عام 1226 رسالة حملها الوفد المبعوث من قبله إلى الإمبراطور فريديريك الثاني يعرض عليه التحالف ضد دمشق و عرض مقابل مساعدته القدس و عدة مدن فلسطينية كانت تحت سيطرة المعظم. و بالفعل بدأ الإمبراطور يعد العدة للذهاب إلى المشرق². غادر الإمبراطور فريديريك الثاني على رأس قواته ووصل إلى جزيرة قبرص في 21 تموز 1228. و غادر بعدها إلى عكا في 3 أيلول 1228. أثبت الإمبراطور فريديريك أنه المساوم الأفضل، و تابع مفاوضاته مع السلطان الكامل و أسفرت المفاوضات عن توقيع اتفاقية يافا في 18 شباط 1229، و تنص الاتفاقية: يسترد الصليبيون مدينة القدس وبيت لحم مع ممر يمتد خلال اللد إلى البحر في يافا و الناصرة و غربي الجليل و باقي المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا. أما في القدس نفسها فقد تقرر أن تبقى قبة الصخرة و المسجد الأقصى في أيدي المسلمين، و يسمح لهم بالدخول و حرية العبادة. و على الإمبراطور فريديريك إعادة بناء أسوار القدس. كما

1 - Hauerkamp, Alfred: Aufbruch und Gestaltung Deutschland 1056-

1273, München 1993, S. 251.

2 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 361.

نصت الاتفاقية على إطلاق جميع السجناء من الطرفين و يستمر السلام لمدة عشر سنوات¹.

ومن الواضح أن الحملة الصليبية السادسة لم تتخذ صفة الحرب المقدسة أو حتى رضى البابوية، و الذي حدث كان نوع من المساومة و السياسة، و التي أحرز فيها الإمبراطور فريدريك ما عجز عن تحقيقه غيره، فبعده لم يستطع أحد أن يعيد للمسيحية الأوروبية الأماكن المقدسة في فلسطين². و على كل حال فقد دخل الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني مدينة القدس في 17 آذار 1229 في موكب يحيط به الجنود والحرس الخاص به من الألمان والإيطاليين و القليل من البارونات. و استقبل الإمبراطور عند بوابة المدينة قاضي نابلس، القاضي شمس الدين، الذي سلمه مفاتيح المدينة باسم السلطان. و في اليوم التالي أي في 18 آذار دخل الإمبراطور كنيسة الضريح المقدس، و بسبب حرمانه من الكنيسة الذي أصدره بحقه البابا غريغوري التاسع، و بسبب عدم وجود أي قسيس، قام الإمبراطور بتتويج نفسه شخصياً و وضع التاج بنفسه على رأسه³.

لم تستمر إقامة الإمبراطور طويلاً في القدس و أقفل عائداً إلى يافا، و التي غادرها بعد يوم واحد ليصل في 25 آذار إلى عكا. هذا و أمضى الإمبراطور فريدريك شهر نيسان في عكا، حيث قام بتسوية بعض المسائل، و بعد ذلك غادر الإمبراطور بلاد المشرق في أول أيار 1229 متجهاً إلى قبرص و بعدها إلى

1 - رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، ص 229، 231، 234.

2 - باركر: الحروب الصليبية، ص 114-115.

3 - رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 235، 236.

إيطاليا التي وصلها في 10 حزيران 1229. لتنتهي بذلك ما عرفت بالحملة الصليبية السادسة¹.

الحملة الصليبية السابعة

بعد عودة الإمبراطور فريدرىك الثاني إلى ألمانيا نشب الخلاف بين قواته التي تركها في فلسطين، مما سهل على ملك مصر الصالح أيوب استرجاع القدس و طرد الصليبيين من فلسطين عام 1244. كما جرى توجيه عدة ضربات للكيان الصليبي في المشرق. و كان ذلك كله سبباً في إثارة ملك فرنسا، لويس التاسع بصفة خاصة و أهل الغرب المسيحي بصفة عامة للتأثر لما نزل بالصليبيين من هزائم. إلى جانب هذا السبب المباشر وجد هناك أسباب غير مباشرة لإعداد حملة صليبية وتوجيهها إلى مصر، و هي أن الملك الفرنسي قد أصابه مرض عضال كاد يؤدي بحياته، و عندما شفي منه قرر القيام بحملة صليبية اعترافاً منه بفضل الله عليه، كما أن البابوية أدت دورها أيضاً في هذه الحملة للتخلص من مضايقات الملوك والأمراء لكي تخلص للبابوية الساحة الأوروبية بابتعاد لويس التاسع صاحب الموقف الصارم تجاه رجال الدين، ولكي تستطيع البابوية فرض سيطرتها على الغرب الأوروبي. هذا و دعا البابا أنوتسنت الرابع (1242-1254) إلى مجمع كنسي في مدينة ليون الفرنسية في عام 1245 تقرر فيه إعداد حملة صليبية و إرسالها للمشرق و إعفاء كل من يشارك فيها من الذنوب والخطايا و بعد انتهاء المؤتمر، بعث البابا مندوبيه للدعوة إلى الحملة. و كانت حماسة فرنسا و ملكها واضحة لذلك اتسمت هذه الحملة بالطابع الفرنسي².

1 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 368، 369.

2 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 305، 306.

استغرق الإعداد للحملة ثلاث سنوات، حيث تقرر فرض ضرائب إضافية للمساهمة في تجهيزها. و استجابت جنوا و مرسيليا لطلب الملك لويس التاسع بتأمين السفن اللازمة لنقل القوات الصليبية إلى الشرق، و هذا ما أزعج البندقية لأنها كانت تقيم علاقة تجارية ناجحة مع مصر. أما الإمبراطور الألماني فريدرىك الثاني فرغم تأييده العلني للحملة فقد أعلم السلطان الصالح بأمرها. غادر الملك لويس التاسع في 25 آب 1248 من جنوب فرنسا متجهاً إلى قبرص على رأس أسطول ضخم و كبير و اصطحب معه زوجته الملكة مارغريت و أخويه روبرت، كونت أرتو، و شارل، كونت أنجو. وصل الأسطول الصليبي إلى قبرص في 17 أيلول 1248. و عقد في قبرص اجتماع حربي لدراسة أوضاع الصليبيين في الشرق، و وصلوا إلى النتيجة السابقة و الحتمية، بأنه إذا أرادوا لبقيائهم في الشرق أن يستمر و الاحتفاظ بالقدس لابد من احتلال مصر¹. أمضى الصليبيون حوالي ثمانية أشهر في قبرص حصلوا خلالها على المساعدات و مواد التموين، و أبحروا في أيار 1249 من قبرص باتجاه مصر، و كانت رحلتها شاقة بسبب هبوب الرياح و وصلت الحملة إلى الفرع الشرقي للنيل المعروف بفرع دمياط في 4 حزيران 1249، و دخلوا دمياط في 6 حزيران و استولوا عليها، و بدؤوا يعملون على تدعيم مركزهم. هذا و توقفت الأعمال الحربية بين الطرفين لمدة تقرب من خمسة أشهر و نصف عمل المسلمون و الصليبيون أثنائها كل على تدعيم مركزه. ليقرر الملك لويس التاسع بعدها الزحف إلى القاهرة، لكن قواته تعرضت للهزيمة و هذا ما دفع الملك لويس التاسع إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين و أرسل مندوباً إلى السلطان توران شاه يحمل شروط الصلح، و قد عرض الملك لويس تسليم مدينة دمياط و الأراضي التي استولى عليها في مصر مقابل تنازل سلطان

1 - نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1995، ص 16-17.

مصر عن بيت المقدس و بعض المدن الساحلية في الشام، لكن عرض الملك لويس قبول بالرفض من قبل سلطان مصر. بعد ذلك اندلعت الاشتباكات العسكرية مجدداً بين الطرفين و انتهت بكارثة بالنسبة للملك لويس التاسع، حيث وقع الملك لويس التاسع و معه أخواه أسرى في أيدي المسلمين و أودعوا دار القاضي فخر الدين بن لقمان في المنصورة. و بعد عدة أيام فتحت المفاوضات بين السلطان توران شاه و الملك الأسير و توصل الطرفان إلى اتفاق هدنة ينص على: 1 - يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط فديةً عن نفسه 2 - يدفع الملك لويس 800000 بيزنط فدية لأسرى الصليبيين 3 - يطلق سراح أسرى المسلمين الذين في حوزته 4 - يعمل الصليبيون على حفظ الأمن و الاستقرار في جميع البلاد التي تحت أيدي الصليبيين في بلاد الشام و أقسم الطرفان على احترام شروط الصلح. و في 6 أيار 1250 غادرت السفن الصليبية دمياط باتجاه عكا و على متنها فلول الحملة الصليبية بعد أن أنهكتها الهزائم.

ما إن وصل الملك لويس التاسع إلى عكا حتى وصلته أخبار سيئة من أوروبا، مفادها أن هنري الثالث، ملك إنكلترا، يعد العدة لمهاجمة فرنسا، لكن لويس التاسع تربث في سفره إلى فرنسا بسبب الأحداث في مصر و سوريا و استغل الأحداث هناك و عقد هدنة مع دمشق في شباط 1254 لمدة سنتين و سبعة أشهر و عقد هدنة أخرى مع القاهرة مدتها عشر سنوات بداية من عام 1255. رحل لويس التاسع من عكا باتجاه فرنسا في نيسان 1254. و بعد ذلك تجددت اشتباكات محدودة بين الصليبيين و المسلمين، لكن الهدنة تجددت مرة أخرى لمدة عشر سنوات مع دمشق و القاهرة من جهة و الصليبيين من جهة ثانية¹.

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 308-315، 319، 321.

الحملة الصليبية الثامنة:

لم يتعظ الملك الفرنسي لويس التاسع من فشله الذريع في الحملة الصليبية السابعة في مصر، بل أعد العدة لشن حملة صليبية جديدة عرفت بالحملة الثامنة لكن هذه المرة كانت وجهة الحملة تونس و حدثت في عام 1270. لكن هذه الحملة تعرضت لنكبة أكبر من سابقتها حيث أصيب الجيش الفرنسي بمرض الطاعون و مات أغلب الجيش الفرنسي بما فيهم الملك لويس التاسع نفسه، و عاد من تبقى يجبر أذبال الهزيمة إلى بلاده.

بعد أن انتهت الحملة الصليبية الثامنة بالفشل بدأ بابوات روما يدعون الملوك و الأمراء و كبار الإقطاعيين في أوروبا للقيام بحملات صليبية جديدة إلى المشرق العربي، لكن هذه الدعوات لم تلق آذاناً صاغية لدى الأوروبيين، و لم تتشكل أي حملة صليبية فيما بعد. عدا عن ذلك فلم يعد يتلقى الصليبيون في إماراتهم في المشرق العربي مساعدات عسكرية من أوروبا تساعد في الحفاظ على وجودهم هناك، فألت هذه الإمارات إلى الانحطاط و الضعف، و بدأت تزول بشكل نهائي الواحدة تلو الأخرى على أيدي سلاطين المماليك. فقد سقطت إمارة أنطاكية بيد الظاهر بيبرس في عام 1286. و استولى السلطان قلاوون على إمارة طرابلس في عام 1289 و أخيراً سقطت عكا بيد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 1291 ليزول بذلك الوجود الصليبي من المشرق بشكل نهائي. و بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية التي استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن¹.

1 - زكار/ جوني/ اسماعيل: حروب الفرنجة، ص 388 - 389.

عوامل انحسار الحركة الصليبية:

تعد الحملة الصليبية الرابعة آخر حملة عسكرية استعمارية ضخمة أرسلت إلى المشرق العربي. فقد اشترك عدد كبير نسبياً من الجماهير الأوروبية المسيحية الفقيرة في كل من الحملات الصليبية الأولى و الثانية و الثالثة و الرابعة، بينما لم ينخرط إلا القليل من الفقراء الأوروبيين فيما تبقى من الحملات الصليبية (الخامسة و السادسة و السابعة و الثامنة). و هكذا لم تعد الطبقة الفقيرة في أوروبا المسيحية تشارك في الحروب الصليبية و لم تعد تستجيب لدعاة الحرب الاستعمارية لأنها لم تر في هذه الحروب سوى الموت المحتم. و من جهة أخرى فقد حصل تطور اقتصادي، حيث تطورت الأدوات الزراعية و استخدم السماد في الزراعة بشكل واسع كما تم استصلاح بعض الغابات و الأراضي البور. عدا عن ذلك فقد تحسنت أوضاع الفلاحين، فاستطاع بعضهم شراء أراضي من الإقطاعيين و أصبحوا ملاكاً صغاراً، هذا و تحرر بعضهم الآخر من التبعية الإقطاعية فأصبحوا يستأجرون الأراضي من الإقطاعيين ليستثمروها ومن ثم يدفعوا لهم مبالغ من المال أجرة الأراضي بشكل سنوي. و بعد أن تحسنت أوضاع الفلاحين الاقتصادية تضاءلت الحماسة القتالية عندهم و ضعفت الحاجة المادية للاشتراك في مثل هذه الحروب و لذلك رفضوا الانخراط في حروب صليبية مليئة بالمخاطر. عدا عن ذلك فقد تطورت وسائل و معدات الإنتاج الصناعي في معظم المدن الأوروبية، مما شجع عدداً كبيراً من الفلاحين الفقراء إلى الهجرة من القرى إلى المدن ليعملوا في الصناعة ليحصلوا على دخل يومي¹.

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 325 - 326.

أما سياسياً فقد تطور النظام السياسي في أوروبا، حيث لم تعد تربطها فكرة الإمبراطورية الواحدة أو حتى الكنيسة الواحدة أحياناً. فقد تعرض الغرب الأوروبي لتنشيط سياسي مهد الطريق لظهور الدول المستقلة المتعددة. هذا و قويت السلطة الملكية داخل كل دولة على حدة، و هذا ما أدى إلى ضعف نفوذ كبار الإقطاعيين إلى حد ما الذين كانوا فيما سبق يتنافسون للحصول على السلطة الملكية و امتيازاتها أو يشتركون في حروب استعمارية بهدف تأسيس إمارات أو ممالك خاصة بهم خارج حدود بلادهم. هذا و أصبح الفرسان الصغار جنوداً مأجورين عند الملوك، في حين أخذ الملوك في أوروبا يوجهون نشاطهم التوسعي ضمن حدود أوروبا نفسها. أما البابوية فقد رأت أخيراً أنه من الأفضل أن تستثمر ما بقي من حماسة دينية عند بعض المسيحيين في إعداد حملات صليبية تبشيرية ترسلها ضد الشعوب التي تعيش بالقرب من بحر البلطيق التي تختلف عنها في العقيدة و المذهب. أما بالنسبة للتجار الأوروبيين، كتجار البندقية و جنوا و غيرهم، فقد أبرموا مع الحكام المسلمين اتفاقيات تجارية تكفل لهم تحقيق مصالحهم التجارية و تضمن امتيازاتهم، لذلك لم تعد هذه المدن التجارية بحاجة بعد ذلك إلى إرسال الحملات الصليبية ضد الشرق. و هكذا تبين أن أغلب الطبقات و الفئات التي اشتركت بحماسة في الحروب الصليبية الأولى قد تضاءلت عندها هذه الحماسة، لأن الدوافع و الأسباب التي كانت تشجعها على الاشتراك في مغامرات عسكرية خطيرة إلى ما وراء البحار قد زالت. هذا و يرى المؤرخ نعيم فرح أن السبب الرئيس لانحسار الحملات الصليبية و توقف الأمواج الاستعمارية الأوروبية عن التدفق على المشرق العربي هو اتحاد سورية و مصر و العراق في جبهة واحدة، بحيث

أصبحت جيوش هذه الجبهة قادرة على توجيه ضربات رادعة للمستعمرين الأوروبيين و أن تحمي الأراضي العربية من الغزو الصليبي الاستعماري¹.

نتائج الحروب الصليبية:

كانت للحروب الصليبية نتائج مهمة على أغلب الأصعدة في أوروبا:

من الناحية الاقتصادية:

من الأقوال المشهورة أن زيت التجارة أضاء نور الحضارة، و من هنا جاء القول بأن التجارة سارت وراء الصليب، أو ربما أن التجارة هي التي قادت الصليبيين إلى المشرق، فقد استطاعت الأساطيل التجارية الإيطالية انتزاع السيطرة على الطرق التجارية البحرية في البحر المتوسط و التي كانت سابقاً تحت سيطرة المسلمين و البيزنطيين. هذا و وسعت المدن التجارية الإيطالية، مثل البندقية و جنوا و بيزا و بعض المدن الفرنسية مثل مرسيليا و مدينة برشلونة الأسبانية، نطاق سيطرتها و تحكمها على حساب المسلمين و البيزنطيين إلى حد كبير. و نتيجة لذلك وصل إلى أوروبا كميات كبيرة من الأقمشة الحريرية و السكر و التوابل التي كانت تعد من مواد الترف في أوروبا، هذا و انتقل إليها كميات كبيرة و متنوعة من النباتات و المحاصيل و الأشجار التي عرفتها أوروبا من الأندلس و الشرق، و من بعض هذه المحاصيل كانت الحبوب مثل الذرة و الأرز و السمسم، و منتجات أخرى مثل الليمون و البطيخ و الخوخ و المشمش و البصل و السكر². هذا و استفاد الأوروبيون من التطور الصناعي في المشرق لتطوير المصنوعات النسيجية و المعدنية في أوروبا، فأصبح العديد من المنسوجات الأوروبية يحمل اسماً شرقياً

1 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 231 - 232.

2 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 347 - 348.

عربياً كالداسكو نسبة إلى دمشق و الموصلين نسبة إلى الموصل. كما قامت بعض الصناعات في أوروبا على استيراد المواد الخام من المشرق كالقطن و الحرير و الأصبغة و غيرها. هذا و أخذ الأوروبيون عن المشرق أيضاً بعض الأدوات التي تستخدم في تسليح الجيوش كالعربة الحربية و البوق و الطبل و الشعارات و الرموز التي تنقش على التروس و الدروع¹. و بالمحصلة فقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعي زراعي، و انتهت بتطور الصناعة في أوروبا، و اتساع نطاق التجارة في عهد ثورة اقتصادية و رخاء مادي مهدت الطريق لظهور عصر النهضة و الكشوف الجغرافية التي أدت إلى معرفة العالم الجديد و بداية عصر الاستعمار الأوروبي في أمريكا و استراليا و آسيا و إفريقيا².

من الناحية الاجتماعية و الحضارية:

أسهمت الحروب الصليبية في تطور العلاقات بين الطبقات المختلفة في المجتمع الأوروبي و أدت إلى تسريع التحولات الاجتماعية داخل المجتمع الإقطاعي. ذلك أن بعض الإقطاعيين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية وجدوا أنفسهم مجبرين على بيع قسم من أراضيهم و أن يمنحوا الحرية لعدد من الفلاحين التابعين لهم مقابل حصولهم على مبلغ من المال منهم بغية تغطية نفقاتهم خلال الحملات الصليبية و هذا ما أدى إلى ضعف الطبقة الإقطاعية من ناحية، و ازدياد عدد الملاكين الصغار و الفلاحين الأحرار من ناحية ثانية. و كان لتدفق الثروات من المشرق إلى أوروبا تأثير هام في تطور الصناعة و التجارة في المدن الأوروبية، و هذا ما أدى إلى ازدياد عدد أفراد الطبقة العمالية في المدن، و إلى بداية تشكل طبقة برجوازية أخذت تتحكم تدريجياً بمقاليذ الحياة السياسية.

1 - فرح: تاريخ بيزنطة السياسي، ص 327.

2 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 348.

كما أن التعرف على الشرق أسهم في أحداث تغيرات واضحة في نمط حياة الآسياد و الطبقة العليا في الغرب. فإن الفارس الصليبي كانت تستحوذ عليه، بعد عودته إلى بلده، مطامح جديدة، و ظهرت عنده معايير و أدلة تقييمية جديدة. فبدأ الفرسان و الطبقة الغنية في أوروبا بالاهتمام بمظاهر الترف و الرفاهية، المقتبس من الشرق، حيث استعاض الفرسان عن اللباس الخشن المغزول في البيت باللبسة الشرقية الناعمة و الجميلة، و أصبحت الطبقة الغنية تزين جدران بيوتها بالسجاجيد، و الاستعاضة عن المرأة من البرونز المصقول أو من الفولاذ بمرآة من الزجاج. كما أخذ الإقطاعيون الأوروبيون يقلدون الأمراء الشرقيين في بناء القصور الفخمة و ارتداء الملابس الحريرية المزركشة و استعمال العطور و أدوات الزينة و غيرها من مظاهر الرفاهية، هذا و أصبح الأمراء و كبار الإقطاعيين يقيمون الحفلات الفآخرة و يقدمون فيها مأكولات شرقية غنية بالتوابل، و أصبح الفرسان يتباهون بامتلاك السيوف ذات القبضة المطعمة و المرصعة بأناقة و بخناجر من الذهب و العاج المصنوعة في المشرق¹.

و هناك الكثير من النتائج الحضارية للحروب الصليبية يصعب حصرها، فقد دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة الأوروبية، و انتشرت القصص الشرقية في أوروبا و ظهرت في صورة جديدة في اللغات الأوروبية الناشئة التي بدأت تحل تدريجياً محل اللغة اللاتينية. هذا و تأثر الصليبيون بروعة الزجاج المصنوع في بلاد الشام و نقلوا هذا الفن و أسرار هذه المهنة إلى أوروبا فأدى ذلك إلى ظهور الزجاج الملون الذي يشاهد في الكنائس ذات الطابع الفني القوطي. كما شاهد الصليبيون البوصلة و أوراق الطباعة في المشرق و نقلوا هذه الأدوات إلى أوروبا خلال الحروب الصليبية و استفادوا منها. عدا عن ذلك فقد تأثر الغرب بالشعر و

1 - زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 330 - 331.

العلوم و الفلسفة العربية التي وصلت إليهم عن طريق أسبانيا و صقلية بالإضافة إلى الحروب الصليبية¹.

من الناحية السياسية:

أدت الحروب الصليبية إلى ازدياد هيبة الملوك و تقوية السلطة الملكية في أوروبا، فقد ضعفت الطبقة الإقطاعية التي كانت تلعب بالعرش الملكي حسب مصالحها الخاصة بنتيجة هذه الحروب². هذا و أدت الحروب الصليبية إلى تدعيم مركز البابا و تقوية نفوذه، حيث أصبح ملوك أوروبا الذين كانوا كثيراً ما يتمردون على سلطان البابا خاضعين لنفوذه، فهو يقود حرباً مقدسة يمنح المشاركين فيها غفراناً لذنوبهم بينما يصدر قرار الحرمان ضد كل من يتقاعس عن الاشتراك فيها، كما قويت تبعاً لذلك مراكز بعض ملوك أوروبا الذين أسرعوا بالاستجابة لدعوة البابا بالمشاركة في هذه الحروب³.

هذا و قد ظهر خلال الحروب الصليبية تعصب المشاركين فيها لبلدانهم و أوطانهم و ظهر الصراع بين الشعوب الأوروبية المختلفة، كالفرنسيين و الألمان و الإنكليز، فأخذت تغيب فكرة الإمبراطورية الأوروبية المسيحية الواحدة، بينما نشأت دول مستقلة ذات نظام ملكي. و من ناحية أخرى أدت الحروب إلى اتساع الشرخ في أوروبا بين الغرب اللاتيني الكاثوليكي و الشرق البيزنطي الأرثوذكسي.

إن الحروب الصليبية لم تجلب لبلاد المشرق إلا الخراب و الدمار و البؤس. فالإمبراطورية البيزنطية لم تتدخل جراحها التي سببتها لها الحملة الصليبية الرابعة

1 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 345 - 346.

2 - فرح: تاريخ أوروبا السياسي، ص 234.

3 - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 346.

و قيام الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية. هذا و لم يترك المحتلون الصليبيون في البلاد العربية سوى ذكريات وحشية عن أعمالهم الإجرامية حتى أصبح اسم الفرنجة و الصليبيين مكروهاً في كل أنحاء المشرق العربي.

و خلاصة القول: لم تكن الحروب الصليبية سوى حلقة واحدة من سلسلة الغزو الأوروبي الاستعماري للوطن العربي، هذه السلسلة الاستعمارية التي بدأت بغارات شعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد و أتى بعدها الغزو المكدوني في القرن الرابع قبل الميلاد، و من ثم الاجتياح الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، و بعده الغزو الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، و بعده الاستعمار الأوروبي الحديث في القرنين التاسع عشر و العشرين و أخيراً الاحتلال الأمريكي للعراق في العام 2003 و بعده غزو ليبيا من قبل الأوروبيين و الأمريكيين في عام 2011.

يبدو أن الأطماع الاستعمارية في البلاد العربية و أرض المشرق سوف لن تنتهي أبداً، بل ستبقى تأخذ أشكالاً جديدةً و تتلون بعدة ألوان. و لكن الشيء المؤسف و المخزي أن بعضاً من البلدان العربية تعمل على استقدام هذا الاستعمار و تروج له إعلامياً و تهيئ البيئة المناسبة له.



الفصل التاسع

الحياة الدينية في أوروبا العصور الوسطى

نشأة الديانة المسيحية، وانتشارها

-مجيء السيد المسيح:

بالتوراة (الكتاب المقدس = العهد القديم) يوجد وعود كثيرة عن مجيء السيد المسيح، لكن عندما أتى المسيح لم يقبله كل اليهود، لأنهم انتظروا مسيحاً قوياً جباراً يملك عليهم ويحقق لهم الانتصارات على الشعوب، ويقم لهم مملكة قوية.

ولد المسيح في قرية بيت لحم في فلسطين، في عهد أول إمبراطور روماني أوكتافوس أوغسطس (30 ق.م - 14م). معظم فترة حياته كانت في الناصرة والخليل، وكان لفترة من الزمن في مصر. كان عمر المسيح ثلاثين عاماً عندما بدأ رسالته، وعرف بنفسه بأنه المسيح يسوع، واختار اثني عشر تلميذاً.

بشر المسيح بالإنجيل (البُشرى) لمدة ثلاث سنوات، كثير من الناس آمن والقسم الأكبر لم يؤمن، لأن تعاليم السيد المسيح تفوق تعاليم البشر، حيث جعل الإخاء بين الناس ومحبة الله فوق تعاليم الناموس (التوراة)، لذلك حرض اليهود على قتله، وحرصوا الرومان، الذين خافوا من تعاليمه على مصالحهم. استجاب الحاكم الروماني بيلاطس البنطي لقتله، فصلب المسيح على رابية الجلجلة (الجلجثة) (موضع الجمجمة)، شمال بيت المقدس، حيث بنيت فيما بعد كنيسة القيامة.

تعاليم السيد المسيح

لم يأت المسيح ليُلغي الناموس أو لينقضه، بل جاء ليُتممه ويكمله، فكانت المسيحية كدين عالمي بعكس اليهودية التي تخص سلالة إبراهيم الخليل. وفي المسيحية الله يعتبر إله المحبة والخير والتسامح، أما اليهود فكانوا يعتقدون بأن الله يمكن أن ينتقم لهم من الأعداء. المسيحية نظرت إلى جميع الناس كإخوة، بينما اليهود نظروا إلى الآخرين كأعداء. تمسك اليهود بالناموس "الناموس بموسى أعطي" بينما المسيحية تمسكت بمكارم الأخلاق وأصبحت تعيش بعصر النعمة، "نعمة الروح القدس بيسوع المسيح صارت".¹

أقوال السيد المسيح فيها بعض الموافقة مع النظم الرومانية وبعض المعارضة. عندما يقول المسيح أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.² هذه الآية تناسب السلطات الرومانية. بينما تعاليمه الرفضة تأليه الإمبراطور، والرفضة للخدمة العسكرية. كلها تؤثر سلباً على الإمبراطورية الرومانية القائمة على سواعد الجيش. وخاف الأغنياء أيضاً من تعاليمه، التي تدعو إلى العدل والمساواة، وتوزيع الأغنياء لأموالهم حتى يستطيعوا دخول ملكوت السموات.

فالتعاليم المسيحية جعلت السلطات الرومانية والأغنياء بكل فئاتهم يحاربون المسيحية لمدة ثلاثة قرون ونيف، ومع ذلك انتشرت، وانتصرت، وتم الاعتراف بها من قبل الدولة الرومانية - البيزنطية.

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، يوحنا، 17:1.

² - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 21:22.

ما العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية، وانتصارها؟

1. توضيح المسيحيين بأنفسهم. تصور تلاميذ المسيح اثنا عشر تلميذاً - واحد قتل نفسه (يهوذا)، وواحد مات بشكل طبيعي (يوحنا اللاهوتي)، وعشرة ماتوا قتلاً دون أن يحملوا يوماً سيفاً. والمؤمنون المسيحيون فيما بعد لم يكونوا أقل شجاعة من تلاميذ المسيح.
2. لأن المسيحية دين عالمي، لكل الشعوب والقوميات والألوان والطبقات، قال السيد المسيح: " اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، معمدين إياهم باسم الأب والابن والروح القدس¹ .
3. سمو أخلاق المسيحية، فيها تسامح يفوق تفكير البشر .
4. سيرة المسيح المتميزة، والتوضيح بالنفس، كانت تشجع المسيحيين الأوائل على التوضيح بأنفسهم، وقبول الموت دون التراجع عن العقيدة.
5. الفراغ الروحي الكبير عند شعوب الإمبراطورية الرومانية، على الرغم من وجود كثير من الديانات القديمة، والتيارات الفلسفية العديدة، كان هناك تعطش للأمور الروحية .
6. اتساع الإمبراطورية الرومانية التي امتدت على مساحات من ثلاث قارات (أوروبا - إفريقيا - آسيا)، وكانت السلطة مركزية في روما، مما ساعد انتقال تلاميذ المسيح للتبشير، من مكان لآخر بسهولة.
7. إتقان اللغات من قبل تلاميذ المسيح، بحيث كل تلميذ كان يتكلم لغة الشعب الذي يبشره.

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 28:19.

8. قيامة السيد المسيح أعطت الرجاء للناس بالقيامة والحياة الأبدية، وعدم الخوف من الموت.

- وصول المسيحية إلى عاصمة الإمبراطورية الرومانية (روما):

عندما قال السيد المسيح: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم..."، الدعوة تدل على أنها موجهة إلى كل الأمم والشعوب، فانتشر التلاميذ بالعالم المعروف آنذاك وناطقين بلغاتها، داعين للمسيحية. والكتاب المقدس عند المسيحيين، يدعى إنجيل = البشارة = البشرى السارة. ويقال له العهد الجديد تمييزاً له عن التوراة (العهد القديم). ويتكون من بشارة متى - يوحنا - لوقا - مرقس، ورسائل بولس - يعقوب - بطرس - يوحنا - يهوذا، وأعمال الرسل، ورؤيا يوحنا". بولس الرسول لم يكن من تلاميذ المسيح، بل كان يهودياً متعصباً لدينه ومضطهداً للمسيحيين، ثم تحول إلى مبشر كتلاميذ المسيح، وكان يرافق التلميذ بطرس. بشر في مناطق كثيرة في سوريا وآسيا الصغرى واليونان وروما، ولاقى حنقه مع بطرس عام (64م) في روما، في عهد الإمبراطور "نيرون".

بطرس كان تلميذاً للمسيح، ويدعى سمعان، وقال له السيد المسيح: "أنت بطرس (الصخرة)، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات".¹ بطرس أسس أول كنيسة مسيحية في روما، وبشر بالمسيحية في روما، والتلميذ مرقس كان يبشر بالمسيحية في مصر، وأسس الكنيسة المرقسية.

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 18:16.

قصة اضطهاد المسيحيين

من اضطهد المسيحيين؟ ولماذا اضطهدوهم؟ وما النتائج المترتبة على اضطهادهم؟

شكل المسيحيون الأوائيل خطراً على السلطات الرومانية، وعلى الأغنياء مادياً بشكل عام، فاشتركت السلطات الرومانية والأغنياء في اضطهادهم، بشكل متكرر، ودون رحمة. وكان أول شهيد في المسيحية، هو المسيح نفسه، الذي قتلوه صلباً في عهد الإمبراطور "تيبيريوس" (14-37م)، وفي عهد الإمبراطور "كلود" (41-54م)، طرد المسيحيين من مدينة روما - عاصمة الإمبراطورية، وفي عهد الإمبراطور "نيرون" (54-68م)، أحرق اليهود مدينة روما قصداً وسراً، واتهموا المسيحيين، فلاحقتهم السلطات الرومانية، واضطهدتهم، والكثير منهم لاقى حتفه، حتى القديسان "بطرس" و"بولس".

تعرض المسيحيون إلى عشرة اضطهادات كبيرة وجماعية في القرون الثلاثة الأولى: (64-313م)، ما عدا الملاحقات الفردية، والاضطهادات الصغيرة. مع كل هذا الاضطهاد والتعذيب والتشريد والملاحقات والنفي والسجن والقتل بكل أنواعه، كانت المسيحية تنتشر، والمسيحيون يتضاعفون، حتى إن أحد آباء الكنيسة "تروتولين" عام (197م)، قال: "كان دم المسيحيين كالبحار".¹ ويقصد بأنهم كلما قتلوا مسيحياً دخل العشرات في المسيحية، ذلك كحبة الحنطة عندما تموت بالأرض تثبت سنابل تحمل العشرات من هذه الحبوب. وكان أكبر انتشار

¹ - فرح، نعيم: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، 1414-

1415هـ، 1994-1995م، ص 159.

للمسيحية في القرن الثالث الميلادي كرد فعل على الاضطهادات الكثيرة والكبيرة والمتكررة بهذا القرن.

وأكبر الاضطهادات كانت في عهد الإمبراطور الروماني الوثني الأخير "ديوكليسيانوس" (284-305م)، الذي أصدر مراسيم عام (303م) ، بموجبها هدموا الكنائس، وطردوا المسيحيين من الوظائف والجيش، وأحرقوا كتبهم، وتمت ملاحقتهم، وتعذيبهم ، وقتلوا قسماً كبيراً منهم، حتى أطلق على عهد هذا الإمبراطور - عصر الشهداء. بكلمة مختصرة كان الاضطهاد يأتي بنتيجة عكسية على الإمبراطورية الرومانية، لأن الشجاعة والصبر والإيمان عند شهداء المسيحية كانت تؤثر بشكل كبير على الوثنيين وتجذبهم إلى المسيح كما يجذب المغناطيس بزيادة الحديد. ولم ترفع الاضطهادات عن المسيحيين إلا في عهد أول حاكم بيزنطي- مسيحي، خليفة "ديوكليسيانوس" الإمبراطور قسطنطين الأول" (306-337م).

- 1- ما هي الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين؟
رفض المسيحيين عبادة الإمبراطور وعبادة آلهة روما الوثنية، مما أدى إلى انقسام المجتمع الروماني إلى قسمين: قسم مسيحي، والآخر وثني.
- 2- التعاليم المسيحية شكلت ثورة اجتماعية- اقتصادية ضد التفاوت الطبقي والأغنياء، مما جعل أصحاب الثروات والأملك يضطهدون المسيحيين أو يحرضون السلطات الرومانية عليهم.
- 3- تخوف السلطات الرومانية من تحول الحركة الدينية المسيحية، التي تنمو وتنتشر بين الناس بسرعة، من أن تتحول إلى حركة ثورية.
4. أكاذيب اليهود وافتراءاتهم وتحريضهم للرومان ضد المسيحيين.
5. رفض المسيحيين الخدمة الإلزامية، انطلاقاً من تعاليم السيد المسيح الداعية إلى السلام والتسامح وعدم الأخذ بالثأر، وعدم مكافحة الشر بالشر،

ومسامحة الأعداء، ومحبة جميع الناس، قال السيد المسيح: "الذي يأخذ السيف، بالسيف يهلك".¹

6. تخوف الرومان من انتشار المسيحية، خاصة في بلاد فارس، مما يجعل المسيحيين يفتنون إلى جانب فارس أثناء حروبها مع الإمبراطورية الرومانية.

- اعتراف أول إمبراطور بيزنطي بالمسيحية:

لاحظ "قسطنطين الأول - الكبير" سلبات اضطهاد المسيحيين، فعمل على إصدار براءة سارديكا عام (311م)، التي بموجبها تم إعطاء حرية الممارسة للمسيحيين، دون أن تؤدي هذه الحرية إلى الخلل بالنظام. ثم أصدر مرسوم ميلانو عام (313م)، الذي يُعطي حرية المعتقد، ومساواة المسيحيين مع غيرهم من المذاهب. خلال هذه السنوات كانت الإمبراطورية منقسمة إلى قسمين: قسم غربي وأكثرية أوثان، يحكمه ليكيانوس (ليسينيوس) (صهر قسطنطين - زوج أخته)، وقسم شرقي يحكمه "قسطنطين" وأكثرية مسيحيون. قامت الحرب بينهما، واتخذ قسطنطين لجنوده إشارة الصليب، وانتصر على صهره ليكيانوس، ووحد الإمبراطورية، وأصدر مرسومين عام (324م)، بموجبهما تم وقف كل أنواع الاضطهاد ضد المسيحيين، وإعطائهم حرية المعتقد، والاعتراف بالمسيحية رسمياً في بيزنطة.

كانت ميول قسطنطين مسيحية وهو ابن القديسة "هيلانة"، فقدم أموالاً طائلة لبناء الكنائس، ومنح رجال الدين المسيحيين، خاصة الأساقفة سلطات قضائية واسعة، وأصدر قوانين كثيرة متأثرة بالمسيحية، حتى لقبه معاصروه بالقدّيس "

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 26:52.

قسطنطين". مع ذلك مازالت مسيحيتة عند بعض المؤرخين موضوع جدل حتى الوقت الحالي، لأن بعضهم يعتبر كل تصرفاته لغايات سياسية.

الكنيسة، ومبادئها الأساسية

(درجات الكهنوت - أمهات الكنائس - زواج رجال الدين - آباء الكنيسة - أملاك الكنيسة - علاقة الكنيسة بالدولة):

الكنيسة كلمة يونانية تعني "إكليزيا"، وبالعربية تعني الجماعة، والكلمة تطلق على المكان والناس.

درجات الكهنوت المسيحي: لكل قرية أو ضيعة كنيسة، ولكل كنيسة كاهن (قسيس)، ويوجد عنده مساعد في الكنيسة يسمى شماس. أما في المدينة (الأبرشية)، فيكون الأسقف كأعلى مرتبة دينية ومسؤولاً عن كنائس المدينة، وما يتبع لها من كنائس في القرى. أما على مستوى الولاية التي تضم عدة مدن، يكون بعاصمتها مطران (رئيس أساقفة - كاردينال). وإذا كانت الولاية كبيرة ويتبع لها عدة ولايات صغيرة، وقتها يكون في عاصمتها الرئيس الديني بلقب بطريرك، والذي يلعب في روما (البابا).

في القرن الرابع الميلادي كان هناك ستة بطريركات: اثنتان في آسيا: القدس وأنطاكية، واثنان في إفريقيا: الإسكندرية وقرطاجة، واثنان في أوروبا: روما والقسطنطينية. فيما بعد أتبعوا قرطاجة مرة لروما ومرة للإسكندرية، ذلك يتوقف على الظروف السياسية. وكان إذا اجتمع قساوسة أسقفية واحدة يسمونه (بالمجمع الأسقي)، وإذا اجتمع أساقفة ولاية يدعى (مجمع الولاية أو المجمع الإقليمي)، وإذا

اجتمع أساقفة القسم الشرقي للإمبراطورية أو الغربي يدعى (المجمع الكلي)، وإذا اجتمع جميع الأساقفة ورؤسائهم يسمى (المجمع المسكوني أو العام أو الأكبر)¹.

الدين المسيحي لم يحرم رجال الدين من الزواج، لكنه فضل أن يبقوا في حياة العزوبة، خوفاً من انشغالهم بأسرهم وأولادهم وأهمالهم الواجبات الدينية، فوضعت تشريعات بعدم زواجهم. في وقتنا الحاضر، المتزوجون من رجال الدين فقط من القساوسة، ويكون زواجهم قبل رسمهم وليس بعده، وضريبة ذلك، عدم السماح لهؤلاء بالترقي في درجات الكهنوت. ولا يحق لشخص أن يصبح كاهناً إذا تزوج من أرملة، أو إذا تزوج من اثنتين، أو إذا طلق زوجته، أو إذا اتخذ خليفة.

في القرون الثلاثة الميلادية الأولى كانت المسيحية منتشرة فقط بين الفقراء والبسطاء، وتدرجياً أصبح الأغنياء والمتقفون يدخلون فيه. وظهر كثير من الأسئلة من قبل الناس حول الديانة المسيحية، كان من الصعب الإجابة عنها من رجال الدين العاديين، ثم تصدى لهذه الأسئلة مفكرون كبار متبحرون بالديانة المسيحية، يلقبون بأباء الكنيسة، بدؤوا يشرحون الكتاب المقدس ويفسرونه، ويفهمونه للناس، بكل طوائفهم وطبقاتهم.

بعد اعتراف "قسطنطين الأول" بالدين المسيحي، وجعل بيزنطة دولة مسيحية بالكامل، بدأت تزداد امتيازات الكنيسة، حيث أصبحت تملك كثيراً من الأراضي والعقارات، وتحولت إلى مؤسسة أرستقراطية، وأعفيت من دفع الضرائب للدولة، والسخرة الإقطاعية، وأعطيت حقوقاً قضائية كبيرة، بحيث إن أحكامها لا تستأنف بل تعتبر فاصلة ونهائية.

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 169.

بالنسبة لعلاقة الكنيسة بالدولة، كان هناك اختلافات كبيرة بين الشرق (القسطنطينية) والغرب (روما). ففي الشرق، خضعت الكنيسة للدولة، أما في الغرب، فالكنيسة ناضلت قروناً طويلة من أجل استقلالها عن الدولة، ثم بعد ذلك أخذت تسيطر على السياسة والدولة. عندما نقول خضعت الكنيسة للدولة، وبالوقت نفسه اعتمدت على الدولة، وساعدا بعضهما البعض. لكن وقوف الكنيسة إلى جانب الدولة تطلب تعديلاً كبيراً في مبادئ المسيحية، الراضية للحروب. والتعديل، يعني أنها أصبحت راضية عن الحروب التي تحمي المؤسسات: السياسية-الإدارية(الدولة)، والدينية (الكنيسة).

أسرار الكنيسة المسيحية:

في الديانة المسيحية يوجد سبعة أسرار، وكلمة سر لا تعني الخفاء والكتمان، بل تعني طقساً دينياً.

1. سر المعمودية: أسسه السيد المسيح عندما بعث تلاميذه للتبشير بالمسيحية، قائلاً: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس". يغسل الطفل أو الطفلة أو الإنسان الكبير بالماء المقدس والروح القدس، من أجل تطهيره من الخطيئة الأولى، التي ارتكبها آدم بحق الله. هذا يتم بعد صلاة الكاهن على الماء، لجعله مقدساً ويحل فيه الروح القدس، فيلد الإنسان المعمد ولادة روحية جديدة خالية من الخطيئة الأولى.

2. سر الميرون: كلمة الميرون تعني الطيب (زيت وعطور يصلي عليه الأسقف). يقوم الكاهن بدهن الإنسان المعمد بالميرون المقدس، قائلاً: "ختم موهبة الروح القدس، آمين".

3. سر القربان المقدس (المناولة): يقوم به الكاهن في الكنيسة، أيام الأحاد بعد الصلاة، وفي بعض المناسبات. والقربان المقدس، يعطى كقطعة من الخبز مع

ملقعة صغيرة من النبيذ. يصلي الكاهن على الخبز الذي يرمز إلى جسد المسيح، والنبيذ الذي يرمز إلى دمه، ويقدم للناس، دليل تضحية المسيح بجسده ودمه من أجل خلاص البشر.

4. سر التوبة والغفران: يعني اعتراف الإنسان بخطاياہ أمام الكاهن، ثم

يصلي له ليغفر الله خطاياہ، والكاهن يرشد الخاطئ إلى طريق الصواب والحق.

5. سر الكهنوت: أسسه السيد المسيح بقوله لتلاميذه: "كما أرسلني الأب

أرسلكم أنا أيضاً¹. يقوم الأسقف برسم (ترسيم) الكاهن. ويكون التعيين من الأعلى

للأدنى، بعد انتخابه وترشيحه من القاعدة. وصفات المرشح لسلك الكهنوت كثيرة

منها: السيرة الحميدة- السن القانونية- الثقافة الدينية- سلامة الحواس.

6. سر الزواج: قدس السيد المسيح هذا السر بقوله: "يترك الرجل أباه وأمه

ويلزم امرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً. فما جمعه الله لا يفرقه البشر².

7. سر مسح المرضى بالزيت المقدس: يقوم الكاهن بمسح جسد المريض

بزيت زيتون مقدس، تالياً صلوات الشفاء ومغفرة الخطايا، تعزية وصبراً للمريض.

الأخلاق المسيحية

أنتت المسيحية بأخلاق جديدة، رفيعة المستوى وسامية المعاني، فيها: الرأفة

بالضعيف، والحنان على الآخرين والطاعة والخشوع لله وللوالدين والكبير والسيد،

والصبر على المصائب والمحن، والرحمة بكل كائن، والطهارة والعفة والرقية، وأكثر

من ذلك بكثير، عندما قال السيد المسيح: "سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن.

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، يوحنا، 20:21.

² - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 19:5 و مرقس، 10:7 ورسالة بولس الرسول إلى

أهل أفسس، 31:5.

وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً" و" سمعتم أنه قيل: تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيك. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم¹. هذه الأخلاق هدأت من عنف العالم الأخذ آنذاك بالانقياد، وروست أخلاق البرابرة والشعوب المتوحشة وسفاكي الدماء، الذين لم يكن يردعهم رادع أخلاقي أو اجتماعي أو ضمير، ولم تأخذهم رافة بأحد.

الرهبانية والديرية

لماذا ظهرت الرهبة في المسيحية؟

الرهبانية حركة زهد وتكشف وتصوف وانعزال عن الدنيا الفانية. والسبب في نشوئها هو النفور الذي يسيطر على المرء بسبب ما تحتويه الحياة من فساد، مما يدفعه إلى الانطواء والابتعاد ومحاولة تطهير النفس بتنمية الحياة الدينية بالخشوع والصلاة والتفكير والتأمل والتقوى والنسك والتغذي باللجوء إلى الله.

ظهر الاتجاه نحو العزلة والانقطاع للعبادة في تاريخ معظم البلدان الكبرى التي عرفت البشرية، هذا التوجه لم يترك أي أثر في الحياة العامة مثلما تركه في العالم المسيحي الأوروبي في العصور الوسطى. وقد شهد العصر الذي أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد شيئاً فشيئاً في ظل الإمبراطورية الرومانية ظهور حركة دينية كانت في أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها أصبحت في ما بعد جزءاً لا يتجزأ من النظام الكنسي. وبذور حياة الزهد والرهبانية وجدت في أصول المسيحية الأولى، فالعهد الجديد لم يخل من إشارات عن حث الناس للانصراف للعبادة متى

¹ - الكتاب المقدس، العهد الجديد، متى، 5: 38 و39 و43، 44.

استطاعوا فعل هذا الأمر. حيث إن القديس بولس من حث على حياة العزوبة والتي تعتبر ركناً هاماً من أركان حياة الزهد والرهبانية .

مع أنه ظهر بعض المخلصين الذين آثروا التفريغ للحياة الدينية في أوائل عهد المسيحية إلا أن هذا الأمر لم يصبح شائعاً ومألوفاً في الشرق المسيحي إلا في القرن الرابع. أما في الغرب الأوروبي فلم يظهر إلا في القرن الخامس ولم يصبح شائعاً قبل القرن السادس. وتبلورت الرهبانية لتظهر على شكل حركات إصلاحية ظهرت في الغرب الأوروبي كالحركة الكلونية ونظام السترشيان الديري، ومنظمتا الفرانسيكان والدومينيكان. إلا أن خروج رجال الدين عن تعاليم الكنيسة أذن بظهور مذاهب هرطقية عملت على إعادة الكنيسة لبساطتها الأولى ومنها الألبجنسيين، والوالدنسيين، حيث بدأ بمهاجمة رجال الكنيسة والأديرة المترفين، وثنائهم الفاحش، وبعدهم عن مبادئ المسيحية وبساطتها، لكن البابوية حاربتهم بقوة في أواخر القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا، وأخذت حركتهما، مع ذلك ظهر أتباع لهما في أوروبا الغربية في القرن الرابع عشر¹.

الحياة الديرية على الرغم من عيوبها المتعددة إلا أنها أسهمت إسهاماً كبيراً في نشر المسيحية وغدت مركزاً للثقافة والدراسات المتنوعة. والأديرة حافظت على التراث الحضاري لأوروبا، حيث كان لها إيجابيات كثيرة على شتى الصعد الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. بشكل عام إن الحياة الديرية شرقية الأصل، بل هو الأثر الأقوى الذي تركه الشرق في المسيحية. وكان الانتقال في الحياة الرهبانية من الديرية الانفرادية إلى الحياة الاجتماعية- الجماعية قفزة باتجاه التطور في الحركة الديرية.

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص246.

الزهد والعزلة كانا من الدعائم والركائز الأولى للحياة الديرية ومهدا لها، وشكلا ثورة نفسية ضد الفساد الذي كان سائداً ومنتشراً في المجتمع الروماني في القرن الرابع. وقد ظهرت الرهبانية لأول مرة في المسيحية بمصر.

والنتباين بين تعاليم العهد الجديد وبين فساد المجتمع الخارجي دفع معظم المخلصين إلى الهروب إلى الأماكن الخالية من السكان، طالبين راحة الفكر والضمير، بالإضافة لما عاناه المسيحيون من أذى واضطهاد، خاصة في أواخر عهد الإمبراطور دقلديانوس، الأمر الذي دفعهم للفرار إلى الأماكن البعيدة والخالية من السكان. فالفقر والحرمان يؤديان إلى طهارة النفس والعزلة في جو محاط بكثير من المتاعب والمشاكل من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام¹.

التنسك أساس الرهبنة:

التنسك أقدم من الرهبانية المسيحية إذ ظهر وانتشر بالشرق قبل ظهور المسيحية بزمان طويل، وخير مثال على ذلك هو الأمير الهندي بوذا الذي أسس الديانة البوذية.

وأنجبت المذاهب الفلسفية رجالاً زهدوا بالدنيا، وأخذوا يتأملون ويتفكرون بالحقائق الخالدة عن طريق العزلة. وعندما كانت المسيحية تنظم أمور العقيدة، وكان أساقفة روما يعملون على بسط سيطرتهم على سائر كنائس الغرب، قامت حركة داخل المسيحية كان لها بالغ الأثر في مسير تاريخ الكنيسة ونظمها. وقبل

¹ - الحويري، محمود محمد: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرهبانية، القاهرة، دار المعارف،

ط3، 1995م، ص35.

الاعتراف بالمسيحية كانت الكنيسة تبدو بسبب الملاحقة والاضطهاد وكأنها بمعزل عن بقية العالم¹.

وكان الاستشهاد يرقى بالمسيحيين إلى مراتب القديسين على أساس أنهم رجال ناضلوا وضحو من أجل المجد الأبدي لا من أجل الدنيا الفانية. إلا أن الاعتراف الرسمي بالمسيحية جاء في عهد قسطنطين الأول كديانة مصرح بها في الإمبراطورية الرومانية، مما أدى إلى سرعة انتشارها بسبب اعتناق أفواج كبيرة من الناس دون خوف من الملاحقة². وقد شعر قسطنطين الكبير أن من واجبه أن يبرهن بكل ما يملك عن امتنانه لهذا الإله المسيحي الذي كان له نعم النصير والمعين³.

وبعد أن أخذت المسيحية دورها وشغلت مكانها في المجتمع اعتنق بعض الناس المسيحية لأغراض وأسباب دنيوية، فغدا المستوى الخلقي عند بعض المسيحيين شبيهاً بالمستوى الخلقي عند الوثنيين، وقد استمالت المسيحية الأولى بشكل رئيسي فقراء المدن الكبرى⁴. فأدى هذا الأمر إلى تسلل اليأس إلى نفوس الزاهدين في دينهم وأخذوا يتأملون وينظرون بسير العالم إلى حقه، وأن قوة الكنيسة غير قادرة على التصدي للرجس الذي يجتاح العالم. فقطعوا الأمل في الدنيا وما فيها، وانطوا على أنفسهم، وذهبوا للصحراء لعلهم بتعذيب الجسد وإذلال النفس

¹ - عمران، محمود سعيد: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية، دار المعرفة، 1998م، ص 100.

² - صبره، عفاف السيد: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، بيروت، دار النهضة العربية، 1982م، ص 13.

³ - ورث، ابن تشارلز: الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، 2003م، ص 212.

⁴ - دونالدز، دولي: حضارة روما، ت: فاروق فريد، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، ص 284.

بالمعيشة الانفرادية يستطيعون إعداد أنفسهم للنعيم في الآخرة. واتخذوا المغاور والكهوف أماكن سكنهم وعاشوا حياة كلها تكشف، حفاة، شبه عراة أو لبسوا الخشن من اللباس، وكان غذاؤهم النباتات والبقلات، وأخذ الناس يزورونهم لأخذ النصيحة¹. وهذا ما يسمى بالرهبانية الانعزالية التي كان أول ظهور لها في مصر، ثم انتقلت فيما بعد إلى آسيا الصغرى ثم سورية وبعد ذلك إلى الغرب.

أول ظهور للرهبانية والديرية المسيحية في مصر:

أجمعت المراجع على أن مصر هي البلد الأول الذي طبقت فيه المسيحية نظام العزلة والانقطاع للعبادة. وأولى الشخصيات التي عرف عنها واشتهرت بالرهبة والتسك هو القديس (أنطونيوس)، الذي عاش في مصر ما بين (250-356م). وتسك بشكل فردي، ثم انضم إليه ناس كثير، بنى لهم خلايا، ومع ذلك بقيت طريقة التعبد تتم بشكل فردي².

بعد القديس أنطونيوس مباشرة كان القديس (باخوميوس)، الذي عاش ما بين (292 - 348 م). وهو أيضاً راهب مصري له صيته وشهرته. ولد باخوميوس من أبوين وثنيين في طيبة بالصعيد. ودخل في شبابه سلك الجندية الرومانية وعاد بعد حرب قصيرة ليهتم بدراسة المسيحية التي اعتنقها سنة 314 م. وبعد فترة قصيرة من اعتناقه المسيحية قرّر أن يعيش في انعزال عن الناس فأقام في جزيرة على النيل حيث ترددت بعض الأخبار إنه بعد وقت طويل من الصيام والتأمل

¹ - حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، دمشق، دار الفكر، 1982م، ص71.

² - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص232.

والتفكير أثناء الليل وأطراف النهار ظهر له ملاك أوحى إليه بتعليمات لبناء دير .
فشيد أول الأديرة التي عرفت المسيحية بصعيد مصر عام (320م).

وضع قواعد صارمة للرهبانية يهتدي بها الرهبان طوال حياتهم، فعّد مؤسس
الديرية الاجتماعية (الجماعية). ولم يمض وقت طويل حتى دخل في نظامه آلاف
من النساك. وقد نسب إليه الناس المعجزات، وعدّوه قديساً. وقد اهتم باخوميوس
بأمرين هما: النظام والعمل المفيد للجميع. وأسست أخته مريم أول دير للراهبات¹.

انتقال الرهبانية والديرية إلى سورية وآسيا الصغرى

ظهرت الرهبانية في سوريا في مطلع القرن الرابع الميلادي، وكان أوائل
النساك: (سمعان العمودي)، الذي عاش ما بين (390 - 354 م)، واشتهر بأنه
أمضى الثلاثين عاماً الأخيرة من عمره جالساً على قمة عمود يرتفع عن الأرض
سبعين قدماً، وما زالت آثار الكنيسة في شمال سورية موجودة حتى الآن. وفي
وسط سورية كان هناك القديس (مارون)، الذي مارس طقوس التنسك الانفرادي
مثل أنطونيوس وسمعان العمودي². وفي وسط آسيا الصغرى، في مدينة كيسارية،
لمع اسم القديس (باسيليوس) (329 - 379م)، وهو بذلك ظهر قبل نساك سوريا³.
وأسس مؤسسة ديرية قرب مدينته، ضمت دير ومشفى، ومدرسة لتعليم الصغار.

¹ - رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم، ج1، بيروت، دار المكشوف،
ط1، 1955م، ص108.

² - الدبس، يوسف: تاريخ سورية الديني والدنيوي، ج4، الإسكندرية، دار نظير عبود،
1994م، ص306.

³ - بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، ت: حسين مؤنس، محمود زايد، القاهرة، 1950م،
ص192.

وانتشرت أفكاره بسرعة فانضم إليه عدد كبير من الأتباع. وأصبح في نظمه وأفكاره حجر الزاوية في الديرة الشرقية. وأهم مبادئ نظامه:

1. منع الانفرادية والعزلة في التعبد أو الصلاة أو الطعام.
2. من واجب الرهبان الاشتراك بالعمل والعبادة.
3. حرّم تعذيب الجسد، وحثّ على العناية بالنظافة والعمل ومساعدة المرضى والفقراء.
4. وشجع الرهبان على القيام بأعمال الزراعة والصناعة.
5. منع على الرهبان أي نوع من الملكية الخاصة.
6. سمح باللباس البسيط النظيف، والطعام الكافي للجسم¹.

ويمكن القول، بأنّ باسيليوس هو المؤسس الرئيسي للحياة الديرية، لذلك انتشرت مبادئه واستمرت لسنين طويلة. وكان قد عاش في ظل الإمبراطورية البيزنطية في القرن الرابع الميلادي وقد ترك مباحج الدنيا تحت تأثير أخته (ماكرينا)، وأدرك بثاقب بصره إنه لكي يتفهم ويتعرف أسرار الرهبانية في أعماقها كان يجب عليه أن يعيش في المناطق والأماكن التي ظهرت وترعرعت وانتشرت فيها الديانة المسيحية منذ البداية.

واعتماداً على ذلك فقد اتجه نحو مصر والشام وبلاد النهرين، ثم عاد إلى بلاده بعد اكتساب الخبرة عن المسيحية والديرية وأسرارها. وتزوّد بالإيمان والتقوى والورع وعلم الحياة الفردية والاجتماعية للرهبان بصورة واضحة. وقد فضل الحياة الاجتماعية الجماعية وذلك بعد أن أدخل تغييرات على قوانين باخوميوس. ومنها:

¹ - عاشور، سيد عبد الفتاح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 2001م، ص130.

تقليل عدد الرهبان بكل دير بحيث يتسنى لرئيس الدير معرفة رهبانه فرداً، فرداً، وإعطائهم التوجيهات والإرشادات اللازمة، والقيام بتنظيم حياة الرهبان بشكل دقيق، وتحديد ساعات الصلاة والدراسة والعمل والأكل والنوم، وتحديد نوع وشكل الملابس التي كان على الرهبان ارتداؤها¹.

الديرية والرهبانية في غرب أوروبا:

بدأت الديرية الغربية بالرهبة الفردية. ذلك أن انهيار عصب المجتمع الغربي إبان القرن الأخير من حياة الإمبراطورية الرومانية، شجّع بعض من تخلو عن إيمانهم بالحضارة دون أن يفقدوا إيمانهم بالله إلى البحث عما يخلص أرواحهم وينقيها ويصفيها بالإيمان عن طريق حياة الزهد والتقشف في الكهوف والأماكن الموحشة. وفي معظم الأحيان ذاع صيت هؤلاء الرجال باعتبارهم قديسين صانعي معجزات. فقد وضعت رفات القديس (مارتن)، أحد أولئك النساك اللاتين في مدينة تور، التي صارت مزاراً شعبياً شهيراً، مما أثر بشكل إيجابي على نمو وازدياد ثروة هذه الأسقفية.

التنسك الانفرادي في الغرب كان قليلاً إذا ما قورن فيما كان عليه في الشرق، حيث حلت محله أنماط جديدة من الديرية الجماعية في القرن الخامس والسادس الميلاديين. ويمكننا إرجاع ذلك إلى أسباب مناخية من جهة، وأسباب اجتماعية من جهة أخرى. فمحاولة أي شخص كي يصبح ناسكاً في ظل المناخ البارد في شمال أوروبا كانت مختلفة تماماً عن الحياة المنفردة في مصر، واجتماعياً نعلم بأن التنسك والتقشف الفردي المتطرف لا يظهر إلا بوجود المجتمع الحضري الثري، ولم يكن هناك ما يبرر ذلك لأنه من المعروف عن أوروبا في

¹ - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص130.

الفترة الأولى من العصور الوسطى، عدم قدرة الفرد على تأمين لقمة عيشه وحاجته من الطعام. ولم يتسن للتسكك الانفرادي أن يظهر ويبدو قوياً إلا عندما وجد المجتمع الحضري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، حيث كانت الديرية الشرقية تمر بعلاقتها المتينة بالنظام الجماعي.

المسيحية في القرون الثلاثة الأولى انتشرت بين سكان المدن، أما الأرياف فقد ظلت في معظمها وثنية لأسباب لسنا في صدد دراستها الآن. فقلة الثقافة والنشأة المتواضعة والرضوخ للملاك الأكبر كان صفة مميزة لكاهن الريف، أما الأسقف في المدينة فكان مشغولاً منهمكاً في أعماله الكثيرة¹.

الديرية والرهبانية في غالبا

وتشابهت الديرية في غرب أوروبا في بعض جوانبها مع الكيان الفضفاض للآديرة الشرقية. تطورت وازدهرت حياة الزهد المشتركة في غالبا في القرن الخامس الميلادي، وخير مثال لذلك، الدير الذي أسسه (يوحنا كآسيان) في مرسيليا، دير القديس فيكتور للرجال ودير القديس مخلص للنساء عام (418م)، كان شبيهاً بالديرية المصرية، وعدّ تطويراً في النظام الديرية الغربي. يظهر ذلك من خلال كتابه "المقارنات"، الذي يتضمن مجارته لأباء الصحراء المصرية الذين كانوا يتمتعون بقدسية كبيرة، وهذا ما جعل الكتاب واسع الانتشار.

¹ - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 138.

وأسس القديس (مارتن التوري)، أسقف تور عام (472 م) دير مار موتيه قرب مدينة تور، جمع فيه حوالي ثمانين راهباً، وجلب كثيراً من الوثنيين إلى المسيحية¹.

والقديس (قيصر الآرلي)، أسقف آرل (503-543 م)، أسس ديراً للراهبان في المدينة، وأسست أخته قيصرية ديراً للراهبات. واتصفت هذه الأديرة بالعمل والإنتاج، حيث عمل قاطنوها بغزل الصوف، وطهي الطعام لأنفسهم وللمحتاجين، ونسخ الكتب الدينية. وأخذت الأديرة بالانتشار الكبير بسبب مساهمة ملوك الفرنجة والأساقفة والأمراء في إنشائها.

الديرية والرهبانية في إيطاليا

ظهرت الحركة الديرية في إيطاليا في القرن السادس الميلادي ليكون البلد الذي تلا غالباً في حركة الأديرة. اشتهر هناك القديس (بندكت)، الذي كان من نبلاء الرومان، وتلقى قدراً كبيراً من التعليم، إلا أنه ابتعد عن الناس وغدا راهباً متقشفاً في أحد الكهوف وسط إيطاليا بالقرب من روما، حيث اجتمع حوله أعداد كبيرة من المنتسكين وأسس ديراً قدر له أن يصبح أعظم وأشهر أديرة الغرب وهو دير مونت كاسينو أي (جبل كاسينو)، بين مدينتي روما ونابولي. وكان قد أسسه على أنقاض معبد (الإله أبولو) الروماني عام (520 م)، ويعتبر أول دير إيطالي². كما وضع نظامه الخاص بأديرته عام (529 م)، والذي عرف باسمه، ويضم قائمة طويلة من القواعد العملية، التي طبقت بالأديرة البندكتية.

¹ - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص134.

² - عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص136.

قواعد الأديرة البندكتية

أ. يجب أن يتخلى كل راهب بالدير عن أملاكه للفقراء أو لصالح الدير المقيم فيه.

ب. إطاعة رئيس الدير بشكل كامل.

ج. الطهارة التامة وعدم الزواج على الإطلاق.

د. التعاون في العمل.

هـ. المساواة بين جميع المتواجدين في الدير، والبساطة والتواضع.

و. انتخاب رئيس الدير إلى مدى الحياة.

ز. الرئيس هو المسؤول الأول عن الدير، وعن الموجودين فيه.

ح. من واجب رئيس الدير استشارة الرهبان حتى لا يبدو بأنه ديكتاتوري.

ط. المشاركة الجماعية في الصلاة والتراتيل وقراءة الكتب المقدسة.

ي. قال بندكت: "العمل عبادة". يعملون يومياً ست ساعات بالأرض. كل حسب عمره، كبار السن يعملون بإعداد الطعام أو نسخ الكتب الدينية أو تعليم الرهبان والأطفال.

ك. الإقامة بالدير، والعطلة الأسبوعية عن العمل اليومي يوم الأحد.

ل. تقسيم أوقات اليوم: أربع ساعات للصلاة الجماعية، وأربع ساعات

للصلاة الفردية، وست ساعات للعمل، وعشر ساعات للأكل والنوم (الراحة)¹.

على ما يبدو نظام بندكت كان له أثر عظيم على عدد كبير من الشخصيات التاريخية البارزة وخاصة في العصور الوسطى، وأثبتت هذه القواعد بأنها مناسبة وملائمة للعقلية الأوروبية، والمناخ الغربي القاري، وطريقة الحياة

¹ - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص 109.

هناك، لذلك هيمنت وسادت لفترة طويلة، إلا أنها ما لبثت أن تدهورت مع مرور الزمن، بسبب تدفق الثروة من الأملاك الموقوفة على الأديرة والتابعة لها، فأندرت بوجود إصلاح جديد.

أما الرجل الثاني بعد بندكت في إيطاليا فقد كان (كاسيدور)، الذي كان له الأثر الكبير في الحركة الديرية في إيطاليا، وقد اعتزل عن خدمة الملكية القوطية، وانقطع للرهبة وأسس ديرين في كالابريا عام (54م). وحول الدير إلى مدرسة للعلم والمعرفة للعلوم الدينية والديوية. وغصت أديرته بمكتبات احتوت على أعداد كبيرة من المخطوطات في الأدب والجغرافية والتاريخ وغيرها، وبهذا العمل ظهرت الأديرة كمراكز أساسية للحياة العلمية في العصور الوسطى¹.

البابا غريغوري الأول، ودوره الأساسي في تطوّر الأديرة- العصور الوسطى

ينتمي البابا غريغوري الأول إلى عائلة غنية أرستقراطية، وقد تمسك بالحياة الدينية. وزهد وانعزل وبذل ثروته من أجل أعمال وتطوير الأديرة وأصبح راهباً فيما بعد، فزادت مساهمته، وبنى الأديرة بكثرة، ومنها ستة في صقلية وديراً في روما، ونتيجة للأعمال التي كان لها الأثر الأكبر في تطور الأديرة، فقد توج بابا على روما (590 م- 610م)². وقدم الدعم الكامل للأديرة البندكتية، وكان له دور بارز في نشر المسيحية في إنكلترا. حيث بعث بالقديس (أوغسطين) عام (596م)

¹ - نورمان، ف كائنور: التاريخ الوسيط، قصة الحضارة البداية والنهاية، ت: قاسم، قاسم

عبد، ج1، القاهرة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية، ط5، 1997م، ص223.

² - عبد الحميد، رأفت: بيزنطة بين الفكر والسياسة، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، 1997م، ص73.

إلى هناك وبرفقتة تسعة وثلاثون راهباً، استطاعت نشر المسيحية في إنكلترا، مستغلاً زواج ملكها من أميرة فرنجية مسيحية. ونجحوا ببناء دير (كانتربروري)، وأقنعوا أثليبرت ملك كنت، باعتناق المسيحية، ودخل معه الكثيرون، وعمل هذا الملك على تقديم الهدايا والأراضي للكنائس والأديرة.

بالرغم من فترة بابويته القصيرة، إلا أنها تعد من أهم نقاط التحول في تاريخ كنيسة العصور الوسطى. وأهمية البابا غريغوري الأول تعود إلى أنه أسس منهجاً اعتمدت عليه البابوية طوال القرنين السابع والثامن الميلاديين¹. وأدرك البابا أن مصير البابوية التاريخي يجب أن يتقرر في غرب أوروبا. وأن السبيل إلى بسط سيطرة البابوية على المجتمع الأوروبي لا يتم إلا بتحالفها مع النظم الديرية، والمملكة الفرنجية. حتى إنه أرسى دعائم السياسة، التي سار عليها حلفاؤه في كفاحهم لحل المشكلات التي جابهت الكنيسة. وحدد في كتابه (العناية بالرعية)، واجبات رجال الكنيسة من رفاقه، إلا أن رجال الكنيسة من بعده لم يسيروا على نهجه، ولم يطبقوا بشكل دقيق تلك الواجبات، فتحوّلت تلك القواعد إلى بيان تعريفي بطبيعة الوظيفة الكنسية في القرون التالية. لكن ما يميزه أنه أيقن بأن أوروبا ليست مسألة جغرافية فقط، لكنها حضارة متميزة، وسترتبط بالمسيحية اللاتينية التي ربطت البابوية نفسها بمصيرها ربطاً مطلقاً².

حركة الإصلاح الكلونية

في أواخر القرن التاسع الميلادي تدهورت وانحطت الأديرة البندكتية بسبب تحكم العلمانيين بشؤونها، وتدخل الإقطاعيين بأملها، فظهرت الحركة الكلونية

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 239.

² - نورمان: التاريخ الوسيط، ج 1، ص 230.

التي كانت بندكتية في روحها ونظامها¹. ظهرت كردة فعل وعملت على القيام بإصلاح شامل وسريع للمشكلات وعيوب الحياة الديرية آنذاك. بدأت هذه الحركة في غاليا وتمثلت في دير كلوني، الذي أسسه وليم التقي بالقرب من منطقة أقطانيا سنة (910م)².

الأديرة الكلونية قلّدت بعض القواعد المثبّعة في الأديرة البندكتية، وأضافت بعض القواعد الجديدة: القواعد التي قلّدتها، هي:

- 1- تخلي الرهبان عن ثروتهم وأموالهم لصالح الفقراء أو الدير.
- 2- الخضوع لرئيس الدير.
- 3- الإسهام في أعمال البرّ والإحسان وتوزيع الصدقات.
- 4- الإقامة الجبرية في الدير.
- 5- قضاء ساعات اليوم في الصلاة والعمل.
- 6- منع الرهبان من الزواج.

أما القواعد الجديدة التي أضافها، فهي:

- 1- تحرّر الدير من كل سلطة علمانية.
- 2- تحرّر الدير من سلطة الأسقف الروحية.
- 3- ارتباط رئاسة دير كلوني بالبابا مباشرة.

¹ - هليستر، ورن: أوروبا في العصور الوسطى. ت: محمد فتحي. مصر، مكتبة الأنجلوا المصرية، ص228.

² - ديفز، ه. كارلنس: أوروبا في العصور الوسطى، ت: عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط1، 1958م، ص130.

4- خضوع جميع الأديرة الكلونية إلى نظام مركزي يرأسه أب يكون مركزه في كلوني، وله مطلق السلطة على تلك الأديرة¹.

إلا أن ما يؤخذ على الكلونيين هو أنهم قلّدوا أكثر مما جدّدوا. حيث إنهم اعتمدوا كثيراً على المبادئ الباخومية في مسألة الحياة الاجتماعية. وعلى المبادئ البندكتية في مسألة الأمور التنظيمية، لذلك أدخلت على هذه الحركة تعديلات عدة في إنكلترا. مع كل هذه السلبيات فإنّ رهبان كلوني تميزوا باعتنائهم بالزراعة والأعمال اليدوية والعلوم المختلفة، مما أعطاهم حيزاً من الإيجابية، ومن ثم الدولية بعد أن تسربت إلى خارج فرنسا وأخذت بترويج لمبادئها القائمة على إصلاح الكنيسة وتطهيرها. وفعلاً نجحت الحركة الكلونية في المساهمة بتطوير الحياة الديرية بفضل الشخصيات البارعة والقوية التي تولت رئاسة دير كلوني، وقيام الرهبان الكلونيين بلعب دورهم على أكمل وجه في إثارة الحماسة، وتشجيع الحرب ضد المسلمين في أسبانيا، وتشجيع حركة الحج إلى الأراضي المقدسة. أثناء حكم الموحدين قام (بطرس الجليل) رئيس (دير كلوني)، بزيارة الأندلس في مهمة دينية، لدراسة طبيعة الصراع مع المسلمين، وأمر أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية لفهمه ومحاربتهم من خلاله بالمنطق².

وبالرغم من هذه النجاحات والإسهامات إلا أنها كغيرها من الأديرة تسرّب إليها الغنى والفساد، حيث أخذ رهبان الأديرة الكلونية يعيشون في نعيم وترف

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 242.

² - السامرائي، خليل إبراهيم، وطه، عبد الواحد ذنون، ومطلوب، ناطق صالح: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 2004م، ص 480.

ويسرفون في تناول الطعام والشراب الفاخر وارتداء الملابس الباهظة الثمن، وساد الكسل والراحة التي كانت من أهم عوامل الانحلال، والمركزية كانت أقوى هذه العوامل، عندما يكون إشراف رئيس دير كلوني على جميع الأديرة، فانحراف الرئيس يعني انحراف الجميع.

ومن هنا بدأ الانحلال يسري في الأديرة الكلونية واحدة تلو الأخرى مما دفع رجال الإصلاح إلى البحث عن نظام أكثر بساطة من الأنظمة السائدة في الأديرة الكلونية، فظهرت أنظمة جديدة، منها نظام الكامالدولي نسبة إلى رسم الجبل المنعزل الذي يقع في إقليم فلورنسة بإيطاليا، وقد اعترف البابا إسكندر الثاني (1061-1073م) بهذا النظام رسمياً في عام (1072م). وكان من مميزات هذا النظام هو أن يعيش الرهبان حياة النسك في مناطق وأماكن مختلفة ومنفصلة حيث يتفرغون للتأمل والتفكير ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة المشتركة. ونظام الكارثوسيان الذي ظهر في القرن الحادي عشر أيضاً، ويرجع في تأسيسه إلى برونزو، وهو من أصل ألماني. وتتميز هذا النظام بالصرامة والتطرف في حياة الزهد، والانصراف إلى التأمل والعبادة¹.

نظام السترشيان الديري

تميز هذا النظام بأنه أخذ طريق الوسط بين الاستقلال المحلي المتمثل بالأديرة البندكتية، والمركزية المطلقة المتمثلة بالأديرة الكلونية. وكان دير سينو أول دير على نظام السترشيان والذي كان موجوداً في برجنديا في فرنسا، وأسسه جماعة من الرهبان البندكتيين عام (1098م)، وأصبح هذا الدير بمثابة الرئيس الأعلى في المنظمة الديرية الجديدة. التي من مهامها، القيام بنفقد وتفتيش الأديرة

¹ - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص106.

عند زيارتها، ورؤساء أديرة سترشيان هم وحدهم من يحق له زيارة الدير الأم سيتو، وتنفذ أحواله، حيث كان يعقد مجعاً دينياً سنوياً فيه. وكان كل دير من الأديرة السترشيان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالدير الذي تفرع عنه فقط دون غيره¹.

وكان لهذا النظام الدور الكبير في نمو وانتشار السترشيان في جميع أنحاء غرب أوروبا، بفضل اعتداله ووسطيته من جهة، وجهود واهتمام القديس برنارد من جهة أخرى، الذي أضفى أعظم شخصية في أواخر أيامه في أوروبا، وكان يرتبط بعلاقة صداقة متينة مع البابا أربان الثالث (1088-1099م)، وأصبح مستشاراً له. وأهم ما قدمه برنارد لنظام السترشيان هو تمتع الحياة الديرية في عهده بالبساطة المطلقة.

وكان للربان السترشيان دور كبير في نمو وتطور الحياة الاقتصادية في أوروبا، والذي تمثل في استصلاح الأراضي البور وفلاحتها، والاهتمام بتربية الخيول والمواشي، الأمر الذي يدل على بساطة الحياة في أديرة السترشيان، خاصة وأن معظم هذه الأديرة كانت تنشأ بعيدة وخارج المدن، وضمن الغابات التي قطعت وتحولت إلى أراض زراعية. كما تمتع رهبان هذا النظام بالعمل الزراعي بأيديهم، وكان الهدف المركزي من نظام السترشيان هو فقر وإماتة، أي إذلال النفس والجسد، وإماتة الغرائز. إلا أن هذا النظام ما لبث أن سار نحو الترف وجمع الثروة، فدخلت إليه عوامل الفساد والبطالة والكسل إلى أن انتهى بالانحلال والزوال².

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى. ص244.

² - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى. ص108.

الديرية والرهبانية في أوروبا أواخر العصور الوسطى:

في القرن الثاني عشر الميلادي أصبح مقدم الدير عضواً أساسياً وبارزاً في أرستقراطية النظام الإقطاعي، ويمكن أن نسميه السيد الإقطاعي بكل معنى الكلمة. فقد تمتع رؤساء الأديرة بمكانة وحظوة كبيرة في مختلف ممالك أوروبا الغربية التي ترعرعت فيها أديرتهم. وغدا الملوك هم من يتحكمون بتعيين رؤساء الأديرة وعزلهم، فدخلت السلطة الزمنية والدينية في صراع وتنافس بسبب مسألة التعيين والعزل، فعند تعيين مقدم الأديرة الكبيرة كان يشترك ديره في الحياة السياسية للدولة، وعند إسهامه بشكل إيجابي بهذه السياسة كان يحظى بعناية الملك ويمكن أن يصبح أحد مستشاريه، ومن هنا يزداد النفوذ الديري في السياسة الزمنية.

ومع مرور الزمن أخذ رؤساء الأديرة يتحولون إلى شخصيات سياسية غير مهتمين بالمثل والمبادئ الديرية، مما قاد إلى تسلل الفساد إلى الحياة الديرية بأكملها في أواخر العصور الوسطى. وبعد أن ازدادت ثروة الأديرة وأراضيها أصبح الرهبان يتمتعون بمركز اجتماعي متطور حيث قسمت الأراضي بين مقدم الدير والرهبان، فأصبحت الأرستقراطية صفة مميزة لهم، وبمعنى آخر تحول الدير إلى كبار إقطاعيين بفعل الغنى الفاحش، مما أثار استياء الكثير من المسيحيين المخلصين الذين لاحظوا ابتعاد رجال الدين عن تعاليم الكنيسة المسيحية وبساطتها الأولى، فحاولوا البحث عن مخرج وذلك بقيادة الإصلاح المناسب، فظهرت مذاهب متعددة نادت بالإصلاح¹.

¹ - عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص40.

المذاهب الهرطقية

ظهرت هذه المذاهب نتيجة لخروج رجال الدين عن تعاليم ومبادئ المسيحية، ومخالفتهم لبساطتها الأولى. وقد انتشرت هذه المذاهب التي لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي، في المدن الناشئة في جنوب أوروبا. حيث ظهر أساقفة هذه المدن كمستبدين سياسيين وأعداء ومناهضين للكنيسة الكاثوليكية، ومتناسين واجبه الروحي كمرشدين. وقد ظهرت الكنيسة غير قادرة على فهم مشاكل وطموحات سكان المدن وغير آبهة بإحساسهم أو بتفكيرهم.

من هذه المذاهب الدينية الهرطقية، مذهب (الألبيجنيين) نسبة إلى مدينة ألبى حيث تمتعوا بالقوة والشهرة¹. ظهر هذا المذهب نتيجة لتزايد ثروة الكنيسة وسلطتها، وقدموا نظرية لاهوتية دخيلة مستمدة من الثنائية الفارسية. واعترف هؤلاء بإله الخير الذي يحكم عالم الروح وإله الشر الذي يحكم عالم المادة.

وأكد مذهب (الألبيجنيين) على الرفض الشديد لكل الأمور المادية مثل الشهوات الجسدية والثروة والزواج. وانتشرت مبادئه بشكل كبير عند بداية القرن الثالث عشر، وبرزت كشوكة في حلق الكنيسة وسلطتها وهددت وحدة العالم المسيحي، لذلك دعا البابا أنوسنت الثالث (1198-1216م)، إلى حملة صليبية سنة (1208 م) ضد الألبيجيين، وكانت أول حملة صليبية في أوروبا، واتصفت بالوحشية والشراسة وانتهت بالقضاء على هذا المذهب².

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص246.

² - هلستر، ورن: أوروبا في العصور الوسطى، ت: محمد فتحي الشاعر، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ص234.

ومن المذاهب الهرطقية أيضاً مذهب السباطين: الذي ظهر في القرن الرابع عشر ميلادي، والسبب في ظهوره هو معاناة أوروبا من وباء الطاعون الذي استمر لمدة أربعة أعوام (1347 م-1351م)، وانتهى هذا الطاعون بعد أن حصد ربع البشرية في ذلك الوقت. ومن أسباب ظهوره أيضاً الأسر البابوي (1305م-1377م)، والمرحلة الأولى من حرب المائة العام بين فرنسا وإنكلترا (1317م-1453م)، حيث أيقن رجال هذا المذهب بأن الوصول إلى النجاة لا يتم إلا بتعذيب الجسد وضربه بالسياط لمدة (33 يوماً)، فما كان من البابوية إلا محاربة هذا المذهب والقضاء عليه¹.

منظمتا الفرنسيسكان والدومينيكان:

ظهرت هاتان المنظمتان في العقود الأولى للقرن الثالث عشر، ونذر رهبان هاتين المنظمتين حياتهم للفقر والتبشير والأعمال الخيرية. واختاروا المدن كمركز أساسي للعمل الديني، الذي نذروا أنفسهم للعمل من أجله، وحاولوا الخروج من المعضلة المتناقضة، التي وقع بفخها كل من سبقهم من الرهبان، وهي: التعهد بأن يعيشوا حياة الفقر، ومع مرور الوقت يجمعون الثروات الطائلة المفسدة للحياة. فإن رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أخذوا على أنفسهم بأن يكونوا دائماً فقراء، ولهذا فقد أطلق عليهم اسم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات.

-منظمة الدومينيكان: أسسها القديس دومينيك الأسباني في جنوب فرنسا، الذي حاول إقناع أتباعه القاطنين جنوب فرنسا وشمال أسبانيا بالعودة إلى داخل حظيرة الكنيسة الغربية، واتباع طريقة الوعظ والتبشير، والأخذ ببساطة المأكّل

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 247.

والملبس كما كان عليه السيد المسيح. واعترف البابا هونوريوس الثالث (1216-1227م)، بها كمنظمة رسمية سنة (1216م).

-منظمة الفرنسيسكان: أسسها القديس (فرنسيس)، الذي حاول أن يقتدي مع أتباعه بالسيد المسيح في بساطته، فتركوا متاع الدنيا وأخذوا ينتقلون من مكان لآخر في أوروبا مبشرين بتعاليم الإنجيل. وبعد فترة ليست بطويلة استطاعت هذه الحركة أن تحظى بعطف الكثيرين، الذين انضموا إليها مباشرة، وتكلفت مساعيها بالنجاح بعد اعتراف البابا هونوريوس الثالث بها سنة (1223م)¹.

لكن بعد أن ازداد نفوذ هذه الأديرة وتشتعت مؤسساتها، عادوا وسقطوا بالفخ الذي وقع به إسلامفهم، وهو التخلي عن المبادئ الأولى في الفقر والتقشف، والأخذ بحياة الترف والبدخ. لكن ما يغفر لها هو أنها أدت دوراً جديداً في الحياة الأوروبية وأواخر العصور الوسطى، تمثل بالنشاط الفكري الذي قاد إلى إنشاء الجامعات ونشر المسيحية في آسيا، خاصة بين المغول، وإرسالهم مبشرين إلى المناطق الجديدة التي اكتشفها الأوروبيون حديثاً أثناء الكشوف الجغرافية في الغرب والشرق².

وبسبب ذلك ظهرت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حركات إصلاح شبه وثنية تزعمها الإنكليزي حنا ويكلف (1328 م - 1383 م). درس في جامعة أكسفورد وطالب بتوزيع أراضي الكنيسة على الناس. وكان لهذه الأفكار السبب الرئيسي وراء طلب البابا غريغوري الحادي عشر من ملك إنكلترا إدوارد بإلقاء القبض عليه وسجنه. وفيما بعد تم طرده مع أنصاره، فاتخذ من إحدى القرى

¹ - عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج2، ص42.

² - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ص121.

مركزاً للاعتزال. ومن أهم آثار حنا ويكلف هي ترجمته للإنجيل مع أنصاره من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنكليزية. ورأى بوجوب اعتماد الإنجيل كأسلوب في الحياة، وقد حاربت الكنيسة آرائه بشدة¹.

سلبيات ومساوئ الديرية، والرهبانية

أجمع الكثير من الباحثين على وجود ثغرات كثيرة وكبيرة في الحياة الديرية، منها:

أ. الأنانية: حيث يسعى كل راهب إلى تخليص نفسه فقط، ولا يعبئ بمصير الآخرين.

ب. الهروب من الحياة: يهجر الراهب العالم ويعتكف بديره هرباً من مواجهة صعاب الحياة، دون أن يجهد نفسه على تقويم ما في الحياة من انحراف.

ج. تفكك الأسرة: لأسباب مختلفة دنيوية أو دينية يترك الدير يون آباءهم أو أزواجهم أو أبناءهم ويلجؤوا إلى الأديرة.

د. شلل لمرافق الحياة: عندما يهجر الكثيرون حقولهم ومصانعهم ومتاجرهم ووظائفهم لينخرطوا في سلك الديرية، كثير من مرافق الحياة تتوقف.

هـ. تضرر بالحكومات عسكرياً ومادياً: التحاق أعداد كبيرة من الشباب بالحياة الديرية، يفقد الحكومات قسماً من الطاقة البشرية الصالحة للخدمة

العسكرية، ومبلغاً كبيراً من المال، لأن الرهبان لا يدفعون الضرائب.

و. تضرر بالمجتمع عددياً: أدى التزام الرهبان والراهبات بالأديرة بحياة العزوبية إلى نقص كبير في عدد أفراد المجتمع.

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 250.

ز. اضطهاد الوثنيين، وتدمير علومهم: خلال العصور الوسطى فاق الرهبان غيرهم من المسيحيين في شدة تعصبهم ضد الوثنيين، فعملوا على تدمير التراث الحضاري الكلاسيكي وغيره، المرتبط بالوثنية، كتدمير المعابد، وحرق الكتب، وسفك دماء رجال الفكر الوثنيين¹.

إيجابيات الديرية والرهبانية:

كان للأديرة دور إيجابي على كثير من الأصعدة في المجتمع الأوروبي_ العصور الوسطى وما زال:

1. دور الأديرة في الحياة الدينية:

ساعدت الأديرة الأباطرة والملوك والأمراء بنشر الديانة المسيحية في المجتمعات الوثنية. على سبيل المثال: الرهبان البندكتيون نشروا المسيحية في إنكلترا الوثنية. ورهبان الأديرة الكلتية-الإيرلندية بشرّوا بالمسيحية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وكان الرهبان يلاقون النجاح الكبير في نشر المسيحية عندما يجدون الدعم من السلطات الزمنية والبابوات².

2. دور الأديرة في الحياة الثقافية:

كانت الأديرة في أوروبا_ العصور الوسطى مراكز للثقافة والتعليم ونسخ الكتب. وكانت بمثابة مدارس لتعليم الكبار والصغار العلوم المختلفة الدينية والدينيوية، دون تفريق بالأجناس والجنسيات، في الوقت الذي كانت فيه الفوضى

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص252.

² - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص253.

وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي تعمّ الدول الأوروبية لمئات السنين خارج الأديرة، نقل الرهبان التراث الحضاري عبر الأجيال، وحفظوا التراث من الضياع. وكان يوجد في كل دير مكتبة لحفظ المخطوطات، ومكان آمن للدرس والكتابة. وكانت الأديرة الإيرلندية مركزاً للعلوم الكلاسيكية والمعارف اليونانية وبفضلها تسربت العلوم إلى أوروبا الغربية، والتي أدّت فيما بعد إلى النهضة الكارولنجية¹.

وبقيت الأديرة تلعب هذا الدور حتى ظهور الجامعات في القرن الثاني عشر الميلادي، التي حملت لواء العلم والمعرفة بعد ذلك. حتى إن برامج الأديرة التعليمية طبقت بالجامعات فيما بعد وفي المدة الزمنية بين (600-1100م) كان هناك 90% من المتعلمين قد تخرجوا من المدارس الديرية.

3. دور الأديرة في الحياة الاقتصادية:

أدت الأديرة دوراً كبيراً في عملية الإنتاج الزراعي، الصناعي، التجاري، وتربية الحيوانات، لأنها دائماً كانت تمتلك مساحات واسعة من الأراضي وورشاً صناعية، خاصة بعد أن منح الملوك الغربيون للأديرة والمؤسسات الدينية لكثير من الإعفاءات والامتيازات ومنها امتلاك نسبة كبيرة من الأراضي الزراعية ازدادت ثروتها وعظم شأنها². بالإضافة لذلك كانت تستصلح الأراضي وتحولها من أراض بعلية أو مستنقعية أو مشجرة إلى أراض زراعية. واستخدموا التقاليد الرومانية القديمة المتعلقة بالزراعة، حتى إنهم حافظوا على المخطوطات الرومانية القديمة التي تخص الزراعة. وبسبب كثرة أراضيهم، وسعة علمهم في الزراعة أصبحوا أكثر الملاكين في العصور الوسطى خبرة. وأضافوا

¹ - عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص37.

² - عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص38.

على العمل مكانة معنوية واجتماعية حيث قال القديس "بندكت" مؤسس الأديرة البندكتية: "العمل عبادة، والكسل عدو الروح"¹.

4. دور الأديرة في الحياة الاجتماعية:

الأديرة أدت دوراً إيجابياً هاماً في الحياة الاجتماعية ومازالت. خففت مآسي الفقراء والمساكين، ودعمتهم معنوياً ومادياً، ووزعت الصدقات على المحتاجين، وقدمت المساعدات الغذائية والطبية للأسر المحتاجة، حتى غدت هذه الأديرة مركزاً صحياً لفقراء أوروبا ومرضاها، وملجأً للفارين من الظلم والفقر، ولقنتهم شتى أنواع العلوم والمعرفة². وكل من لجأ إلى الدير كان يجد المواساة والعطف والإحسان. ومازال الرهبان والراهبات حتى الآن يؤدون هذه الأعمال في العالم: خدمة المرضى في المستشفيات، ومساعدة الفقراء، وتعليم الصغار القراءة.

البابوية والكنيسة الأوروبية الغربية

نشأة البابوية:

عندما تحولت الكنيسة إلى مؤسسة غنية، تحولت من منظمة ديموقراطية إلى إدارة بيروقراطية مركزية. في الشرق كانت معظم الأحيان الكنيسة تابعة للإمبراطور أو للدولة، حيث يحق للدولة التدخل بشؤون الكنيسة، لذلك عندما كان يظهر هرطقة دينية أو انشقاق ديني، أو مذهب لا توافق عليه الكنيسة، كان الإمبراطور يتدخل ويدعو إلى مجمع كنسي مسكوني ويساعد الكنيسة في الوصول إلى حل لمشاكلها.

¹ - هليستر، ورن: أوروبا في العصور الوسطى. ص229.

² - عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى. ص104.

يمكن القول بأن الكنيسة كانت تعتمد على الدولة، وبنفس الوقت تدعم الدولة بحروبها، وتشجع الناس وترفع معنوياتهم للذهاب إلى حروب صعبة أو بعيدة. وكثير من الأحيان كان يقع صراعات بين رأس الكنيسة والإمبراطور. أما بالنسبة إلى كنيسة روما البابوية، فلم تخضع لا للكنائس الأخرى ولا للإمبراطور، بل ادعت لنفسها الزعامة على كل الكنائس الموجودة في العالم.

- ما هي العوامل التي ساعدت على بروز زعامة البابوية على بقية بطركيات العالم المسيحي؟

1. أهمية البطريرك تأتي من أهمية المدينة السياسية والاقتصادية والتاريخية، وهو ما حصل مع البابا.
2. ارتبطت أهمية مدينة روما بذكرى تلميذ المسيح "بطرس" مؤسس أول كنيسة هناك، والرسول "بولس". واحتوائها على رفاتهما.
3. كانت كنيسة روما دائماً مرجعاً للأساقفة، والكنائس المختلفة فيما بينها، للبت والقطع بالأحكام القضائية، كما حصل أثناء الخلافات بين أنثاسيوس وأريوس.
- 4- قبل سقوط روما عام(476م) بيد البرابرة الجرمان، كان أباطرتها دائماً يدعمون البابا في مواقفه، دون أن يحاولوا إخضاعه. وبعد سقوطها تدعم موقف البابا أكثر، الذي أخذ يحكم مكان الإمبراطور دينياً وسياسياً، حيث بقيوما تبع له من الأساقفة يديرون المدن، ويحمون روما من هجمات الأعداء كاللومبارديين ... الخ.
- 5- عندما خيم الجهل والتخلف والامية في الغرب، بقيت البابوية، ورجال الدين التابعين لها، هم الطبقة المثقفة المنيرة في غياهب الظلام، وحافظت على التراث الفكري، ونشرت العلم الديني والدنيوي.

6- تَرَبَّعت شخصيات قوية على الكرسي البابوي، حققت سيادتها السياسية والدينية، حتى أصبح البابا يلقب بأمير الأمراء وبملك الملوك.

8- بعد أن انتقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية عام (330م) أُعطي للبابا إمكانية الاستقلالية، وعدم التبعية للإمبراطور أو للدولة.

9- الخلافات الكبيرة والكثيرة بين كنائس الشرق، القسطنطينية من جهة، وبقية الكنائس الأخرى من جهة ثانية، دفعتهم للتقرب من البابوية، أما لحل مشاكلهم، أو للوقوف مع جهة ضد أخرى.

10- موقف البابوية الثابت المعادي لسياسة منع تقديس الأيقونات، وانتصار هذا الموقف في نهاية المطاف حتى في بيزنطة والشرق دعم موقف البابوية، وجعلها المنتصرة بنظر الجميع.

11- ممتلكات البابوية الواسعة أعطت البابا استقلالاً سياسياً، دينياً واقتصادياً، لا مثيل له، مما دفعه إلى امتلاك جيش قوي يدافع فيه عن مصالح البابوية.

موظفوا البابوية، وإداراتها:

كان بلاط البابا أشبه ما يكون ببلاط الأمراء والملوك، لا بل وأعظم، حتى كان يلقب البابا بالحبر الأعظم أو أمير الأمراء أو ملك الملوك. وكان بلاطه مركزاً لجهاز حكومي مشكل من عدة موظفين وإدارات، هي:

1. المندوبون البابويون: البابا يرسل المندوبين عنه لحضور اجتماعات أو مجامع دينية أو مؤتمر أو محكمة، أو للنظر في قضايا دينية أو سياسية، أو لعقد مجامع إقليمية، أو لحضور المجامع الكلية أو العامة - المسكونية.

2. **الديوان البابوي:** كل وثيقة أو رسالة تخرج من عند البابا، يجب أن تمر عبر الديوان، ثم تنسخ هناك نسختان، واحدة ترسل، والثانية يحتفظ بها في أرشيف البابوية.

3. **محكمة البابوية:** كانت في البداية محكمة بسيطة تنتظر بأمور الخلافات بين رجال الدين في البابوية، ثم تطورت مع الزمان كثيراً، وأصبحت تنتظر بكل أنواع القضايا في أوروبا الغربية، وحتى في العالم المسيحي ككل. وتنتظر بقضايا مستأنفة أو ليست لها حلول عند أصحابها (صعبة ومعقدة). ويوجد هناك فئة من القانونيين، يستشيرهم البابا وقت اللزوم.

4. **مراسيم البابوية:** كل مرسوم يوجه للأسقف أو لرجل دين آخر، يجب أن يوقع من البابا حتى يعتبر وثيقة أو مرسوماً رسمياً (بابوياً)، ويكون مختوماً بختمه، ويوجد هناك موظفون من أجل صياغة المراسيم، التي كانوا يكتبونها غالباً باللغة اللاتينية.

5. **الإدارة المالية، وخزينة البابوية:** إيرادات البابوية كثيرة جداً، ودخلها كبير، حتى إنه في بعض الفترات كان دخلها يعادل أو يزيد عن دخل معظم ملوك أوروبا مجتمعين.

- ما هي مصادر وإيرادات خزينة البابوية؟

1. ممتلكات البابوية الكثيرة في إيطاليا.
2. ممتلكات كنائس، وأديرة، وأمراء، وملوك، في كل أنحاء أوروبا، وضعت تحت حماية البابوية مقابل دفع أتاوات سنوية لها.
3. ضرائب سنوية من الأساقفة غير التابعين لرئيس أساقفة، بل يتبعون للبابا مباشرة.

4. بيع الوظائف الدينية (السيمونية)، التي تنتشر وتكثر أو تقل حسب الظروف السياسية السائدة.
5. التبرعات الكثيرة التي كانت تجمعها البابوية من دول أوروبا بحجة الحروب الصليبية الداخلية والخارجية، وبقيت تجمعها حتى بعد انتهاء هذه الحروب.
6. صكوك الغفران: التي انتشر بيعها من أيام الحروب الصليبية على الشرق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وبقيت حتى القرن السادس عشر، وأدت إلى قيام المذهب البروتستانتي كاحتجاج على المذهب الكاثوليكي. وكانت تباع حتى للمستقبل أو لغفران خطايا الموتى، وبالجمله.
7. الضرائب الإضافية، على سبيل المثال: فرض البابا "أنوسنت الثالث" (1198-1216م) ضريبة (1/40) من ممتلكات الأساقفة، تدفع للبابوية.
8. الهدايا: من الأمراء، الملوك، رجال الدين بكل مراتبهم، والناس العاديين والأغنياء.
9. المنح: من الأغنياء الذين يرغبون أن يعيشوا حياة التقشف، والذين يدخلون سلك الرهبنة.
10. المصادرات: من المطرودين، والمحكوم عليهم بالسجن أو النفي أو القتل، والمحرومين من الكنيسة، والمتهمين بالهرطقة، والذين يموتون دون وريث¹.

¹ - عاشور، سعيد عبد الفتاح: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1976م، ص 335-344.

- وضع البابوية أواخر العصور الوسطى:

بلغ نفوذ البابوية ذروته في القرن الثالث عشر الميلادي، خاصة في عهد البابا "أنوسنت الثالث" (1198-1216م). لكن البابوية تعرضت في القرن الرابع عشر إلى أزمات متتالية وكبيرة أفقدتها توازنها وهيمنتها.

ما هي أسباب أزمات البابوية في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر؟

هناك أسباب خارجية، وأسباب داخلية:

أولاً: الخارجية (التطورات التي طرأت على المجتمع الأوروبي في أواخر العصور الوسطى):

1. التطور الاقتصادي: عندما بدأ المجتمع الأوروبي بالانتقال من الإقطاعية الزراعية إلى البرجوازية التجارية - الصناعية المهتمة فقط بالأسواق والأرباح.

2. التطور العلمي: بدأ قيام الجامعات في أوروبا عامة، وفي إيطاليا وفرنسا وإنكلترا خاصة، وظهر معها الفكر العلماني المستقل عن الدين.

3. نمو وتطور الشعور القومي كبديل عن الشعور الديني: حيث بدأ اهتمام الشعوب بالأمة أكثر من اهتمامهم بالبابوية، وامتد هذا الشعور القومي إلى الكنائس، حيث أصبح انتماء واهتمام الناس بالكنيسة الوطنية لبلدهم أكثر من اهتمامهم بالكنيسة البابوية العالمية.

4. ظهور الملكيات القومية: بدأ اهتمام الملوك والأمراء والحكام بالمصالح القومية، ورفض تدخل البابوية في سياساتهم الداخلية والخارجية الزمنية والدينية.

ثانياً:الداخلية (انحلال البابوية ذاتها):

1. فشل البابوية نفسها في تطوير قوانينها.
2. اهتمام البابوية بالأمر السياسي أكثر من اهتمامها بالنواحي الروحية.
3. تسلط العائلات الأرستقراطية الغنية على المنصب البابوي في كثير من الأحيان.

-كيف بدأت أزمات البابوية؟

بدأت أزمات البابوية مع البابا "بونيفاس الثامن" (1294-1303م)، الذي تعرض أثناء بابويته لمشكلتين: داخلية وخارجية.

المشكلة الداخلية:

عندما أعطى أموال الخزانة البابوية إلى أحد أقربائه، فاصطدم مع عائلة كولونا الأرستقراطية، التي استولت على أملاك البابا، فشن البابا حملة ضدها، وصادر أملاكها ووزعها على أقاربه.

المشكلة الخارجية:

عندما اصطدم البابا بالملك الفرنسي "فيليب الرابع" (1285 - 1314م)، الذي كان يجمع الضرائب من رجال الدين، ولأن هذا العمل من صلاحيات البابا، عارضه وهدده بالحرمان. فادعت فرنسا بأن البابا يتدخل بالشؤون الداخلية الفرنسية، واتهمته بالاستبداد والهرطقة، ودعت إلى عقد مجمع دينيلم حاكمته، عندئذ هرب البابا إلى مسقط رأسه (أناني)، وأصدر من هناك قرار حرمان بالملك الفرنسي، الذي أرسل قوات، اعتقلت البابا. لكن أقرباء البابا استطاعوا تخليصه من

الأسر، لكنه مات بعد الحادثة بأيام. ويستنتج من هذا كله، بأن البابوية فقدت هيبتها وسيادتها.

- نقل البابوية من روما إلى أفينون (1305-1377م).

بعد البابا "بونيفاس الثامن" استلم البابا "بنديكت الحادي عشر" (1303 - 1304 م)، الذي لم يستطع معاقبة الملك الفرنسي على فعلته. فأقدمت فرنسا على خطوة أخرى ضد البابوية، عندما عينت البابا "كليمنت الخامس" (1305- 1313م)، ونقلت مقر البابوية من روما إلى مدينة أفينون شمال إيطاليا على ضفة نهر الرون الشرقية، التابعة لفرنسا، وشكلت مجلس كرادلة يوجد فيه خمس وعشرون فرنسياً من أصل ثمانية وعشرين.

- ما هي نتائج نقل البابوية من روما إلى أفينون؟

- 1- خسرت البابوية مكانتها المعنوية عند الشعوب.
- 2- فقدت أوروبا ثقافتها بالبابوية، لأنها أصبحت فرنسية أكثر منها عالمية.
- 3- بعض بابوات أفينون انقسموا أو اتهموا بأموال الرفاذية والملاذات، مما جعل بابويتهم تفقد احترامها.
- 4- اتهم بابوات أفينون بالسيمونية (بيع المناصب الدينية).
- 5- خسرت بابوية أفينون موارد البابوية في إيطاليا وإنكلترا وألمانيا وغيرها.
- 6- لم تعد الكنائس الأوروبية خاضعة لبابوية أفينون.
- 7- تضررت مدينة روما كثيراً من نقل البابوية، وعم فيها الفساد، وسلبت ممتلكات الكنيسة هناك.
- 8- أدى نقل البابوية إلى الانشقاق الكبير، وانقسام الكنيسة إلى كنيستين: روما ومعها ألمانيا وإنكلترا، وأفينون ومعها فرنسا.

- الانشقاق البابوي الكبير (1378-1418م):

كان من نتائج نقل البابوية من روما إلى أفينون، انقسام الكنيسة إلى كنيستين. وحاول بعض البابوات إصلاح الأوضاع، لكنها تدهورت وساءت أكثر. وفي عام (1376م) حاول البابا "أوربان الخامس"، العودة إلى روما، وبقي فيها ما يقرب من ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى أفينون. ثم عاد البابا "غريغوري الحادي عشر" عام (1377م)، إلى روما، ومات فيها عام (1378م)، فاستغل الإيطاليون هذا الوضع، وانتخبوا البابا "أوربان السادس" (1378 - 1389م)، خليفة للبابا "غريغوري الحادي عشر"، وانتخب الفرنسيون البابا "كليمنت السابع" (1378-1394م)، ذلك بمساعدة ملك فرنسا "شارل الخامس"، فأصبح هناك بابا في روما، وبابا في أفينون، واستمر هذا الانشقاق أربعين عاماً. وكان تعبيراً عن صراع بين اتجاهين فكريين:

الأول: على أساس ديني بقيادة البابوية. والثاني: على أساس قومي بقيادة فرنسا.

وكان لهذا الانشقاق نتائج سلبية عديدة على كل أوروبا وكنائسها.

- ما هي سلبيات الانشقاق البابوي الكبير؟

1. خلق اضطراباً كبيراً في أوروبا.
2. خلق فوضى لا توصف في الكنائس.
3. أدى إلى انقسام أوروبا سياسياً إلى قسمين: من جهة فرنسا وبابوية أفينون، ومن جهة ثانية إنكلترا وألمانيا وبابوية روما.

4. كان التلاعب بالأساقفة من قبل كل بابوية، حيث كل واحدة تعتبر نفسها هي الحقيقية والشرعية، وتفصل الأساقفة المعينين من قبل البابوية الأخرى، لتضع مكانها آخرين.

5. أدى هذا الانشقاق إلى انحطاط مكانة البابوية، وفقدان الثقة بها من قبل الشعوب ورجال الدين.

- ما هي الجهود التي بذلت لعلاج الانشقاق البابوي الكبير؟

حاول بعض البابوات إصلاح الوضع وعلاجه، كما ذكر من قبل، لكن كل المحاولات باءت بالفشل، وأدت إلى وضع أسوأ وأخطر. بعد ذلك تدخلت جامعة باريس لإصلاح الكنيسة وإنهاء هذا الانشقاق، حيث اقترحت، عزل بابا أفينون وبابا روما، وانتخاب بابا ثالث، يكون مقره روما. يكون ذلك عن طريق مجمع ديني رسمي. فعقد مجمع بيزا الديني عام (1409م)، واتخذ القرارات التالية:

أ. خلع كل من بابا أفينون وبابا روما، اللذان لم يحضرا المجمع المذكور.

ب. انتخاب بابا جديد، هو "حنا الثالث والعشرون" (1410-1415م).

لكن النتيجة أتت عكسية، وأدت إلى وضع أكبر وأخطر، لأنه لم يعترف كل من البابوين بالبابا الجديد، فأصبح هناك ثلاثة بابوات، وتطور الانشقاق الكبير إلى أكبر. فتدخل ملك هنغاريا "سجسموند"، الذي كان أيضاً إمبراطوراً للإمبراطوية الرومانية المقدسة (1411-1437م). دعا إلى مجمع ديني جديد، فانعقد مجمع

كونستانس الديني (1414-1418م)، والذي استمر أربع سنوات، واتخذ القرارات التالية¹:

أ. خلع البابوات الثلاثة.

ب. انتخاب البابا "مارتن الخامس" (1417-1431م)، من أسركولونا الأرستقراطية².

وهكذا انتهى الأسر البابلي للبابوية، ومن بعده الانشقاق الديني الكبير ثم الأكبر، لتعود الكنيسة إلى وضعها الطبيعي، ومقرها الأساسي في مدينة روما. لكن لم يطول الأمر كثيراً، حيث سيظهر خطر أكبر من الأول، وهو المذهب البروتستانتي على يد المصلح الديني الألماني "مارتن لوثر" (1483-1546م).

¹ - زيتون، عادل: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، نشر جامعة دمشق، 1981-1982م، ص 336.

² - من غرائب الأمور أن أسرة كولونا الأرستقراطية كانت السبب الرئيسي في بدء أزمة البابوية، وأصبحت السبب الرئيسي في علاجها.

الفصل العاشر

الحياة الاقتصادية في أوروبا- العصور الوسطى

- تمهيد: الطبقات الأساسية للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى:

في العصور الوسطى انقسم المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى في ظل النظام الإقطاعي إلى ثلاث طبقات أساسية، هي:

1. طبقة رجال الدين (الأكليروس):

هذه الطبقة من أجل حاجة الناس الروحية، وتنقسم إلى فئتين:

أ. رجال الدين العصريين أو الدنيويين:

يعيشون في القرى والمدن بين الناس من أجل الواجبات الدينية المختلفة: صلاة، معمودية، زواج، طلاق، وفاة، وغيرها من مناسبات اجتماعية مختلفة. على رأس الهرم البابا (البطريرك) - الكرادلة (جمع كاردينال-رئيس أساقفة) - الأساقفة - القسيس (قس، خوري، كاهن)، الذي يخدم في كنيسة القرية، ولكل كاهن شماس (مساعد له في الخدمة).

ب. رجال الدين النظاميين (الديرين - الرهبان): يعيشون في الأديرة، ويتبعون نظاماً معيناً في الصلاة والعمل ولكل دير رئيس، وتم الحديث عن هذه الطبقة بفئتيها.

2. طبقة النبلاء والفرسان: هي عبارة عن هرم اجتماعي، مؤلف من سادة وأتباع. السيد الإقطاعي تابع لمالك كبير، والمالك الكبير تابع لمالك أكبر (الكونت)، والكونت تابع للدوق، والدوق للملك، الذي يعد أكبر ملاك للإقطاع، وفي أسفل الهرم يقف الفارس المحارب.

3. طبقة الفلاحين: وتنقسم إلى فلاحين أحرار، وأقنان (رقيق الأرض)، وعبيد. وهذه الطبقة هي التي تؤمن الحاجات المادية من مأكّل وملبس ومشرب للمجتمع بشكل عام. وهم يعملون عند الطبقتين السابقتين، والقليل من يعمل بصفة مستقلة.

الطبقة الأولى تحدّثنا عنها ضمن الحياة الدينية، أما الثانية والثالثة، فسنعوم بشرحهما من خلال التحدّث عن العلاقات الاقتصادية- الاجتماعية في الأرياف والمدن.

العلاقات الاقتصادية- الاجتماعية في الأرياف

(النظام الإقطاعي)

- تعريف النظام الإقطاعي:

هو تجزئة الملكية من الناحية الاقتصادية- الاجتماعية، وتجزئة السيادة من الناحية السياسية. لذلك تعتبر الدولة شبه مغيبّة في هذا النظام.

يتكوّن النظام الإقطاعي من ثلاثة عناصر: السيد، التابع، والإقطاع. وأطلقت هذه التسمية على النظام الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي في العصور الوسطى بأوروبا، من القرن الثامن وحتى السادس عشر الميلادي.

- من أين أتت فكرة النظام الإقطاعي؟

جاء هذا النظام بعد انصهار المجتمع الجرمانى بالمجتمع الرومانى. لذلك ظهر مدرستان لتفسير أصل هذا النظام: المدرسة الرومانية و المدرسة الجرمانية.

- المدرسة الرومانية:

في البداية كانت الرعاية أو الحماية من قبل الغنى للفقير أو من قبل المالك للأجير، ثم تطورت هذه الكلمة مع تقدّم الوقت إلى الانتفاع من الأرض، أو الإحسان من قبل الغنى للفقير، وكان هذا الإحسان أو الانتفاع يغطي ثلاثة أمور، هي:

أ. حماية الفلاح من قبل السيّد مقابل عمله في الأرض، ويمكنه طرده إذا لزم الأمر.

ب. القرض بكفالة عقارية، أي يأخذ الفلاح قرضاً من الغنى مقابل رهن أرضه له.

ج. اتساع ملكية كبار الملاكين وتملّصهم من الضرائب، مما شجّع الفلاحين على تسجيل أراضيهم باسم الملاكين الكبار، ليتخلّصوا من دفع الضرائب. بهذا التصرف أراد الفلاحون أن يحموا أنفسهم من فخ الدولة الموجه، فوقعوا في فخ الإقطاعي المميت. هذه الأمور أدّت في نهاية المطاف إلى ظهور النظام الإقطاعي.

- المدرسة الجرمانية:

في العهد الميروفنجي أي بالقرون الخامس والسادس والسابع الميلادية، عندما كانت العلاقة بين الغنى والفقير عبارة عن رعاية وإحسان، ثم تطوّرت إلى

سيد وتابع. وكانت ضريبة الفقير المنتفع من الرعاية والإحسان تجاه الغني حماية حربية وخدمة مسلحة، لكنها دفاعية فقط، بآماكن وأزمان محدّدة.

لكن في العهد الكارولنجي أي في القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الميلاديين بشكل عام وبعهد "شارل مارتل" بشكل خاص، كانت قد توضّحت الأمور أكثر، خاصة عندما صادر أراض الكنائس، ووَزَعها على الفرسان للانتفاع منها مدى الحياة، مقابل أن يكونوا تابعين له، وجنوده المخلصين عند الحاجة. أما في عهد حفيده شارلمان فأصبحت التبعية في كل مفاصل الحياة الاقتصادية والاجتماعية: الملك عنده أتباع، والأتباع عندهم أتباع، إلى أن نصل إلى قاعدة الهرم حيث الفرسان، الذين يخدموا آسيادهم مقابل قطعة أرض لكل واحد منهم، ولم ينقض عقد التبعية بين السيد والتابع إلا: ب وفاة التابع أو السيّد. والتابع لا يحق له التخلي عن سيده حسب مرسوم شارلمان إلا في بعض الحالات، وهي:

أ. إذا حاول السيّد قتله أو ضربه، أو حتى إذا أشهر عليه سيفاً، أو لم يدافع عنه وقت الضرورة.

ب. إذا حاول أن يسلبه ما بقي له من حرية، وجعل منه قسراً قنّاً تابعاً.

ج. إذا حاول الاعتداء على أحد أفراد أسرته.

- تطوّر مبدأ التبعية بعد شارلمان، وتحولّه إلى النظام الإقطاعي:

بعد وفاة شارلمان (814م)، أخذت التبعية منحى مختلفاً، حيث أصبحت خدمة السيّد المباشر أهم بكثير من خدمة الملك، وأخذ مبدأ التقليد ثم العرف ثم القانون، خاصة بعد معاهدة فردان عام (843م)، عندما انقسمت الإمبراطورية الكارولنجية بين أحفاد شارلمان إلى ثلاث دول، هي: ألمانيا، إيطاليا، وفرنسا.

هذا الانهيار والتفكك للإمبراطورية الكارولنجية وتحويلها إلى ممالك علمانية وكنسية، كان أهم عامل في تثبيت النظام الإقطاعي. الدولة شبه غائبة، والأسر الأرستقراطية تجمع الضرائب، وأصبحت خدمة السيد أهم من خدمة الملك، لأن الملك يعتبر سيداً غير مباشر، وبعيد، وسلطته غائبة. والطبقة الأرستقراطية قويت على حساب السلطة الملكية، مما أدى إلى القضاء على المركزية، وأصبح الأغنياء أسياداً، وأفراد الطبقة الوسطى أتباع، والفقراء عبيداً وأقناناً. وتحول كل فرد في المجتمع سيداً أو تابعاً، حتى في المنزل: الأولاد والزوجة ينادون الوالد بالسيد.

وأواخر القرن التاسع الميلادي تحولت كلمة التبعية إلى انتفاع متبادل، ثم تركز تحول إلى إقطاع، ثم إلى إقطاع حربي مدى الحياة. وفي القرن الحادي عشر أصبح الإقطاع وراثياً. حتى الوظائف والمهن والألقاب، والسيادة والتبعية أصبحت وراثية بدلاً من مدى الحياة. في النهاية يمكن اختصار الموضوع بشكل عام ببضع كلمات معبرة عن المراحل والأطوار، التي مرّ بها المجتمع الأوروبي اقتصادياً في العصور الوسطى من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر إلى أن اكتمل النظام الإقطاعي: حماية (رعاية) - تبعية - انتفاع (إحسان) - إقطاع - إقطاع وراثي - إقطاع وراثي وحربي.

- النظام الإقطاعي من القرن العاشر إلى الثالث عشر:

اكتمل النظام الإقطاعي، وانتشر بكل أوروبا ما بين القرن العاشر والثالث عشر، وانتقل مع الصليبيين إلى الشرق (بلاد الشام ومصر وتونس وآسيا الصغرى)، ومع الحملة الصليبية الرابعة عام (1204م)، إلى بيزنطة. لكن لا نستطيع القول، بأنّ للإقطاع طبيعة واحدة بكل الدول الأوروبية، في كل دولة له طبيعة خاصة.

- النظام الإقطاعي في ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا:

جاء النظام الإقطاعي إلى ألمانيا متأخراً، وبقي لفترة طويلة. كانت بداياته بمنتصف القرن العاشر، في عهد الإمبراطور "أوتو الأول" (936-973م)، الذي أخضع الكثير من كبار الملاكين لسلطته، لكن الذي كان يزعه ولم يستطع القضاء عليه، هو موضوع التوريث. لهذا السبب شجع الإقطاع الكنسي، لأنه لا يوجد فيه توريث، ولا أولاد، والتعيين فيه من قبل الإمبراطور نفسه.

أما إيطاليا، فرغم تبعيتها لألمانيا منذ عام (951م)، بقيت مقسمة إلى عدة إمارات إقطاعية - وراثية. وفيها إقطاع كنسي في الإمارات البابوية.

أما فرنسا، فكانت مقسمة إلى خمس عشرة إمارة إقطاعية - وراثية، منذ القرن التاسع الميلادي، وبقي فيها النظام الإقطاعي مدة طويلة.

- النظام الإقطاعي في إنكلترا:

كان النظام الإقطاعي فيها بعدد الاحتلال الدانماركي كبقية الأنظمة الإقطاعية في الدول الأوروبية الأخرى. لكن بعد مجيء النورمانديين عام (1066م)، أدخل "غليوم الفاتح" نظاماً إقطاعياً جديداً، تابعاً للسلطة الملكية، أي أنه عدل النظام الإقطاعي لصالح الملكية، وكان ذلك بعدة قرارات، هي:

1. عد نفسه المالك الوحيد لأراضي إنكلترا بحق الفتح.
2. صادر أملاك الملاكين الأرستقراطيين الكبار، الذين قاوموه أثناء الفتح.
3. صادر أملاك الذين ثاروا ضده، والذين لم يؤيدوه، لكنه سمح لهم بافتداء أراضيهم، شرط أن يتبعوا له.

4. وزّع أراضي إنكلترا الزراعية على أتباعه النورمانديين، بشكل مبعثر، حتى لا يفكروا يوماً ما بأن يثوروا عليه، وحتى لا تكون لهم قوة اقتصادية وبشرية في مكان واحد، ربما تستخدم ضد الملك.
5. من واجب أتباعه أن يحلفوا له يمين الولاء والطاعة والإخلاص والتبعية، ليأخذ الموضوع صبغة دينية، مما جعل الملكية محمية بهالة قدسية.
6. وضع "غليوم الفاتح" موظفين تابعين له مباشرة في المقاطعات وأسمأهم الشرفاء، يستطيع عزلهم متى شاء. مع كل ذلك تسلل نظام الوراثة إليهم.
7. أقام الملك مسحاً عاماً للسكان والحيوان والأرض في عام (1086م)، سجله في كتاب "الحساب الأخير"، من أجل معرفة ما يلي:
- أ. مساحات الغابات والمراعي.
- ب. الأراضي المروية والبعلية والمستثمرة والبور.
- ج. أسماء الملاكين الأرستقراطيين.
- د. عدد الفلاحين الأحرار والأرقاء.
- هـ. أحوال الناس الاقتصادية.
- و. الضرائب المدفوعة، والمسوجب دفعها.
- أقام هذا المسح (الإحصاء)، من أجل جعل الضريبة عادلة على الناس، ومعرفة ما يجب أن يقدمه كل إقطاعي للملكية. وعمل مساواة بين الإنكليز وغيرهم في دفع الضرائب.
8. أمر ببناء قلعة في كل منطقة، من قبل الإقطاعي القريب منها، والإشراف عليها ومدّها بالجنود، لتكون بالمرصاد لكل من يفكر بثورة أو تمرد ضد الملك والملكية، وضد أي غزو خارجي على الدولة.

9. فصل "غليوم الفاتح" المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية، ودعم الكنيسة ونظام الديرية، والإصلاح الكنسي، وجعل الكنيسة تابعة له. وعزل الأساقفة الإنكليز التابعين للبابوية، ووضع مكانهم أساقفة نورمانديين، فأصبحت علاقته سيئة مع البابا "غريغوري السابع" (1073-1085م)¹

- تسليم الإقطاع، والغائه، وتوريثه:

يتم تسليم الإقطاع (الأرض) من قبل الإقطاعي إلى التابع (الفلاح) أما في البيت أو في الأرض. يقسم التابع بالكتاب المقدس (الإنجيل)، بأنه أصبح موالياً، مخلصاً، أميناً، طيعاً، حتى يأخذ الموضوع صفة دينية مقدسة. ويتناول التابع حفنة من التراب، وعكازاً، وبراءة (وثيقة)، فيها أوصاف الأرض وموقعها ومساحتها.

في حال وفاة الإقطاعي يعاد تسليم الأرض للفلاح من قبل المالك الجديد حسب الأصول، وفي حال وفاة التابع، يعاد تسليم الأرض إلى شخص آخر من جديد. ويتم إلغاء عقد التبعية وفق مراسم وطقوس أيضاً، وبحضور الطرفين والشهود. فإذا كان التابع مذنباً تؤخذ الأرض منه، وإذا كان السيد الإقطاعي مذنباً بحق التابع، تبقى الأرض بيد التابع ويتبع سيده آخر أو سيد السيد.

يمكن توريث الإقطاع، لكن يتم التسليم من جديد. كان الإقطاع في بدايته مدى الحياة فقط، ثم يسلم لشخص آخر، ثم أصبح وراثياً للابن الأكبر إذا كان هناك أكثر من ولد. ويتم التسليم بعد القسم من جديد، والالتزام بالواجبات الإقطاعية. وإذا مات التابع وكان ابنه صغيراً يوضع تحت وصاية سيده، أو تحت وصاية خاله وليس عمه (لأن العم يحق له وراثة الولد)، حتى يصبح بسن الرشد،

¹ - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 697-707.

ثم تسلّم له الأرض حسب الأصول. وإذا كان لدى التابع ابنة صغيرة فقط، ينتظر حتى تكبر وتتزوج لتستلم الإقطاع، وإذا لم يكن عند التابع أولاد، تعود الأرض إلى الإقطاعي ويسلمها لآخر.

- مسألة تعدّد السادة للتابع الواحد، وإشكالياتها:

هناك حالات عديدة يصبح فيها للتابع الواحد أكثر من سيّد، منها:

أ. إذا تزوج رجل من امرأة، عنده سيّد وعندها سيّد، وقتها يصبح الرجل تابعاً للسيّدين.

ب. إذا كان ابن التابع مستلماً أرضاً من سيّد، ثم ورث أرض والده، يصبح تابعاً لسيّدين.

ج. إذا لجأ إقطاعي إلى شراء صداقة شخص ما، بمنحه إقطاعاً من أملاكه، يصبح المقطّع له تابعاً لسيّدين.

د. إذا حصل فلاح على أراض من عدة إقطاعيين، وقتها يصبح تابع للجميع.

بهذا ظهرت إشكالية. التابع الذي يتبع إلى أكثر من سيّد، مع من يحارب؟ تعدّدت الآراء بالإجابة عن هذا التساؤل، منها:

أ. يُحارب مع أقدم إقطاعي منحه أرض. ب. يُحارب مع من أعطاه أكبر إقطاع.

ج. يُحارب مع المدافع، وليس مع المعتدي. د. يُحارب مع من يرغب.

هـ. يُحارب مع سيّد إقطاعي ويقدم التزامات مادية (خيول أو أموال لبقية السادة).

أعتقد أنَّ الرأي (هـ)، هو الأصح من بين الآراء، أما الرأي (د)، فاحتمالاته ضعيفة جداً، لأنه لم يكن للتابع أي إرادة أو حرية اتخاذ القرار .

- الحقوق والواجبات في النظام الإقطاعي:

الواجبات متبادلة في الطبقة بين التابع والسيد، ومتدرجة في المراتب من القاعدة إلى رأس الهرم:

التابع للإقطاعي، والإقطاعي بدوره لسيدّه، إلى أن تصل الأمور إلى الملك. وتنقسم الواجبات المتبادلة إلى قسمين:

أولاً: واجبات التابع نحو السيد. ثانياً: واجبات السيد نحو التابع.

- أولاً: واجبات التابع نحو السيد، كثيرة ومتنوعة:
1. عسكرية.
 2. مالية.
 3. اجتماعية.
 4. أخلاقية.

1. العسكرية: كانت تخضع هذه الواجبات في بداية النظام الإقطاعي إلى المبادئ التالية:

- أ. بالحرب الدفاعية يقاتل التابع مع السيد حتى نهاية الحرب، أما بالحرب الهجومية فيقف معه أربعين يوماً مجاناً في السنة.
- ب. نوعية مساعدة التابع للإقطاعي، أو الإقطاعي لسيدّه، تصاعدياً إلى أن يصل إلى الملك، تكون أما بالمال أو بالفرسان أو بالخيول أو بالمشاركة الشخصية، كل ذلك يتوقف على مساحة الإقطاع. وبعد أن اكتمل النظام الإقطاعي في القرن الثالث عشر الميلادي، وأصبحت له قوانينه، أدخلوا إليه مبادئ جديدة، أهمها:

أ. مدة الخدمة للتابع مع سيده أطول من خدمته للملك، هذا إذا اضطر الأمر بالأساس لخدمة الملك.

ب. لا يستطيع الإقطاعي أن يجبر التابع، ولا الملك أن يجبر الإقطاعيين على الحرب خارج الولاية أو المملكة.

ج. لا يستطيع السيد أن يجبر من عمره أقل من خمس عشرة سنة أو أكثر من ستين، الاشتراك معه بالحرب.

د. النساء بشكل عام معفيات من الخدمة مع الإقطاعي إلا إذا كانوا أتباعاً، عندئذ هنّ ملزمات أن يقَدِّمن الفرسان أو المال.

2. المالية: في البداية كانت طوعية ثم تحولت إلى إلزامية، ونقسم إلى ثلاثة أقسام، هي:

أ. ضريبة حق الإرث: على الوريث الجديد أن يدفع ضريبة تساوي دخل أرضه عاماً كاملاً، وهو ما يشبه اليوم ضريبة الميراث أو نقل الملكية.

ب. المعونة: التابع ملزم أن يقدم للسيد المعونة في بعض الحالات، وهي:

1. من أجل فدية سيده إذا أسر.

2. عندما يصبح أكبر أولاد السيد فارساً.

3. عندما يزوج السيد ابنته الكبرى.

4. أثناء الإعداد لحملة صليبية.

5. من أجل بناء حصن جديد.

ج. الضيافة: عندما كان السيد الإقطاعي يأتي مع حاشيته بزيارة إلى التابع.

كان الأخير يقدم لهم الطعام والمبيت، ولكن عندما أصبحت هذه الأمور مكلفة جداً، أصبح عدد الزيارات والمرافقين للإقطاعي يحدّد بمواثيق.

3. الاجتماعية: من واجب التابع القيام ببعض التصرفات الاجتماعية لصالح سيده، منها:

أ. حضور التابع إلى منزل السيد وقت الضرورة على نفقته الخاصة، دون حساب المسافات والتكاليف.

ب. تقديم النصائح والمشورة للإقطاعي في بعض الظروف والمواقف.

ج. مشاركة السيد الاحتفالات الاجتماعية والدينية المختلفة.

د. حضور محكمة السيد بالنيابة عنه أو ليشهد له أو للموافقة على آرائه.

4. الأخلاقية: واجبات التابع الأخلاقية تجاه السيد عديدة، هي:

أ. ألا يؤذي سيده. ب. عدم إفشاء التابع لأسرار سيده مهما كانت صغيرة.

ج. ألا ينتهك حقوق سيده. د. ألا يضر بسمعة وشرف وممتلكات سيده.

هـ. إطاعة السيد وسماع كلامه. و. ألا يعقد أمور سيده، بل يساعده في حل مشاكله.

ثانياً: واجبات السيد نحو التابع:

كانت في البداية مجرد كلمة شرف أمام شهود من أجل حمايته وإعالته، ولكن بسبب عدم الالتزام بالكلمة الشفوية دائماً أصبحت هذه الواجبات تكتب بمواثيق، ويشهد عليها الشهود لتصبح ملزمة سيد تجاه تابعه، وهي:

أ. حماية التابع، والدفاع عنه وقت اللزوم.

ب. تقديم النصائح للتابع في مسائل مصيرية اجتماعية، ومالية، وغيرها.

ج. أن يساوي ويعدل بين جميع أتباعه، وألا يفضل أحداً على آخر، حتى لا يقع بينهم غيرة وتحاسد.

د. إنصاف أتباعه، والمحافظة عليهم.

هـ. المحافظة على شرف أسرة التابع في حياته وبعد مماته.

و. العطف على أتباعه في حالات الحاجة المادية أو المرضية أو غيرها.

ز. من حق التابع إذا تعرض إلى ظلم أو أذية الإقطاعي، أن يتظلم عند سيّد سيّده.

ح. حق التابع بإقطاعه ما لم يخل بالأحكام والمواثيق والعقود.

ط. الإنفاق على التابع من دخل إقطاعه إذا لم تكفه حصته، خاصة أثناء الجفاف أو عندما تكون المحاصيل قليلة لسبب ما.

ي. السماح للتابع بفسخ علاقة التبعية إذا اسوجب الأمر، ليتبع إلى إقطاعي آخر¹.

طبقة الفرسان ونظام الفروسية

طبقة الفرسان وجدت منذ آلاف السنين، عندما أنس الإنسان الخيول وروّضها واستخدمها في التنقل والنقل والصيد والحراثة والرياضة والحروب. أما

¹ - عبيد، إسحق: الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع، بنغازي، 1975م، ص38. و زيتون: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص415-418.

الفروسية، كنظام له عاداته وقوانينه، فيُعد ابن النظام الإقطاعي، ولد معه وزال بزواله.

- الفارس: هو الرجل الذي يقوم بالخدمة العسكرية على الفرس، ويكون تابعاً لسيد إقطاعي. كانت الفروسية من نصيب النبلاء الذين كانوا يختارون أحد الطريقين: أما الدخول إلى الدير والرهبنة، وإما يتعلم الفروسية ويصبح فارساً، لذلك كانت الفروسية معظم الأحيان محرمة على الفقراء والعبيد والأقنان.

- الجذور التاريخية لنظام الفروسية:

نشأ نظام الفروسية في منطقتين وعند شعبين. في جرمانيا، عند الجرمان في العصور القديمة، أي قبل الميلاد حسب المؤرخ الروماني "تاكيتوس" (55-120م)، في كتابه "الجرمان وأصول معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم". وفي الأندلس عند العرب المسلمين حسب رأي المؤرخ البريطاني "جورج جوردونكولتون" في كتابه "عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة".

- ما هي المراحل التي يجب أن يمر بها الإنسان كي يُصبح فارساً؟

يمر الإنسان بثلاث مراحل حتى يُصبح فارساً، هي:

1. المرحلة الأولى: تبدأ في سن السابعة، حيث يُبعث الولد إلى منزل الإقطاعي الأكبر، وربما النبلاء الكبار يبعثون بأولادهم إلى بيت الدوق أو الملك، من أجل اكتساب خبرة الحياة الأرستقراطية وآداب السلوك، ويبقون هكذا إلى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، ويُطلق على الولد فيها لقب وصيف.

2. المرحلة الثانية: ما بين سن الخامسة عشرة والعشرين. يرافق فيها الوصيف أحد الفرسان ويتدرب على ركوب الخيل واستخدام السلاح. وتكون مرتبته مساعد فارس، ويُلقَّب بحامل الترس.

3. المرحلة الثالثة: يُجهز فيها مساعد الفارس بسيف ورمح ويتدرب على القتال، ثم يشترك في بعض المعارك الحقيقية. وإذا أثبت كفايته وجدارته وشجاعته، عندئذٍ ينصَّب فارساً، باحتفال رسمي، ويكون بسن العشرين أو الإحدى والعشرين. ويركع أمام سيده، ليسأله، هل هو مستعد لحياة الفروسية ومسؤولياتها وواجباتها؟ وعندما يجيبه بالإيجاب، يناوله سلاحه، بعد ذلك يجب أن يثبت فروسيته في ساحات القتال.

- واجبات الفارس الأخلاقية:

- أ. يجب أن يكون الفارس مخلصاً لسيده في كل الأوقات وكل الظروف.
- ب. يجب أن يتصف الفارس بالشجاعة والجرأة، مهما كانت المواقف صعبة، والحكمة، وغير متهور.
- ج. من واجب الفارس ألا يهاجم فارساً أعزل، وألا يأخذه غدراً، حتى وقت القتال إذا وقع السلاح من يد خصمه، وجب عليه التوقف عن قتاله.
- د. يجب أن يعامل الفارس أسيره كضيف، ويقبل منه فدية مقابل فك أسره، ويقبل أحد أفراد أسرته كرهينة حتى يجمع الأسير فديته، ووصلت الأمور إلى الثقة بالأسير - الفارس، بأن يُترك ليجمع فديته دون أن يترك رهينة، ودون كفالة أحد، حتى إذا لم يستطع جمع الفدية يعود إلى الأسر.

وهناك أنواع للفروسية: بالإضافة للفروسية الإقطاعية- الحربية، هناك الفروسية الدينية، التي وجب على الفارس أن يكون مسيحياً، يبتعد عن ارتكاب

جميع أنواع الجرائم، ويرعى الضعفاء. وهناك فروسية العشق، التي تطالب الفارس باحترام المرأة في المجتمع، صغيرة أو كبيرة، قريبة أو غريبة، وحمايتها من جميع المظالم الواقعة عليها، وعدم السماح باضطهادها.

- عيوب الفروسية والفرسان:

لم يلتزم الفرسان بالواجبات المفروضة عليهم، ولم يتحلوا بالأخلاق المتفق عليها، بل استخدموا هذه الأخلاق فقط فيما بينهم، واحتقروا العبيد والأقنان والبسطاء والخدام، وكثيراً ما احتقروا المرأة. ونجد بأن الفرسان الذين أتوا إلى الشرق أثناء الحملات الصليبية، لم يحملوا أي أخلاق، بل ارتكبوا أبشع المجازر بحق الكبار والصغار، وبحق الرجال والنساء، وبحق المسلمين والمسيحيين، وحتى في أوروبا كانوا يستخدمون الأساليب الشاذة من أجل الوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، وكانوا في أوقات السلم يمارسون أعمال القرصنة بالبحر وقطاع الطرق في البر.

- لباس الفرسان:

يختلف لباس الفرسان وقت السلم عن وقت الحرب، وبالشثناء عن الصيف.

أ. أثناء السلم: يلبس الفارس وقت السلم القميص والسرwal، ويلبس المعطف أثناء الاحتفالات، والمعطف والعباءة وعليها قبة أثناء البرد، وحذاؤه هو صندل جلدي.

ب. أثناء الحرب: يختلف لباس الفارس وقت الحرب. فكان هناك الخوذة المعدنية، التي يضعها على رأسه لحمايته من السهام وضرب السيوف. ويلبس الدرع وهو عبارة عن صدارة معدنية لحماية صدره من سلاح الخصم، ويلبس الجرموق (الألشين) المصنوع من قماش أو جلد.

- سلاح الفرسان:

للفارس أسلحة معروفة تقريباً وشبه حتمية، هي:

- أ. الفرس، والتي بدونها لا يعتبر المقاتل فارساً، ويكون عليها السرج والركاب والللجام، وكان لكل فارس هناك مساعد فارس.
- ب. السيف، وهو السلاح الذي لا غنى للفارس عنه، ودائماً يرافقه، حتى وقت السلم أحياناً.
- ج. الحربة، أو ما يسمى بالرمح طولها حوالي (8) أقدام، أي ما يقرب من مترين ونصف.
- د. البلطة، والتي تشبه الفأس الحاد.
- هـ. الترس، ويكون بشكل دائري أو مستطيل، وطوله حوالي أربعة أقدام⁽¹⁾.

- المبارزة (duel):

حياة الفرسان يكون لها معنى ومغزى في الحروب وساحات المعارك، أما حياة السلم بالنسبة لهم، فكانت تعني البطالة والملل والفراغ، لذلك أوجدوا المبارزة بالسيف أو بالرمح، وفيما بعد بالسلاح الناري. للتسلية أو لملء الفراغ. وبشكل عام كان للمبارزة أسباب عديدة، منها:

أ. التحدي دون أهداف سامية، بل فقط لإظهار المنتصر أو الأقوى أو الأشجع أو الأبرع والأسرع.

(1) ج.ج. كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 133-136.

ب. الخلافات العائلية، أو حتى الشخصية، على رأي أو فكرة أو وجهة نظر معينة.

ج. من أجل قطعة أرض، مختلف عليها، بدلاً من أن يأتوا إلى المحاكم غير الموثوق بها من قبلهم، يتحدثون بعضهم بعضاً ويذهبون للمبارزة.
د. من أجل النساء، وكانت الأخطر، لأنها بالنسبة للمبارزين تمس الشرف والرجولة.

هـ. كثير من الخلافات في المجتمع جعل أصحابها المبارزة محكمتهم وحكمهم.

أصبح للمبارزة تقاليد وشروط وقوانين. كان يحدّد يوم بين الشخصين المتخاصمين، ويعيّن حكم محايد، وتتم الاستعدادات قبل المبارزة، ثم تبدأ بإشارة من الحكم، في ساحات أو ملاعب البلدة، على مرأى الجميع (الدعوة عامة). ويكون القتال حتى إنتصار شخص وهزيمة الآخر. وقتها يجرد المهزوم من سلاحه وفرسه، وربما تكون نهاية حياته، أما المنتصر فينال شرفاً واحتراماً، وغنائم وبعض المال، وربما الفرس والسلاح، أو قطعة أرض.

ودائماً ما كانوا يفتتحون المعارك بالمبارزات بين أشخاص من الفريقين المتحاربين حتى يشجعون ويرفعون من معنويات جنودهم. وكثير من الناس قضى نحبّه في مبارزات حقيقية أو حتى من مبارزات التسلية (الرياضية)، أو الاحتفالية. وكان من هذه الشخصيات أدياء وعلماء وحتى ملوك.

سأذكر مبارزة بالسلاح التقليدي (السيف - الرمح - السهم)، أودت بحياة ملك، ومبارزة بالسلاح الناري، أودت بحياة شاعر شهير:

أ. الملك الفرنسي "هنري الثاني": عند انتهاء الحروب الإيطالية، (1494-1559م)، عقدت معاهدة كاتو كمبرسيس عام (1559م) بين الملكين الإسباني والفرنسي. ومن شروط المعاهدة زواج الملك الأسباني "فيليب الثاني" من الأميرة "إليزابيث" ابنة الملك الفرنسي "هنري الثاني"، وقتها أقامت باريس احتفالات بمناسبة الزواج، اشترك الملك الفرنسي "هنري الثاني" بإحدى المبارزات، وأصابه سهم في عينه، ومات متأثراً بجرحه في تموز (1559م)⁽¹⁾.

ب. الشاعر الروسي الكبير "بوشكين" (1799-1837م)، في 1837/1/27م اضطر إلى خوض مبارزة بالسيف مع ضابط كبير من مرافقي القيصر، من أصل فرنسي، اسمه "جورج دانتس" (G.Dantez)⁽²⁾، دفاعاً عن الشرف، وكان هذا الضابط قد شتم زوجته بتحريض من بعض رجال البلاط، وأصيب بوشكين في المبارزة بجرح قاتل، قضى عليه بعد يومين⁽³⁾.

(1) الصطوف، عبد الكافي، والعلوي، راغب، والصياح، طليعة: دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، 1419-1418هـ/1997-1998م، ص 114.

(2) СоветскийЭнциклопедическийсловарь،

"СоветскаяЭнциклопедия"، москва، изд.4، 1987г. С.1084. .a

(3) الموسوعة العربية، المجلد الخامس، الطبعة الأولى، دمشق، 2002م، ص 544-546.

- دور الكنيسة في حياة الفرسان وحروبهم، من خلال سلام الله،
وهدنة الله:

1. سلام الله:

في أوروبا العصور الوسطى وفي ظل النظام الإقطاعي كانت النزاعات والصراعات المسلحة تنشب بين الأمراء الإقطاعيين، بسبب ضعف السلطة الملكية، ودون رادع قانوني أو أخلاقي. مع أنها كانت نزاعات وحروباً قصيرة، لكنها متكررة لأتفه الأسباب، وكثيراً ما تؤدي إلى حروب طويلة الأجل، وأحياناً تتطور وتصبح بين دول. فاضطرت الكنيسة للتدخل في حياة الفرسان إيجاباً، لتخفف من حدة هذه الحروب، وتستأصل أسباب حدوثها، للقضاء عليها في المستقبل القريب.

بدأ تدخل الكنيسة بعد معاهدة فردان (843م)، التي قسّمت الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية إلى ثلاث دول (ألمانيا- فرنسا- إيطاليا). كان فيها الأمن والاستقرار والسلام شبه مفقود بسبب النظام الإقطاعي السائد. فدعت الكنيسة إلى مجامع دينية عديدة، واحتج الأساقفة بكل المجامع على الحروب الداخلية، ووضعوا المواثيق والقرارات الدينية لتسوية هذه النزاعات بالحق والقانون. وأهم قرار وضعوه هو: من المفروض على كل شخص، بلغ عمره خمس عشرة سنة أن يحلف اليمين على الكتاب المقدس بمراعاته السلام. وبالفعل ساد السلام نسبياً. ولأن الأساقفة كانوا السبب الرئيسي في هذا السلام، أطلق عليه "سلام الله".

2. هدنة الله:

بما أن سلام الله قد نجح واستفاد الجميع من الأمن والاستقرار، رغب رجال الدين بأن يجعلوا الحروب الداخلية شبه مستحيلة، بطرحهم فكرة "هدنة الله" عام

(1040م)، وصاغوها برسالة حررها أساقفة إقليم آرل الفرنسي (جنوب فرنسا) بمساعدة رئيس دير كلوني "أوديلون". طلبوا بهذه الرسالة من الناس، احترام الأيام الدينية المقدسة، وعدم الاقتتال والنزاع فيها:

- أ. يوم الجمعة إكراماً لذكر آلام المسيح وصلبه.
- ب. يوم السبت إكراماً لدفن المسيح.
- ج. يوم الأحد إكراماً لقيامة المسيح من بين الأموات.
- د. يوم الخميس إكراماً لصعود المسيح إلى السماء.

يضاف إليها أيام الأعياد ووقفات الأعياد. ووضعوا مبدأ، يقول: من يقتل مسيحياً كأنه يهرق دم المسيح. وهددت الكنيسة بالحرمان الكنسي لكل من يخالف هذه الوصايا، ويبدأ بالحرب. وسرعان ما انتشرت هذه التوصيات من فرنسا إلى أسبانيا وألمانيا وإيطاليا وغيرها.

ونجح الأمر نجاحاً عظيماً عندما بدأ الأمراء والملوك يطبقون هذه التوصيات، مثلاً: غليوم الفاتح، وهنري الأول في إنكلترا، ولويس السادس في فرنسا⁽¹⁾.

استمرت هدنة الله حوالي قرن ونصف القرن، وفي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، شجعت البابوية هذا السلام، ثم دفعت الأمور باتجاه الحروب الصليبية التي ستستمر حوالي قرنين من الزمان، وهو كله تصدير لمشاكل أوروبا الداخلية إلى الخارج.

(1)العريني، السيد الباز: الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، 1963م، ص45-60.

طبقة الفلاحين

طبقة الفلاحين تعد القاعدة الأساسية للمجتمع الإقطاعي، لأن الفلاح بكل فئاته صنع المأكّل والمشرب والملبس للمجتمع. كانت تقسم طبقة الفلاحين إلى ثلاث فئات، هي:

1. فئة العبيد.
2. فئة الأفتنان (رقيق الأرض).
3. فئة الفلاحين الأحرار.

1. فئة العبيد:

في ظل النظام الإقطاعي عدد العبيد قليل، وكانوا يعملون في المنازل والمزارع. ولأن إنتاجهم قليل، لأنهم يعملون بقوت يومهم (بطعامهم وشرابهم وملبسهم ومسكنهم)، كان الإقطاعيون يحررونهم ويحولونهم إلى فئة الأفتنان.

- ما هي مصادر العبيد؟

- أ. بالوراثة: ابن العبد يولد عبداً.
- ب. من الحروب: كان الأسرى يحولون إلى عبيد.
- ج. من التجارة: كان الأغنياء يشترون العبيد بأسواق النخاسة، حيث كان الكثير من الناس يُباعون بهذه الأسواق لأسباب، منها: الفقر، أو الأسر القسري للناس بطرق مختلفة وبيعهم.
- د. تحويل الفقراء إلى عبيد بالقوة: عندما يريد فقير إيفاء دين، أو إطعام الأسرة والأولاد، أو جمع فدية، أو لأنه ارتكب جريمة، وغيرها كثير.

2. فئة الأَقنان (رقيق الأرض):

القن هو الفلاح الذي لا يملك أرضاً، لكنه يعيش على قطعة من الأرض يمنحه إياها الإقطاعي.

العبيد يعملون بقوت يومهم كما ذكر أعلاه، بينما القن يعمل بالأرض بنسبة معينة، مع ذلك فإن الإقطاعي يتعامل معه باحتقار وكأنه عبد، ويخلق له شعرة، دليل التبعية. وللإقطاعي كامل الحرية بالتصرف معه، من حيث حرمانه من التعليم والتملك وترك العمل، ويمكنه إهدائه أو بيعه مع الأرض، ما عدا قتله أو تشويهه. وكل ما يملكه القن يُعتبر ملكاً للإقطاعي. والدولة والكنيسة هما المؤسسات الوحيدتان اللتان تعتبران القن حرّاً. بكلمة مختصرة فإن الأَقنان اجتماعياً يُصنّفون بين العبيد والأحرار، لذلك يطلق عليهم أنصاف عبيد أو أنصاف أحرار أو رقيق الأرض.

- ما هي مصادر الأَقنان؟

أ. بالوراثة: ابن القن يولد قنّاً.

ب. عندما يحرّر الإقطاعيون العبيد، يحولونهم إلى أقنان، مما يعني أن الأَقنان أعلى درجة من العبيد.

ج. عندما تتدهور أحوال الفلاحين الأحرار، يبيعون أراضيهم من أجل المال، وحرّيتهم من أجل الحماية، ويتبعون الإقطاعي أو الكنيسة أو الدير بصفتهم أقنان.

د. إذا عجز الحر عن دفع ضرائب أو دين، أو إذا ارتكب جريمة يمكن أن يحوّل إلى قن.

مع أن الأَقنان أعلى مرتبة من العبيد، لكنهم أدنى مرتبة من الأحرار. لذلك فإن التابع الحر يستلم الأرض من الإقطاعي، وهو الذي يمسك بها، بينما القن

يستلم الأرض من ناطور الإقطاعي، والأرض تمسك به (مجاز، يعني مرتبط بالأرض: يُباع ويُشترى ويُهدى وينتقل معها).

- ما هي واجبات القن تجاه الإقطاعي؟

كثيرة هي واجبات القن تجاه الإقطاعي، وشبيهة بواجبات التابع الحر نحو سيده، لكنها أكثر إذلالاً واحتقاراً، فقط لأنه أدنى مرتبة من الحر، وهي:

1. الخدمات. 2. المقررات. 3. الاحتكارات. 4. ضرائب والتزامات متنوعة.

1. الخدمات: وتقسم إلى ثلاثة أنواع من السخرة، وهي:

أ. السخرة الأسبوعية: أي أن القن يعمل ثلاثة أيام بأرض السيد الإقطاعي، وثلاثة أيام بالأرض التي كان قد استلمها من ناطور الإقطاعي.
ب. السخرة الفصلية: أي أن القن يزرع ويحصد للإقطاعي ويجمع له المحاصيل.

ج. السخرة العامة: أي أن القن يمكن أن يسخر من قبل الدولة للقيام ببعض الأعمال العامة والمفيدة للجميع، كحفر الخنادق، وشق الطرق، وتنظيف الأنهار، وإنشاء السدود والجسور.

2. المقررات: وهي الضرائب التي يدفعها القن للإقطاعي، وهي:

أ. ضريبة الرأس: وتدفع عن كل شخص إن كان صغيراً أو كبيراً، منتجاً أو غير منتج، امرأة أو رجلاً، وتدفع بشكل نقدي أو عيني.
ب. ضريبة العُشر: أي أنه يدفع عُشر إنتاجه من كل محصول للإقطاعي.

3. الاحتكارات: الأشياء الأساسية، والتي لا غنى للفن عنها، كالطاحونة، الفرن، بئر الماء، ومعصرة الزيتون: كانت كلها تحت تصرف الإقطاعي، ولا يسمح للفن باستخدامها إلا مقابل دفع أجر.

4. ضرائب والتزامات متنوعة: هناك ضرائب والتزامات يدفعها الفن للإقطاعي بمناسبة مختلفة، منها:

- أ. يدفع الفن ضريبة للإقطاعي عندما يزوج الفن بناته، ذلك كحلوان.
- ب. يدفع الفن ضريبة للإقطاعي عندما يتزوج الفن من خارج أملاك السيد الإقطاعي كعقوبة له.
- ج. للإقطاعي سلطة قضائية على الأقدان، بحيث يستطيع أن يلزم أي فن مذنب بأن يدفع غرامة.
- د. إذا ما طرد الفن أو أعدم لسبب ما، فإن الإقطاعي يأخذ أرضه.
- هـ. إذا توفي الفن، فالذي يرثه يدفع ضريبة للإقطاعي.

- ما هي الأسباب التي تجعل من الفن حراً؟

أمر تحرير الفن، من الأمور الصعبة والمكلفة، لأنه مرتبط بسيد بنوعين من العلاقة:

1. التبعية الاقتصادية.
2. العبودية الشخصية.

لذلك أصبحت سبل تحريره قليلة وصعبة، لكنها موجودة وممكنة، وهي:

أ. إذا دفع شخص ثالث مبلغاً من المال يحدّده سيّده، بعد الموافقة. ولا يحق للqn دفع المبلغ بنفسه، لأنّ كل ما يملكه هو ملك للإقطاعي، حتى لو تبيّن أنّه يملك المال، يُؤخذ منه.

ب. إذا دخل الqn إلى الدير ليصبح راهباً. لكن بسبب سهولة هذه الطريقة، وهروب الكثير إلى الأديرة من أجل التحرير من العبودية، وضعوا شرط موافقة الإقطاعي، الذي هرب من عنده الqn، على دخوله الدير ليصبح راهباً.

ج. إذا هرب الqn إلى المدينة لأكثر من سنة يُصبح حرّاً، فظهر مثل يقول: "هواء المدينة نسيم الحرية". ثم وضعوا شرطاً، بعدم مطالبة الإقطاعي بالqn الهارب خلال هذه المدة. وهروبه يُحسب من تاريخ آخر مطالبة به من قبل سيّده.

- ما هي الأسباب التي أدّت إلى زوال فئة الأqنان؟

في أواخر القرن الحادي عشر أخذت فئة الأqنان بالتلاشي لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية:

أ. الحملة الصليبية الأولى، التي فتحت المجال أمام نحو عشرة آلاف من الأqنان تركوا أراضيهم، ليشتركوا في الحملة، وما تبعها من حملات كثيرة.

ب. تطوّر المدن الأوروبية منذ منتصف القرن الحادي عشر تجارياً وصناعياً، والذي شجّع الأqنان على الهروب إلى المدن، للعمل هناك بحرية.

ج. تحرير الأqنان من قبل الإقطاعيين، لأن إنتاجهم ضعيف، وتحويلهم إلى مأجورين، لتحفيزهم على زيادة الإنتاج. (الqn يعمل بنسبة من الإنتاج أو يُعطي نسبة للإقطاعي، أما المأجور، فإنّه يعمل عند الإقطاعي مقابل أجر متفق عليه، لذلك ليس أمامه سوى العمل)¹.

¹ - زيتون: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص 419-423.

3. فئة الفلاحين الأحرار:

في ظل النظام الإقطاعي كان عدد هذه الطبقة أيضاً قليلاً. هم الفلاحون، الذين يملكون قطعة من الأرض الزراعية، ولهم كل الحرية بالتصرف بها: زرعها، بيعها، تأجيرها. ولا يتبعون بشيء إلى السيد الإقطاعي، لكنهم يدفعون ضريبة خراج الأرض للإقطاعي، بحجة حمايتهم من دفع الضرائب للدولة، وغير مضطرين للخدمة العسكرية مع الإقطاعي. لكن مع تقدّم الوقت معظم هؤلاء تحولوا إلى فئة الأقتان، لأسباب عديدة، هي:

أ. رفضهم الخدمة العسكرية عند الإقطاعي، الذي كان يتحقّق الفرص ليعاقبهم بأشدّ العقوبات، منها تحويلهم إلى أقتان بعد أن يأخذ أرضهم بالمصادرة أو بالوراثة أو بالشراء أو بحيلة ما.

ب. لظرف ما، خاصة في سنين الجفاف، كانوا يبيعون أنفسهم للإقطاعيين، لتشغيلهم أو لإيفاء ديونهم أو ليقفّاتوا وأسرهم.

ج. بانضمامهم إلى السيد الإقطاعي وتسجيل أرضهم باسمه، ليدافع عنهم ضدّ عدو أو معتصب أو من أجل إعفائهم من دفع ضرائب للدولة، فيصبحون تابعين له.

د. كثير من الأحيان يهبون أراضيهم للكنيسة أو للدير ليتخلصوا من دفع الضرائب للدولة أو للإقطاعي، أو بسبب إيمانهم الشديد، فيصبحون تابعين لهذه المؤسسة أو تلك ويصبحون أقتاناً بإرادتهم أو دون أن يدروا، والنتيجة واحدة.

العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في المدن

المدن - الصناعة - التجارة

- المدن الرومانية القديمة:

في العصور القديمة في الإمبراطورية الرومانية، كانت المدن تتطور بسبب الأمن والاستقرار والغنى. وبقي التطور حتى القرن الحادي عشر الميلادي، وكان هناك عشرات المدن، بلغ سكان المدن ما بين عشرة آلاف وأربعمائة ألف نسمة. كانت مدينة روما (عاصمة الإمبراطورية) أكبر مدينة في القرن الثالث الميلادي، حيث بلغ عدد سكانها حوالي أربعمائة ألف نسمة. وكانت المدن الرومانية تقريباً متشابهة من حيث هندستها العامة، حيث بجميعها يوجد معابد ومسارح ومدرجات وحمامات وقصور، وكانت تزين بأقواس النصر بعد كل انتصار على أعداء الرومان، لكن أزمة القرن الثالث الميلادي، وهجمات البرابرة، أثرت بشكل كبير على المدن الرومانية سلباً، حيث تعرضت الإمبراطورية الرومانية إلى كثير من الغارات البربرية ما بين عامي 257-275م، مما سبب قيام أسوار حول المدن. والسور كان له الدور الأكبر في وقف نمو المدينة، لأن المنازل التي بقيت خارج السور، هاجر سكانها أما إلى داخل المدينة أو إلى مدن أخرى أو إلى الريف، فغيرت الهجمات البربرية حياة الناس، وهجرت كثيراً من سكان المدن إلى الأرياف.

التضييق المستمر على المدن وحريتها جعل الطبقة الغنية على الخصوص تهاجر إلى الريف، مما أدى إلى شلل في حركتي الصناعة والتجارة في المدن. ومعظم المدن الحدودية سكنها البرابرة أو سكنوا في جزء منها، وفرضوا تقاليدهم وعاداتهم عليها. بعد هجرة الإقطاعيين والأغنياء من المدن إلى الأرياف، أدت الكنيسة الدور الأساسي والرئيسي في المدينة، حيث أصبح البابا، الذي يعين أسقف لكل مدينة، يكون فيها المسؤول الديني والمدني ويدافع عنها.

البرابرة وهجماتهم أثروا كثيراً بالنشاط الاقتصادي للمدن وجعلوه بطيء التطور، ثم أتت الفتوحات الإسلامية، وأقفلت البحر المتوسط في وجه أوروبا، فكانت ضربة موجعة للاقتصاد الأوروبي،

- الدور السلبي لهجمات البرابرة الجرمانيين والفتوحات الإسلامية على اقتصاد المدن الأوروبية (الرومانية) في ضوء نظرية المؤرخ البلجيكي "هنري بيرين":

خلال قرون عديدة كان يُتهم البرابرة الجرمان بانحلال الإمبراطورية الرومانية والحضارة القديمة، وبقي الأمر كذلك حتى مجيء المؤرخ البلجيكي "هنري بيرين"، ونشر كتابه (محمد وشارلمان)، عام (1936م). وكان وقع كتابه على أوروبا كالصاعقة، وقد ضاهى تأثيره أي مؤرخ أو فيلسوف أو مكتشف أو مخترع. واعتقد بأنه اكتشف الحقيقة الغائبة أو الضائعة، عندما عدَّ بأن الفتوحات الإسلامية وليس هجمات البرابرة هي التي أدت إلى:

- أ. إنهاء تجارة أوروبا مع الشرق.
- ب. خراب المدن الرومانية القديمة في أوروبا، القائمة على التجارة.
- ج. جعل الغرب الأوروبي يعيش على الاكتفاء الذاتي رغماً عنه.
- د. جعل الاقتصاد الأوروبي اقتصاداً زراعياً مغلقاً.

وكما هو معروف، بأن التاريخ يُصنع بالوثائق، وحيث لا وثائق، لا تاريخ، لكن "هنري بيرين" لم يعتمد على وثائق، فكان من واجبه طرح البديل، لذلك اعتمد على استنتاجات منطقية. منذ بدأت الفتوحات العربية، في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وتحرير بلاد الشام، وآسية الصغرى، ومصر، وشمال إفريقيا، حدث ما يلي:

- أ. زوال النقود الذهبية من أوروبا.
- ب. انقطاع ورق البردي عن أوروبا، والذي كان يأتي من مصر، للكتابة عليه.
- ج. انقطاع زيت الزيتون الآتي من الشرق العربي، والذي كان يستخدم للإضاءة، وفي الكنائس، وحلّت مكانه الشموع.
- د. انقطاع الأقمشة والمنسوجات الشرقية القطنية والصوفية والحريية.
- هـ. توقّف النبيذ الآتي من فلسطين والمستخدم في الكنائس.
- و. توقّف التوابل المستوردة من الشرق عبر أراضي الدولة العربية والإمبراطورية البيزنطية إلى أوروبا.

بعد هذه الدراسة توصل "هنري بيرين" إلى نتائج، وهي:

- أ. الإمبراطورية الرومانية لم تسقط نتيجة أزمة القرن الثالث، ولا نتيجة غارات البرابرة الجرمان على أراضيها.
- ب. غارات البرابرة الجرمان لم تشكل نهاية العصور القديمة، وبداية العصور المتوسطة.
- ج. الفتوحات الإسلامية، هي التي أسقطت الإمبراطورية الرومانية بعد استيلاء الدولة العربية الإسلامية على البحر المتوسط.
- د. الفتوحات الإسلامية، هي التي شكلت نهاية العصور القديمة، وبداية العصور الوسطى.

كالعادة اعترض كثير من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين على نظرية "هنري بيرين" الأحادية التفسير، كما اعترضوا من قبل على نظرية "كارل ماركس" الاقتصادية، وغيره من العلماء. لأنه في التاريخ لا يفسر حدث تاريخي ما، مهما كان صغيراً بسبب أو بدافع واحد، دائماً في التاريخ يوجد أسباب (قريبة وبعيدة،

مباشرة وغير مباشرة، باطنية وظاهرية)، ودوافع وظواهر ومظاهر ونتائج عديدة. مع ذلك عدّوا بأنّ هذه النظرية في معظمها صحيحة. لكن لا يمكن تحميل الفتوحات الإسلامية كل المسؤولية في إنهاء الحضارة القديمة وإدخال أوروبا في العصور الوسطى المظلمة، حيث كان التخلف والانحطاط والامية والفقر والتدهور في كل المجالات لمدة أكثر من خمسة قرون، بل المسؤول الأساسي هو الإمبراطورية الرومانية نفسها، التي ربطت نفسها باقتصاد مستورد، وبنيت حضارتها على التجارة بأنواعها (الداخلية والخارجية)، دون الاعتماد على نفسها، أو دون أن تطوّر زراعتها، وصناعتها على أراضيها في أوروبا، بل كان اقتصاد محض تجاري مستورد، مما كان يجعل حضارتها مهددة بالانهيار في أي وقت تتعرّض فيه لعدوان خارجي. لأنّه مجرد تعرضها إلى أزمة أو حرب تتوقّف تجارتها وتنهار صناعتها ويؤثر سلباً على زراعتها.

وعدّ المؤرخون بأنّ الضربة القاسية الموجهة ضد الإمبراطورية الرومانية كانت من أزمة القرن الثالث، وهجمات البرابرة الجرمان، مما جعلها تعيش أزمات داخلية وخارجية، ثم كانت الفتوحات الإسلامية، هي الضربة القاسية الموجهة إلى الإمبراطورية الرومانية المتعبة والمترنحة بالأساس، فأسقطتها، وجعلت أوروبا تعيش قروناً عديدة في ظروف العصور الوسطى بكل سلبياتها¹.

¹ - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج 1، ص 35-40.

القومونات

- تعريف القومون:

القومون، هو المدينة التي تحررت عن طريق ثورة مسلحة، وأصبحت ذات نفوذ سياسي. أو هو المدينة التي تتمتع بالحكم الذاتي وفقاً لقوانين وتنظيمات، في معظمها لصالح التجار والصناع.

ومنذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، كان التجار الصناع ضد طبقتي الأكليريوس والنبلاء، وضد سلطتي البابوية والإمبراطورية. وكان واجب هذه الطبقة تجاه الإمبراطور أو الملك هو دفع المال فقط دون أي التزامات أخرى.

- تاريخ القومونات:

ذروة الصراع بين القومونات وبقية الفئات والطبقات كانت في منتصف القرن الثاني عشر، وفي النهاية كان الانتصار من نصيب القومونات. كان نضال القومونات في البداية من أجل الاعتراف بها، ثم تحول فيما بعد من أجل الاستقلال.

أولى القومونات في التاريخ كانت في إيطاليا، في القرن الحادي عشر، عندما اتفق التجار والصناع والنبلاء من أجل تشكيل اتحاد فيما بينهم لتحطيم نفوذ الأسقف في المدينة. هكذا شكل القومون في البداية قوة سياسية ضد قوى أخرى.

وكانت فترة القومونات ما بين (1100-1400م). بدأت في إيطاليا ثم امتدت إلى فرنسا وألمانيا وإنكلترا. والسبب الرئيسي في انتصار القومونات في

البداية هو وقوف الملوك والأمراء إلى جانبهم ضد العدو الأساسي لهم في إيطاليا: الأساقفة.

استقلال القومونات السياسي أدى فيما بعد إلى تقدم اقتصادي وحضاري، لكن لم تكن نتائجه واحدة بالنسبة لكل الدول، بل كانت نتائجها مختلفة. ففي فرنسا انتهت حركة القومونات بالرضوخ إلى سلطة الملك، وفي إنكلترا اندمجت المدن في نظام برلماني ذي فائدة كبيرة للدولة والمجتمع. أما في إيطاليا وألمانيا فلأنه لا يوجد حكومات مركزية، كانت قد وصلت حركة القومونات إلى اتحاد تجاري وحربي بين مدنها. ومنذ القرن الثاني عشر تشكل مجلس القومون، وبدأ في مدن القومونات انتخاب رئيس مجلس القومون (كسلطة مركزية مستقلة)، وكانت أهم أعمال هذا المجلس، هي:

- أ. يشرف المجلس على التجارة والصناعة والأمور المالية في القومون.
- ب. ينظم المجلس تموين المدينة بما تحتاج إليه.
- ج. ينشئ مجلس القومون المدارس، التي تحتاجها كل مدينة.
- د. يقوم المجلس بتجهيز جيش المدينة للدفاع عن مصالحها ضد كل معتد.

كانت الضرائب في النظام الإقطاعي محدّدة على القرية أو الشخص أو الأرض، وتعود كلها للإقطاعي. أما في نظام القومونات فكانت الضريبة تجمع حسب دخل الفرد، وللفادة العامة، حيث يقومون ببناء طرق أو جسور أو سدود أو مدارس... الخ.

مع كل هذه الإيجابيات في نظام القومونات، الذي كان يلامس النظام الاشتراكي، مع تقدّم الزمن تحوّلت مدنه إلى كيانات متنافسة، تشبه حركة استعمارية، لأسباب عديدة، هي:

- أ. الخلافات على الحدود الإدارية بين هذه المدن.
- ب. الخلافات على ضرائب الطرق والجسور.
- ج. التنافس بين أسواق هذه المدن الصناعية- التجارية.
- د. التنافس على الأراضي الزراعية وأراضي البور - المشاع.
- هـ. الأحقاد المتوارثة بين المدن، والخلافات العائلية.
- و. الصراع بين البابوية والإمبراطورية، أي بين السلطة الزمنية المتمثلة بالإمبراطور أو الملك وبين السلطة الدينية المتمثلة بالبابا⁽¹⁾.

النقابات

- نقابات التجار:

أول النقابات كانت للتجار، وكان هدفها الأولي والأساسي هو حماية التجار من الإقطاعيين، وحماية أسواقهم، وتنظيم شؤونهم. بقي الأمر هكذا حتى اعترفت السلطات بهذه الطبقة الجديدة، وحصلت على نظام مستقل في القضاء.

- النقابات الحرفية:

كما ذكر أعلاه، في البداية تشكلت نقابات التجار، وعندما جاء الصناع للمدينة أصبحت نقابة التجار مسؤولة عنهم. لكن الصناع استأثروا من هكذا وضع، وانسحبوا من النقابة، وشكلوا نقابة تخصهم بجميع فئاتهم وحرفهم. بعد ذلك أصبح لكل حرفة نقابة، ولكل نوع من الصناعات نقابته الخاصة، لدرجة أنه أصبح نقابة للذين يصنعون أحذية جديدة، ونقابة للذين يصلحون القديمة.

(1) زيتون: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، ص 431.

مع تقدّم الوقت وضعوا لهذه النقابات كثيراً من القوانين، لرعاية المصالح الاقتصادية لأعضائها.

- ما هي قوانين النقابات الاقتصادية؟

- أ. لا يُسمح لأي شخص من خارج النقابة بمزاولة حرفة لها نقابة.
- ب. يُمنع استيراد بضائع منافسة للبضائع التي تنتجها النقابة.
- ج. اشترط على كل شخص يدخل النقابة أن يكون مسيحياً، مخلصاً سياسياً، وماهراً فنياً.
- د. حُدّدت ساعات العمل، وما يزيد على ساعات العمل يعتبر إضافة.
- هـ. حُدّدت الأجور، حتى لا يستغل صاحب العمل العاملين عنده.
- و. حُدّد شكل السلع، وسعر كلفة البضائع، وسعر المبيع حتى لا يكون هناك احتيال واستغلال.
- ز. الطالب الذي يتعلم حرفة، يدفع خلال فترة تعلمه ما بين سنتين وسبع سنوات.
- ح. يُدفع أجرة للذي أنهى تعلمه حرفة، مقابل عمله، إذا ما استمر بالعمل بنفس المكان.
- ط. الطالب الذي أكمل تعلمه حرفة، يُصبح معلماً بتقرير لجنة تشكّل، من أجل تقييم عمله ومدى إبداعه. فيما بعد أصبح من الصعب أن يصبح الطالب معلماً إلا بالوساطة والقرابة والنفوذ.
- ي. حُدّدت المقاييس والمكاييل والموازين حتى لا يحصل غش وخداع أثناء عمليات البيع والشراء.
- ك. مُنِع على العامل ترك العمل، ومُنِع طرده دون سبب مُبرّر ومقبول.

ل. حُدِّدَ مكان العمل والبيع، أما في بيت المعلم أو في محل مخصص لهذا الشيء.

- ما هي مثالب النقابات، ومساوئها؟

1. النقابات بعد أن استلمت مهامها في المدينة، وترأست على العمال وأصحاب المعامل، تحولت إلى ديكتاتورية، وكأنها حكم ملكي أو إمبراطوري.
2. كل نقابة حدّدت عدد العاملين بالحرفة المسؤولة عنها، ومنعت الكثيرين من العمل، مما أدى إلى وجود طبقة عاطلة عن العمل (البطالة).
3. لم تجد حلاً لمشكلة المنافسة بين العمال والمعلمين مما أدى إلى مشاكل.
4. لم تسمح باستخدام آلات جديدة، إلا التي تقرها النقابة، مما قتل روح الابتكار والتجديد، فكان المبدعون دائماً خارج النقابة، أو يخرجون منها، مثال: كان تبييض القماش يتم بعملية الضغط بالخشب، لكن منذ القرن الثاني عشر، تم ابتكار طريقة التبييض بقوة دفع الماء، والنقابة لم تسمح بذلك، فقامت الورش كلها خارج إطارها. وكذا صناعة الصوف، قامت ورشه أيضاً عند الإقطاعيين في الأرياف¹.

طرق النقل التجارية المستخدمة في أوروبا العصور الوسطى

هناك ثلاثة أنواع من طرق النقل التجارية:

¹ - ج.ج. كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق: جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص 195-200.

1. الطرق البرية. 2. الطرق النهرية. 3. الطرق البحرية.

1. الطرق البرية:

كان هذا النوع من الطرق يعاني الكثير من العقبات، هي:

- أ. ضعف وسائل المواصلات، حيث استخدم التجار، الخيول والبغال والعربات لنقل البضائع.
- ب. اختفاء الطرق الرومانية القديمة المرصوفة بالحجارة.
- ج. قلة الجسور المقامة على الأنهار، لأن معظمها كان قد انهار، بسبب القدم والأهمال والهزات الطبيعية، وقلة الصيانة والترميم، والفتن والحروب.
- د. كثرة اللصوص وقطاع الطرق، بسبب الفوضى وغياب الأمن .

واستفاد التجار كثيراً من السلام الذي ساد بفضل الكنيسة من خلال سلام الله، وهدنة الله. واستفادوا من اهتمام الكنيسة والحكومات بإنشاء الطرق وحمايتها. مع ذلك كانوا يتحركون بشكل قوافل، ومعهم مسلحون، ثم شكلت بعض المدن أخلاقاً، خاصة في الدول التي لا يوجد فيها سلطة مركزية كألمانيا وإيطاليا، كحلف الراين والعصبة الهانزية، وأقيمت الفنادق والخانات في الطرق.

الفنادق من أجل راحة التجار، وإقامتها، والخانات من أجل حيواناتهم. والكنائس والأديرة أدت دوراً كبيراً في هذا المجال، حيث كانت تستقبل التجار للإقامة مقابل إيجار.

2. الطرق النهرية:

كان هذا النوع من الطرق يعاني بدوره من بعض العوائق، وهي:

أ. تجمّد مياه الأنهار في بعض الأشهر ، ما بين كانون أول وشباط.
ب. فيضانات الأنهار في فصل الربيع، بسبب ذوبان الثلوج.
ج. الرسوم الجمركية التي كانت تدفع لكل إقطاعي يمر النهر بأرضه، لذلك
شكّل التجار اتحادات فيما بينهم، وجمعوا الضرائب، لتعميق مجرى الأنهار في
بعض الأماكن وخاصة بعد فصل الفيضانات،

وبناء أحواض مناسبة كي تستطيع القوارب والسفن الرسو فيها.

3. الطرق البحرية:

هذا النوع كان أفضل الأنواع على الإطلاق ، لعدة أسباب :

أ. النقل البحري معفى من كل أنواع الضرائب.
ب. حمولة السفن كبيرة، لا تقارن بحمولة الدواب والعربات، ولا حتى بحمولة
قوارب الأنهار.
ج. إيجارات النقل رخيصة، بالمقارنة مع غيرها.

عندما كان هناك جهل بالبحر وتياراته واتجاهاته، كانت السفن تبحر بالقرب
من الشاطئ، لكن بعد أن استعمل الأوربيون البوصلة، بدؤوا يدخلون بأعماق
البحار، دون خوف من فقدان الاتجاه، ودون خوف من الضياع.

كانت السفن تسير بالمجاديف، التي يعمل عليها العبيد. وتتحرك كأساطيل
مسلحة لحمايتها من القراصنة في البحار. وكان من واجب كل مدينة أو إمارة أو
دولة أن تسيّر دوريات في البحار، القريبة منها من أجل تطهيرها من القراصنة،
على سبيل المثال: كانت البندقية (فينيسيا)، تلاحق القراصنة في البحر
الأدرياتيكي.

مع كل هذه التسهيلات، كان هناك عقبة أساسية تعترض النقل البحري، وهي جنوح أي سفينة إلى شاطئ ما، يجعل هذه السفينة ملكاً للإقطاعي، صاحب الأرض المقابلة للشاطئ. (هذا عُرف إقطاعي كان سائداً آنذاك)¹.

الأسواق

في العصور الوسطى كانت تقام في المدن أسواق أسبوعية محلية للمنتجات الزراعية والحيوانية والنسيجية، وبقي الأمر على هذا الحال حتى نهاية القرن العاشر الميلادي. لكن منذ القرن الحادي عشر الميلادي، بدأت الأسواق الكبيرة والدائمة تقوم في بعض المناطق، وأشهرها:

- أسواق الشامبانيا:

قامت هذه الأسواق في منطقة الشامبانيا شمال شرق فرنسا، منذ القرن الثاني عشر الميلادي. تقع هذه المنطقة في طريق التقاء بحر الشمال مع البحر الأبيض المتوسط. وبسبب الفائدة الكبيرة لهذه الأسواق، حاول حكام إقليم الشامبانيا حماية الطرق الواصلة إليها، وإقامة المشافي والفنادق والخانات، والحفاظ على النظام والأمن والاستقرار.

أعمال هذه الأسواق قامت وفق تنظيمات دقيقة، وأشرف على تنفيذها موظفو الكونت (حاكم الإقليم)، ورُتبت زمنياً بحيث تغطي كل أيام السنة. وتعرض بالسوق بضائع من مختلف مناطق العالم المعروف وقتذاك. في الصباح كانت تدق الأجراس لفتح السوق، ومساءً تدق لإغلاقه، بأوقات محددة. كل سوق يستمر بحدود الخمسة أسابيع. في الأيام العشرة الأولى يباع فيه الصوف، وفي الأيام

¹ - عاشور: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، ص 452-458.

العشرة الثانية تباع الجلود والفراء، وفي الأيام الثالثة الأخيرة تباع البضائع التي توزن ونكال، والأيام الخمسة الأخيرة من أجل التصفية والجرد ودفع الرسوم ووضع الأختام والإغلاق والاستعداد لسوق آخر، بعد تنظيفه وترميمه وتجهيزه.

في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي أغلقت أسواق الشامبانيا، لعدة أسباب، هي:

- أ. ضم ملك فرنسا "فيليب الرابع" (1285-1314م) أسواق الشامبانيا إلى سلطته، وفرض عليها ضرائب كبيرة، ألحقت الأضرار بها.
- ب. في القرن الرابع عشر الميلادي أصبح هناك طرق برية جديدة عديدة بين شمال أوروبا وجنوبها.
- ج. عام (1317م) بدأت البندقية تستخدم طريقاً جديداً بحرياً بين البحر المتوسط وإنكلترا وشمال فرنسا.
- د. أنشأت الشركات الكبرى أسواقاً دائمة في مدن أوروبية كثيرة¹.

المصارف

- نشأة المصارف:

كان لكل أمير الحق في سك عملته الخاصة، لذلك كان هناك عملات عديدة في أوروبا، فكان لا بد من وجود المصارف من أجل تبديل العملات خاصة للمسافرين والتجار. فأصبح عند كل صراف صندوق من الحديد، يصعب حمله أو فتحه، من أجل وضع العملات فيه، وكان يضع فيه أمواله وأموال من يرغب من الناس.

¹ - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج2، ص26-30.

ظهر في إيطاليا استخدام الحوالات خوفاً من نقل العملات في طرق محفوفة بالمخاطر، وظهرت الكمبيالات بين الدائن والمدين، وبين الشاري والبائع، وظهر نظام الدفع بالشيكات. كثرت الأموال والمصارف، فأصبح الصيارفة يتعاملون بالفائدة، وأكثر المستدينين، كانوا من الطبقة الأرستقراطية. وكان أول من عمل بالفائدة هم اليهود. التوراة تمنع العمل بالفائدة من اليهود أنفسهم: "إن أقرضت فضة لشعبي فلا تكن له كالمراي لا تضعوا عليه ربا"¹. لكن اليهود حللوا لأنفسهم العمل بالفائدة مع غير اليهودي. منذ القرن الثامن الميلادي، معظم دول أوروبا منعت اليهود من العمل بالزراعة وامتلاك الأراضي، مما دفعهم للعمل بالصيرفة والفائدة. ثم عادت الدول الأوروبية (إنكلترا- فرنسا- أسبانيا) إلى اضطهاد اليهود لعملهم في هذا المجال، وبلغ الاضطهاد أشده في القرن الثاني عشر الميلادي.

مع أن الكنيسة حاربت الفائدة "أحسنوا وأقرضوا ولا ترجون شيئاً"²، لكن التجارة والربح السريع والأموال الكثيرة جعلت المسيحيين يعملون بالصيرفة والمعاملات المالية والفائدة بدلاً عن اليهود منذ القرن الثالث عشر، خاصة في إيطاليا. وبدأ التعامل بالفائدة بالاحتتيال على القانون والكنيسة، مثلاً: شخص يعطي مبلغاً ما لشخص آخر، ويسجل عليه كمبيالة أو سند أمانة بتسديد مبلغ أكبر من المبلغ المدفوع، أي أنه يسجل المبلغ مع الفائدة على أساس هو رأس المال، هكذا يكون قد أخذ فائدة دون أن يسميها. وفي القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت في إيطاليا البنوك، أولها كان بنك القديس جورج في مدينة جنوا، ثم بنك في مدينة

¹ - الكتاب المقدس، العهد القديم، الخروج: 22: 25.

² - الكتاب المقدس، العهد الجديد، لوقا، 6: 35.

فلورنسا، ثم بدأت البنوك تنتشر في أوروبا، التي كانت تقدّم خدمات كبيرة حتى للملوك والبابوات¹.

العصبة الهانزية

تدعى بالعصبة الهانزية أو الهنسية، والتسمية مشتقة من الكلمة الألمانية (هانسا)، التي تعني اتحاد مجموعة من التجار أو المحاربين.

منذ القرن الثاني عشر الميلادي، أصبحت المدن الألمانية قوة اقتصادية كبيرة، وقام بعض الملوك الألمان بدعم هذه المدن، وحموها ضد تدخل الأمراء الإقطاعيين والأساقفة. وشكّل صناع وتجار المدن نقابات خاصة بهم لحماية مصالحهم، وابتعدوا عن الصراعات القائمة بين الأمراء والأساقفة من جهة، والملوك والأباطرة من جهة ثانية.

أسست مدن شمال شرقي ألمانيا مراكز تجارية حتى خارج ألمانيا بزعامة مدينتي هامبورغ وليوبك، وأسست مدن شمال غربي ألمانيا مراكز تجارية خارج ألمانيا أيضاً بزعامة كولونيا وبروجز في بلجيكا ولندن. حتى إن الإنكليز سمّوا التجار الألمان بالشرقيين (إيسترنغ)، والكلمة تحولت فيما بعد لتعطى إلى العملة الإنكليزية الجنيه الإسترليني. شكّلت هذه المدن تحالفات للوقوف بوجه لصوص الطرق، وقراصنة البحار، وطمع الأمراء، وتدخل الأساقفة.

وأول اتحاد قام بين مدينتي ليوبك وهامبورغ كان عام (1230م)، ثم توسّع هذا التحالف فيما بعد. وكان في البداية اتحاداً تجارياً فقط، وبقي في نمو وتطور حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، عندما شكّلت المدن العصبة الهانزية،

¹ - فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص 144-146.

والتي كان من أهم أهدافها: حماية تجارتها، والبحث عن أسواق والتوسع في التجارة والغنى. لذلك شكلت هذه العصبة قوة برية وبحرية، غذتها بضرائب العصبة، وأصبح لها جيش بري وأسطول بحري تهابه الدول. حتى عندما حاول ملك الدانمارك "والديمار" (1340-1375م)، فرض ضرائب على العصبة، هاجمته جيوشها وهزمته شر هزيمة، وفرضت هيبتها على الدول الإسكندنافية، لدرجة أصبح بيد العصبة فترة من الزمان تعيين ملوك هذه الدول، أو على الأقل، يجب أن تكون العصبة راضية عن كل ملك جديد هناك. لكن ما إن أتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، حتى بدأت تضعف هذه العصبة، إلى أن انهارت في نهاية المطاف، وكان لهذا الانهيار أسباب عديدة، منها:

- أ. محاربة الأمراء الألمان الإقطاعيين العصبة، أما تحاسداً وإما لإجبارها على دفع الضرائب.
- ب. النزاع الشديد بين مدن العصبة من جهة، ومدن من خارج العصبة من جهة ثانية.
- ج. الصراع المستمر بين مدن العصبة أنفسهم أما تنافساً وإما تحاسداً.
- د. ظهور القوميات، وتبلور الدول القومية الأوروبية، حيث أصبح ولاء مدن العصبة إلى المملكة أو الدولة التابعة لها، أكثر من ولائها للعصبة الهانزية الألمانية.
- هـ. سنة (1425م) ، كانت كارثية بالنسبة للعصبة، بسبب توقف أرباحها من تجارة أسماك الرنجة، التي كانت تقع في مصائدّها في بحر البلطيق، حيث حوّلت هذه الأسماك لأسباب مجهولة طريقها إلى بحر الشمال.

و. ظهور الطرق التجارية الجديدة، خاصة في أواخر القرن الخامس عشر، وظهور دول مهيمنة تجارياً كإلبرتغال وأسبانيا، ثم إنكلترا وفرنسا وهولندا¹.

التطور الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا (في الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى)

- تطور الزراعة:

تطورت الزراعة عندما حلت العلاقات الإقطاعية مكان العلاقات العبودية، التي كانت سائدة في العصور القديمة، فالفلاح الذي يستثمر ارض الإقطاعي مقابل حصوله على حصة من إنتاجها، صار يضاعف من جهوده من أجل زيادة الإنتاج، إذ كلما ازداد الإنتاج ازدادت حصته الخاصة، أما العبد الذي يشتغل في أراضي الملاك الكبير مقابل حصوله على قوت يومي زهيد، فلم تكن له مصلحة شخصية في زيادة الإنتاج. كما ازدادت نسبة مساحة الأراضي الزراعية بسبب استصلاح الغابات والمروج والأراضي البور وتطور الأدوات الزراعية واستعمال الأسمدة.

- نشوء الصناعة وانفصالها عن الزراعة:

في الزمان القديم كان الفلاحون الأوروبيون يصنعون لأنفسهم ما يحتاجونه من أدوات زراعية وألبسة وأحذية وأدوات منزلية، وعندما ازدادت الاحتياجات وتطورت صار يصعب على الفلاحين أن يصنعوا كل ما يحتاجونه، فأتخذت فئة من الفلاحين تتخصص في صنع الأدوات اللازمة لجميع سكان القرية، فظهر في كل قرية حداد ونجار وغيرهم من أصحاب المهن، الذين يشتغلون في الصناعة معظم

¹ - حاطوم: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص 397-402.

أوقاتهم. وبنتيجة تطور أدوات العمل، أصبح إنتاج الفلاح الزراعي يزيد عن استهلاكه، فصار يبادل الفائض مع الأدوات الصناعية، وهذا ما جعل الصناع في غنى عن العمل الزراعي، فأدّى بالتالي إلى انفصال الزراعة عن الصناعة في القرى، حيث كانت الأدوات التي يصنعها الصناع المتخصصون أجمل وأكثر اتقاناً من الأدوات التي يصنعها الفلاحون، ومع مرور الزمن شرع الصناع يغادرون ورشهم بحثاً عن زبائن آخرين وهرباً من الإقطاعيين الذين يستغلون جهودهم ويأخذون قسماً من صناعاتهم كضريبة إقطاعية من جهة أخرى.

- نشوء المدن الصناعية والتجارية:

توافد الصناع المتجولون وغيرهم على الأديرة والحصون الإقطاعية والموانئ والمدن القديمة لبيعوا مصنوعاتهم أو يقدموا خدماتهم الفنية لسكان هذه المراكز من جهة، ولتحميهم سلطاتها من جهة أخرى. إلى جانب هذا فقد سمحت الأديرة والحصون الإقطاعية والمدن القديمة للصناع بالإقامة في جوارها نظراً للفائدة التي تعود عليها من فرض الضرائب على هؤلاء الصناع، ومن النشاط الاقتصادي الذي يحدثونه في المنطقة، وهكذا نشأت مجمعات أو قرى صناعية بالقرب من الأديرة والحصون الإقطاعية والمدن القديمة أو عند النقاء الطرق ومعابر الأنهار والموانئ البحرية الملائمة لاستقبال السفن، وازداد عدد السكان تدريجياً في هذه القرى الصناعية (التي نشأت مجدداً)، فتطوّرت إلى مدن كبيرة، ففي القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين نشأت في أوروبا مدن جديدة ذات طابع صناعي-تجاري، بينما كانت مدن العصور القديمة والحقبة الأولى من العصور الوسطى ذات طابع زراعي، وكان نشوء المدن الصناعية والتجارية في أوروبا ظاهرة جديدة في المجتمع القطاعي، حيث تشكّلت طبقة اجتماعية جديدة هي الطبقة العمالية والصناعية كما نشطت المبادلة التجارية بين الريف والمدينة، وفيما بعد نشأت

المدن الصناعية والتجارية في شمال فرنسا وفي هولندا وإنكلترا وألمانيا وتشيكيا وجنوب بحر البلطيق، وفي القرنين العاشر والحادي عشر نشأت في روسيا بعض المدن الصناعية- التجارية، كمدينة كييف، تشرنيغوف، سمولنسك، بولتسك، ونوفغورد¹.

- المحلات الصناعية:

لم تتكوّن معامل آلية كبيرة في المدن الأوروبية في العصور الوسطى، بل تكونت فيها محلات صناعية صغيرة تقوم على العمل اليدوي، وكان عدد العاملين في المحلات الصناعية قليلاً، فالصانع الأول في المحل الصناعي هو صاحب المحل، ويليّه صانع أتقن صناعته جيداً، يعمل منذ شروق الشمس حتى غروبها مقابل الحصول على أجره معينة، وبالإضافة إلى صاحب المحل والصانع الماهر المأجور، فقد وجد في كل محل صناعي عدد قليل من الأولاد الذين يشتغلون فيه بغية تعلم المهنة خلال مدة تتراوح عادة بين 4 و10 سنوات كان صاحب المحل يتعهد بإطعام الصانع المتمرن، في حين يتعهد والده بكسائه، وعندما يتقن الصانع المتمرن المهنة يتقاضى أجره معينة من صاحب المحل إلى أن يغادر هذا المحل ليؤسس محلاً صناعياً خاصاً به، وصاحب المحل الصناعي هو الذي يشتري المواد الخام فيصنعها ثم يبيع الصناعات إلى الزبائن في محله أو في سوق المدينة.

¹ - فرح: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص 243.

- النقابات الصناعية والتجارية:

ظهرت النقابات الصناعية في القرن العاشر بإيطاليا، وفي القرن الحادي عشر في فرنسا وإنكلترا وألمانيا، حيث كان لكل مهنة نقابة لتصريف مصنوعاتهم ودراسة أمورهم ولحمايتهم من المنافسة، ولوضع قوانين الانتساب وأنظمة القواعد للنقيد بها من جميع الأعضاء المنتسبين إليها. وحددت أنظمة النقابات نوعية المصنوعات والمقاييس والأوزان وكمية الإنتاج، ونظمت العلاقة بين صاحب المحل والصانع المتمرن، كما نظمت أمور البيع والشراء أيضاً حيث كان لكل نقابة رئيس لمراقبة تنفيذ أنظمة الرقابة ومعاينة كل مخالف لهذه الأنظمة. ولكي يسيطر أعضاء النقابة على سوق مدينتهم، كانوا يطردون من المدينة الصناع غير المنتسبين إلى النقابة، ومنع المنافسة بأنواعها، حيث زاد عدد الصناع وازدادت المنافسة وعلى هذا لم يعد أصحاب المحلات الصناعية يسمحون للصناع الذين يعملون لديهم أن يغادروا محلاتهم ليؤسسوا محلات خاصة بهم. ولم يقتصر دور النقابة على الجانب الاقتصادي بل كان لها دور اجتماعي في حياة المدينة، وكان أعضاء النقابة الواحدة يشتركون في إحياء الأعياد وإقامة الحفلات، وكان هناك صندوق لمساعدة المحتاجين والمتضررين من أعضاء النقابة وأسرتهم، وكان للنقابة دور سياسي وعسكري، حيث ناضلت وسيطرت على إدارة المدينة، وشكلت فرقاً عسكرية للدفاع عن المدينة.

- صراع المدن مع الإقطاعيين:

خضعت كل مدينة من المدن الصناعية والتجارية (التي نشأت في أوروبا في العصور الوسطى) لإقطاعي معين (السنير)، وكان سكان المدينة يعطونه قسماً من مصنوعاتهم، كضريبة إقطاعية، وكانوا يهاجمون المدن الأخرى بفرقهم العسكرية، وينهبون المحلات الصناعية والتجارية، فازداد التذمر والاستياء في بعض المدن

من تسلط الإقطاعيين، فبدأ السكان ينظمون قواهم وجهودهم للنضال ضد السادة الإقطاعيين وتحرير المدينة من تسلطهم، وأحاطوا مدينتهم بالأسوار والخنادق، وجيزوا الفرق العسكرية لحمايتها، فانقلبت المدن حصوناً محصنة لا يمكن احتلالها إلا بقوات عسكرية كبيرة. وقد نجحت بعض ثورات المدن ضد الإقطاعيين، فنالت المدن استقلالها، وتحزرت من سلطتهم، في حين فشلت بعض الثورات الأخرى في تحقيق أهدافها.

- صراع النقابات مع السلطات الجديدة الحاكمة في المدينة:

بعد الصراع للتحرر من التسلط الإقطاعي، انتقلت السلطة من الإقطاعي للأغنياء (كبار التجار، الصيارفة المرابون، كبار الملاكين العقاريين والزراعيين، الفرسان = باتريشيا = وجهاء المدينة)، وشكلوا مجلس المدينة، فكانوا يشرفون على الخزانة والجيش والتجارة والصناعة والأمن والقضاء، وغير ذلك من الأمور. وأخذ يفرض هذا المجلس الضرائب الباهظة على الفقراء، ويمنح الأغنياء الامتيازات والتسهيلات المختلفة. ونتيجة هذا التمييز في الحقوق والواجبات بين الأغنياء والفقراء، شرعت تخوض النقابات الصناعية والتجارية نضالاً جديداً ضد الحكام الأغنياء بغية استلام السلطة السياسية والإدارية في المدينة، فاستمر هذا النضال منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر. ولم تكن نتائج النضال واحدة في جميع الدول الأوروبية، بل نجحت في بعضها وفشلت في أخرى، حيث تحالفت النقابات مع الإقطاعي ضد السلطات الحاكمة، التي طلبت المساعدة من الملك، مع ذلك انتصرت النقابات، وتشكلت طبقة أرستقراطية جديدة تضم رؤساء النقابات والصناع الأغنياء وبعض الأرستقراطيين، ولكن صغار الصناع استمروا في نضالهم ضد السلطات الأرستقراطية بغية الحصول على حقوقهم وتمثيلهم في السلطة والإدارة، وهكذا مرت المدن الأوروبية بمراحل عديدة من النضال:

أ-نضال ضد الإقطاعي. ب-نضال ضد الباتريشيا. ج-نضال ضد الأرستقراطية الجديدة.

الاستكشافات الجغرافية في أواخر العصور الوسطى

- انعدام التقدم العلمي في العصور الوسطى:

أنتج العقل البشري آداباً رفيعة، ومنشآت معمارية عظيمة، وديانات وفلسفات جلييلة، وروائع من تماثيل منحوتة، وصور منقوشة، وهي روائع فنية لم تفقد شيئاً من جاذبيتها على مر العصور وفي هذه المرحلة الزمنية كذلك بحث العقل البشري مسائل الروح والقلب والحواس وكل شيء عدا الطبيعة، فبقيت وسائل النقل حيث هي منذ أقدم العصور، ولم تستطع ثلاثة آلاف من السنين أن تبدل الحصان وسرعته بوسيلة أسرع، أو الريح وقوتها في تسيير السفن الشراعية بقوة أخرى، وبدأ التطور والتغير بعصر البخار والبتروول والكهرباء.

- نمو المعلومات الجغرافية في أواخر العصور الوسطى:

نمت بأوروبا المعرفة الجغرافية بعد الحروب الصليبية بشكل كبير، وعرفوا بكروية الأرض، وان السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهي إلى الصين واليابان وجزر البهار. ثم عبر الجنوبيون، الصحراء الكبرى وبلغوا السودان وأسسوا لأنفسهم جالية بجنوب الصين سنة (1336م)، في حين أخذ البرتغاليون طريقهم في البحر جنوباً حول سواحل جنوبي إفريقيا، وتلقوا فنون الملاحة على أساتذتهم الجنوبيين، وصار للبنادقة أسطول تجاري في المياه الغربية باتجاه إنكلترا وبلاد الفلاندرز، واستخدموا أيضاً الخرائط الجغرافية العلمية.

- العلاقات القديمة بين أوروبا والشرق الأقصى:

لم ينشأ هذا الازدياد في المعرفة الجغرافية عن حب الاستطلاع أو روح المغامرة، بل كان منشؤه كذلك مغريات الثروة وغنى الشرق، فمنه جاء الحرير والتوابل والعطور. وفي القرن السادس الميلادي تم نقل دودة القز لبيزنطة، ثم انتشرت بأوروبا، وتوفر الحرير، وقضي على روح المغامرة. أما التوابل فلم تنقطع عن أوروبا يوماً من الأيام، غير أنها ظلت باهظة الثمن، والسبب في ذلك أن الهنود ثم العرب والأبحاش أغلقوا طريق البحر الأحمر في وجه الملاحين الرومانيين، الذين وحاولوا البحث عن طريق آخر بسبب المكوس الهائلة على مختلف أصناف التوابل، حيث كان طريق آسيا مفتوحاً أيام المغول لكنه طويل وشاق، ففي خلال الأعوام التي امتلأت بالسلام المغولي (1264-1368م) ساد الأمان، وبعده تيمور لنك انهارت التجارة مع الشرق، حتى مراكز التبشير بالشرق ذهبت أدراج الرياح.

- الطواف حول إفريقيا، ووصول الأوروبيين إلى الهند والصين:

نشر كتاب رحلة ماركوبولو بالشرق سنة (1299م)، الذي أحدث ضجة ونشر المعرفة عن الشرق، مختلفة عن القصص الخيالية سابقاً. هذا الكتاب فتح سلسلة لانهاية لها من الافتراضات والاحتمالات، خاصة لما اشترى دون بدور ألبرتغالي من مدينة البندقية نسخة من هذا الكتاب في سنة (1428م)، وأهداها إلى أخيه الأمير هنري الملاح (1415-1461م)¹. ثم أخذت فكرة الطواف بحراً حول إفريقيا تجذب إليها الكثيرين من المهتمين. هذه الفكرة من ألفي عام جذبت البعض

¹ - فرح، نعيم: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق،

1414-1415هـ/1994-1995م، ص 254.

للقيام بها، عندما أمر فرعون مصر "نكاو الثاني" (610 - 595 ق.م)، بإنشاء أسطولين: الأول في البحر الأبيض المتوسط، والثاني في البحر الأحمر. ويروي هيرودوت قصة الدوران هذه حول إفريقية مع أنه لم يصدّقها، بأن الملك (فرعون)، استأجر ملاحين فينيقيين، لاكتشاف ساحل إفريقية. واستغرق هذا الكشف ثلاث سنوات، حيث إنطلقوا من البحر الأحمر، وعادوا من مضيق جبل طارق إلى مصر. وحملوا معهم بعضاً من منتجات إفريقية، حصلوا عليها من الموانئ التي كانوا يرسون فيها .

يقول هيرودوت، بأنه سمع الرواية من الفينيقيين، بأن إسلامفهم عندما أبحرو كانوا يتحركون على مقربة من الشاطئ، وفي بداية الرحلة كانت الشمس تشرق عن يسارهم، ولكنهم عندما وصلوا إلى منطقة ما فإذا بالشمس تشرق عن يمينهم. وهذا يؤكد أن الرحلة انطلقت من مصر جنوباً، والشمس بالتالي تشرق عن يسار الملاحين، وعندما تركوا رأس الرجاء الصالح، واتجهوا شمالاً أصبحت الشمس بشكل طبيعي تشرق عن يمينهم¹.

وعندما سيطرت روما على مصر وطريق البحر الأحمر في القرن الأول قبل الميلاد، لم يجد الرومان أنهم في حاجة اقتصادية إلى محاولة الدوران حول إفريقية. ومنذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت جنوة تتنافس البندقية في ميدان التجارة مع الشرق، ولأن البندقية حالفت مصر، لم يكن أمام جنوة ثمة سبيل إلى فك احتكار البندقية لتجارة الشرق إلا بإحدى الوسيطتين:

¹ - أحمد، محمود عبد الحميد: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية، منشورات جامعة دمشق،

1421-1422هـ / 2000-2001م، ص 239-240.

إما بمحاربة البندقية، أو بمنعها من الاستفادة من الثروة التي تجنيها من
تجارة الشرق. الوسيلة الأولى فشلت، فحاولت الثانية، ولكي لا تدفع مكوساً للعرب
أوللماليك أو للأتراك قام أوجولنودي فيفالدوهو من أهل جنوه بالإبحار بسفينتين
كبيرتين للبحث عن الطريق البحري حول إفريقيا للوصول إلى الهند، غير أنه غرق
في سفينته قبالة الساحل الإفريقي، وفشل المشروع. وفي تلك الأثناء كان قد تعلم
البرتغاليون فنون البحار عن الجنوبيين، وتعلموا بناء السفن الكبيرة، والسير بها في
المحيطات، فتابعوا المشروع، ووصلوا إلى الهند، بعد عبورهم رأس الرجاء الصالح
سنة (1498م)، الذي يعوض الأوروبيين عن سقوط الإمبراطورية البيزنطية
وعاصمتها القسطنطينية (الأوروبية- المسيحية) في أيدي العثمانيين، ويفتح الباب
على مصراعيه لاكتشاف الشرق، واستغلال ثرواته ومنتجاته، وإقامة الإمبراطوريات
الأوروبية الحديثة، وحصار العالم الإسلامي.

المصادر والمراجع العربية

- 1- أحمد، محمد/ الناييف، حسام: تاريخ أوروبا الحديث، جامعة دمشق 2011-2012.
- 2- اينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، ط1، دار حسان، دمشق 1989.
- 3- باركر، ارنست: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، ط2، بيروت 1967.
- 4- براور، يوشع: الإسطيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس اللاتينية، ترجمة عبد الحافظ البنا، عين، الهرم 2001.
- 5- بيطار، أمينة: تاريخ العصر العباسي، جامعة تشرين، اللاذقية 1996-1997.
- 6- بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، ت: حسين مؤنس محمود زايد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، 1950م.
- 7- بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس و محمود يوسف زايد، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة 1950.
- 8- ج. ج. كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق: جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
- 9- حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، دار الفكر، دمشق، 1982.

- 10- الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (711-1492)، ط2، دار القلم، دمشق 1981.
- 11- الحريري، سيد: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1899.
- 12- الحويري، محمود محمد: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، دارالمعارف، ط3، 1995م.
- 13- الحويري، محمود محمد: اللومبارديون في التاريخ و الحضارة 568 - 774 م، ط1، دار المعارف، القاهرة 1986.
- 14- الحويري، محمود: الأوضاع في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة 1979.
- 15- الدبس، يوسف: تاريخ سورية الديني والدنيوي، ج4، الإسكندرية، دار نظير عبود، 1994م.
- 16- ديفز، ه كارلس: أوروبا في العصور الوسطى، ت: عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط1، 1958م.
- 17- ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج1، م3، دار الجيل، بيروت.
- 18- رانسيمان، ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، ج3، مملكة عكا، ترجمة نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة 1998.
- 19- رانسيمان، ستيفن: تاريخ الحملات الصليبية، مملكة القدس، ج2، ترجمة نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة 1996.
- 20- رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم، ج1، بيروت، دارالمكشوف، ط1، 1955م.

- 21- رودلى، دونالد: حضارة روما، ت: فاروق فريد، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة.
- 22- زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو 1986.
- 23- زكار، سهيل/ جوني، وفاء/ اسماعيل، اكتمال: حروب الفرنجة (الصليبية) جامعة دمشق 2007-2008.
- 24- زيتون، عادل: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، نشر جامعة دمشق، 1981-1982م.
- 25- السامرائي، خليل إبراهيم، وطه، عبد الواحد ذنون، ومطلوب، ناطق صالح: تاريخ
- 26- سميث، جوناثان ريلي: الحملة الصليبية الأولى و فكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد الشاعر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999.
- 27- الشارترزي، فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان.
- 28- الشهابي، قتيبة: صمود دمشق أمام الحملات الصليبية، وزارة الثقافة، دمشق 1998.
- 29- صبره، عفاف السيد: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية، بيروت، دار النهضة العربية، 1982م.
- 30- صبره، عفاف سيد: الإمبراطوريتان البيزنطية و الرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، بيروت 1982.

- 31- الصطوف، عبد الكافي، العلي، راغب، الصياح، طليعة: دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، 1997-1998م.
- 32- الصوري، ولیم: الحروب الصليبية، ج1، ترجمة حسن حبشي، الأهرام، القاهرة 1991.
- 33- طرخان، إبراهيم علي: دراسات في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1958.
- 34- عاشور، سعيد عبد الفتاح: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1976م.
- 35- عاشور، سعيد عبد الفتاح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1972.
- 36- عاشور، سعيد: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، دار القلم، القاهرة 1964.
- 37- عاشور، سعيد: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج1، ط2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1971.
- 38- عبد الحميد، رأفت: بيزنطة بين الفكر والسياسة، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1، 1997م.
- 39- عبيد، إسحق: الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع، بنغازي، 1975م.
- 40- العرب وحضارتهم في الأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 2004م.

- 41- العريني ، السيد الباز : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1968.
- 42- عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة، القاهرة 2000.
- 43- عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1986.
- 44- عمران، محمود: الحملة الصليبية الخامسة، دار المعارف، الاسكندرية 1985.
- 45- عمران، محمود: تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291، دار المعرفة الجامعية، القاهرة 2000.
- 46- عمران، محمود: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت 1991.
- 47- عوض، محمد: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق و الغرب، عين، الهرم 1999.
- 48- غنيم، اسمت: الحملة الصليبية الرابعة و مسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، القاهرة 1982.
- 49- غنيم، اسمت: الدولة الأيوبية و الصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1990.
- 50- فرح ، نعيم: تاريخ بيزنطة السياسي، ط 3، جامعة دمشق 1998 - 1999.
- 51- فرح، نعيم: الحضارة الأوربية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، 2010.

- 52- فرح، نعيم: تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط7، جامعة دمشق، 2007.
- 53- قاسم، قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، دار عين، الهرم 1999.
- 54- كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية و النهاية، ج1، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط5، عين، الهرم 1997.
- 55- كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية و النهاية، ج2، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين، القاهرة 1997.
- 56- الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1985م.
- 57- محمود، منى حسن أحمد: قاعدة نربونة ودورها في الجهاد ضد الفرنجة والتوسع في أوروبا 720-766م، ط1، عين، الهرم 1999.
- 58- الموسوعة العربية، المجلد الخامس، ط1، دمشق، 2002م.
- 59- نصر الله، سعدون: رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1995.
- 60- نورمان ف. كانتور: التاريخ الوسيط- قصة الحضارة البداية والنهاية، ت: قاسم عبده قاسم، ج1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط5، 1997م.
- 61- هيلستر، ورن: أوروبا في العصور الوسطى، ت: محمد فتحي الشاعر، مصر، مكتبة الأنجلو المصرية.
- 62- هيلستر، س. ورن: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، بور سعيد.
- 63- ورت، ابن تشارلز: الإمبراطورية الرومانية، القاهرة، 2003م.

- 1- Andrä, Jakob Carl: Grundriß der Weltgeschichte für höhere Lehranstalten, Voigtländer, Kresnach.
- 2- Bär, Adolf: Methodisches Handbuch der Deutschen Geschichte, Bd. 3, Ottonen und salier, gotha 1910.
- 3- Barraclough, Geoffrey: The Origins of Modern Germany, new-york 1984.
- 4- Berg, Dieter: Deutschland und seine Nachbarn 1200-1500, München 1997.
- 5- Bredow, Gabriel: Carl der Große, Altona 1814.
- 6- Breysig, Theodor: Jahrbücher des fränkischen Reiches 714-741 die Zeit Karl Martells, Leipzig 1869.
- 7- Contzen ,Leopold: Die Wanderungen der Kelten, Leipzig 1861.
- 8- СоветскийЭнциклопедическийсловарь,"СоветскаяЭнциклопедия", москва, изд.4, 1987г
- 9- Dahn, Felix: die Könige der Germanen; das Wesen des ältesten Königthums der germanischen Stämme und seine Geschichte bis zur auflösung des Karolingischen Rieches, München 1861.

- 10- Derichsweiler, Hermann: Geschichte der Burgunden bis zu ihrer Einverleibung ins Fränkische Reich, Münster 1863.
- 11- Dirlmeier, Ulf: Europa im Spätmittelalter 1215 – 1378, 2. Aufl., oldenbourger Grundriß der Geschichte, Bd. 8, München 2009.
- 12- Dümmler, Ernst: Geschichte des Ostfränkischen Reichs, Bd. 2, Berlin.
- 13- Ebeling, August Wilhelm: übersicht der deutschen Verfassungsgeschichte. Bd1. Meriwingen u. Karolinger, Schwerin 1857.
- 14- Ehlers, Joachim: die Entstehung des Deutschen Reiches, 4. Aufl., München 2012.
- 15- Ehlers, Joachim: Geschichte Frankreich im Mittelalter, Darmstadt 2009.
- 16- Elze, Reinhard/ Repgen, Konrad: Ein europäische Weltgeschichte, Bd. 1, 3. Aufl, Stuttgart 1994.
- 17- Fees, Irmgard: die Rgesten des Kaiserreichs unter den Karolingern 751–918, Bd. 2, Köln 2007.
- 18- Fried, Johannes: der Weg in die Geschichte, die Ursprünge Deutschlands bis 1024, Berlin 1994.

- 19- Friedl. Johannes: die Formirung Europas 840-1046, 3. Aufl. München 2008.
- 20- Gagern, ... von: Karl der Große Bruchstück aus der Nationalgeschichte. Darmstadt 1845.
- 21- Gibbon, Edward: Das Leben des Attila Königes der Hunnen , Lüneburg 1787.
- 22- Goetz, Elke: Geschichte Italiens im Mittelalter, Darmstadt 2010.
- 23- Gotthard, Axel: Das Alte Reich, 1495 – 1806, 2. Aufl., WBG, 2005.
- 24- Haas, Nikolaus: Geschichte des Slaven- lands an der Aisch und den Ebrach- flüßchen, Bd. 1, Bamberg 1819.
- 25- Hauerkamp, Alfred: Aufbruch und Gestaltung Deutschland 1056- 1273, München 1993.
- 26- Haverkamp, Alfred: Gebhardt Handbuch der Deutschen Geschichte, 12. Jahrhundert 1125 – 1198, 10. Aufl., Klett-Cotta 2001.
- 27- Hegewisch, Dietrich Hermann: Geschichte der fränkischen Monarchie von dem Tode Karls des Große bis zu dem Abgange der Karolinger, Hamburg 1779.
- 28- Hegewisch, Dietrich Hermann: Versuch einer Geschichte Kayser Karls des Großen. Leibzig 1777.

- 29- Hilgers: Karls der Große und die natürlichen Grenzen Frankreichs, Fr. Stein. Saarlouis 1866.
- 30- Hirsch, Ferdinand: Gebhardts Handbuch der Deutschen Geschichte, Leipzig 1913.
- 31- Hollegger, Manfred: Maximilian I.(1459-1519), Herrscher und Mensch einer Zeitwende, Stuttgart 2005.
- 32- Holzmann, Adolf : Germanische Alterthümer mit Text, Übersetzung und Erklärung von Tacitus Germania, Leipzig 1873.
- 33- Kaiser. Reinhold: Das Römische Erbe und das Merowingerreich, 3. Aufl., München 2004.
- 34- Keller, Hagen/ Althoff, Gerd: die Zeit der späten Karolinger und der Ottonen, Krisen und Konsolidierungen 888-1024, Klett-Cotta 2001.
- 35- Keller, Hagen: Zwischen regionaler Begrenzung und universalen Horizont, Deutschland im Imperium der Salier und Staufer 1024 – 1250, Berlin 1986.
- 36- Kohler, Alfred: Kaiser Maximilian I. und das Kaisertum, in: Georg Schmidt-von Rhein (H.g): Kaiser Maximilian I. Bewahrer und Reformator, Ramstein.
- 37- Köpke, Rudolf/ Dümmler, Ernst: Kaiser Otto der Große, Humblot, Leipzig 1876.

- 38- Krause, Johann Christoph: Geschichte der wichtigsten Begebenheiten des heutigen Europa, Bd. 2, Halle 1790.
- 39- Kunstmann, Heinrich: die Slaven, ihr Name, ihr Wanderung und die Anfänge der russischen Geschichte in historischonaomastlicher Ssicht, Stuttgart 1996.
- 40- Mannert, Konrad: Geschichte der Vandalen, Leipzig 1785.
- 41- Mannert, Conrad: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken. Bd. 2. Stuttgart 1832.
- 42- Mannert, Konrad: Geschichte der alten Deutschen besonders der Franken. Bd. 1, Cotta. Stuttgart und Tübingen 1829.
- 43- Martin, Jochen: Spätantike und Völkerwanderung, 4. Aufl, Oldenbourg, München 2001.
- 44- Maurer, Michael: Geschichte Englands, 3. Aufl., Stuttgart 2014.
- 45- Mawer, Allen: The Vikings, New York 1913.
- 46- Mensch, Ella: Leitfaden für den Unterricht in der Weltgeschichte. Bd. 3. Berlin 1910.

- 47- Menzel, Michael: Gebhardt der Deutschen Geschichte, Die Zeit der Entwürfe 1273 – 1347, Bd. 7a, klett cotta 2001.
- 48- Moraw, Peter: von offener Verfassung zu gestalterter Verdichtung, das Reich im späten Mittelalter 1250 bis 1490, ,Berlin 1985.
- 49- Noufal, Wadah: Kriege, Gesandtschaften, Machtpolitik, Die Beziehungen Zwischen dem Heiligen Römischen Reich Deutscher Nation und dem Osmanischen Reich 1520- 1541, Tübingen 2013.
- 50- Painter, Sidney: A History of the Middle Ages 284 – 1500, New York 1911.
- 51- pfister, Johann Christian von: Geschichte der europäischen Staaten, Geschichte der Teutschen, Bd.1, Hamburg 1829.
- 52- Pfister. Johann Christian von: Geschichte der Teutschen nach den Quellen. Bd. 1. Hamburg 1829.
- 53- Priz. Friedrich: Grundlagen und Anfänge Deutschland bis. 1056, 2. Aufl., München 1993.
- 54- Richter, Gustav: Annalen der Deutschen Geschichte im Mittelalter, Halle 1873.
- 55- Sarnowsky, Jürgen: England im Mittelalter, Darmstadt 2002.

- 56- Schimmelpfennig, Bernhard: Könige und Fürsten, Kaiser und Papst nach dem Wormser Konkordat, München 1996.
- 57- Schneider, Peter: Byzanz 565- 1453, 3. Aufl, Oldenbourg. München 2008.
- 58- Schneider, Reinhard: das Frankenreich, 4.Aufl., Oldenbourg , München 2001.
- 59- Schneider, Reinhard: Das Frakreich, 4. Aufl, Oldenbourg. München 2001.
- 60- Seidel, Grünther Carl Friedrich: die Franken und Karl der Große Berlin 1793.
- 61- Sevin, Ludwig: Geschichtliches Quellenbuch, Bd. 5, das Deutsche reich unter den Sächsischen, den Fränkischen und Hohenstaufischen Kaisern, Leibzig 1896.
- 62- Sporschil, Johann: karl der Große, sein Reich und sein Haus, Braunschweig 1846.
- 63- Stürner, wolfgang: Gebhardt Handbuch der Deutschen Geschichte, Dreizehntes Jahrhundert 1198 – 1273, Bd. 6, 10. Aufl., Klett-cotta 2001.
- 64- Tout, Thomas Frederick: The Empire and the papacy, 918 – 1273, London 1909.

65- Vollrath, Hanna: die englischen Könige im Mittelalter, München 2004.

66- Wiesflecker, Hermann: Kaiser Maximilian I. ,Das Reich, Österreich und Europa an der Wende zur Neuzeit, Bd. 2, München 1975.

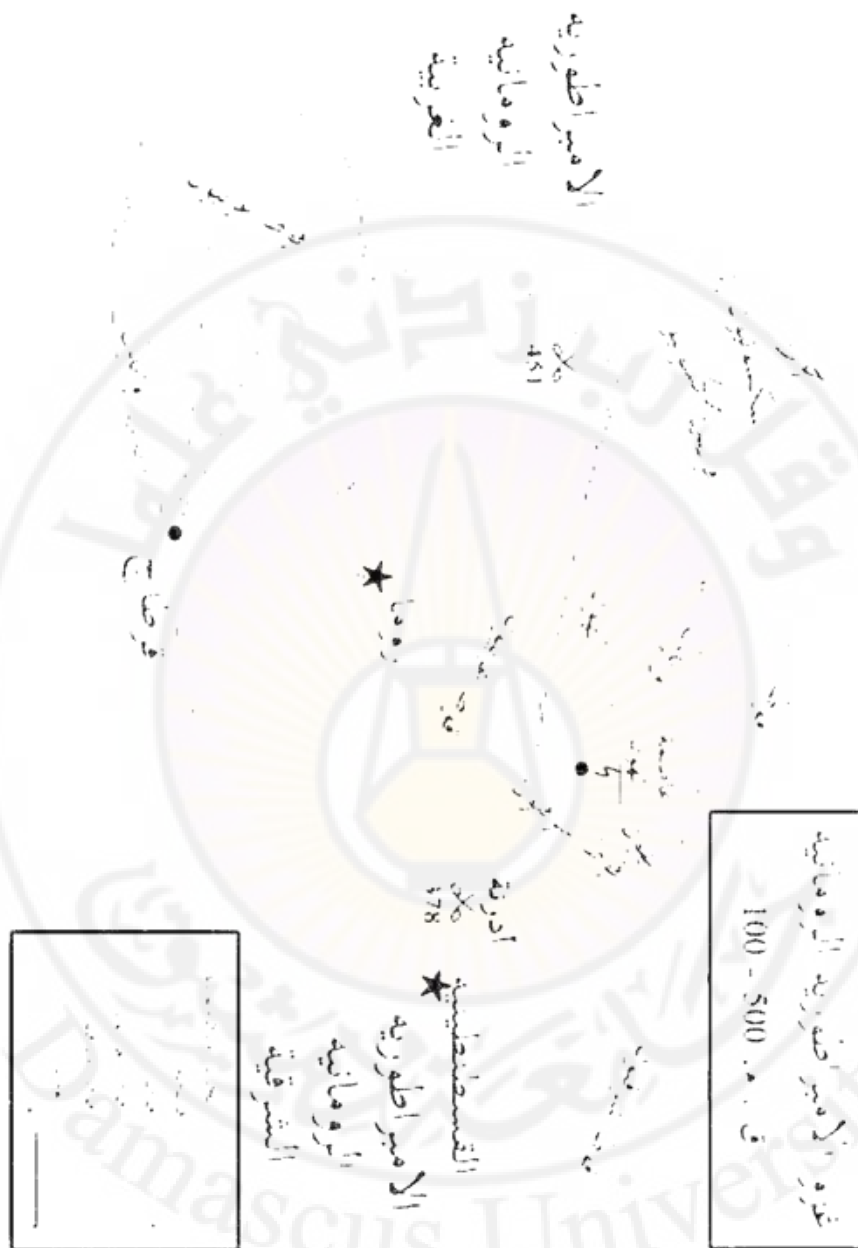
67- Wiesflecker, Hermann: Maximilian I.die Fundamente des Habsburgischen Weltreich Wien 1991.

68- Zeumer, Karl: die Goldene Bulle Kaiser Karls IV., Weimer 1908.



خرائط وصور





غزو الإمبراطورية الرومانية من قبل الهرايرة



شارلمان الكبير









تقسيم الامبراطرية الكارولنجية بموجب معاهدة فردان 843م







سير الحملات الصليبية الأربعة الأولى بالتفصيل



اللجنة العلمية:

أ. د. محمد أحمد

أ. د. أحمد الخضر

أ. م. د. حسام النايف

المدقق اللغوي:

د. أحمد الشريف

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات